

مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية

صانعو الاستراتيجيات القديمة

من الحروب الفارسية إلى سقوط روما

تصوير

أحمد ياسين

فيكتور ديفز هانسون



صانعو الاستراتيجيات القديمة

من الحروب الفارسية إلى سقوط روما

Originally published under the title: *Makers of Ancient Strategy: From the Persian Wars to the Fall of Rome*, edited and Introduced by Victor Davis Hanson.

الطبعة الأولى 2014

النسخـــة العاديـــة ISBN 978-9948-14-947-7

النسخـــة الفاخـــرة ISBN 978-9948-14-948-4

النسخـة الإلكترونية ISBN 978-9948-14-949-6

توجه جميع المراسلات إلى العنوان التالي:

مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية

ص. ب: 4567

أبوظبي ـ دولة الإمارات العربية المتحدة

هاتف: 4044541-9712+

فاكس: 4044542-9712+

E-mail: pubdis@ecssr.ae

Website: http://www.ecssr.ae



مركـــز الإمـــارات للدراســـات والبحــوث الاستــراتيجيـــة

دراسات مترجمة 68

صانعو الاستراتيجيات القديمة

من الحروب الفارسية إلى سقوط روما

تحرير: فيكتور ديفز هانسون

مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية

أنشئ مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية في 14 مارس 1994، بهدف إعداد البحوث والدراسات الأكاديمية للقضايا السياسية والاقتصادية والاجتماعية المتعلقة بدولة الإمارات العربية المتحدة ومنطقة الخليج والعالم العربي. ويسعى المركز إلى توفير الوسط الملائم لتبادل الآراء العلمية حول هذه الموضوعات؛ من خلال قيامه بنشر الكتب والبحوث وعقد المؤتمرات والندوات. كما يأمل مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية بأن يسهم بشكل فعّال في دفع العملية التنموية في دولة الإمارات العربية المتحدة.

يعمل المركز في إطار ثلاثة مجالات، هي: مجال البحوث والدراسات، ومجال إعداد الكوادر البحثية وتدريبها، ومجال خدمة المجتمع؛ وذلك من أجل تحقيق أهدافه المتمثلة في تشجيع البحث العلمي النابع من تطلعات المجتمع واحتياجاته، وتنظيم الملتقيات الفكرية، ومتابعة التطورات العلمية ودراسة انعكاساتها، وإعداد الدراسات المستقبلية، وتبني البرامج التي تدعم تطوير الكوادر البحثية المواطنة، والاهتمام بجمع البيانات والمعلومات وتوثيقها وتخزينها وتحليلها بالطرق العلمية الحديثة، والتعاون مع أجهزة الدولة ومؤسساتها المختلفة في مجالات الدراسات والبحوث العلمية.

المحتويات

مقدمة

صانعو الاستراتيجيات

فيكتور ديفز هانسون

ظهر كتاب **صانعو الاستراتيجيات الحديثة: من مكيافيللي حتى العصر النووي**، الذي تولى تحريره بيتر باريت، كمجلد من 941 صفحة، ويضم 28 بحثاً تناولت موضوعات وقضايا ارتبطت بحقبة امتدت ما بين القرن السادس عشر حتى ثمانينيات القرن العشرين. وعندما نشرت مطبعة جامعة برنستون ذلك العمل في عام 1986، كانت الحرب الباردة وقتئذٍ تقترب من خاتمتها. إن الدراسات المستفيضة التي اشتمل عليها كتاب باريت نفسه، تمثل تحديثاً وتوسيعاً للدراسات الواردة في الكتاب الافتتاحي التالي الذي نشرته المطبعة نفسها تحت عنوان: **صانعو الاستراتيجيات الحديثة: الفكر العسكري من مكيافيللي حتى هتلر**، والذي أشرف على تحريره إدوارد إيرل. وهذا الكتاب الأصغر حجماً، والأسبق عهداً، كان قد صدر قبل نشر الكتاب الثاني [لعام 1986 أعلاه] بأكثر من أربعين عاماً؛ أي في عام 1943، عندما كانت رحى الحرب العالمية الثانية لاتزال دائرة. وقد سلط هذا الكتاب الضوء على شخوص المنظّرين والقادة العسكريين فرادى؛ ومن هنا جاء الطابع الشخصي لعنوانه: "صانعو الاستراتيجيات".

وعلى الرغم من أن الفكرة الرئيسية لكلا الكتابين تقوم على صلة أحداث الماضي بتحديات الحاضر العسكرية، فإن الكتاب المكمِّل الصادر عام 1986 يبحث الهموم والمشاغل الأمريكية تحديداً بشكل أوسع. ولم تتناول فصوله أشخاصاً بعينهم بقدر ما تناولت موضوعات استراتيجية أوسع نطاقاً، وحقباً تاريخية أطول. ومع أن محرري الكتابين، والباحثين الذين أسهموا فيهما، لم يعقدوا عن قصد أي صلة بين دراساتهم ومحن

زمانهم وتجاربه المؤلمة، فلم يكن هناك مفر من ظهور شبح الحرب العالمية الثانية والحرب الباردة كخلفية لهذه الدراسات. وقد حذر الكتابان من الافتراض بأن التغيرات الجذرية التي طرأت على عملية صناعة الحرب، وقت صدور كل منهما، إنما هي مؤشرات إلى تغير طبيعة الصراع أيضاً. وعلى العكس من ذلك، فإن هذين الكتابين يذكّران بأن تاريخ الماضي القريب والبعيد، يتعامل مع الهموم والمخاطر ذاتها الموجودة في حاضرنا شديد الاضطراب. إن دراسة التاريخ العسكري تقدم لنا دروساً تصلح لمعالجة المآزق والمعضلات العصرية بشكل مثير للدهشة، برغم أنها ربما تكون مجهولة أو طواها النسيان. ولعل الحال نفسها تصح، حين تضلل التقنيات، التي تتطور بشكل جذري، كثيرين منا؛ فتدفعهم إلى الاعتقاد بأن الحرب ذاتها يعاد "اختراعها" بأدوات مبتكرة لكل عصر من العصور.

لماذا العالم القديم؟

في ما يمكن أن يُعد إنتاجاً جديداً للعملين السابقين المشار إليهما آنفاً، فإن كتابنا هذا، المعنون بـ**"صانعو الاستراتيجيات القديمة"**، كثير الشبه من حيث المقاربة التي انتهجها (فضلاً عن صغر حجمه) بالمجلد الذي نُشر عام 1943، لمحرره إدوارد إيرل. فكتابنا، يركز في الغالب، وعبر أبحاثه العشرة، على قادة ومخططين استراتيجيين وجنرالات من أمثال زركسيس الأول Xerxes، وبيركليس Pericles، وإيبامنونداس Epaminondas، والإسكندر الأكبر، وسبارتاكوس Spartacus، وقيصر. وبهذا، فقد اتسعت الحدود التاريخية في هذا الكتاب في اتجاه يعود إلى الوراء لتضم أيضاً ألف سنة (عام 500 قبل الميلاد إلى عام 500 بعد الميلاد)؛ أي حتى إمبراطورية روما المتأخرة التي تمثل أحدث معالم الكتاب، أي قبل ما لا يقل عن 1500 سنة من يومنا هذا. وإذ هو يعد نقطة انطلاق معاصرة، فإن هذا العمل الثالث من صانعي الاستراتيجيات لم يظهر خلال الجيل الثاني مما يسمى "الحرب الصناعية" (كحال إصدار عام 1943)، ولا خلال الجيل الثالث من

الأسلحة ذات تقنيات الدقة العالية في العصر النووي (كحال إصدار عام 1986) فحسب، وإنما في أثناء ما يعرف بـ "الجيل الرابع للحروب". وكان القرن العشرون الفائت قد أذن بحلول عهد مربك اتسم بوسائل الاتصالات المعولمة فائقة السرعة، والأساليب والتكتيكات غير النظامية، والمظاهر الجديدة للإرهاب، بالإضافة إلى تقنيات الحرب، مثل الطائرات دون طيّار، ونظّارات الرؤية الليلية، والمعدات المتطورة لحماية الجسم، ومنظومات الأسلحة التي يجري توجيهها بواسطة الحاسوب، والتي تم تركيبها وتخزينها ونشرها ابتداءً من تحت الأرض وحتى الفضاء الخارجي. ومع ذلك، فإن المؤلفات الثلاثة جميعها ترتكز على الفكرة الأساسية ذاتها: أن دراسة التاريخ، وليس فهم الإنجازات والإبداعات التكنولوجية الحديثة، تبقى هي المرشد الأفضل لإدراك طبيعة الحرب العصرية وجوهرها.

وفي الوقت الذي تصبح فيه الحدود الرسمية الفاصلة بين الحرب التقليدية والإرهاب غير واضحة، وبينما تسرّع المعدات التكنولوجية المتطورة وتيرة الصراعات ومخاطرها، فيمكن القول إن الحرب ذاتها قد أعيد تشكيلها لتصبح شيئاً آخر لم تشهد الأجيال السابقة له مثيلاً. ومثلما أن العهود السابقة لم تكن معرّضة للبيانات التي ينشرها الإرهابيون عبر شبكة الإنترنت، كما هي الحال الآن بالنسبة إلى مئات الملايين من المشاهدين، فسوف يتعين علينا الآن - كما نفترض - أن نضع في حسابنا مبادئ ومفاهيم جديدة للتصدي لمثل هذه الأساليب وتحييدها. ولكن، وكما تظهر البحوث العشرة في الكتاب، فإن الطبيعة البشرية التي تثير الصراعات وتوجهها، تبقى ثابتة لا تتغير. وما دامت الحرب تدار اليوم (وستدار دوماً مستقبلاً) من قبل الإنسان - ذكراً كان أم أنثى - الذي يطغى الطابع العاطفي على أحكامه (وردات فعله) بطرق متوقعة إلى حد ما، فإن بالإمكان التنبؤ بأن الحرب واقعة دائماً.

وهذا الكتاب لا يذكّرنا فقط بأن الأشياء كلما ازدادت تغيراً، فإنها تتجه أكثر إلى البقاء على ما هي عليه، بل إنه يسعى أيضاً إلى إقامة الدليل على أن عالميّ اليونان وروما القديمين

يسهمان بشكل فريد من نوعه في مساعدتنا على فهم حروب أي عصر. وهنا تجدر الإشارة إلى أن أبحاث المؤرخين والمراقبين القدامى ودراساتهم كانت من النوع التجريبي القائم على الملاحظة والاختبار؛ فهم غالباً ما كانوا يدوّنون ما يرون ويعتقدون، دون إحساس بالقلق حيال الرأي العام المعاصر لهم، ولا إن كانت فرضياتهم وأحكامهم مخالفة للنظريات أو الاتجاهات الفكرية السائدة. ومن ثمّ، فقد شاعت يومئذٍ نزاهة الفكر ووضوح التعبير، اللذان لا يتوافران بالضرورة في الأبحاث والدراسات العسكرية في عصرنا هذا. وصرنا أيضاً نعرف كثيراً عن حروب العالم الغربي القديم.

ويميل الكتّاب اليونانيون والرومانيون، الذين أسسوا لعلم التاريخ، إلى تعريفه غالباً بأنه علم دراسة الحرب، كأعمال هيرودوت، وثوكيديدس Thucydides، وزينوفون Xenophon، وبوليبيوس Polybius، وليفي Levy. ومع ضياع قدر كبير من التاريخ القديم، فإن ما بقي منه يعد كافياً لتقديم كشف تام، إلى حد ما، عن ألف عام من الحروب في العالمين اليوناني والروماني. ونحن بالتأكيد نعرف عن معركتي ديليون Delion (424 قبل الميلاد)، أو أدريانوبل Adrianople (378 بعد الميلاد) أكثر بكثير مما نعرفه عن معركة بواتييه Poitiers (732 بعد الميلاد) أو معركة آشداون Ashdown (871 بعد الميلاد). أضف إلى ذلك، أن تجربتي اليونان وروما تشكلان أيضاً الإرث المشترك لأوروبا والولايات المتحدة الأمريكية الحديثتين؛ وينطبق هذا بدرجة أقل على التاريخ القديم لكل من إفريقيا والأمريكتين وآسيا. وبهذا المعنى، فإن معضلات الغرب في القرنين التاسع عشر والعشرين، كالاتحاد، والحروب الأهلية، والتوسع الخارجي، والاستعمار، وبناء الدولة، ومحاربة التمرد، تجد لنفسها سوابق واضحة وموثقة بشكل جيد في الثقافتين اليونانية والرومانية.

ويستشرف كتاب **"صانعو الاستراتيجيات القديمة"** هذا، نماذج إرثنا وشواهده القديمة بغية صياغة أسئلة تدور حول المظاهر الحديثة لحروب الغرب. وكان اليونانيون

أول من حاولوا البرهنة على ثبات الطبيعة البشرية. وكما تنبأ المؤرخ ثوكيديدس، فقد كانوا مقتنعين بأن تاريخ تجاربهم سيظل وثيق الصلة بالأجيال اللاحقة، بل حتى بجيل ما بعد الحداثة في الألفية الجديدة.

الأوراق البحثية

تم حث المشاركين في هذا الكتاب على صياغة موضوع قريب الصلة بالاهتمامات البحثية لكل منهم، بدلاً من إعداد بحث عن الأفكار والمواقف الراهنة التي يعرضها أكاديميون آخرون. وعموماً، فإن القارئ سيجد في كل فصل من فصول الكتاب مقدمة ترسم ملامح المشهد التاريخي لحقبة بعينها واللاعبين الرئيسيين فيه، يعقبها تحليل، سواء لمن ارتبط اسمه بهذا المشهد من صانعي الاستراتيجيات القدامى، رجل دولة أو جنرال أو منظّر، أو للاستراتيجية ذاتها. ويقدم من ثمّ تقييماً له، أو لها، من حيث النجاح أو الفشل. وبعد ذلك، يتسع نطاق المناقشة لتدرس صلة الاستراتيجية موضوع البحث بالحروب اللاحقة، وخاصة صراعات العصر الراهن.

وقد تتابعت الفصول العشرة وفقاً لجدول جرى ترتيبه زمنياً نوعاً ما؛ ابتداءً بالحروب اليونانية – الفارسية، مطلع القرن الخامس قبل الميلاد (490، و480–479)، حتى آخر معارك الدفاع عن حدود الإمبراطورية الرومانية (نحو 450–500 بعد الميلاد). ولعل ما يلفت النظر هنا هو أن تلك الحقبة الزمنية تمثل عصر إمبراطوريات. إن اتساع نطاق القوة العسكرية خارجياً، والتي تتسع معه غالباً الهيمنة السياسية على الدول الأضعف، يقترن عادة بتبريرات ذاتية رسمية. ولكي يضعنا في صورة هذه الإمبراطوريات والتبريرات، يركز توم هولاند في الفصل الأول على أول صدام حضارات كبير بين الشرق والغرب، والذي تجسَّد في المحاولات التي بذلها الفرس أوائل القرن الخامس قبل الميلاد للاستيلاء على دويلات المدن اليونانية، وضمها إلى إمبراطوريتهم المتنامية، التي كانت ستزداد اتساعاً حتى أوروبا عبر بحر إيجة. وكما يبين لنا هولاند، فإن القوى

الإمبراطورية تسعى إلى تأسيس أساطير كاملة عن أخلاقية الغزو، وضـرورته، وحتميتـه. وما يذكرونه من روايات وقصص له أهمية بالنسبة إلى التخطيط العسكري كأهمية المقاتلين والمعدات في ميدان المعركة. وفي هذا الشأن، يجادل هولاند بـأن جهـوداً كهـذه تعـد ركنـاً أساسياً من أركان طبيعة النفس البشـرية المتأصلة، ولا تخضع لمحددات ثقافية. والحملات الدعائية الإمبراطورية لم تشق طريقها إلى السيكولوجيا الغربيـة فقـط مـن خـلال صـعود إمبراطورية أثينا، أو استحواذ روما على البحر الأبيض المتوسط. وعوضاً عـن ذلـك، فـإن الإمبريالية وتناقضاتها كانت قد ظهرت للوجود قبل ذلك، عندما كان الطلاب اليونـانيون يتلقون دروسـاً عـن الطموحـات الإمبرياليـة للفـرس الـذين كـانوا سيـصبحون أسـياداً ومرشدين لهم.

غير أن هزيمة الإمبراطورية الفارسية أوائل القرن الخامس قبل الميلاد مهدت الطريق أمام نشوء الإمبراطورية الأثينية. ونحن اليوم نفترض أن "الإمبراطورية" مصطلح ينطوي على مفهوم عدواني تماماً؛ فهو يرتبط في أذهاننا بالقهر والإكراه، وبمظاهر الاستغلال التـي شاعت إبّان القرن التاسع عشـر، والتي نعتـبر أن القـوى الحاكمـة نفـسها لـن تـسعى إلى تكريسها وإدامتها في آخر المطاف. ولكن، وكما يبين لنا دونالد كاجان في الفصل الثاني مـن الكتاب، فإن أشخاصاً أفذاذاً يمكن من حـين إلى آخـر أن يحـدثوا التـأثير المطلـوب؛ فهـو يسلط الضوء هنا على المكانة المرموقة التي شغلها بيركليس عـلى مـدى 32 عامـاً في الحيـاة الـسياسية في أثينـا، وعـلى تفهـم المـؤرخ ثوكيديـدس الـذي عاصـــره لتميـزه وتفـرده. والإمبراطورية ككيان، وخاصة من النمط الأثيني، ليس مقيضاً لها الانهيار في حـال تفهـم قادة معتدلين وجادين، مثل بيركليس، دورها وتأثيرها. وعلى مدى بضعة عقـود، تمكنـت أثينا تحت قيادتـه مـن حمايـة المـدن–الـدول city-states اليونانيـة مـن عمليـات الفـرس الانتقامية؛ فعملت جاهدة على الحفاظ على السلم العام، ومقاومة مظـاهر جنـون العظمـة الإمبراطورية، وتعزيز النمو الاقتصادي من خلال تأسيس نظام تجاري موحد ومتكامـل. إن نجاح بيركليس، وإخفاق مـن أعقبـه في الـسلطة، يمـثلان رسـالتي تـذكير في الوقـت

المناسب مفادهما: أن السلطة الإمبراطورية ستلقى الدعم والإسناد بقدر سعيها لتعزيز المصالح العامة المقبولة بشكل عام. أما إن هي تحولت إلى أداة لـ "تضخيم" الذات ليس إلا، فمن المحتم أنها "ستنفجر" في آخر الأمر.

وكانت القدرات المادية التي وفرتها التحصينات الدفاعية قد ساعدت الإمبراطورية الأثينية على إدامة تفوقها العسكري طوال قيامها بذلك. وفي عصر الاتصالات المتطورة والمعدات والذخائر الجوية، الذي نعيشه اليوم، فلعلنا سنضع تلك التحصينات القديمة في عداد بقايا الماضي العسكري، إن لم تكن فائدتها على الصعيد العسكري موضع شك دائم. بيد أننا صرنا نرى ظهورها من جديد على نحو متزايد - برغم أنها غالباً ما تستكمل بتعزيزات إلكترونية جديدة - في الشرق الأوسط، وفي العراق، وعلى امتداد الحدود الأمريكية-المكسيكية. فكثيراً ما أسهمت الأسوار والحصون التي أقيمت مؤخراً في تقوية التحصينات الدفاعية على المستوى المحلي، وذلك في الحالات التي تفشل فيها عادة الأساليب والوسائل التي تبدو أكثر تطوراً وتعقيداً. يتتبع ديفيد بيركي، في الفصل الثالث، أثر تطور عملية بناء أسوار أثينا عبر قرن من الزمن؛ ابتداءً بالتحصينات الدائرية الأولية التي أحاطت المدينة بحدودها الأساسية، مروراً بـ"الأسوار الطويلة" Long Walls التي امتدت لمسافة ستة كيلومترات ونصف الكيلومتر من أثينا حتى ميناء بيريوس Piraeus، وانتهاءً بالجهود التي بذلت خلال القرن الرابع قبل الميلاد لحماية المناطق الريفية لمنطقة أتيكا Attica اليونانية من خلال إقامة شبكة من التحصينات الحدودية. وعلى امتداد أكثر من مئة عام من السياسات الدفاعية التي انتهجتها أثينا، فإن سلسلة المشروعات هذه تعكس تنفيذ أجندات اقتصادية وسياسية وعسكرية مختلفة. ومع ذلك، فإنها - بحسب بيركي - أدت دوراً نافعاً مشتركاً في حماية أثينا من أعدائها، وقدمت دعماً أيديولوجياً مضافاً لمفهومي "الإمبراطورية" و"الديمقراطية". وإذا كان رجال الدولة والسياسات

والتكنولوجيا، معرضين للتغير، فإن التحصينات الدفاعية - أياً كان شكلها – ما برحت تشكل سمة ثابتة منذ القدم لمواجهة التحديات على الصعيدين الهجومي والدفاعي، على حد سواء.

وفي عالم ما بعد [حرب] العراق، صار يُنظر مؤخراً إلى العمليات الاستباقية، ومشروعات الدمقرطة التي تُفرض قسراً، والنزوع إلى الأحادية، على أنها إما أفكار أمريكية بامتياز، أو مفاهيم ضارة بحكم طبيعتها ذاتها، كما أنها ليست سوى "وصفات" لا تجلب على الأطراف المعنية جميعاً غير العجز والبؤس. وفي واقع الأمر، فإن هذه الأفكار بدأت تراود الناس منذ فجر الحضارة الغربية، وأثبتت فاعليتها، برغم أنها اقترنت في الوقت نفسه بالتشكيك في فائدتها. ومن هنا، فإنني في الفصل الرابع أوجه جلَّ اهتمامي للحملة الاستباقية الغامضة بعض الشيء التي قام بها قائد طيبة إيبامنونداس لغزو إقليم بيلوبونيز Peloponnese (370–369 قبل الميلاد) [بيلوبونيز هو اسم شبه الجزيرة التي تؤلف الجزء الجنوبي من بلاد اليونان]. وفي نظر قدامى الإغريق أنفسهم، فإن هذا القائد يعد الأكثر تأثيراً وإثارة للإعجاب الذي أنجبته بلاد الإغريق وروما، كما يمثل على الصعيد الأخلاقي أنموذجاً يختلف كثيراً عن الإسكندر الأكبر أو يوليوس قيصر. وقبل أن يفارق الحياة عام 362 قبل الميلاد، كان إيبامنونداس قد أضعف كثيراً قدرة إسبارطة على بسط هيمنتها الاستبدادية، وقاد طيبة إلى مكانة رفيعة جديدة. فهو قد أقام معاقل وقلاعاً جديدة، وحرر عشرات الآلاف من عبيد إسبارطة من أبناء ميسينيا Messenia، وأحدث تغييراً بارزاً في ثقافة الإغريق السياسية ذاتها حين آزر عملية إقامة نظم الحكم الديمقراطية في المدن–الدول اليونانية. أما كيف أمكنه إنجاز كل هذا – نجاحاً وإخفاقاً – وما الذي دفعه إليه، فهذه أسئلة ما انفكت تذكّرنا بأن ما نشهده من أحداث في الشرق الأوسط المعاصر قد لا تعد فريدة من نوعها. فما يحدث في أفغانستان والعراق ليس هو أول، أو آخر، ما سنراه من ظواهر "المثالية الميسيانية أو مثالية الماشيح" messianic idealism، القائمة على مفهوم "المخلص

المنتظر" المقترنة بالقوة العسكرية، والتي باتت في مجملها تشكل جزءاً من مجمل هموم هذه الدولة أو تلك المتعلقة بضمان أمنها القومي ومصالحها الطويلة الأجل.

وفي العالم القديم، غالباً ما يتحول كبار القادة إلى رموز عامة عظيمة، تسهم وإن قسراً في تغيير المشهد السياسي الأوسع نطاقاً، سواء قبل تنفيذ عملياتهم الحربية أو في أعقابها. فما كتب عن الإسكندر الأكبر يفوق، إلى حد بعيد، ما كتب عن أي قائد آخر من قادة العصور الكلاسيكية القديمة. يستعرض إيان وورثنجتون في الفصل الخامس، مساعي الإسكندر لإقامة إمبراطورية آسيوية، والمصاعب التي واجهها في إدارة بلاد فارس التي فتحها باستخدام الموارد والقدرات المقدونية الآخذة في الانكماش. والكاتب يسرد رواية تحذيرية (تأتي في أوانها المناسب) مأخوذة من الماضي، تتحدث عن السهولة الخادعة التي اتسمت بها العملية العسكرية التي قادها الغرب لدحر قوات العدو التقليدية الأقل مرتبة، والتي سرعان ما تحولت - أي هذه القوات - إلى مراكز غير نظامية للمقاومة القوية الصعبة المراس، بل إن عباقرة القادة العسكريين قد أدركوا أن مهمة ترسيخ ما أُنجز بدهاء وبراعة في ميدان المعركة أصعب بكثير من مهمة تحقيقه أصلاً. وقد اكتشف الإسكندر أن من الضروري مراعاة الحساسيات والفوارق الثقافية بغية كسب قلوب أبناء فارس وعقولهم بعد هزيمتهم. ومع ذلك، وبصفته مبعوثاً للحضارة الإغريقية (الهيلينية)، فإن أهداف الإسكندر في فرض ما اعتقد أنها ثقافة أرفع منزلة يمكنه من خلالها توحيد الشعوب المهزومة وتحريرها من الجهل والتخلف، كان لها آثار معاكسة على جهوده ومحاولاته البراغماتية الرامية لاستمالة سكان البلاد المحليين إلى صفه.

لقد شهد القرن العشرون تعاظم منزلة مؤسسات عسكرية تقليدية تبنت الطابع الغربي بأبعد حدوده. وقد أضفت عليها تقنياتها وتجهيزاتها المتطورة ونظمها المؤسسية مزايا باتت متأصلة فيها مقارنة بمعظم المؤسسات العسكرية الأخرى. ولكن متى ما تحدد نطاق العمليات القتالية بتضاريس المراكز الحضرية المكتظة بسكانها، ومتى ما خضعت لتأثير

أيديولوجيات وارتباطات قبلية بدلاً من المصالح الحيوية للدول القومية، ومتى ما جرّت المدنيين إلى ميادين القتال، فإن النتيجة ستكون غامضة في أفضل حالاتها. ففي الفصل السادس من الكتاب، يسعى جون لي إلى إثبات أن ما من جديد أيضاً يتعلق بالصراعات الحضرية المعاصرة، أو بالمشكلات التي تثيرها في وجه قوات المشاة التقليدية. ففي اليونان القديمة، كان المنظرون والقادة العسكريون، على حد سواء، قد أولوا اهتماماً شديداً للتحديات ذاتها التي تمثلت في: الحصول على معلومات استخبارية محلية دقيقة، وكسب قلوب المدنيين وعقولهم، وصوغ الطرق والأساليب المناسبة لاستخدامها داخل أوساط سكان المناطق الحضرية المكتظة، متى ما انتقل القتال من ميدان المعركة إلى المناطق الداخلية للمدينة. وفي العالم الإغريقي القديم، كثيراً ما تطلبت أساليب القتال الناجحة في المناطق الحضرية تغييراً جذرياً في الفكر العسكري التقليدي المسلم به، كما تفعل تحديات اليوم المتمثلة في الإرهاب، والتمرد، والعنف الطائفي، ابتداءً بغزة، وانتهاءً بالفلوجة.

ومرة أخرى، ليس هناك جديد حقاً في طبيعة الطرق التي تتبعها الدول الإمبراطورية القوية حفاظاً على السلم ما بين شتى الشعوب الخاضعة لها والبقاع والمناطق التابعة لها، على اختلافها. وتعكف سوزان ماتيرن في سابع فصول الكتاب على تحليل الأساليب المتنوعة التي وظفتها روما لتحول دون تشرذم أركان إمبراطوريتها المتعددة الثقافات والمختلفة الأعراق، وللتعامل من خلالها مع حركات العصيان والتمرد، والعمليات الإرهابية، والانتفاضات الوطنية، والتي باتت تندلع بشكل متتالٍ. إن ما جعل هذه الأحداث نادرة نسبياً خلال نصف الألفية الأول من عمر الإمبراطورية، والسبب الذي غالباً ما يدفع إلى إخمادها، ليس مرهوناً فقط بتفوق قدرات الجيش الروماني، أو بتضلعه في معالجة أساليب حركات التمرد والعصيان وتكتيكاتها. فما يتسم بالدرجة ذاتها من الأهمية هو تلك التشكيلة من الآليات المضللة التي تمارس في الخفاء بغية "كسب قلوب وعقول" السكان المحليين، أو تحييدهم. ولعل ما أقنع القسم الأعظم من القبائل، بأن وقوفها في صف روما – وليس مناهضتها – سيعود عليها بمنافع أكبر، هو ذلك المزيج من

الامتيازات المتمثلة في المعونات المادية السخية، ومنح الجنسية الرومانية، وتوفير فرص التعليم، والمساواة في تطبيق القوانين الموحدة، ودمج السكان واستيعابهم كمواطنين أصليين في الحياة والثقافة الرومانيتين.

إن العمليات الإرهابية، وحركات التمرد والعصيان، والانتفاضات العرقية أو الدينية، غالباً ما تثير دهشة الدولة-القومية العصرية وحيرتها. ومن المؤكد أن قواتها التقليدية تبدو غير مؤهلة لخوض عمليات قتالية في أراضٍ وتضاريس وعرة، أو القضاء بشكل مبرم على مقاتلين غير تقليديين وسط تجمعات سكانية متعاطفة معهم. ولكن المعضلة كثيراً ما تتخذ شكل طريق ذات اتجاهين؛ ففي الفصل الثامن، يسلط باري شتراوس الضوء على ثورات العبيد في العصور القديمة، خاصة حركة التمرد الشهيرة التي قادها سبارتاكوس ضد الدولة الرومانية في القرن الأول قبل الميلاد، كي يثبت أن المشكلات يمكن أن تزداد سوءاً بالنسبة إلى أولئك الذين يتحدون سلطة الدولة. وفي حال تخطت أهداف المتمردين حدود إشاعة الرعب والتمثيل بجثث القتلى، لتشمل اجتياز أراضٍ سهلة بشكل جماعي، أو الفوز بقلوب السكان المحليين وعقولهم، أو حتى شق طريق لهم عبر مساحات واسعة من الأراضي التي أمكن احتلالها أو تأمينها بصورة دائمة، فلابد من أنهم في مرحلة من المراحل سيقفون على قدم المساواة في مواجهة قوات الدولة على صعيد الحرب التقليدية. ومع ذلك، وعلى الرغم من التعاطف الروماني الذي نكنه لسبارتاكوس، فإن ما مكّن الفيالق الرومانية من سحق ثورته هو الانضباط العسكري الذي تتميز به، وإمداداتها وقدراتها القيادية. ولابد من القول أيضاً إن دعوته لتحرير العبيد بصورة جماعية لم تلق صدى سياسياً حقيقياً لدى الإيطاليين تنافس به جاذبية الدولة الرومانية على المستوى الشعبي. ومع أننا ربما نعيش اليوم عصراً تسوده ظاهرتا الإرهاب والتمرد على نحو ملتبس، فإننا غالباً ما ننسى أن كفة الدولة-القومية لاتزال هي الراجحة على المستوى العسكري، لاسيما حين تنشب الحرب داخل حدودها.

وما انفكت النظم الديمقراطية والجمهورية الغربية يساورها القلق حيال عودة ظاهرة القائد العظيم الذي يُضرب به المثل؛ ولم لا وأمامنا سوابق شهيرة تتحدث عما قدمه الإسكندر الأكبر، ويوليوس قيصر، ونابليون، كل لمجتمعه الذي يتميز بانسجام مكوناته وتوافقها. وبدقة فائقة، يعرض علينا أدريان جولدزورثي في الفصل التاسع من الكتاب كيف استطاع قيصر، عبر غزوه بلاد الغال، ارتقاء سلم السلطة سريعاً، عندما تفوق، حيلة ودهاءً وقوة، على منافسيه الأكثر حنكة والأوسع تجربة ونفوذاً. والدرس الذي يستخلصه الكاتب هو أن استخدام القوة العسكرية في الخارج، ستكون له حتماً انعكاسات سياسية في الداخل، ويمكن أن يتحول إلى خطر يتهدد مجتمعات النظم الجمهورية التي تنشر جيوشاً أكثر تفوقاً وتطوراً، مثلما يتهدد الأعداء الذين يندحرون أمامها. وفي كل مناسبة تربط فيها عامة المواطنين انتصاراً يتحقق في الخارج بالعبقرية الشخصية لقائد كاريزمي، فمن المرجح أنه حتى في النظم الدستورية ستحدث هناك مضاعفات داخل البلاد حين تتحول شعبية هذا القائد إلى رأسمال ونفوذ سياسيين.

ويمكن القول إجمالاً إن الإمبراطورية الرومانية، من حيث بنيتها، وصمودها بوجه الهجمات الخارجية والانتفاضات الداخلية، وما توالى عليها من قادة وجنرالات، غالباً ما قدمت سجلاً تاريخياً موجزاً لألف سنة من الفكر الاستراتيجي الذي تناوله هذا الكتاب بالبحث والتقصي. وقد يسأل سائل: ما الذي تسبب، بالمفهوم العسكري، في سقوط روما أواخر القرن الخامس؟ وهنا اختلف كثيرون حول ما إذا كانت القدرات الدفاعية الحدودية قد اتبعت نهج الاستقرار والسكون، أم أنها كانت أكثر اقتحامية ونشاطاً مما ينبغي؛ وحول ما إذا كانت مثل هذه السياسات الدفاعية حكيمة أم خاطئة. يرى بيتر هيذر في الفصل العاشر أننا في الوقت الذي نحسب فيه أحياناً أن قوات روما الإمبراطورية تتستر خلف ما توافر لها من حصون وأسوار وعوائق طبيعية، فهي ربما كانت في اتباعها للأعراف العسكرية السائدة قد جازفت باقتحام أراضي العدو استباقاً لأي عمليات غزو خارجية محتملة وإجهاضاً لها. وهو يذكّرنا أيضاً أن من كانت الإمبراطورية تصفهم بـ"البرابرة" المقيمين عند حدود روما

قد باتوا أكثر حنكة وتمرساً، وتعززت وحدة صفوفهم، وصاروا يرقبون بحماسة ودقة كبيرتين الأساليب التي تعتمدها روما في بناء جيوشها وقواتها وتمويلها، ليسهل عليهم، من ثمّ، الالتفاف عليها وتضليلها. والنتيجة هي ما تعلمناه ليس عن مدى تطور القدرات الدفاعية الحدودية الرومانية فحسب، بل أيضاً عما بلغته حقاً جيوش أقل تحضراً من كفاءة وقدرة. وباختصار، فإن التطور المتحقق في الجانب العسكري قد لا يصح دائماً تقييمه وفقاً لأعرافنا ومفاهيمنا الثقافية، كما أن الدول الغربية يمكن أن تتكبد من الخسائر، على يد أعداء يتميزون بسعة الحيلة والمهارة، مثل ما يمكن أن تتكبده نتيجة للأخطاء التي ترتكبها، وجراء تدهور قدراتها بشكل متواصل.

وبما أنهم مؤرخون للعصور القديمة، فإن المشاركين في تأليف هذا الكتاب ربما أفزعتهم ضآلة مقدار ما تعلمه صانعو الاستراتيجيات والخطط الحربية الحديثة من دروس الماضي الغابر، وكثرة إهمالهم لها. ومع ذلك، وانطلاقاً من جوهر الإصدارين السابقين من "صانعو الاستراتيجيات" واتجاهاتهم الفكرية، فقد تفادينا هنا فرض توصيفات وسمات أيديولوجية صريحة ذات طبيعة سياسية معاصرة.

أعباء الماضي

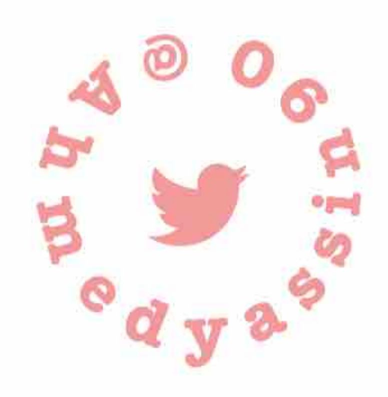
لم يكتب البقاء من أيام العصور القديمة إلا لبضع عقائد استراتيجية رسمية؛ فلم يعمد أي فريق من المؤرخين العسكريين إلى كتابة دراسات نظرية منهجية عن التوظيف السليم للقوة العسكرية تعزيزاً لأهداف وغايات سياسية. وعلى الرغم من توافر أبحاث تكتيكية حول كيفية حماية المدن المحاصرة، والدور المناسب الذي يمكن أن يؤديه قائد سلاح الفرسان، وطرق تنظيم كتيبة مقدونية أو فيلق روماني ونشرهما، فإن ما يغيب هنا هو الأعمال الواضحة المحددة التي تتناول شتى سبل تسخير القوات والقدرات الوطنية لأغراض ومقاصد استراتيجية. كما أنه لا أحد من القادة العسكريين العظام كتب يوميات يحدد فيها الخطوط العريضة لعقيدة استراتيجية أو نظرية عسكرية بالمعنى المطلق لها.

وقد كان المؤرخ ثوكيديدس هو من قدم لنا شرحاً عن فكر بيركليس الاستراتيجي، وليس بيركليس نفسه. وما تعلمناه عن هجوم إيبامنونداس الاستباقي على إقليم بيلوبونيز إنما جاءنا على لسان ما قاله آخرون عن هذا الهجوم، وليس ما قاله هو أو رفاقه المقربون منه. وقد كانت تعليقات قيصر تدور حول "كيفية" غزوه لمعظم أراضي أوروبا الغربية، وليس حول "الأسباب" التي تجعل غزوها يعود بالنفع على روما، أو حول تكلفة ضم هذه الأراضي، وفوائده، والتحديات التي ستتمخض عنه مستقبلاً. ومع أن المؤرخين القدامى قد دونوا، وفق ترتيب زمني، كلاً من التحركات البارعة التي قام بها الإسكندر في غزوه لبلاد فارس، والتحديات التي أثارها لاحقاً احتلاله لها، فلا الإسكندر نفسه ولا معاونوه، حرصوا على تدوين هذه المآزق بصورة موجزة. ولم يكن الضباط الإغريق من أتاح لنا تكوين فكرة جيدة عن كيفية تعامل القادة العسكريين الإغريق والرومان مع حركات التمرد والعصيان، وحروب المدن، والدفاعات الحدودية؛ وإنما هم المؤرخون الكلاسيكيون، والرُقم والمدونات القديمة، والاكتشافات الأثرية، من بيَّن ذلك. وبمعنى آخر، وخلافاً لصانعي الاستراتيجيات الحديثة، فإن صانعي الاستراتيجيات القديمة لم يكونوا مفكرين تجريديين، مثل مكيافيللي أو كلاوزفيتس Clausewitz أو ديلبروك Delbrück؛ ولا حتى جنرالات ارتكزت كتاباتهم على ما فعلوه وما اعتزموا فعله، كنابليون أو شليفن Schlieffen.

وقد انطوت النتيجة على أمرين: أولاً، أن الاستراتيجية في العالم القديم غالباً ما كان يتم التعبير عنها ضمناً، وليس صراحة. فالمؤرخ العسكري القديم كان يواجه في التعبير عن الفكر الاستراتيجي وإيصاله صعوبة أكبر من تلك التي يواجهها نظيره المعاصر؛ ومن ثم، فمن المؤكد أن الاستنتاجات التي يخرج بها أكثر عرضة للتشكيك والطعن.

ثانياً، ونتيجة لهذه الصعوبة في الدراسات الكلاسيكية وكثرة تجاهلها، فإن الاستنتاجات التي تخلص إليها غالباً ما تأتي غير مألوفة إلى حد بعيد. وعلى سبيل المثال،

فنحن في متناولنا اليوم آلاف الكتب التي تتناول الاستراتيجيات التي انتهجها نابليون أو هتلر؛ غير أننا لم نحظ إلا ببضع عشرات من تلك التي تتقصى الفكر الاستراتيجي للإسكندر وقيصر. وإذا كانت هناك عشرات الدراسات المستفيضة عن الاستراتيجية الكبرى لجورج مارشال George Marshall أو شارل ديجول، فما من دراسة تناولت نظيرتها التي ارتبطت بإيبامنونداس. وفي حال وجد القراء في فصول هذا الكتاب قدراً كبيراً من الفرضيات، واقتباسات وإشارات خارجية غير مألوفة أحياناً، ما يدعوهم بشكل مرهق إلى الخروج بتخمينات وتكهنات، فلعلهم سيكتشفون أيضاً أن هناك كثيراً مما هو جديد قطعاً؛ أو – على أقل تقدير – أن ما لم يكتشفوه إلا الآن من دلالات جديدة لأمور عُدّت مألوفة، إنما هو قديم تماماً. يُعتبر العالم القديم أحياناً لا صلة أو تأثير له في الحاضر بسبب انتمائه للعصور الغابرة. إلا أنه في عصر النظريات المحيّرة، والتقنيات السريعة التغير، وضجيج وسائل الاتصالات السريعة، فإن ما حفل به تاريخ الإغريق والرومان يبدو اليوم مهماً ووثيق الصلة بسبب قدمه ووضوحه تحديداً. ويحدونا الأمل مع تقديمنا هذه الدراسات أنه في المرة القادمة عندما يقدّم رجل دولة أو جنرال ما حلاً جديداً تماماً لما يؤكد أنه لمشكلة جديدة تماماً، سيعترض شخص ما بأن الأمر ليس كذلك بالضرورة. وبدلاً من أن نقدم تقييمات سياسية لاستراتيجيات القادة العسكريين المعاصرين، فإننا نأمل – عوضاً عن ذلك – في أن التعرّف إلى العالم القديم سيذكّرنا جميعاً بحدود الخيارات المتاحة وخصائصها، وما يترتب عليها من عواقب.


@Ahmedyassin90

الفصل الأول

من فارس مع التحية: الخطاب الدعائي والتوسع الإمبراطوري في الحروب اليونانية - الفارسية

توم هولاند

عندما وقع غزو العراق، أخيراً، شكّل ذروة تطورات حقبة من الأزمات والاضطرابات المتواصلة التي شهدها النظام الدولي. فحالة المواجهة التي جمعت بين الطرفين، ظلت تمثل، لسنوات طوال، مشهداً جيوسياسياً ثابتاً. ومن المؤكد أن كلاً منهما كان، منذ أمد ليس بالقصير، مقتنعاً بحتمية نشوب صراع مفتوح وصريح بينهما. وإذ اجتاز الغزاة الحدود ودخلوا الأراضي العراقية، فلعلهم أدركوا أنهم يواجهون نظاماً نادراً ما أوقف استعداداته للحرب؛ فهو حتى تلك اللحظة كان يواصل تكديس احتياطات كبيرة من الأسلحة والمعدات والمؤن. وفي غضون ذلك، قطعت قواته العسكرية المحتشدة على طول الحدود كل الطرق المؤدية إلى العاصمة؛ فيما سرت شائعات في العاصمة ذاتها، التي تمثل مزيجاً مخيفاً من المشروعات الفخمة التي بولغ في ضخامتها والأحياء الفقيرة البائسة الشبيهة بالجحور، تتحدث بشكل غامض عن قدرتها على ابتلاع جيش برمته. ومع ذلك، ووفقاً للحسابات والتقديرات النهائية، فإن جميع قدرات النظام الدفاعية ربما كانت أيضاً قد بنيت من رمال؛ فهو كان يواجه القوة العظمى الأضخم في العالم. والقوة العسكرية، التي أعدها الغزاة خصيصاً لهذا الغرض، تقدمت لتعرض تطبيقاً فعلياً مدمراً لمفهوم "الصدمة والترويع". وقد تبخرت مجاميع المدافعين، ممن لم تتحول أجسادهم إلى جثث هامدة بفعل الضربة المهلكة الأولى لهجوم العدو الكاسح. وحتى في العاصمة نفسها، أثبت السكان، بشكل واضح، أنهم ليسوا على استعداد للتضحية

بأرواحهم دفاعاً عن زعيمهم المحاصر. وما هي إلا بضعة أسابيع على اندلاع العمليات الحربية حتى كانت الحرب قد انتهت من الناحية الفعلية. وهو كما حصل بالفعل في 12 أكتوبر 539 قبل الميلاد، عندما فُتحت أبواب بابل عنوة «دون معركة»[1]، لتسقط أعظم مدينة في العالم في قبضة قورش ملك فارس.

أما في نظر أبناء بابل أنفسهم، فإن استيلاء قائد عسكري أجنبي على مدينتهم كان قد فُسر في الحال على أنه من صنع ملك آلهتهم مرْدُوك. وعلى امتداد قرون من الزمن، كانت عظمة بابل وعراقتها، اللتان انقطع نظيرهما، قد أسهمتا في تعزيز إحساس أبنائها بالزهو والفخر إلى أقصى المستويات. وعلى الرغم من خضوعها زمناً طويلاً لهيمنة المملكة الآشورية المنافسة لها في الشمال، فإن غضب بابل لم يهدأ قط حيال تبعيتها هذه؛ ففي عام 612 قبل الميلاد، وعندما دفعت بابل بجيوشها لتكون في مقدمة القوات التي اجتاحت نينوى، عاصمة آشور، فإنها أرادت أن تأخذ لنفسها ثأراً دموياً رهيباً. ومنذ تلك اللحظة، وجدت بابل نفسها في موقع يمكّنها من أداء الدور الذي طالما اعتبر سكانها أن من حقهم النهوض به؛ أي تحويل بابل إلى نقطة الارتكاز التي يعتمد عليها العالم في إدارة شؤونه. وعلى الرغم من أن سقوط الإمبراطورية الآشورية قد ترك الشرق الأدنى مقسماً بين بابل نفسها وثلاث ممالك أخرى (ميديا في شمال إيران، وليديا في منطقة الأناضول، ومصر)، فلم يكن هناك إلا القليل من الشكوك حول أي من هذه القوى الأربع الكبرى ستحتل الصدارة. وسرعان ما أفلح ملوك بابل، ومن فوق حطام القوة الآشورية، في توسيع نطاق هيمنتهم الذي صار يمتد بعيداً. وقد فرضوا على جيرانهم الأدنى قوة وشأناً «نير العبودية الحديدي».[2] وكان التدمير التام هو المصير المحتوم الذي يواجه كل من يجرؤ على المطالبة بالاستقلال، كذلك الذي واجهته مملكة يهودا الصغيرة الجريئة في عام 586 قبل الميلاد، وإن كانت قد وصفت بالمتهورة. فبعد مضي سنتين على حركة التمرد التي أطلقتها ضد الحكم البابلي، لم يتبق لأبناء هذه المملكة غير النواح والحزن على أطلال المعالم التي أقاموها في ما مضى لتحديد هويتهم وشخصيتهم. فلم يتبق من القدس إلا الحطام، فيما أُجبر

ملكها على أن يرى أولاده وهم يقتلون أمام عينيه قبل أن تُفقأ عيناه هـو، وسيقت نخب المملكة إلى المنافي عنوة. وبينما هم يذرفون الدمع عند أنهار بابل، تراءى لأحد أبناء قومهم، النبي الذي عرف باسم حزقيال، أن ظلال الجحيم باتت تطبق على منظومة الكـون برمتـه. ومع أنها لم تكن قوة عظمى، فإنها أنزلت إلى العالم السفلي على يد ملك بابل: «كلهـم قـتلى، صـرعى السيف. أولئك الذين أشاعوا الرعب في أرض الأحياء».[3]

أما الآن، فلم يعد للتفوق والسمو البابلي أي وجـود، وبـدا سـقوط هـذه الحاضـرة العظيمة في أعين من عاصـرها أشبه بزلزال حقيقي. إن أكثر ما جعل ذلك أشـبه بـالزلزال هو هوية القائد الفاتح. فإن كان بإمكان بابل أن تنسب لنفسها تاريخاً يعود إلى الوراء حتـى لحظة بداية الزمن ذاتها، يوم شـرعت الآلهة أول مرة ببناء المدن من صلصال يعود إلى أقـدم العصور، فإن الفرس، إذاً، وعلى صعيد المقارنة، سيظهرون وكأنهم جاؤوا من العدم. فقبل عقدين من الزمن لا أكثر، حين ارتقى قورش العرش، لم تكن مملكتـه مجـرد دولـة عديمـة الأهمية فحسب، بل واعتبرت كياناً تابعاً من الناحية السياسية أيضاً، فقد كان هو من وضع في عداد المرؤوسين الخاضعين لملك ميديا. وفي الوقت نفسه، ربما كـان هنـاك مـن يـرى أن عالماً تمسك أربع دول عظمى بزمام الهيمنة فيه لن يتيح إلا حيـزاً ضـئيلاً لأي قـوة دخيلـة لتقيم موقعاً لنفسها فيه. بيد أن قورش، خلال فترة حكمه، قد أثبت العكـس تمامـاً. فهـذا النظام العالمي الذي وقف بوجهه، بكل ما اتسم به من صـرامة وصلابة، قد تحول لصالحه، على نحو محيّر. ووفقاً لما استطاع البرهنـة عليـه، فـإن ضـــرب عنـق الإمبراطوريـة يجعـل الاستيلاء على المقاطعات التابعة لها نتيجة طبيعية مؤكدة. وفي هذا الـسياق، كـان أول مـن ينبغي إزاحتهم هو ذلك الذي كان سيده ذات مرة، أي ملك ميديا، وقد أطيح بـه فعـلاً في عام 550 قبل الميلاد. ولم تمض سوى أربع سنوات حتـى جـاء الـدور عـلى مملكـة ليـديا. وبحلول عام 539 قبل الميلاد، عندما أضاف قورش بابل أيضاً إلى قائمة الممالك التـي أراد غزوها، فقد أصبح سيداً لمملكة تبدأ بمنطقة إيجة، وتنتهي عند جبال الهندوكوش، لتـشكل بذلك إمبراطورية هي الأوسع التي شهدها العالم على الإطـلاق. وربـما كـان قـورش قـد

وصف عهد حكمه بعبارات ذات طابع إجمالي، أو قل "كوني" وبشكل صريح: فهو ملك الملوك، والملك العظيم، و«ملك الكون».[4]

وهنا يبرز السؤال التالي: كيف أمكنه تحقيق ذلك برغم ما كان يواجهه من صعاب؟ لعل من نافلة القول: إن بناء إمبراطورية هو أمر يندر تحقيقه دون إراقة كثير من الدماء. ويعد الفرس من المحاربين الأشداء، لما يعرف عنهم من الصلابة وقوة البأس، كما هي جبال فارس، وقد جرت تنشئتهم ليبلغوا مستوى مدهشاً من الكفاءة العسكرية. ومثلما فعل الآشوريون، والبابليون من قبلهم، فقد جلب الفرس إلى الشرق الأدنى أساليب وتكتيكات «هدم الأسوار، وجلبة هجمات الفرسان، وإسقاط المدن».[5] وخلال غزو بابل، على سبيل المثال، اتضحت قدرات قورش وخصائصه القيادية بشكل جلي تماماً وعلى نحو مدمّر؛ ومنها قدرته على حشد «أعداد لا حصر لها مثلما هي مياه الأنهر»[6]، بغية سحق كل أولئك الذين فكروا في الوقوف بوجهه، والتحرك من بعد بسرعة مذهلة تماماً. ولا ريب في أن سيف فاتح كهذا لا يبقى ساكناً في غمده؛ ففي أعقاب عقد من الزمن على دخوله ظافراً عاصمة العالم، كان قورش لايزال ممتطياً فرسه برغم تقدمه في السن، ليقود فرسانه إلى الأمام دائماً. ومع أن نهايته كانت موضوعاً لروايات شتى، فإن كثيرين يتفقون على أنه مات في آسيا الوسطى، بعيداً عن حدود أي إمبراطورية سابقة من إمبراطوريات الشرق الأدنى. وعلى الرغم من الشواهد التي تؤكد أن جثمانه قد أعيد إلى بلاد فارس بكل مظاهر التكريم والتوقير، كي يدفن في قبر فخم أعد له، فإن قصصاً مروّعة كثيرة تقدم صوراً مغايرة لذلك. ووفقاً لإحدى هذه القصص، وعلى سبيل المثال لا الحصر، فإن ملكة القبيلة، التي قتلت قورش، أمرت بتقطيع جثته، وإلقاء رأسه في وعاء مملوء بالدم، كي يتمكن أخيراً من إرواء ظمئه لذبح البشر وسفك الدماء.[7] وحكاية كهذه تدلل بقوة على أن الرعب الذي كان هذا الفاتح العظيم قادراً على زرعه في نفوس أعدائه، وكما يفعل مصاصو الدماء والوحوش المتعطشة لافتراس البشر، لم يكن منفصلاً عن الكوابيس التي طاردت شعوب الشرق الأدنى.

وإضافة إلى ذلك، فإن ثمة أعرافاً مختلفة، إلى حد كبير، كانت قد أسهمت أيضاً في إبقاء ذكرى قورش الكبير حية في الأذهان. فهو لم يكتف بمجرد إخضاع أعدائه، بل حرص بشكل دؤوب على كسب ودهم أيضاً. وعلى الرغم مما كان يتميز به قطعاً من قسوة ووحشية في سعيه لضمان سرعة استسلام خصمه، فقد كان في الأغلب يميل إلى أن يكون وفياً لوعوده ونداءاته الداعية للسلام، كما ترد في خطابه الدعائي الذي يصوغه بحنكة وبراعة فائقتين. وهو بعد أن يثبت قدرته وتضلعه فوق جثث جيوش أعدائه المنكسرة، فإنه يحرص على إبقاء أي سفك جديد للدماء عند أدنى مستوى له. وإذا كان البابليون قد اختاروا أن يعزوا غزوه لمدينتهم إلى إرادة ملك آلهتهم مرْدُوك، فلعل قورش كان سيرضيه كل الرضا أن يتفق معهم في الرأي! ومن هنا، وبغزوه العراق، فهو إنما أراد التيقن من إعلان نفسه الرمز المفضل لدى العظام من آلهة أعدائه أنفسهم؛ وهو حين أطاح السلالة الحاكمة فيه، فإنه بذلك يقدّم نفسه وريثاً للتقاليد والعقائد المحلية الأكثر تبجيلاً وتوقيراً. ولم يكتف ببابل فقط، بل وعرض نفسه، في مدن وممالك أخرى في عموم أرجاء إمبراطوريته المترامية الأطراف، أنموذجاً للاستقامة والتقوى، فيما اعتبر حكمه لتلك المدن والممالك، على اختلافها، هبة أنعمت بها آلهتها عليها. وفي واقع الحال، فإن تلك الشعوب التي أمكنه قهرها صارت لا تبدي تردداً في اعتناق أفكاره حتى بالمعنى الظاهري لها، بل واعتبرته واحداً من أبنائها. وبفضل ما تميز به من فطنة وحدة ذهن متوقدتين، نجح قورش في أن يثبت لورثته أن القساوة والقمع - من حيث كونهما المبدأين الأساسيين اللذين ترتكز إليهما النظم الإمبراطورية في المنطقة - من الجائز مزجهما مع ما يمكن أن يكون أيضاً مظهراً إمبراطورياً من مظاهر الرأفة والرعاية وتحرير الرقاب. ولعل ما دللت عليه ضمناً مسيرة قورش؛ هو أن اللجوء إلى الحرب قد يوسع الإمبراطورية إلى حدود معينة. ولكن ضمان السلم والنظام للأتباع الطائعين إحساساً بالواجب، لن يوقف الحد النهائي للإمبراطورية إلا عند نهاية العالم نفسه.

وهذا ما حدث حين لم يعمد قورش، على سبيل المثال، حتى وهو يحاول استرضاء البابليين بما أبداه من اهتمام ورعاية لمردوك كبير آلهتهم، إلى تجاهل تطلعات النازحين في

المدينة، كأولئك المنفيين من أبناء مملكة يهودا. فقد أدركت القيادة الفارسية العليا أن هؤلاء الأسرى، الذين استحوذ عليهم الحنين إلى الوطن، يشكلون مصدراً لاحتمالات ودلائل واعدة مهمة. فهذه المملكة كانت تمثل منطقة محورية بين ما عرف بالهلال الخصيب ومملكة مصر، التي لم تكن قد احتلت بعد. وبالتالي، فمن المؤكد أن موقعاً ذا أهمية استراتيجية كهذا يمكن اعتباره جديراً "باستثمارٍ" ما، مهما كان صغيراً. وبناء عليه، فلم يسمح قورش فقط لأبناء يهودا بالعودة إلى ما آل إليه موطنهم من أنقاض وحطام مغطاة بالأعشاب الضارة، بل حتى إنه وفَّر لهم الأموال التي يحتاجون إليها كي يعيدوا بناء معبدهم المدّمر، وقد تميزت ردة فعل الأسرى أنفسهم بحماسة وامتنان بالغين. وفي الوقت الذي كان فيه النبي حزقيال قد أضفى على بابل صورة "مبعوث" يهوه؛ الإله الذي اشتهر بصلفه وحدة طبعه، فهو - أي النبي حزقيال الذي كان يذيل كتاباته باسم "أشعيا" - كان يتأمل الملك الفارسي تحت ضياء ساطع؛ فيقول: «هكذا يقول الرب، لقورش، الذي مسحه بالزيت المقدس؛ والذي أمسكت بيمينه لأخضع أمامه أمماً وأحل مآزر ملوكٍ؛ لأفتح أمامه المصراعين، وتلك الأبواب لا تغلق: أنا أسير قدامك والهضاب أمهد؛ أكسر مصراعي النحاس، ومغاليق الحديد أقصف؛ وأعطيك ذخائر الظلمة وكنوز المخابئ لكي تعرف أني أنا الرب الذي يدعوك باسمك إله إسرائيل».[8]

ولو كان هناك من جعل قورش على دراية بهذا الإطراء الاستثنائي، فإنه كان قطعاً سيعتبره ما بدا واضحاً أنه كذلك بالفعل؛ أي انتصار باهر حققته سياسته التي اتبعها في إدارة شؤون حكمه بالاستفادة من القوى المتعاونة معه طوعاً وبملء إرادتها. ومع أن التسامح الذي أبداه الفرس حيال الغرباء والأجانب وتقاليدهم وأعرافهم غير المألوفة لا يعكس بأي حال من الأحوال احترامهم لهم، فإن فطنتهم وحنكتهم، كغزاة للعالم، قد أملت عليهم إطلاق العنان لتطلعات أي عبد من عبيدهم الفطرية ليرى نفسه ذا حظوة عند سيده، ومن ثم تحويل هذه التطلعات لصالحهم. فأي مصدر لإرضاء الذات، بالنسبة إلى شعب مهمّش لا أهمية له كشعب مملكة يهودا، سيكون أكبر من أن يتخيل أبناؤه أنهم قد

حظوا بنعمة الدخول طرفاً في علاقة خاصة مع ملك الملوك الذي لا صلة لهم به؟ وفي هذا السياق، فإن قورش وخلفاءه قد أدركوا حقيقة مهمة من الناحية الاستراتيجية، على الرغم من غموضها، مفادها أن التقاليد والمعتقدات والأعراف، التي تحدد هوية مجتمع ما، وتمنحه إحساساً باحترام الذات وعلو قيمته، والتطلع لنيل الاستقلال، يمكن أيضاً، في حال استغلها الفاتح بحساسية ودقة شديدتين، أن تسهم في دفع هذا المجتمع إلى التكيف مع حالة الخضوع التي يعيشها وترويض نفسه لها. وبالفعل، فقد كانت هذه الحقيقة، التي طبقها الفرس في النطاق الواسع لجميع المقاطعات والأقاليم الكثيرة التابعة لهم، قد رسخت المفهوم الفلسفي للإمبراطورية الفارسية برمته. فقد كان يحلو لهم الاعتقاد بأن ما من نخبة حاكمة، أينما كانت، إلا ويمكن إغواؤها لتقبل بتبعيتها للإمبراطورية الفارسية.

والحق هو أن هذا التصور يفترض مقدماً، فعلاً، أن هذه الطبقات الحاكمة نفسها يمكن الاعتماد عليها للبقاء في السلطة. ولحسن الحظ، فبالنسبة إلى أنظمة حكم، كتلك التي نشأت في أغلب بقاع الشرق الأدنى بما تضمنت من رجال الكهنوت ومؤسسات بيروقراطية وطبقات فاحشة الثراء، فقد كانت الحال تتطلب ما هو أكثر من مجرد تغيير الحاكم الأعلى لتعويق الأداء السلس لوظائف هذه النخب ومهامها. وحتى عند الحدود البعيدة للإمبراطورية، حيث تكون قوة جذب المركز عند أضعف مستوياتها، فغالباً ما كان يشيع الاهتمام الشديد بما سيولده "السلام الفارسي" من ثمار غير مشكوك فيها. وعلى سبيل المثال، ففي سارديس Sardis، عاصمة مملكة ليديا (التي تقع بعيداً عن بلاد فارس، حيث إن الوصول إليها من "البحر المر"، كما يسمي الفرس بحر إيجة، يتطلب السفر لبضعة أيام)، فإن المشكلات المؤلمة التي برزت في البداية لم تمنع تحوّل التعاون مع المحتل سريعاً إلى نمط مقبول من أنماط الحياة. وقد واصل الموظفون الحكوميون في ليديا إدارة شؤون المملكة بإحساس عالٍ بالواجب تحت إمرة أسيادهم، وكما كانوا يفعلون تماماً في ظل حكم ملوكهم الأصليين. وجرى التساهل، إلى حد كبير، حيال استخدام لغتهم الخاصة بهم، وممارسة تقاليدهم وأعرافهم، وعبادة آلهتهم، بل حتى إن الضرائب، العالية

حقاً، التي فرضت عليهم، لم تكن باهظة إلى الحد الذي يستنزف مواردهم كلياً. وعلى أرض الواقع، فقد كان يمكن القول عن صاحب منجم من أبناء المملكة يدعى بيثياس Pythius أن الملك العظيم فقط هو من كان يحتل مرتبة أعلى منه على قائمة كبار أثرياء الإمبراطورية. ولا ريب في أن رجالاً كهذا، ممن وفّر لهم الحكم الفارسي فرص عمل غير مسبوقة، لم يكن لهم أدنى اهتمام بإشعال فتيل ثورة طلباً للحرية والانعتاق.

وعلى الرغم من ذلك، فلم يكن كل شيء هادئاً على الجبهة الغربية. فما وراء حدود العاصمة سارديس، تناثرت على امتداد الخط الساحلي لبحر إيجة مدن مزدهرة لشعب عرفه الفرس باسم ياونا Yauna. وإذ ينتمون أصلاً إلى اليونان، فإن الأيونيين Ionians أبناء هذا الشعب، وكما كانوا يسمون أنفسهم، قد أظهروا، كمواطنين يونانيين، درجة عالية من قوة التصميم والتحدي، شأنهم في هذا شأن أي من بني جلدتهم في وطنهم الأم عبر بحر إيجة؛ ما كان يعني أنهم يشكلون في نظر أسيادهم لغزاً غامضاً وتحدياً في الوقت عينه. وبدا للفرس أن كل ما يفعله هذا الشعب هو إثارة النزاعات والخلافات. وحتى عندما لا تكون هذه المدن في حالة صراع كل منها مع الأخرى، فمن المحتمل أنها كانت ستزج نفسها في حروب أهلية. وحالة العداء المستحكم هذه بين مدن منطقة ياونا، والتي يسرت إلى حد كبير جداً على الفرس مهمة غزوها في عهد قورش، كانت أيضاً قد جعلت من الأيونيين شعباً يصعب كثيراً حكمه والسيطرة عليه، بشكل يكاد يكون فريداً من نوعه. وفي الوقت الذي كانت فيه شعوب متحضرة، كالبابليين وشعبي مملكتي ليديا ويهودا، تفتخر بما لديها من موظفين ومسؤولين حكوميين وقساوسة وكهنة، بدا شعب اليونان زاخراً بالعديد من الفصائل والجماعات التي اعتادت الانشقاق والخلاف بشكل دائم، وممارسة أعمال الغدر والخيانة في ما بينها.

ونتيجة لذلك، وعلى الرغم من نبوغهم في مجال تقييم التصرفات والسمات السيكولوجية للشعوب، فقد شعر الفرس أنهم يواجهون تحدياً كبيراً فيما هم يحاولون تفهم

طبيعة أتباعهم من الأيونيين. فبينما كان بإمكانهم إقامة مؤسساتهم الإدارية في بابل أو سارديس - مثلاً - على أسس توفرها لهم أجهزة وكوادر كفوءة تمارس عملها بإحساس عالٍ بالمسؤولية، إلا أنهم في أيونيا Ionia قد تعين عليهم، بدلاً من ذلك، توظيف مواهبهم وإمكاناتهم في ممارسة عمليات التجسس وتدبير المكائد لبناء هذه المؤسسات. وصار التحدي الذي يواجه أي حاكم فارسي يكمن في انتقاء الفائزين من اللاعبين الأيونيين المتنافسين على السلطة، وتقديم الدعم لهم حتى يستنفدوا قدراتهم وإمكاناتهم، فيتخلص هذا الحاكم منهم دون ضجيج يذكر. ومثل هذه السياسة نادراً ما تكون ذات جدوى؛ وقد لا يمكن وصفها إلا بالغادرة. وهم حين يعمدون إلى تفضيل فئة على أخرى، فإن الفرس أنفسهم قد سقطوا حتماً في دوامة من دسائس الطعن من الخلف والحروب الطبقية، اللتين شكّلتا جوهر السياسات المعتمدة في منطقة أيونيا. وقد بدا أن هذه السياسات تجسد في مجملها تجربة محبطة ومعقدة، أضفت الصدقية على نظرية حظيت بدعم كبير من جانب شريحة معينة من حكماء شعب أيونيا، عرفوا بـ "الفلاسفة"، تراءت لهم، أي النظرية، على أنها إحدى حقائق الحياة البديهية، ومفادها أن كل ما يحدث في الكون لا يخرج عن إطار الصراع والتوتر والتغيير. وعلى حد تعبير أحد هؤلاء الفلاسفة، فإن «كل الأشياء قد خلقت من نار، وكلها ستنصهر وتتحول إلى نار من جديد».[9]

وهنا، كان لهذا المفهوم وقع الصدمة على الفرس حقاً، وهم الآن أسياد الشعب الأيوني. فالنار في نظرهم ليست تعبيراً عن حالة انصهار وذوبان لا تتوقف، وإنما عن شيء مناقض تماماً، وهو لزوم مبدأ الحق والعدل الذي لا يقبل التغيير. وعلى الرغم من عدم التزامهم أخلاقياً بالولاء لآلهة الشعوب الأخرى، فإن الفرس، وخلافاً للأمم الأدنى شأناً ومنزلة، كانوا في أعماقهم مدركين أن الكون في غياب مثل هذا المبدأ سيؤول إلى الخراب، وسيغرق في ظلام أبدي. لذا فهم يعتقدون أن هذا هو السبب الذي دعا أهورا مزدا Ahura Mazda، أعظم الآلهة جميعاً، عندما استدعى المخلوقات إلى الوجود، أن ينجب آرتا Arta، رمز الحقيقة، كي يضفي على الكون الشكل والنظام اللذين يجسدانه. غير أن

الفوضى التي كانت تتهدد العالم بخطر الدمار لم تتوقف على الإطلاق، مثلما أن النار لا يمكن أن تتقد دون دخان. ومن هنا، كان من المحتم، في اعتقاد الفرس، أن يلقي دروغا Drauga، رمز الزيف، بظلاله على آرتا. وهم آمنوا أيضاً بأن هذين المبدأين - أحدهما يجسد الكمال، والآخر الزيف - قد اشتبكا في صراع قديم قدم الزمان. ومن ثم، فهل كان أمام الكائن البشري الصادق إلا أن يقف إلى جانب آرتا ضد دروغا، وقوف الحقيقة ضد الزيف، والنور ضد الظلمة، لئلا يأخذ الكون نفسه بالتداعي والانهيار؟

وسؤال كهذا كان، في عام 522 قبل الميلاد، سينطوي بالتأكيد على تداعيات ومضامين تتخطى أبعاد نظرية العدالة الإلهية، أو مناورات الكهنة ومكائدهم؛ لأنه، أي السؤال، كان قد حمل معه أيضاً تأثيراً سلبياً في مستقبل النظام الملكي الفارسي ذاته. وكان قمبيز الأول، الابن الأكبر لقورش وولي عهده، والملك الذي تمكن أخيراً من غزو مصر، قد مات في ظروف غامضة وهو في طريق عودته من النيل. وتلا ذلك في مطلع الخريف أن يقع شقيقه برديا، الملك الجديد، في كمين نُصب له في إحدى مناطق غربي إيران الجبلية، حيث جرى تقطيع أوصاله إرباً إرباً. وكان قاتله هو من اعتلى بدلاً منه هذا العرش المخضب بالدم. ومع أن لا خلاف على إدانته باغتصاب العرش، فإن داريوس الأول، وهذا اسمه، وبكل ما أبداه من صفاقة صارخة جعلت منه سياسياً يتميز بقسوة لافتة وقدرات إبداعية مدهشة، صار يزعم بأن برديا، وليس هو، من يجب أن يوصف بالمحتال والكاذب.[10] ولم يفته أن يدعي أيضاً أن الفضل في كل ما فعله وحققه إنما يعود إلى أهورا مزدا، الذي «مد لي مع آلهة آخرين يد العون، لأنني لم أكن عديم الإيمان، أو من موالي إله الكذب، ولم تكن أفعالي زائفة».[11] وبطبيعة الحال، لم يكن أمام داريوس إلا التبجح والتباهي بأكثر مما ينبغي، فـ"قاتل الملك" لم يكن يملك من حيث الأساس إلا القليل جداً من الخيارات الأخرى. ومع أنه كان قد سارع إلى الادعاء بأن قرابة وثيقة تربطه بسلالة قورش، وإلى اتخاذ شقيقات قمبيز وبرديا زوجات له، فإن ادعاءه بأحقيته في ارتقاء العرش، نتيجة لانتسابه إلى هذه السلالة، كان في حقيقة الأمر واهياً، وقلما اعتُبر مبرراً لتسويغ حركته الانقلابية.

وكان لابد أيضاً من أن يسارع لاختلاق ركائز أخرى لشرعيته؛ ولعل هذا هو السبب الذي دفعه، وعلى نحو لم يسبق لقورش أو أبنائه أن شعروا قط أنهم بحاجة إلى فعله، إلى الإصرار على أن أهورا مزدا اختاره حاملاً للواء الحقيقة.

وعلى أي حال، فإن دأب داريوس على تحديد هوية حكمه من خلال الارتباط الوثيق بحكم إله كوني آخر إنما أراد به إثبات تأثيره وأهميته مستقبلاً. ولقد اعتاد مغتصبو السلطة، منذ غابر العصور، أن ينسبوا لأنفسهم تفويضاً إلهياً يبررون به أفعالهم، ولكن التفويض في حالتنا هذه لم يكن بذلك الذي يمكن لأهورا مزدا توفيره. وحين كان يعمد داريوس إلى سحق أعدائه فهو لم يكن يسعى إلى تأمين حكمه فحسب، بل إلى بناء إمبراطوريته على أسس قوية ومتينة أيضاً. وعند جبل بيستون Bisitun، الذي ينتصب على مبعدة بضعة أميال عن مسرح اغتيال برديا، أمر الملك الجديد بنقش مآثره وإنجازاته على صخرة ضخمة تطل بشكل مباشر على الطريق الرئيسية. وقد عكست هذه النقوش قطعاً جذرياً وسافراً للصلة بأعراف تمجيد الذات ومعاييره التي كانت سائدة في منطقة الشرق الأدنى. فعندما أراد ملوك آشور تصوير حملات دحر أعدائهم وقهرهم، فهم قد أسهبوا بشكل مفرط في سرد تفاصيل كل ما رافقها من أفعال دموية وحشية في سياق هجمات ما يسمى "قوات الصدمة"، وتقدم أدوات الحصار ومعداته، وإجبار القوات المندحرة على التوجه إلى المنافي. ولكن جبل بيستون لم يشهد تدوين أفعال ووقائع كهذه. فما كان يهم داريوس أكثر ليس المعركة بحد ذاتها، وإنما تحقيق الانتصار فيها، وليس إراقة الدماء، بل تجفيف منابعها، والتركيز على أن فجر عصر سلام شامل جديد قد بزغ. والتاريخ في واقع الأمر، وكما يزعم داريوس، قد بلغ خاتمته؛ فالإمبراطورية الفارسية تمثل نهاية التاريخ وخلاصة وقائعه وأحداثه، على حد سواء. فما الذي يمكن لأرض، تضم كل ما يمكن أن يصله الأفق من حدود، أن تكون إن لم تكن حصناً لنظام كوني حقاً؟ ولعل من المؤكد أن مملكة كهذه، وقد أفلح عاهلها الجديد في أن يخلصها من نير إله الكذب، سيتوقع لها البقاء والصمود حتى الأزل؛ أي كيان مطلق الوجود، لا يهتز له أساس، ومنارة للحق والحقيقة.

وفي إطار رؤية داريوس للإمبراطورية، كبوتقة تنصهر فيها مقومات نظام كوني سياسي أخلاقي، تتضح معالم مفهوم كان مقدراً له أن يثبت جدواه على نحو لافت. ومثلما هي الوقائع والحقائق الفعلية للحكم الإمبراطوري مهمة بالنسبة إلى الملك الجديد، فقد كانت آثارها وتداعياتها مهمة أيضاً، وكذلك رؤيته القدسية للدولة "الكونية"، التي يجري فيها تكريس مملكته الشاسعة برمتها لخدمة مصالح الشعوب المقهورة. ومن الآن فصاعداً، فإن طبيعة الميثاق الذي أبرمه العهد الفارسي ينبغي أن تكون واضحة في أي مظهر من مظاهر السلطة الإمبراطورية، سواء أكانت قصوراً، أو إنجازات مهمة، أو خططاً لصناعة الحرب. وهذا ينطوي على إحلال التوافق محل الخضوع، والحماية بديلاً من الإذلال، وإتاحة مغانم النظام العالمي الجديد بدلاً من فرض الطاعة والانصياع. وبالمقارنة مع الحملات الدعائية التي تبنتها المملكة الآشورية، فإن شيئاً كهذا يمثل، بالطبع، "وصفة" تفتقر بشكل ملحوظ إلى أي إشارة للقتل وسفك الدماء؛ ولكنها يمكن أن تصلح بشكل فاعل مبرراً لتسويغ خوض فتوحات "كونية" لا تقف عند حد. ومهما يكن من أمر، فإن كان قدر ملك الملوك هذا أن يشيع السلام في عالم ينزف دماً، فهل من وصف يليق بأولئك الذين يعترضون سبيله غير وصف صانعي الفوضى والظلام، وعناصر أساسية في محور الشر؟ وبعد أن تحول هؤلاء إلى أدوات بيد دروغا، رمز الزيف، فقد صاروا خطراً يتهدد لا الدولة الفارسية فحسب، بل النظام الكوني الذي تجسده أيضاً.

فلا عجب إذاً أن تضع هذه الدولة نهاية لقناعة راسخة لدى صانعي الخطاب الإعلامي الإمبراطوري مفادها أن ثمة مواقع حصينة لدروغا، ربما تكون في النهاية بعيدة إلى حد لا يمكن معه تطهيرها والقضاء عليها. وقد صار لزاماً جعل العالم مكاناً آمناً لإله الحقيقة؛ فكان هذا هو جوهر الرسالة الفارسية. وفي عام 518 قبل الميلاد، اتجه داريوس بأنظاره شرقاً، وقرر إرسال قوة بحرية لاستكشاف المناطق الخفية الواقعة على امتداد نهر السند. ولم يتأخر غزوها كثيراً؛ فجرى إخضاع منطقة البنجاب، وفرضت الجزية عليها التي تمثلت في تراب الذهب، والفيلة، وما شابهها من مطالب نادرة أخرى. وفي غضون

ذلك، وفي الغرب النائي على الطرف المقابل من الإمبراطورية، كان أسطول حربي فارسي يمخر عباب بحر إيجة؛ وفي عام 517 قبل الميلاد جرى احتلال جزيرة ساموس Samos وضمها إلى الإمبراطورية الفارسية.[12] وفي مسعى منها لقطع الطريق على الأسطول الفارسي، باتت الجزر المجاورة، وقد استبد بها القلق، تفكر في إبداء فروض الطاعة رسمياً لسفراء الملك العظيم. وسواء اتجهت شرقاً أو غرباً، فقد بدا واضحاً أن مخططات الإمبراطورية وأهدافها أخذت تشق طريقها إلى أرض الواقع.

ومع ذلك، وعلى الرغم من ألا أحد كان يشك في نشوبها من جديد في مسرح معارك الإمبراطورية الفارسية، فإن ثمة مشكلات ومصاعب كانت تتفاقم شيئاً فشيئاً ضمن المنطقة؛ لا في أيونيا فحسب، بل في اليونان أيضاً، ما وراء بحر إيجة. فهناك، في تلك البقعة التي لم تكن لتجدي نفعاً لحملة لواء النظام الملكي الكوني الأكثر تطوراً، بل وعدّت منطقة فقيرة معزولة، كان نمط الحياة العامة في أيونيا بما اتسم به من نزاع وتعصب وطني، قد انعكس بوضوح بشكل سياسات قائمة على التمرد والعناد. وعموماً، فاليونان نفسها كانت تعد مجرد مصطلح جغرافي، أو أكثر قليلاً؛ ولم تكن بلداً بالمعنى الحقيقي للكلمة، وإنما مزيج من الدول-المدن. وإذا صح القول إن اليونانيين قد اعتبروا أنفسهم شعباً مستقلاً واحداً، تجمعه لغة وديانة وتقاليد واحدة، إلا أن الحال في أيونيا، ومثلما هي في الوطن الأم، تمثلت في أن الظاهرة الأكثر شيوعاً بين مختلف هذه المدن هي إدمان كل منها قتال الأخرى. ومع هذا، فإن ذلك الاندفاع الذي لا يهدأ لتوسيع الحدود نحو الخارج (والذي أمسى في أيونيا يذكي ثورة فكرية بالغة الأهمية) قد خلّف آثاره على دول البر الرئيسي أيضاً. وخلافاً لشعوب منطقة الشرق الأدنى، فقد افتقر اليونانيون إلى نماذج وبنى عملية للنظم البيروقراطية والإدارة المركزية من النوع القابل للتطبيق والحياة، والجدير بالاعتماد عليه. وفي بحثهم عن الـ"إيونوميا" eunomia (آلهة القانون والتشريع)؛ أي عن "الحكم الرشيد"، فقد تُركوا، وعلى نحو ما، لاستكشافه مما لديهم. وبرغم ذلك، فإنهم لم يغفلوا - حتى وهم في خضم التوترات الاجتماعية المزمنة التي

عصفت بهم – عن الحرية التي منحها إياهم وضعهم ذاك، وتلك هي حريتهم في: الاختبار، والإبداع، وفي صوغ مساراتهم المتميزة الخاصة بهم. بل حتى إن بعضهم ربما خال أن «دويلة صغيرة تمارس حياتها بشكل اعتيادي من موقع رفيع المستوى، أعظم من نينوى الخرقاء».[13] وعلى الرغم من أن ادعاءً كهذا ربما كان سيبدو قطعاً مثيراً للسخرية بالنسبة إلى الفرس، بعد أن أمسوا الآن أسياد إمبراطورية عالمية، فقد كان هناك كثيرون من اليونانيين الشديدي الفخر بما توافر لمدينتهم الصغيرة من سمات وميزات خاصة. وعموماً، كانت الاضطرابات والانتفاضات السياسية والاجتماعية المتكررة قد أسهمت في دفع كثير من تلك المدن إلى انتهاج مسارات خاصة بها على نحو متميز. وبالقدر الذي لم يتفهمه الفرس (الذين دأبوا على رفض السلالات والأنواع الأدنى شأناً وإقصائها بالأسلوب الذي ما كان ليتبعه إلا وكلاء قوة عظمى)، فلعل اليونانيين قد تحولوا بالفعل إلى عقبة بغيضة كأداء على طريق التوسع المتواصل؛ فهم ليسوا بذلك الشعب الذي يذعن بسهولة لإملاءات مفهوم الغزو والفتوحات، الذي خرج به الملك العظيم. بل إنهم، وفقاً لمعايير منطقة الشرق الأدنى، يمثلون شعباً مختلفاً على نحو مثير للقلق.

بل إن بعضهم بدا أكثر اختلافاً عن الآخر. وعلى سبيل المثال، ففي إسبارطة، أهم مدن إقليم شبه جزيرة بيلوبونيز، أمكن لشعبها الذي ساءت سمعته جراء العداوات الطبقية القاتلة التي شاعت بين أبنائه، أن يتحول إلى شعب الجميع فيه سواسية. وقد أسهمت القوانين والأنظمة الشاملة، وأسلوب القسوة في تثقيف أي مواطن إسبارطي، منذ ولادته، بأن التوافق والانسجام يمثلان كل شيء في حياته. ولسوف ينشأ هذا المواطن كي يحتل موقعاً يناسبه في مجتمعه، وسيجد المحارب مكانه في أي خط من خطوط المعركة، وهو سيكون ملزماً بأن يقضي حياته هناك بأكملها، حيث يقف «بقوة وثبات، وقد كبت انفعالاته، واتخذ موقفاً حازماً في مواجهة عدوه»،[14] وحيث لا شيء سوى الموت يمكن أن يمنعه من أداء واجبه. ولم يعد الإسبارطيون يفعلون ما كانوا يفعلونه أصلاً عندما صنفوا بالحيوانات الكاسرة التي تفترس أبناء جنسها، وكما كان أغنياؤهم يفعلون بفقرائهم؛ بل

إنهم وحدوا صفوفهم ليصبحوا أشبه بقناصين يقفون في صف واحد مميت لعدوهم. بيد أن تحولهم على هذا النحو خلّف عواقب مدمّرة بالنسبة إلى جيرانهم تحديداً؛ فجرى في دولة ميسينيا إخضاع مواطنيها إلى حالة من حالات العبودية التي عوملوا فيها بوحشية شديدة، فيما فرض على غيرهم، من أبناء دول أخرى في بيلوبونيز، شكل من أشكال التبعية السياسية. وهكذا، فقد حقق الإسبارطيون لأنفسهم في عموم أرجاء العالم الإغريقي صيت المحاربين الأشد بأساً في العالم برمته. وفي المقابل، صار مألوفاً أن تلوذ فئات أخرى من اليونانيين بالفرار رعباً، بدلاً من الوقوف وجهاً لوجه أمام أمراء الحرب القساة أولئك في ساحة الحرب.

لا بل إن جذوة ثورة عارمة كاسحة باتت تتقد الآن في تلك المدينة-الدولة التي عُدت ذات مرة رمزاً للتعصب وضيق الأفق والتخلف. ولعل أثينا كانت المنافس الوحيد لإسبارطة كقوة تبسط هيمنتها على اليونان؛ لأن الأولى كانت هي من يمسك بزمام السيطرة على منطقة أتيكا Attica النائية المترامية الأطراف بحسب المقاييس الإغريقية، والتي لم يسبق لها - خلافاً لإسبارطة - أن احتلت من قبل قوة يونانية أخرى. وعلى الرغم من ذلك، فطالما عُرف عن أثينا، على امتداد تاريخها، أن ما تحققه من إنجازات يأتي أقل مما هو متوقع منها تحقيقه؛ حتى إن شعبها نفسه بات بحلول منتصف القرن السادس يزداد استياءً وسخطاً حيال ما آلت إليه مدينتهم من عجز ووهن. ومن هنا، فالأزمات باتت تولد الإصلاحات، وتعود هذه الأخيرة لتفرخ الأزمات؛ وهذا في مجمله أمسى دليلاً على أن مخاض الولادة المؤلم ذاك سينجب نظاماً راديكالياً معقداً جديداً. أما بالنسبة إلى طبقة النبلاء الأرستقراطيين، فقد وجدت نفسها، حتى عندما كان أبناؤها يتأملون في دوامة صراعاتهم ونزاعاتهم التي لا تقف عند حد، في مواجهة متصاعدة مع تيار جديد مضاد مثير للقلق، بعد أن صار اللاعبون الرئيسيون الطامحون إلى السلطة يجهدون أنفسهم للفوز بها بدعم من "الشعب". وفي عام 546، نجح أحدهم، وهو الجنرال المرموق بيسيستراتوس Pisistratus، في وضع نفسه بموقع رجل المدينة القوي دون منازع، أو

"الطاغية". ولم يكن لهذا المصطلح في نظر اليونانيين على الإطلاق دلالة "ملطخة بالدم" كما هو بالنسبة إلينا؛ وذلك لأن كلمة tyrannos اليونانية (التي تعني "الطاغية") كان لابد من أن تنطوي بحكم معناها على "لمسة شعبية"؛ فليس للطاغية من دونها أن يأمل بالاحتفاظ بالسلطة طويلاً. لذا، فقد كان على بيسيستراتوس وورثته أن يضعوا دائماً نصب أعينهم كسب ثقة أبناء "الشعب" عبر مظاهر الخيلاء والغرور، وإقامة المشروعات العامة الضخمة المذهلة. ومع ذلك، فقد تعاظمت دعوات مواطني أثينا طلباً للمزيد؛ وبرز من بين النبلاء عدد من منافسي بيسيستراتوس بلغ بهم استياؤهم، جراء إقصائهم عن مواقع إدارة مدينتهم، حداً أصبحوا معه على استعداد لتقبل "العقوبة" القصوى المتمثلة في رؤية السلطة وهي تسلم إلى الشعب! وتندلع الثورة في عام 507؛ فيتم إبعاد هيباس Hippias، ابن بيسيستراتوس، إلى المنفى، وتُكرّس "المساواة" قيمة أثينية عليا؛ بمعنى المساواة أمام القانون والمشاركة في إدارة الدولة. إن تجربة عظيمة وسامية كانت في طريقها إلى التطبيق؛ فهذه دولة يشعر فيها المواطن للمرة الأولى في تاريخ أتيكا أنه شريك في إدارتها، وقادر على فرض إرادته عليها، على حد سواء. فهي، إذاً، الدولة التي تستحق حقاً خوض الحرب من أجلها.

وقد كان هذا هو الهدف تحديداً الذي وضعه أبناء الطبقة العليا نصب أعينهم، بعد أن جعلوا أنفسهم حماة لثورة مدينتهم. وهؤلاء لم يكونوا من الحالمين الحمقى، بل هم فريق من البراغماتيين الواقعيين استهدفوا بكل بساطة نيل مرادهم، كمجموعة من أرستقراطيي أثينا، من خلال تعزيز قدرات مدينتهم وتقويتها. وهم قد خلصوا، كما يبدو، إلى أن شعباً لم يعد منقسماً على نفسه ربما سيكون أبناؤه قادرين، في آخر الأمر، على إقامة جبهة متماسكة موحدة في وجه الدول المتاخمة، وعلى تبوؤ مواقعهم، لا أعضاء في بطانة زعيم عصبة أو عشيرة ما، وإنما حماة لمثل عليا، كالمساواة مثلاً، أو حتى حماية أثينا ذاتها. وكانت أولى سنوات ما كانت الأجيال اللاحقة ستسميه "عصر الديمقراطية" قد شهدت ما أقام الدليل على أن تلك التوقعات لم تكن مجرد احتمالات بعيدة الحدوث. وكما كان سيحدث

بعد آلاف السنين، ففي استجابة للثورات الفرنسية والروسية والإيرانية، فإن محاولات القوى المتنافسة الرامية للقضاء عليها في مهدها قد أحبطت كلياً، بل وانتصرت تلك الثورات. ولعل مقولة جوته Goethe المأثورة عن معركة فالمي Valmy يمكن أن تصح في وصف أول الانتصارات الكبرى التي حققتها أول دولة ديمقراطية عظمى: «تبدأ من هنا اليوم حقبة جديدة في تاريخ العالم».[15]

وكما حدث في فارس يومذاك، وفي أتيكا من بعد، فإن شيئاً ما جديداً خطيراً قد خرج إلى حيز الوجود. فثمة أوجه شبه ربما باتت تتضح الآن، برغم قلّتها، ما بين نظام ملكي كوني، وبين دويلة شديدة الصغر لطالما افتخرت بما يتمتع به شعبها من حس أصيل بالمواطنة والأصالة. فضلاً عن أن كلاً منهما - وكما ستثبت الأحداث اللاحقة - قد أمسى مسكوناً بأيديولوجية لا يُحتمل لأي منهما أن يبدي تساهلاً حيال الآخر. وربما كان من المعقول تخيل إمكانية تفادي وقوع صدام بينهما لو أن تيار الديمقراطية ظل حبيس حدود أثينا فحسب. ولكن ما أضحى يقيناً هو أن الثورات قابلة للتصدير دوماً ودون استثناء. ففي عام 490 قبل الميلاد، نجحت سلسلة من الانتفاضات، نشبت في جميع أرجاء منطقة أيونيا، في إسقاط نظم ديكتاتورية ظل قادتها عقوداً من الزمن يقدمون خدماتهم إلى الفرس في سياق دور الخائن المتواطئ مع العدو، وأقيمت بدلاً منها نظم حكم ديمقراطية. ولم تمض سوى سنة واحدة حتى انضمت قوة أثينية خاصة إلى قوات الثوار لتدمير مدينة سارديس حرقاً. وعلى الرغم من ذلك، فإن القوات الأثينية نفسها (انطلاقاً من إحساسها بالإحباط والحزن جراء إخفاقها في الاستيلاء على قلعة المدينة، وقيامها عرضاً بإحراق معبدها الذائع الصيت) ما كادت تفرغ من إحراق عاصمة مملكة ليديا حتى عجلت بالعودة إلى أتيكا وقد استبدت بها مشاعر التوتر والأسى. ومع أن الخوف كان، دون ريب، يساور الأثينيين من إحساسهم بأن أبصار ملك الملوك البعيد النظر العديم الرحمة ستكون عاجلاً شاخصة عليهم، إلا أن مخاوفهم كانت ستتضاعف بالتأكيد في حال أدركوا حقيقة طبيعة هذا الوحش الذي اختاروا أن يدوسوا باحتقار على ذيله، إذ لا شيء كان

سيثير غضب الرجل الأقوى في العالم أكثر من فعل متعمد كهذا. أما بالنسبة إلى داريوس، فإن حركة التمرد في أيونيا كان لابد من سحقها في الحال، وإنه بات لزاماً تحييد هذه الدويلة "الإرهابية" في ما وراء بحر إيجة، إذا ما كان يُراد ضمان أمن الجناح الشمالي الغربي للإمبراطورية بشكل مطلق وتام. وكلما تأخر إنزال العقاب بأثينا لوقت أطول، تعاظم خطر تكاثر جيوب مماثلة للمتمردين في عموم براري اليونان الجبلية التي يتعذر الوصول إليها. وما هذا إلا كابوس مرعب في نظر أي من المحللين الاستراتيجيين الفرس. إن الجغرافيا السياسية لم تكن هي الهاجس الوحيد الذي كان يجول في مخيلة الملك العظيم؛ فأياً تكن مكانة أثينا، كمعقل حصين للإرهابيين، فإن أمرها قد افتضح أيضاً كمعقل تخريبي شرير لإله الكذب على نحو استثنائي. وعلى هذا، فقد كان في صالح الكون بأسره، وأيونيا تحديداً، ضماناً لاستقرارها مستقبلاً، أن يشرع داريوس في التفكير بأن يطبّق في أتيكا رسالته التي أوكلت إليه إلهياً، أي حربه على الإرهاب. وقد بدا له أن إحراق أثينا يصلح قطعاً أن يكون نقطة انطلاق لمرحلة جديدة لابد منها من مراحل التوسع الإمبراطوري، وضربة قوية توجه لأعداء أهورا مزدا الأشرار، على حد سواء.

ومع ذلك، فإن كان الأثينيون لم يستوعبوا إلا قليلاً دوافع هذه القوة العظمى التي تعلن اليوم صراحة عن عدائها لهم وقيمهم العليا، فإن الفرس بدورهم كانوا على جهل قاتل بما كانوا سيواجهونه من الأنظمة الديمقراطية. فالمحللون الاستراتيجيون الفرس، الذين أُنيطت بهم مهمة إخماد الثورة الأيونية، لم يجدوا في نمط الحكم الجديد هذا ما يمكن اعتباره استثنائياً أو فريداً من نوعه؛ لا بل إنه بدا كأنه قد فاقم حدة النزاعات الحزبية الفئوية، التي طالما جعلت خوض حرب مع دويلة ياونا Yauna أمراً في غاية السهولة واليسر. وفي عام 494 قبل الميلاد، وفي ذروة المواجهة التي نشبت قبالة جزيرة لادي Lade الصغيرة، اجتمعت قدرات مسؤولي استخبارات الإمبراطورية الفارسية، وقادة سلاح بحريتها، وسفنها الحربية، والرشى التي قدمتها، كي تصل حركة التمرد في أيونيا إلى حالة من الانهيار التام. وحتى بعد مضي أربع سنوات على ذلك التاريخ، كانت الاستعدادات

التي أجريت لتعبئة حملة عسكرية على أثينا قد عكست الفرضية الأساسية التي سبق أن اعتمدت ذاتها؛ وهي أن الصراعات الحزبية الفئوية ستؤدي، دون شك، دوراً مهماً في إنهاء مقاومة المدينة. وعلى سبيل المثال، فلم يكن من قبيل المصادفة أن يكون داتيس Datis، قائد القوات الفارسية التي حشدت لهذا الغرض، من بين الضباط الذين امتلكوا خبرة وحنكة واسعتين في التعامل مع حركة التمرد الأيونية، كما امتلكوا فهماً عميقاً لكيفية أداء دويلة ياونا لمهامها ووظائفها، إلى حد قدرته على التحدث باللغة اليونانية. كما أن الحملة أفردت مكاناً لهيباس، الطاغية المطاح به، كشاهد على أن هاجس ضمان تعاون النخب المحلية وتواطئها كان لايزال يستحوذ على أذهان الفرس. ومع ذلك، فسوف تثبت الأحداث أن الفرس قد أخطؤوا الحساب حتى في تلك المناسبة، وعلى نحو كان سيجرهم إلى الهلاك؛ لأن معلوماتهم الاستخبارية كانت قديمة، وعديمة الجدوى، بل وربما أسوأ من ذلك.

وعلى عكس ما حدث للأسطول الأيوني في معركة لادي قبلاً، فلم يتفكك الجيش الأثيني، الذي تصدى للغزاة في سهل ماراثون Marathon، ليقطع عليهم بذلك الطريق التي كانت ستأخذهم إلى أثينا، والتي لم تكن لتبعد سوى عشرين ميلاً تقريباً باتجاه الجنوب. وإذا كان صحيحاً أن شائعات كانت منذ أمد غير قصير قد سرت على نطاق واسع عن وجود "طوابير خامسة"، وعناصر تتطلع إلى التربح من هدايا الذهب التي كان الملك العظيم سيغدقها عليهم، فإن إدراك الأثينيين لما كان سيحل بهم من كارثة متوقعة هو تحديداً ما شجعهم في المقام الأول على الخروج من وراء أسوار مدينتهم والتوجه إلى ملاقاة الفرس. وعلى أي حال، فلعل الفرص التي تتيح للخونة المحتملين فتح أبواب المدينة لم تكن لتغيب في أي حصار يفرض عليها؛ غير أن أسلوب القتال اليوناني الذي يطبق فعلياً في ساحة الحرب، والذي يتقدم المحاربون، وفقاً له، كتفاً إلى كتف بشكل كتائب، كان يعني أن على الجميع القتال جماعة واحدة، وإلا قُضي عليهم تماماً، وأن ما من سبيل أمام من يريد النجاة بحياته، حتى لو كان خائناً محتملاً، غير التمسك برمحه ودرعه دفاعاً عن نفسه وعن سائر المقاتلين. وبكلمة موجزة، فإن ما من خائن كان سيجد له مكاناً على خطوط

القتال في معركة سهل ماراثون. ومع أن داتيس كان قد عزز موقفه وصدقيته حين خلص أخيراً إلى الإقرار بهذه الحقيقة، لكنه ما كان ليتخلى عن اقتناعه بأن لكل مدينة يونانية ثمنها في النهاية. وفي أثناء ذلك، وإذ بلغت المواجهة طريقاً مسدودة لبضعة أيام، قرر داتيس أن يضع اقتناعه هذا على المحك؛ فعمد إلى تقسيم جيشه ليشكل قوة مهمات خاصة كبيرة العدد، وكان مؤكداً تقريباً أنها ضمت سلاح فرسانه، وبعث بها حول ساحل أتيكا ليرى إن كان ظهورها في ميناء أثينا سيعجل في فتح أبوابها. بيد أن تلك المناورة تحديداً هي التي منحت قوات الحماية الأثينية الفرصة التي كانت تتطلع إليها. وخلافاً لكل التوقعات، ففي تحركها للاشتباك مع عدو يفترض على نطاق واسع أنه "لا يقهر"، واجتيازها ما كان كثيرون من أبناء أثينا أنفسهم يخشون أن يتحول إلى "سهل للموت"، فإن هذه القوات شنت هجومها ضد عدو لم يسبق لأي جيش يوناني أن تغلب عليه قط في معركة مفتوحة. فكان ثواب شجاعتهم انتصاراً عظيماً كتب له الخلود. ومع هذا، ولأنها كانت لاتزال تخشى حدوث حالات خيانة، فإن هؤلاء المنتصرين المنهكين المخضبين بالدماء لم يجدوا متسعاً من الوقت للاستمتاع بطعم انتصارهم هذا؛ بل سارعوا، بدلاً من ذلك، وهم في ذروة الانفعال والهياج إلى التوجه مباشرة صوب أثينا «بأسرع ما يمكن لأرجلهم أن تأخذهم إلى هناك».[16] وقد وصلوا المدينة في وقت حرج للغاية؛ إذ لم يمض وقت طويل بعد ذلك حتى كانت سفن النقل الفارسية تبحر باتجاه ميناء المدينة. ولم يكن أمام هؤلاء الجنود إلا الاستلقاء دون حراك خلف مدخلها. وبعد أن أذنت الشمس بالمغيب، فقد رفعت مراسي السفن، وأبحر جنود فارس بعيداً، وانقلبوا على أعقابهم، ومضوا لا يلوون على شيء. وعلى أي حال، فإن خطر الغزو كان وقتئذٍ قد تلاشى.

وبطبيعة الحال، فليس ثمة شك في أن ما أنقذ أثينا في معركة ماراثون أولاً وقبل كل شيء كان جرأة أبنائها أنفسهم وبسالتهم. ولكن هذا لم يكن كافياً بحد ذاته إن لم نضف إليه التأثير الساحق الذي أحدثه هجومهم، وأصوات قعقعة رماحهم ودروعهم القوية، على خصومهم الذين ارتدوا مجرد معاطف مبطنة يحتمون بها، وقد تسلحوا بالأقواس والمقاليع،

ولا شيء غيرهما. لقد كان هناك صراع في تلك الموقعة المصيرية ما هو أكثر من أجساد البشر ومعادن السلاح؛ فمعركة ماراثون هذه أمست أيضاً اختباراً للصور النمطية التي يحملها طرف عن آخر. فحين رفض الأثينيون أداء الدور الذي أعده لهم مسؤولو الاستخبارات السرية الفرس، فإنهم اقتنعوا في الوقت المناسب وبشكل نهائي بأن شعارات الديمقراطية – الصداقة، والمساواة، والحرية – هي أكثر من مجرد شعارات. وهم في الوقت عينه قد أثبتوا أن هذه القوة العظمى، التي طالما بدت عصية على الانحدار، لا تخلو من العيوب ومكامن الضعف، وأن بالإمكان إلحاق الهزيمة بالفرس. وبعد أن كان شعب أيونيا يصف الفرس دائماً بـ"البرابرة"، ولغتهم بالثرثرة والهراء، ولا يستحقون غير الاحتقار، فإن الأثينيين هم الآن من أخذ يفعل الشيء نفسه في أعقاب معركة ماراثون. ولعلها هي الكلمة، أي البرابرة، التي أثارت فزع الأثينيين حيال ما أجبروا على مواجهته يوم انتصارهم العظيم؛ فقد كانت حشود البرابرة هائلة تفوق الحصر، وتجول دون هدى، وتتوعدهم بالموت والدمار. أضف إلى ذلك، أن كلمة "البرابرة"، يمكن أن تنطوي، إثر معركة كهذه، على ما هو أكثر من ذلك؛ وهو، كما قلنا، معنى يغلب عليه التهكم والازدراء. إن الثقة بالذات وقدراتها ينبغي أن تحمل معها ما هو أكبر من مجرد الوقوف وجهاً لوجه أمام قوة عظمى.

وإضافة إلى ذلك، كان لمعركة ماراثون تأثير إيجابي حاسم؛ إذ أسهمت في تطهير نفوس مواطني أثينا من إحساس متأصل بالدونية، ظل اليونانيون يعانونه تقليدياً كلما قارنوا أنفسهم بكبريات مدن الشرق الأدنى، فضلاً عن أن الأثينيين ظلوا يعيدون القول، دون ضجر أو ملل: إن الانتصار ما كان لينجز إكراماً لمدينتهم فقط؛ ففي أعقابه، صار بإمكان حتى أولئك اليونانيين، الكارهين للديمقراطية، التصرف بإحساس أكبر بالثقة، وباقتناع أعظم بأن السمات التي تميزهم عن سواهم من الغرباء ربما تصبح دالة على تفوقهم. ومع هذا، فإن الانتكاسة التي أصابت عدوهم بشكل مؤقت، وتراجعه بعض الشيء عن حدود إمبراطوريتهم النائية، لم يكن لها تأثير كبير في إزالة إحساس الفرس

بالغطرسة وبالجدارة والأهلية. لذا، فبعد مضـي عشـر سنوات على معركة مـاراثون، غـزا زركسيس، ابن داريوس ووريث عرشه، اليونان على نطاق واسع، وشكلت هـذه الحـرب صداماً حقيقياً بين القيم. إن تصميم زركسيس، في الجانب الفارسـي، على تجسيد مفهـوم رسالته الكونية على أرض الواقع، كان قد حظـي بالأولويـة عـلى الاعتبـارات العـسكرية البحتة. ومن هنا، وبدلاً من أن يقود قوة ضاربة (كتلـك التـي كـان قـورش سـيقوم بهـا) بإمكانها الانقضاض على قوات مشاة العدو المتثاقلة، وبالسـرعة الكاسحة ذاتها التي أثبتت قدرتها دوماً على تدمير قوات أيونيا اليونانية، فقد آثر زركسيس فـرض مـا سـمّاها "جزيـة المجموعات العسكرية". فبموجب هذه الجزية، كان لزاماً عـلى الـشعوب التـي أخـضعها لإمبراطوريته بجميع مكوناتها توفير مقاتلين يشكلون وحدات عسكرية توضع في الخدمـة الفعلية؛ إن لم يكن في إطار "تحالف الراغبين طوعاً"، فلـيكن تحالفـاً لأداء الواجـب بكـل إذعان. وبطبيعة الحال، فإن زيادة عديد جيشه بهذا المزيج العشوائي الضخم، مـن مجنـدين يتم تجهيزهم وتسليحهم بشكل رديء، كان قد شكّل معـضلة مقلقـة بالنـسبة إلى إدارات تموين الجيش التي كانت تواجه ضغوطاً شديدة أصلاً. غير أن الملك زركسيس كان مقتنعـاً بأن ذلك كان ضـرورياً للحفاظ على مقامه وهيبته بما يليق به تمامـاً. وعـلى أي حـال، كـان حضور هذا التنوع المذهل من أتباعه وجنوده في تشكيلات جيشه سيضفي صور التمجيـد والتعظيم عليه كمندوب للإله أهورا مزدا عـلى الأرض. بـل إن الـشائعات التـي سـرت بشأن دنو طلائع جيشه من المدينة، والتي دأب عملاء الفرس والموالون لهم على بثها، كـان لها تأثير فاعل في نشـر الفزع والرعب في نفوس اليونانيين، أو ربما كـذلك إثـارة جـشعهم وهم يتخيلون ما يمكن للحرب أن تدره عليهم من مغانم وأسلاب. وفيما هو يعـد العـدة لحملته الكبرى هذه، فلابد أن ما كان يدور في مخيلة زركسيس هو أن حال اليونان بأسـرها ستنتهي بسقوطها بين يديه كثمرة اكتمل نضجها تماماً؛ وهو ما لم يحدث.

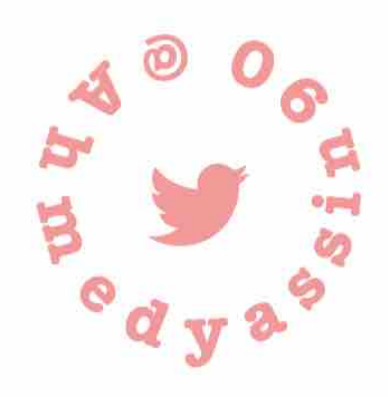
فعلى الرغم مما توافر لقادة حملات الدعاية في جيش الغزاة من حنكة وبراعة فـائقتين، فإن مجريات عملية الغزو أثبتت بشكل قاطع، ومرة أخرى، أن اليونانيين كانوا أوسع منهم

حيلة ودهاءً. ولعل ما زاد حدة القلق هو أن الفرس كانوا في المراحل الأولى من حملتهم هذه قد أنجزوا انتصارات باهرة جديرة بالتباهي بها، فمثلاً، كان الإنجاز الذي حققوه في المضيق الجبلي لثيرموبيلاي Thermopylae هائلاً بالفعل؛ وذلك عندما تمكنوا من إزاحة قوة تضم خمسة آلاف جندي من قوات المشاة المسلحة جيداً من موقعها الحصين، وإبادة المئات من المقاتلين الإسبارطيين، ممن كان يفترض أنهم محاربون لا يقهرون، وقتل أحد ملوكهم. فلا عجب، إذاً، أن يدعو زركسيس بعض ضباط أسطوله البحري إلى القيام بجولة في "البوابات الساخنة" Hot Gates (كما كانت تسمى ثيرموبيلاي) "كي يروا بأعينهم كيف يعامل الملك العظيم أولئك (المعتوهين) الذين تجرؤوا على شق عصا الطاعة عليه".[17] ولا عجب أيضاً أن تسارع قوات بيلوبونيز البرية، وقد بلغتها أنباء معركة ثيرموبيلاي، إلى التخندق خلف متاريس دفاعية عند خط برزخ كورينث Isthmus of Corinth، ورفض الخروج منها لما يقرب من عام كامل. ووقتذاك، بدا واضحاً بالنسبة إلى أي يوناني صمم على مواصلة القتال أن لا مناص من تحويل مشهد الكارثة التي حلت بـ"البوابات الساخنة" إلى عرض مهيب لمأثرة بطولية، وبالقدر الذي يكفي لتحفيز اليونان كلها على مواصلة الصمود والتحدي. ومما لا شك فيه هو أن أبناء أثينا، وبينما هم يرون مدينتهم، حال انتهاء موقعة ثيرموبيلاي، وقد أمست لا حول لها ولا قوة أمام القوة الفارسية الماحقة، كانوا ربما سيجنون نفعاً أكبر من نفع الإسبارطيين في الارتقاء بملكهم الراحل وحراسه إلى مرتبة الشهداء في سبيل الحرية. ووقتذاك أيضاً، ربما كان أحد مؤشرات نجاحهم هو أن البيلوبونيزيين لم يلجأوا، إثر الاستيلاء على أثينا وحرق معابدها، إلى سحب أساطيلهم البحرية، مثلما فعلوا قبلاً حين سحبوا قواتهم البرية؛ بل أبدوا استعدادهم، بدلاً من ذلك، للانضمام إلى قوات أثينا البحرية، والثبات بوجه الفرس عند مضيق سلاميس Salamis. وعندما فعلوا ذلك، فقد أثبتوا أن الخطاب الإعلامي اليوناني كان حقاً أكبر من مجرد خطاب حماسي؛ أي أن الهزيمة الساحقة في ثيرموبيلاي، وكما كانوا يقولون تماماً، ليست شكلاً من أشكال الانتصار، بل وانتصار حاسم أيضاً.

فقد تمكن حلفاء اليونان في سلاميس بحراً، ومن ثم في بلاتيا Plataea براً، من سحق القوات البرمائية الخاصة التي كانت قد نشرت بمواجهتهم، ليضمنوا بذلك أن حقبة "السلام الفارسي" لن تتسع لتشمل اليونان. وهنا تجدر الإشارة إلى أن فشل هذه المحاولة لم يكن يرجع قطعاً إلى ضعف الفرس، أو وهن عزيمتهم، أو افتقارهم إلى الشجاعة؛ إذ إن "الطرفين يضاهي كل منهما الآخر في ما يتعلق بالبسالة والقوة"، كما يقر اليونانيون أنفسهم.[18] ومع ذلك، فلا خلاف على أن المعدات التي يستخدمها اليونانيون والتدريبات التي يتلقونها قد أثبتت تفوقها، إلى حد كبير، في عمليات القتال المباشر. وقد أكدت معركة بلاتيا الدرس الذي أفرزته من قبل معركة ماراثون؛ وهو أن تشكيلات قوات المشاة الفارسية في المعارك الضارية لا تصلح نداً للكتائب اليونانية. ومن المؤكد أن الأكثر إيلاماً بالنسبة إلى ملك الملوك المتعطش للدماء هو الطريقة التي استخدمت بها أدوات قوته ضده؛ والمتمثلة، في المقام الأول، في تضلعه بعمليات التجسس وفنون تمجيد الذات التي لم يكن لينازعه عليها أحد حتى ذلك الوقت. فعلى سبيل المثال، استطاع قائد بحرية أثينا في معركة سلاميس - في عرض دلّل به على تفهمه لسلوك الفرس النفسي- نصب كمين للأسطول الإمبراطوري من خلال إقناع زركسيس بنيته الانضمام إلى معسكره، وهي الأكذوبة التي كان الملك العظيم ومستشاروه مهيئين لتصديقها؛ إذ لم تزل أحداث موقعة لادي حية في ذاكرتهم. وفي أعقاب ذلك، وقبيل انطلاق الحملة، التي كانت ستمضي بهم إلى بلاتيا، أقسم حلفاء اليونان بالإبقاء على أطلال المعابد التي أحرقها البرابرة كما هي كأنقاض متفحمة إلى الأبد "لتكون شاهداً للأجيال القادمة".[19] ومن البديهي أن هذا الأمر سيجعل لمحاولات زركسيس الرامية لتمجيد الذات وتعظيمها آثاراً عكسية على نحو مدمّر؛ إذ إن محاولاته تلك لا تصوره حامياً للنظام والقانون، وإنما عدواً لدوداً لهما؛ ولا تصور إمبراطوريته كمرجعية للحق و"النور"، بل طاغوتاً آثماً استحق احتقار الآلهة وإذلالها له. وظلت هذه الفكرة مصدر إلهام بالنسبة إلى اليونانيين على مدى العصور، وربما أوحت لهم بما لا نظير له من تراجيديات، ومدونات تاريخية، وفنون عمارة. ونتيجة لذلك، فلن تغيب

عن ذاكرة البشر ما داموا يشاهدون مسرحيات أسخيلوس Aeschylus، ويقرؤون مؤلفات هيرودوت وهو يبدي إعجابه بمعبد بارثيون. وبالفعل، بعد ما يقرب من ألفين وخمسمئة سنة تقريباً، لاتزال حية في ذاكرتنا تلكم الانتصارات التي حققها الرجال الذين خاضوا معارك ماراثون، وثيرموبيلاي، وسلاميس، وبلاتيا.

ومع ذلك، فإن إخفاق أول قوة عظمى بالعالم في إشاعة ما اعتبرته "أمناً ونظاماً"، في بقعة جبلية نائية عند حدودها الهامشية، لا يعني بالضرورة أن الفرس وإمبراطوريتهم لم يخلّفوا دروساً قيّمة يمكن لعالمنا المعاصر أن يسترشد بها؛ بل إن العكس صحيح تماماً. فإذا صحَّ القول إن الغرب لطالما اعتبر نفسه وريثاً لليونانيين في ما يتعلق بقضايا الحرب والخطط الاستراتيجية، وفي ميادين كثيرة غير ذلك، فإن هذا لم يكن ليمنع "طرق القتال الفارسية" من إلقاء ظلالها الثقيلة على امتداد قرون من الزمن. وعند النظر إليه تحت هذا الضوء، فليس من المستبعد أن يكون مستقبل الصراعات الإنسانية فارسي الطابع، بقدر ما هو إغريقي.


@Ahmedyassin90

الفصل الثاني

بيركليس وثوكيديدس وحماية الإمبراطورية

دونالد كاجان

بحلول منتصف القرن الخامس قبل الميلاد، عندما أمسى بيركليس Pericles الشخصية الأبرز في أثينا، اكتسبت قضية حماية إمبراطوريتها أهمية قصوى، لأن ضمان أمن الإمبراطورية أصبح العامل الأساس بين عوامل حماية أثينا نفسها، فهو سيحول دون تعرضها مجدداً للتهديدات الفارسية، ويكفل لها سبل تفادي أي تحديات تثيرها إسبارطة بوجهها مستقبلاً. وفضلاً عن ذلك، فإن العوائد التي تدرها الإمبراطورية تمثل عاملاً جوهرياً لنجاح خطط بيركليس الرامية لتحويل أثينا إلى المدينة الأكثر رخاءً وجمالاً وتحضراً إلى حد لم يشهد الإغريق مثيلاً له من قبل، وكان الركن المحوري من رؤيته هو ما ستجسده أثينا من أمجاد.

وعلى الرغم من أن بيركليس، ومعه أبناء أثينا، قد اعتبروا أن إمبراطوريتهم كيان لا يمكن الاستغناء عنه، فإنها أثارت في الوقت عينه أسئلة جدية عدة: هل يمكن لأي إمبراطورية أن تضع حداً يقف عنده نموها وطموحاتها، وأن تحافظ على نفسها بأمان وطمأنينة؟ أم أن بسط هيمنتها على الآخرين سيدفع حتماً بالقوة الإمبراطورية إلى التمدد والاتساع لتتسبب، من ثمّ، في تدمير نفسها بنفسها؟ وهل الإمبراطورية كيان شرعي من الناحية الأخلاقية، خاصة تلك التي يقيمها إغريقيون لبسط الهيمنة على إغريقيين آخرين؟ أو هل هي شاهد على الغطرسة العنيفة التي كانت يقيناً ستجلب دماراً مبرراً على أولئك الذين تجرؤوا على حكم الآخرين، كما لو كانوا آلهة؟

لقد قُدّر لبيركليس، كقائد لشعب أثينا، أن يبحر بسياسات المدينة في مياه آمنة، وأن يبرر بناء إمبراطورية أمام أعين أبنائها أو غيرهم من الإغريق. وفي كلتا المهمتين، كان عليه أن يجتاز طريقاً جديداً كلياً. وقد وضع حداً تنتهي عنده محاولات التوسع الإمبراطوري، وعمل على خفض سقف طموحات أثينا، كما أنه طرح في الوقت عينه حججاً وأدلة قوية، سواء قولاً أم فعلاً، ليثبت أن تأسيس الإمبراطورية عمل مشروع يصب في الصالح العام للإغريقيين "جميعاً".

ولعل من المهم هنا التذكير بأن الأثينيين لم يكونوا قد خططوا لإقامة إمبراطورية خاصة بهم، وأن اتحاد ديلوس Delian League [نسبة إلى مدينة ديلوس Delos التي كانت مقراً للاتحاد] الذي أقيم أساساً لإمبراطورية أثينا، لم يظهر إلى الوجود إلا بسبب تخلف إسبارطة عن النهوض بمهمتها، وإن كان لأهل مدينة أثينا أسباب وجيهة دعتهم للموافقة على تزعم إسبارطة لهذا الاتحاد؛ فهم أولاً كانوا يخشون عودة الفرس لغزو اليونان مجدداً وإخضاع الإغريق لسلطتهم. فالفرس كانوا قد هاجموا أثينا ثلاث مرات في غضون عقدين من الزمن، ولم يكن هناك من الأسباب ما يدعو إلى الاعتقاد بأنهم قد تقبلوا بشكل نهائي الهزيمة الأخيرة التي لحقت بهم. ثانياً، أن الأثينيين كانوا قد شرعوا لتوهم بإصلاح الأضرار التي أوقعها آخر هجوم فارسي على مدينتهم، وقد أدركوا بأن أثينا ستكون بالتأكيد هدفاً لأي هجوم يعتزم الفرس شنه من جديد، أضف إلى ذلك أن حوض بحر إيجة، وما يقع إلى الشرق منه من أراضٍ، باتت له أهمية كبيرة بالنسبة إلى نشاطات أثينا التجارية. وعلى سبيل المثال، فإن اعتماد الأثينيين على الحبوب المستوردة من أوكرانيا، والتي كانت تنقل بواسطة سفن تنطلق من موانئ على البحر الأسود، كان يعني أن أي حملة عسكرية فارسية، مهما صغر حجمها، إذا فرضت هيمنتها على أي من مضيقي البوسفور أو الدردنيل، فيمكن أن تقطع على أثينا هذه الطريق الحيوية التي تمثل عصب الحياة بالنسبة إليها. وأخيراً، فإن أبناء أثينا يرتبطون بعلاقات مشتركة على صعد النسب، والديانة، والأعراف والتقاليد، مع الإغريق من أهل أيونيا، الذين يشكلون سكان معظم المدن

المعرضة للخطر. وبهذا، فأمن أثينا وازدهارها وطبيعة مواقفها تظل جميعاً مرهونة بإخراج الفرس من سواحل بحر إيجة وجزره قاطبة، ومن بحر مرمرة ومضيقيه الدردنيل والبوسفور، ومن البحر الأسود.

ويعد هذا التحالف الجديد أحد ثلاثة كيانات شهد العالم الإغريقي القديم تأسيسها، إلى جانب الاتحادين البيلوبونيزي والهيليني، اللذين تم تشكيلهما لمواجهة الفرس، واللذين تفككا إثر انسحاب الإسبارطيين من منطقة إيجة. وفي أعقاب تأسيس اتحاد ديلوس، صار وجود الاتحاد الهيليني شكلياً بصورة متزايدة، بل وانهار أمام أول اختبار حقيقي تعرض له. أما التحالفان الأهم والأكثر نشاطاً وفاعلية فهما الاتحاد البيلوبونيزي (بقيادة إسبارطة على البر الرئيسي لليونان) واتحاد ديلوس (بزعامة أثينا في منطقة إيجة).

تميز اتحاد ديلوس منذ تأسيسه بالفاعلية العالية؛ لأنه كان اتحاداً طوعياً تماماً، ولأن مقاصده كانت حيوية بالنسبة لأعضائه، فضلاً عن وضوح تنظيمه وبساطته. وفيه أمسكت أثينا بمقاليد الزعامة، فيما أقسم الأعضاء جميعاً (وقد بلغ عددهم 180 عضواً في بادئ الأمر) يميناً دائمة بأنهم سيتخذون من أصدقاء أثينا وأعدائها أصدقاءً وأعداءً لهم جميعاً؛ وبذلك أسسوا تحالفاً دفاعياً وهجومياً دائماً بقيادة أثينا. وعلى أي حال، فإن تفسير الهيمنة قد يختلف هنا وهناك؛ ففي أولى سنوات هذا التحالف، كان الأثينيون هم «قادةُ جمعٍ من دولٍ حليفةٍ تتمتع باستقلال ذاتي وتشارك في مجالس التحالف المشتركة» [التي تعرف باسم "سنودس" synods]؛[1] والتي تولت في تلك الفترة رسم سياسات الاتحاد، واتخاذ القرارات أثناء الاجتماعات التي تعقدها في مقره في مدينة ديلوس، والتي لم يكن لأثينا فيها سوى صوت واحد. ومن الناحية النظرية، فإن أثينا كانت في هذه المجالس تُعد طرفاً مساوياً لغيره من دويلات مثل ساموس Samos، وليسبوس Lesbos، وخيوس Chios، بل وحتى سيريفوس Seriphos الأصغر حجماً. غير أن العمل وفقاً لهذه الآلية كان، في واقع الحال، يصب في صالح أثينا؛ إذ إن ما توافر لأثينا من قدرات

عسكرية وبحرية، ولضخامة حجم إسهاماتها نسبياً في تعزيز قدرات الحلف، والمكانة الرفيعة التي احتلتها المدينة بصفتها القوة الأكثر تأثيراً وهيمنة، قد كفل لها خضوع كثير من المدن والدويلات الصغيرة الضعيفة لنفوذها؛ في حين أن الدويلات الأكبر حجماً، التي ربما تشكل تحدياً لزعامة أثينا، سيمكن إلحاق الهزيمة بها من خلال فوز هذه الأخيرة بأصوات أكثر بكثير من تلك التي يمكن أن تحصل عليها تلك الدويلات. وبعد مضي سنوات عدة على تأسيس الحلف، كان بوسع المتمردين المضطهدين في ميتيلين Mytilene القول إن «الحلفاء كانوا أعجز من أن يوحدوا صفوفهم ويدافعوا عن أنفسهم جراء ضخامة عدد من يحق لهم التصويت».[2] ومع ذلك، فقد بدا أن التوافق والانسجام كانا سائدين في المرحلة المبكرة للتحالف ما بين أطرافه، صغيرها وكبيرها؛ وأن مقدار ما كانت تتمتع به أثينا من نفوذ كان متناسباً مع ما تقدمه من إسهامات. وهكذا، فإن ما أسعد أثينا منذ البداية هو تبوؤها موقع قيادة التحالف في غياب أي مظهر من مظاهر الاستبداد أو الخروج على القوانين النافذة.

ويبدو أن تحركات التحالف المبكرة ونشاطاته كانت قد حظيت بدعم جماعي جدي؛ فقد تمكن الحلفاء من طرد الفرس خارج ما تبقى لهم من معاقل قوية في أوروبا، ومن تأمين خطوط الملاحة في بحر إيجة بالقضاء على وكر للقراصنة كانوا قد أقاموه في جزيرة سكايروس Skyros. ومع توالي الانتصارات، وتراجع التهديد الذي يشكله الفرس، اعتبر عدد من الحلفاء أن الحاجة إلى التحالف ومتطلباته المرهقة قد انتفت. غير أن الأثينيين كانوا على صواب بقولهم إن الخطر الفارسي لم ينحسر تماماً، بل إنه سيتعاظم بمقدار تدني يقظة اليونانيين وحذرهم. وفي هذا السياق، قال ثوكيديدس Thucydides بكل وضوح: إن الأسباب الرئيسية التي كانت وراء حركات التمرد الأخيرة تكمن في رفض الحلفاء توفير الأموال والسفن الحربية التي سبق الاتفاق عليها، والوفاء بالخدمات والالتزامات العسكرية الواجبة التنفيذ. وهنا، يسارع الأثينيون إلى تحميل حلفائهم مسؤولية ما حدث، وبدا أنهم:

> لم يعد يسعدهم أن يكونوا قادة الحلف، وما عادوا يتصرفون كشريك مساوٍ لغيره في الحملات العسكرية التي يشنها التحالف، واعتبروا أن من السهل عليهم إخضاع الدول التي تسلك سبيل التمرد والعصيان. والمسؤولية كلها تقع على عاتق الحلفاء أنفسهم؛ إذ إن القسم الأعظم منهم قد حدد إسهاماته بشكل حصص مالية بدلاً من السفن الحربية، وذلك بسبب تخلف هؤلاء الحلفاء عن أداء الخدمة العسكرية كي لا يبتعدوا عن أوطانهم. ونتيجة لذلك، فقد ازداد الأسطول الأثيني حجماً بفضل هذه الإسهامات المالية. ولكن في حال تمرد بعض أطراف التحالف، فسوف يتعين على الأثينيين الذهاب إلى الحرب في غياب الموارد والخبرات اللازمة.[3]

وبعد مضي أقل من عشر سنوات على تأسيسه، وفي عام 469 على الأرجح، حققت قوات اتحاد ديلوس انتصارات ساحقة على الجيش والأسطول الفارسيين في المعارك التي دارت رحاها عند مصب نهر يوريمدون Eurymedon في آسيا الصغرى. غير أن هزيمة الفرس بشكل حاسم كهذا، ضاعفت من مشاعر استياء الحلفاء وسخطهم، ومن فظاظة الأثينيين وتدني شعبيتهم داخل التحالف. وكان للتمرد الذي اندلع في دويلة ثاسوس Thasos، وحصارها خلال الفترة 465–463، تأثيراً مشابهاً، فقد نجم عنه نزاع بين الأثينيين وأبناء ثاسوس، لم تكن له أي صلة بمقاصد الحلف وأغراضه.

وإلى جانب ذلك، فقد تسببت أولى الحروب البيلوبونيزية (نحو 460–445) في استنزاف ثروات أثينا ومواردها إلى أقصى حد، وشجعت العديد من الحلفاء على الانشقاق والعصيان. وفي منتصف خمسينيات القرن الخامس قبل الميلاد، جاء تدمير الحملة التي شنتها أثينا على مصر ليشكل الصدمة التي عجّلت في تحويل الاتحاد إلى إمبراطورية. ولعل هذا مثَّل في نظر كثيرين – وقتئذ – بداية انهيار أثينا كقوة متسلطة، وهو ما أدى إلى ظهور حالات تمرد جديدة. بيد أن الأثينيين سارعوا لسحق هذه الحركات بشكل خاطف ومؤثر، واتخذوا لاحقاً من التدابير والخطوات ما يضمن عدم تكرارها؛ فأقاموا في بعض الأماكن حكومات ديمقراطية موالية لهم وتعتمد عليهم كلياً. وفي بعض الأوقات أسسوا مواقع وثكنات عسكرية، وكلفوا مسؤولين أثينيين أحياناً بإدارة شؤون الدويلات التي

سبق أن تمردت عليهم. وفي أحيان أخرى، استخدموا مزيجاً من هذه الأساليب والتدابير. وعلى أي حال، فهذه كلها قد انطوت على انتهاك لاستقلال الدولة التابعة.

بل إن أثينا لجأت في أربعينيات القرن الخامس نفسه إلى إحكام قبضتها أكثر فأكثر على إمبراطوريتها، ففرضت على حلفائها استخدام الأوزان والمقاييس والعملات الأثينية، وإغلاق دور سك العملة المحلية، لتحرمهم بذلك من رموز ملموسة للسيادة والاستقلال. وحرصت أيضاً على تشديد قواعد تحصيل مبالغ الجزية وتسليمها، وجعلت أثينا مكاناً لعقد محاكمات أولئك الذين توجه إليهم تهمة انتهاك هذه القواعد وخرقها. ولم تتردد في استخدام القوة العسكرية ضد الدول التي تتمرد عليها أو ترفض دفع الجزية. وذهبت أحياناً إلى حد مصادرة أراضٍ تعود للدولة المنتهكة، ومنحها كأرض مستعمرة لحلفاء موالين، أو لمواطنين أثينيين. وفي حال ضمت مستعمرة كهذه مواطنين أثينيين، فيطلق عليها تسمية "مستوطنة خاصة" cleruchy؛ ولا يشكل أولئك الذين يستوطنونها مدينة مستقلة جديدة، وإنما يظلون مواطنين تابعين لأثينا. وكلما تمكنت أثينا من قمع حركة تمرد في هذه الدويلة أو تلك، فإنها تتجه عادة إلى إقامة نظام ديمقراطي فيها، وتجبر سكانها المحليين على ترديد قسم الولاء لها.

وفي ما يأتي نص اليمين التي فُرضت على شعب كولوفون Colophon:

> أقسم أن أفعل وأقول وأخطط كل ما تيسر لي مما هو صالح بالنسبة إلى شعب أثينا وحلفائها، ولن أضمر الكراهية والبغضاء لشعب أثينا فعلاً أو قولاً، سواء كان ذلك من جانبي شخصياً أو إذعاناً لطلب شخص آخر. وسأكن الحب لشعب أثينا ولن أهجر الخدمة العسكرية، ولن أسعى لتدمير النظام الديمقراطي في كولوفون، سواء كان ذلك من جانبي شخصياً أو إذعاناً لطلب شخص آخر، وسواء بالارتحال إلى مدينة أخرى، أو بالضلوع في مكائد تحاك هناك. وقسماً بزيوس Zeus، وأبولو Apollo، وديمتر Demeter، سوف أنفذ هذه الواجبات بكل إخلاص وفقاً لهذا القسم، دون خداع أو أذى. وفي حال حنثت بذلك، فليحل الدمار بي وبذريتي في كل الأزمان؛ وإن أنا وفيت بقسمي هذا فليكن الرخاء العظيم من نصيبي.[4]

ولم يمض سوى وقت قصير حتى باتت أثينا تفرض قسماً مشابهاً على أهل كالكيديا Chalcidia، باستثناء أن يمين الولاء صارت موجهة لا للتحالف بعامـة، وإنـما لـشعب أثينا قصـراً.

وفي عام 454-453، اتخـذ اتحـاد ديلـوس خطـوة حاسـمة عـلى طريـق التحـول إلى إمبراطورية عندما جرى نقل خزانته مـن ديلـوس إلى معبـد الأكروبـول* في أثينـا. وكـان التبرير الرسمي لذلك هو الخطر المتمثل في احتمال قيام الفرس بتوجيه أسطول بحري نحو بحر إيجة، خاصة في أعقاب الهزيمة الكارثيـة التـي لحقـت بأثينـا في مـصر، واضـطرارها لخوض حرب محتملة مع إسبارطة. وليس معروفاً إن كانت هذه المخاوف حقيقيـة أم أنهـا ليس إلا ذريعة. ولكن أثينا لم تضيع الوقت في السعي لجعل عملية التحول هـذه تـصب في صالحها. وابتداءً من تلك السنة، وحتى أواخر سنوات الحرب البيلوبونيزية، عمدت أثينـا إلى الاستحواذ على جزء من ستين جزءاً من مبالغ الجزيـة التـي يـدفعها الحلفـاء لتقـديمها قرابين للإلهة أثينا Athena Polias، حامية المدينة، وأصبحت الآن حاميـة الاتحـاد بعـد أن أعيد بناؤه. وقد أعطى الأثينيون لأنفسهم حرية التصـرف بـ "حـصة الآلهـة" هـذه كـيفما شاؤوا، وليس بالضـرورة لخدمة أغراض الاتحاد وغاياته.

ولا ريب في أن مثل هذه التغييرات المهمة والجذرية، التي أحالت اتحاداً طوعياً لحشد من الحلفاء إلى إمبراطورية "قسـرية" إلى حد بعيد تحكمهـا أثينـا، كانـت في عـالم الإغريـق القديم تتطلب تبريرات مقنعة. وشأنهم شأن غيرهم من شعوب الأزمان الغابرة، فقد كان للإغريق أيضاً مواقف ووجهات نظر حيال مفاهيم القوة، والغـزو، والإمبراطوريـة، ومـا يعود به كل منها من مكاسـب ومنـافع. فالعـالم في نظـرهم هـو حلبـة تنـافس حـاد، يعـد

* الأكروبول Acropolis: تعني هذه الكلمة المنطقة العالية، فقد اعتادت المدن اليونانية القديمة إقامة قلعة حصينة في أعلى منطقة من المدينة، وتضم عادة المعبد والخزنة، وتكون مركزاً دينياً وعسكرياً لها. (المحرر)

الانتصار والتسيّد فيها من بين أعظم الأهداف، لما يجلبانه من مجد ورفعة، في حين أن الاندحار والتبعية لا يعودان إلا بالخزي والعار. وطالما عبر الإغريق عن تقديرهم وإجلالهم للمبدأ الذي تبناه أخيل Achilles، أعظم أبطال الأساطير الإغريقية، القائل: «كنْ الأفضل دائماً وفي طليعة الآخرين قاطبة». وعندما أفسح العالم الأسطوري من أبطال الطبقة الأرستقراطية الطريق إلى عالم المدن-الدول، فقد تحولت المنافسة من نزاعات تنشب بين أفراد وأسر وقبائل إلى صراعات وحروب تدور بين مدن. في عام 416، أي بعد مضي أكثر من عشر سنوات على وفاة بيركليس، عرض عدد من مندوبي أثينا والمتحدثين باسمها على بعض مسؤولي ميلوس Melos رؤيتهم للعلاقات الدولية: «نحن نؤمن بأن الآلهة، بمقتضى طبيعتها، ستتولى دائماً الحكم متى ما دانت لها السلطة؛ ونحن نعلم بأن الإنسان، بمقتضى طبيعته، سيتولى دائماً الحكم متى ما دانت له السلطة».[5]

وعلى أي حال، فإن ما عرف بـ"حوار ميلوس" Melian Dialogue (وهو الوصف الذي صار يُطلق على هذا المقطع الشهير من كتاب ثوكيديدس حول السياسة الواقعية *Realpolitik* الدولية في العالم القديم)، كان قد انطوى على توصيف درامي لوضعية الإمبراطورية الأثينية المعقدة والمختلف عليها من الناحية الأخلاقية. ولم يأت البيان القاسي الذي أطلقته أثينا إلا بفعل مزاعم ميلوس القائلة بأن الآلهة ستقف إلى جانبها نظراً إلى أن الأثينيين يتصرفون بشكل مجحف حيال دويلة محايدة. وعلى الرغم من أن اعتراضات ميلوس كانت وليدة خطوات معينة اتخذتها أثينا (أو كانت تعتزم اتخاذها)، فإن الإغريق بعامة لم يستغربوا اعتراضاتها هذه، بل وربما تعاطفوا مع حججها وشكاواها؛ وهي بذلك - أي ميلوس - قد لعبت على وتر التعاطف الشديد الحساسية القائم ما بين الإغريق جميعاً. ومع أن الإغريق كانوا قد حرروا أنفسهم من مشاعر التحامل على السلطة والقوة وما يمكن أن تجلباه من أمن وأمجاد، إلا أن تجربتهم التاريخية قد اختلفت عن تجارب غيرهم من الأمم القديمة. ولم تتشكل ثقافتهم بتأثير من إمبراطوريات كبيرة، بل من دويلات صغيرة مستقلة؛ حتى صاروا على اقتناع بأن الحرية هي الوضع الطبيعي للإنسان الذي يترعرع في بيئة كهذه.

فلابد من أن يتمتع المواطنون بحرياتهم وحقوقهم الشخصية، وأن تعطى الحرية، سواء لهم في الحفاظ على دساتيرهم وقوانينهم وأعرافهم، أو لدويلاتهم في إدارة شؤون علاقاتها الخارجية، وفي التنافس على امتلاك القوة والمجد. وقد آمن الإغريق أيضاً بأن الحرية، التي تحققت بفضل وجود دويلاتهم بحد ذاته، قد خلقت مواطنين من نوع متفوق فخور بنفسه، ونمطاً متميزاً من القوة. والدويلة الحرة المستقلة، في تقديرهم، إنما هي أعظم من أقوى كبريات دول العالم. بل إن شاعر القرن السادس فوسيليديس Phocylides لم يتردد عن مضاهاتها بالإمبراطورية الآشورية العظيمة بقوله: «دويلة صغيرة تمارس حياتها بشكل اعتيادي من موقع رفيع المستوى، أعظم من نينوى الخرقاء».[6]

وفي حال دخلت إحدى هذه المدن-الدول في حرب مع أخرى، فإن من تؤول إليها الغلبة منهما تُخضع لسيطرتها تقليدياً أرضاً تتوسط المدينتين المتصارعتين، لتتحول هذه في الأغلب إلى سبب لنزاع دائم بينهما. ولا يتم في العادة "استعباد" الطرف المندحر أو اغتصاب أراضيه أو احتلالها. وفي إطار قضايا مثل هذه، وكما في كثير غيرها، يلجأ الإغريق إلى تطبيق معايير مزدوجة يعمدون من خلالها إلى تمييز أنفسهم عن سواهم من الشعوب الدخيلة التي لا تتحدث اللغة اليونانية، ولم تتحدد ملامحها وسماتها وفقاً للتقاليد الثقافية الإغريقية. ومادام أبناء هذه الشعوب لم ينشؤوا ويترعرعوا كأشخاص أحرار داخل مجتمعات حرة، بل عاشوا حياتهم عبيداً لحكامهم، فمن الواضح أنهم أمسوا عبيداً بالفطرة، فلا ضير على الإطلاق من إخضاعهم واستعبادهم فعلياً. وفي الناحية الأخرى، فإن الإغريق أحرار فطرياً، وكما برهنوا على ذلك من خلال بناء مؤسسات ليبرالية في دويلاتهم والعيش في ظلها. وتأسيساً على هذا، فليس من الصواب قطعاً فرض السيطرة على شعب كهذا (أي الإغريق)، وحرمانه من حريته واستقلاليته.

هذا ما كان يؤمن به الإغريق، ولكنهم لم يتصرفوا طبقاً لما آمنوا به دائماً. ففي مراحل مبكرة جداً، أقدم الإسبارطيون على استعباد مواطنين إغريق يقيمون في مقاطعتهم المسماة

لاكونيا Laconia، وفي مدينة ميسينيا المتاخمة لها، واتخذوا منهم أرقاء تابعين للدولة. وفي القرن السادس، أنشأت إسبارطة الاتحاد البيلوبونيزي، كتحالف كان للإسبارطيين فيه سلطات واسعة للتحكم بالسياسات الخارجية لأطراف الحلف. ومع ذلك، فإن إسبارطة لم تكن، في الغالب، تتدخل في الاتفاقات والترتيبات التي تعقدها المدن الحليفة في ما بينها، والتي احتفظت باستقلاليتها، وإن ظاهرياً. وخلال العقدين اللذين أعقبا الحرب الفارسية، بدا أن قوات دويلة أرغوس Argos قد أزالت مدناً من الوجود في إقليم أرغوليدا Argolida، واغتصبوا أراضيها. ومع ذلك، فإن انحرافات كهذه عن المبادئ الأخلاقية الأساسية عدت ممارسات نادرة وطارئة، ولم تضع نهاية لطموح الإغريق بشكل عام في العيش أحراراً في مدنهم المستقلة، وليس مجرد رعايا إمبراطوريات كبرى.

وبرغم ذلك، فإن الإغريق قد تشاطروا معتقداً آخر يتعارض مع نزعة الاستمتاع بالقوة والإمبراطورية التي تبعث على الاطمئنان والارتياح. فقد اعتقدوا أن كل ما يعمل البشر على تكديسه وتجميعه إلى حد مبالغ فيه، فلابد أن يقود، عبر سلسلة من المراحل، إلى ما سمّوه "الغطرسة". وقد اعتبروا أن أناساً كهؤلاء قد تخطوا الحدود التي وضعتها الإنسانية، وبذلك جلبوا على أنفسهم اللعنة، والغضب الإلهي، والقصاص. وكانت هذه في مجملها الأفكار الرئيسية التي انبثقت من مهبط الوحي في ضريح أبولو بمدينة دلفي Delphi، حيث يمكن العثور على التحذيرين الإلهيين للإنسان كي يتفادى الإصابة بالغطرسة، وهما: "اعرف نفسك"، و"لا لتجاوز الحد". وفي القرن الخامس، فإن الأمثولة الأكبر للغطرسة واللعنة بالنسبة إلى اليونانيين هي التي تمثلت في المصير الذي آل إليه زركسيس العظيم، ملك الإمبراطورية الفارسية، حيث أشعرته قوته بالغطرسة ما أعمى بصيرته، ودفعت به إلى السعي لتوسيع نطاق حكمه ليشمل البر الرئيسي لليونان، فجلب بذلك الكارثة على نفسه وشعبه.

وبهذا، فعندما تولى الأثينيون زعامة تحالف يوناني في أعقاب الحرب الفارسية، والتي درت عليهم – أي الزعامة – الثروة والقوة، وبعد أن تحول هذا التحالف إلى إمبراطورية

بإقرار الجميع صـراحة، فإن طرق التفكـير التقليديـة لم تـأتِ بمبـادئ وقواعـد توجيهيـة صلبة. وسواء أكانت ملموسة أم غير ذلك، فقد كثرت المزايا التي عادت بها الإمبراطورية على اليونانيين، ولعل المكاسب المالية أشدها وضوحاً. فالعوائـد التـي تعـين عـلى الحلفـاء دفعها بصورة مباشـرة بشكل جزية وتعويضات وجزاءات أخرى غير محـددة، كانـت مـع بداية الحرب البيلوبونيزية قد بلغت 600 طالين [أو قنطار = 100 رطل]. ومن أصـل 400 طالين الإضافية التي كانت ترد سنوياً إلى خزينة أثينا، كان يتم تأمين جانب كبير منهـا مـن سائر بقاع الإمبراطورية بشكل سلع مستوردة، وعوائـد يـدرها ميناء بيريـوس، ورسـوم محاكمات يدفعها مواطنو الدويلات الحليفة، الذين كانت قضاياهم تـسمع في محـاكم أثينـا. ولم يفت أثينا جني الأرباح في المجالات والقطاعات الخاصة مـن خـلال تـوفير الخـدمات لكثير من الزائرين الذين كانوا يتوافدون على بيريوس وأثينا لأغراض قضائية أو غيرها، أو ليشهدوا عظمة أثينا نفسها، والتي ما كانت لتتحقق لها إلا بتأسيس الإمبراطورية.

وثمة من كان يحسب أن هذه العوائد "الإمبراطورية" كانت ضـرورية للحفـاظ عـلى النظام الديمقراطي، من خلال توفير الأموال اللازمـة لإنجـاز المـشـروعات والخـدمات العامة على مستوى الإمبراطورية عامة. غير أن الشواهد الملموسة تنبئ بخلاف ذلك. فقد طبقت الضـرائب والغرامات قبل أن يبدأ الأثينيون بالاحتفاظ بجزء من ستين جـزءاً مـن إجمالي مبالغ الجزية لأنفسهم. بل إن ما كان ذا مغزى أكبر هو أن أثينا ما برحت تمـول هـذه الخدمات حتى بعد زوال الإمبراطورية وما تدره من عوائد مالية. ومن ناحية أخرى، فـإن هذه المدفوعات كانت قد طبقت أول مرة عندما صار نجاح الإمبراطورية يدر ثروة عظيمة على أثينا بشكل غنائم كبيرة، ويسهم في تنامي النشاطات والعمليـات التجاريـة، وكـذلك عندما تخطت - أي هذه المدفوعات - حدود الضـرائب الاستثنائية التي تفـرض عـادة في الحالات الطارئة خلال السنوات التي سبقت تطبيق ما سمي "ضـريبة العـشـر" في أثينـا. وبأي حـال، مـن المـرجح أن أهـل أثينـا - في عهـد بيركلـيس - عقـدوا صـلة بـين نمـو الديمقراطية وازدهارها وبين منافع الإمبراطورية ومكاسبها.

وبصرف النظر عن العوائد المالية المباشرة، وما اعتبروه دعماً مالياً لنظامهم الديمقراطي، فقد حظي سكان أثينا أيضاً بمنافع ربما يغدو من الملائم وصفها في الوقت الحاضر بـ "جودة الحياة". وبحسب ما جاء في "الأوليغاركي القديم" Old Oligarch [انظر الهامش 7]، فإن الإمبراطورية قد أتاحت للأثينيين فرص الاختلاط بشعوب تنتمي لمناطق كثيرة، فأمكنهم بذلك اكتشاف:

> مختلف وسائل الترف والرفاهية؛ وبفضل تحكمها بالملاحة البحرية، فقد أمكن لأبناء أثينا جلب كثير من البضائع والسلع المتميزة التي يتم إنتاجها في صقلية، وإيطاليا، وقبرص، ومصر، ومملكة ليديا، وإقليمي بونتوس Pontus وبيلوبونيز، أو أي مكان آخر. وهم يستمعون لجميع اللهجات، فيأخذون شيئاً من هذه، وآخر من تلك. وإذا كان سائر الإغريق يميلون إلى التمسك بلهجتهم وبنمط عيشهم ولباسهم، فقد توافرت للأثينيين عناصر مختلطة تختص بالإغريق والأجانب جميعاً.[7]

وفي السياق نفسه، يعرض علينا شاعر ساخر معاصر قائمة أكثر تفصيلاً بالكماليات والأطعمة والأدوات والسلع الفاخرة المجلوبة من الخارج، التي حرصت الإمبراطورية على جعلها في متناول أبناء أثينا:

> من قورينة Cyrene يرد نبات السيلفيوم silphium وجلود الثيران؛ ومن هيليسبونت Hellespont (مضيق الدردنيل) سمك الماكريل وكل أنواع الأسماك المملحة؛ ومن إيطاليا الملح وأضلع البقر...؛ ومن مصر الأشرعة والحبال؛ ومن سوريا البخور؛ ومن كريت شجر السرو لتقديمه إلى الآلهة؛ وتعرض ليبيا ما يمكن شراؤه من كميات وفيرة من العاج؛ ومن رودوس الزبيب والتين الحلو؛ ومن يوبويا Euboea الكمثرى والتفاح الحلو؛ أما العبيد فمن فريجيا Phrygia... وتبعث باساجاي Pagasae بالعبيد الموشمين؛ ومن بافلاغونيا Paphlagonia تأتي التمور واللوز الزيتي، ومن فينيقيا التمور أيضاً ودقيق القمح الناعم؛ وتبعث قرطاج بالسجاد والوسائد متعددة الألوان.[8]

وبحسب ما جاء في "الأوليغاركي القديم"، فهذه «مواد أدنى أهمية»؛ ولكنها أسهمت في أن تجلب إلى الأثينيين في عقر دارهم منافع الإمبراطورية، وعوائد السيطرة على البحار التي ما كانت لتتحقق إلا بفضل هذه الإمبراطورية.

ولعل المزيّة الأعظم للإمبراطورية كانت أقل وضوحاً من أي من هذه المواد؛ وهي التي كانت تشبع أحد عناصر الطبيعة البشرية الأكثر شيوعاً لدى العديد من الثقافات وعلى مدى قرون عدة؛ فمعظم البشر يميل كل منهم إلى رؤية نفسه قائداً لا تابعاً؛ حاكماً وليس محكوماً. ومن هنا، فقد كان الأثيني يفاخر مزهواً بعظمة دولته. وفي وصفه لسبل انتفاع الأثينيين من مجيء مواطني الدويلات الحليفة إلى محاكم أثينا طلباً لإحقاق العدالة، يأتي في "الأوليغاركي القديم" كيفية استمتاع المواطن العادي بمشاعر الفخر تلك:

> إن لم يأت مواطنو الدويلات الحليفة إلى المحاكمات، فإنهم لن يحترموا إلا أولئك الأثينيين الذين يسافرون إلى الخارج؛ وأعني بهم جنرالات الجيش، وقادة السفن الحربية، والسفراء. وعلى أي حال، فإن أياً من هؤلاء المواطنين، مجبر في ضوء الوضع الراهن على مداهنة عامة الناس في أثينا وكسب ودها، إدراكاً منه، بعد أن وفد إلى أثينا، أن ما سيناله من عقاب أو ثواب وفقاً للقانون، مرهون بموقف عامة الناس حياله. وهذا هو جوهر القانون المتبع في أثينا. وبناء عليه، يغدو لزاماً أن يردّ على الخصم بكل تواضع في المحاكم، وأن يمسك بأيادي الناس عند دخولهم متضرعاً متوسلاً. ولا ريب في أن هذا الوضع يعزز تبعية مواطني المدن الحليفة لشعب أثينا وخضوعهم له.[9]

وعند الأخذ في الاعتبار جميع المكاسب التي جلبتها الإمبراطورية لمواطني أثينا، فإن سجل "الحسابات اليومية" الإمبراطوري لم يكن يفتقر إلى التوازن كلياً؛ لأن حلفاءها كانوا أيضاً يتلقون عوائد مهمة لقاء الإسهامات التي يقدمونها إلى التحالف. ولعل أهم هذه العوائد حصولهم على الحرية من نير الحكم الفارسي (وهو الهدف الأساس وراء تشكيل اتحاد ديلوس)، واتفاق السلام الذي دخل كلياس الأثيني Athenian Callias، ابن هيبونكس Hipponicus، في مفاوضات مع الإمبراطورية الفارسية بغية التوصل إليه. وإذا

علمنا أن المدن الأيونية كانت طوال أكثر من قرن إما رازحة تحت حكم البرابرة، أو تكافح للخلاص منه، فإن تحقيق إنجازات من هذا النوع كان مهماً. ولا خلاف على أن النجاحات التي حالفت كلاً من الاتحاد والإمبراطورية قد وفرت على نحو غير مسبوق حرية الإبحار في مياه بحر إيجة. ولنا أن نضيف هنا أن الحملات العسكرية التي استهدفت فارس قد درت قسطاً كبيراً من الغنائم والمكاسب على حلفاء الاتحاد الذين شاركوا فيها؛ فضلاً عن أن الطفرة التجارية التي زادت أثينا ثراءً، عادت بثروات كبيرة على حلفائها. وبكلمة موجزة، فإن الأثينيين قد حققوا لكل الإغريق في حوض بحر إيجة وحولها الحرية، والسلام، والرخاء.

وإذا كانت التدخلات التي مارستها أثينا، كما يرى كثيرون، قد أتت بنظم الحكم الديمقراطية، فإن هذا لم يكن الهدف الذي وضعته أثينا نصب عينيها. فكلما أمكنهما ذلك، فإن بيركليس وأثينا كانا يتركان هذا النظام أو ذاك في حاله، حتى لو كان أوليغاركياً* أو استبدادياً. وما كانا ليفرضا نظاماً ديمقراطياً هنا أو هناك إلا عندما يجبرهما المتمردون على التدخل، برغم أن هذا لم يكن هو ما يحصل دائماً؛ إذ لم تكن سياسات بيركليس على الصعيد الإمبراطوري ذات طابع أيديولوجي، بل اتسمت بالحصافة والبراغماتية من حيث الجوهر. وعلى الرغم من ذلك، فقد حرص الأثينيون خلال الأعوام اللاحقة على تنصيب كثير من النظم الديمقراطية في عموم أرجاء الإمبراطورية، وتقديم الدعم والإسناد لها في صراعاتها مع خصومها في الأنظمة الأوليغاركية أو الاستبدادية. وعند النظر إليه من منظور واقع القرن العشرين، فإن شيئاً كهذا ربما بدا واحداً من المكاسب الخالصة التي حققتها الإمبراطورية؛ بيد أن لا أحد في عهد بيركليس كان يراه على هذا النحو.

* كثيراً ما يرد في هذا الكتاب مصطلح النظم الأوليغاركية (ومنها إسبارطة) في مقابل النظم الديمقراطية (ومنها أثينا). ويعني مصطلح الأوليغاركي في هذا السياق "حكم القلة"؛ أي تكون السلطة السياسية محصورة بيد فئة صغيرة من المجتمع تتميز بالمال أو النسب أو السلطة العسكرية. (المحرر)

فالديمقراطية كانت في نظر الأرستقراطيين بخاصة، وأبناء الطبقات العليا بعامة، تمثل نظام حكم غريباً، وغير سوي، وسوقياً، وجائراً، وغير كفء. ولم يكن هؤلاء وحيدين في التعبير عن استيائهم حيال الدور الذي أدته أثينا في مد يد العون والدعم للأنظمة الديمقراطية. فحتى أبناء الطبقات الدنيا في عدد من المدن اليونانية، إن لم نقل في معظمها، كانوا يعتبرون تدخل أثينا في شؤونهم السياسية والدستورية انتقاصاً من حريتهم واستقلاليتهم. وربما كانوا يفضلون دستوراً غير ديمقراطي من دون تدخل أثينا، على حكومة ديمقراطية تتدخل أثينا في شؤونها.

وهناك من الكتاب والباحثين المعاصرين من حاول البرهنة على أن هذا الدعم الذي قدمته أثينا للديمقراطية هو الذي عزز شعبية الإمبراطورية لدى جماهير العامة في المدن الحليفة لها، وأن منظور العداء، الذي زعم أن هذه الجماهير باتت تتطلع إلى الإمبراطورية من خلاله، إنما هو نتاج أعمال التحريف والتشويه التي سببها انحياز الكتاب القدامى إلى معسكر طبقة النبلاء والأرستقراطيين ومحاباتهم لهم. ومع ذلك، فإن الرأي الذي حظي بالإجماع عليه يشدد على نفور جميع الطبقات تقريباً من الإمبراطورية من حيث الأساس، باستثناء فرق صغيرة من الساسة الديمقراطيين الذين كانوا يجنون منافع مباشرة من مؤازرة أثينا لهم. وما من سبب يدعونا للتشكيك في الرأي الذي شاع قديماً والقائل بأن الإغريق خارج إمبراطورية أثينا تبنوا موقفاً عدائياً حيالها، خاصة من كان يقيم داخلها منهم، بل إن هناك بين الأثينيين أنفسهم من احتج على ما اعتبروه تصرفات لا أخلاقية من جانب أثينا حيال حلفائها في الإمبراطورية.

وقد أخذ بيركليس على عاتقه إيجاد المبررات لمضي أثينا قدماً في بسط هيمنتها، وفي جبي الجزية. وفي ما يتعلق بالمدن المتحالفة مع أثينا، جاء التبرير مقترناً بإحداث تغيير في الفكرة التي أقيم الاتحاد تأسيساً عليها. ففي بادئ الأمر، كان بعض أطراف الاتحاد مستعمرات أقامتها أثينا نفسها. ووضعية "المستعمرة"، في تقدير الإغريق، تنطوي على

علاقات أسرية تبعث على الفخر والتباهي، وليس على الشعور بالدونية. ولطالما ادعى الأثينيون، إلى جانب ذلك، بأنهم هم من أسس المدن الأيونية؛ والأيونيون من جانبهم لم يتقبلوا هذه المزاعم فحسب، بل واستخدموها لإقناع الأثينيين باعتلاء كرسي الزعامة في المقام الأول. وقد حل موعد نقل خزانة الاتحاد خلال السنة التي تقرر إقامة الاحتفال الديني الذي يجري كل أربع سنوات خلالها في أثينا، وهو المعروف باسم "احتفال عموم أثينا العظيم". وتتميز العلاقات التي تربط المستعمرة بالمدينة الأم بالمتانة، ويتم التأكيد على قوة هذه العلاقات والإشادة بها خلال مثل هذه الطقوس والشعائر الدينية. وكان بين الأعراف المعتادة بالنسبة إلى حلفاء أثينا أن يأتوا ببقرة وطقم كامل من الدروع الحربية إلى هذا الاحتفال رمزاً للبيعة والولاء، وليس فرضاً واجب الأداء. ومن هنا، فإن هذا الاحتفال قد أنعم على المستعمرة بشرف المشاركة في الموكب الكبير الذي يتجه نحو المزار المقدس للإلهة أثينا عند مركز المدينة الديني والعسكري (الأكروبول)، وهكذا، ومنذ الآن، فإن حلفاء أثينا قاطبة سيتشاركون هذا الشرف.

وقد لا نكون بحاجة إلى الاعتقاد بأن كل الحلفاء كانوا يشعرون بالامتنان لهذا الشرف، أو أنهم وجدوا في زخرف العلاقات الاستعمارية سبباً مقنعاً لمواصلة تقديم الضرائب والإسهامات من جانبهم، ولاسيما أن الظروف الحالية باتت تختلف كثيراً عن تلك التي عايشوها من قبل. ولسوف تتعاظم شكوكهم قطعاً بتأثير شروط معاهدة السلام التي عقدت مع الإمبراطورية الفارسية، والتي كان كلياس قد دخل المفاوضات بشأنها عام 449: «تمنح جميع المدن الإغريقية في آسيا حكماً ذاتياً؛ ولا يجوز لأي حاكم فارسي أن يكون قريباً من البحر مسافة تعادل رحلة ثلاثة أيام؛ ولا يجوز لأي سفينة حربية فارسية الإبحار في المياه التي تقع بين فاسيليس Phaselis وما يعرف بـ "الصخور اللازوردية" Cyanean rocks. وفي حال التزم الملك وكبار ضباطه بهذه الأحكام، فلا يجوز للأثينيين شن أي حملة عسكرية ضد البلد الذي يمارس عليه الملك سلطته».[10] وبمقتضى هذه المعاهدة، فقد تخلى الفرس عن مطالبتهم بالدويلات الإغريقية التي تقع في منطقة بحر إيجة وعلى سواحله،

وكذلك خط الملاحة الأثيني الحيوي الذي يمتد عبر مضيق الدردنيل حتى البحر الأسود. وبذلك تكون الحروب الفارسية قد وضعت الآن أوزارها حقاً، وآن للأثينيين أن ينسبوا لأنفسهم إنجاز الانتصار الذي لم يكمله الإسبارطيون.

وبرغم عظمة تلك اللحظة التاريخية، إلا أنها أثارت أسئلة جدية عدة؛ فمع أن كيمون Cimon، الداعية الصلب لدخول الحرب مع فارس، كان قد قضى نحبه وقتئذٍ، فإن أمثولته وذكراه وأصدقاءه، ما برحوا يثيرون الشكوك حول سلام يُعقد مع من أصبح الآن العدو التقليدي لأثينا. وإضافة إلى ذلك، فإن كان هناك سلام مع الفرس حقاً، أفيعني هذا نهاية للإسهامات التي يقدمها الحلفاء، وللاتحاد نفسه، ومعهما الهيمنة الأثينية؟

وهنا، وفي ما يتعلق بالمعضلة الأولى المتعلقة بسياسات أثينا، يأتي بيركليس ليضيف لمسة بارعة. فقد كان اختيار كلياس للتفاوض باسم أثينا خطوة مهمة للغاية؛ فهو صهر كيمون، زوج ألبينك Elpinice. وجاء تكليفه بهذا الدور المركزي دليلاً على ديمومة الصداقة القائمة ما بين بيركليس وكيمون التي ظلت حية حتى بعد وفاة هذا الأخير. وقد بذل جهداً عظيماً للفوز بتأييد حزب كيمون لسياسة أثينا الجديدة. وعبر ارتباطات أخرى عدة، تمكن بيركليس من عقد صلات وثيقة مع أنصار كيمون دامت لسنوات قادمة كثيرة. وعلى حد تعبير باحث معاصر، فإن «وراء السياسات العامة للدولة الأثينية تقف السياسات الأسرية للبيوتات المهمة؛ وهو الميدان الذي امتلك فيه بيركليس خبرة واسعة».[11]

وفي حال صحت عملية إعادة هيكلة الأحداث على يد مؤرخ معاصر كبير، فإن سياسات بيركليس قد اكتسبت – في ما يبدو – بعداً عاماً أيضاً. ففي أعقاب الانتصار الذي حققه في قبرص، تبرعت أثينا، تعبيراً عن امتنانها للآلهة، بعُشر غنائم الحرب، وكلفت الشاعر سيمونيديس Simonides إحياء ذكرى هزيمة الفرس. كما «أشادت بالصراع من أجل قبرص بوصفه أعظم الأعمال المجيدة التي شهدها العالم على الإطلاق؛ والذي يمثل في الوقت نفسه الأثر الأهم الباقي من الحرب الفارسية بأسرها، والتي كان

التوجه إلى خوضها قد تجسد في شخص كيمون».[12] ولنا أن نفترض هنا وقوف بيركليس وراء هذه الحملة الدعائية، التي انطوت ضمناً على القول إن كسب الحرب إنما تحقق بانتصار أثيني عظيم، وليس نتيجة لإبرام معاهدة سلام تمخضت عنها المفاوضات التي جرت بين الطرفين، وربطت أيضاً - أي الحملة - اسم كيمون بسياسات بيركليس الجديدة. وفي غضون ذلك، فإن حفل تأبين كيمون كان إيماءة أريد منها لفت انتباه أصدقائه واستمالتهم.

لقد كان بيركليس بحاجة لإشاعة الوفاق ووحدة المواقف في أثينا؛ فعلى الرغم مما تحقق من سلام، فهو لم يكن يفكر بالتخلي عن الاتحاد الذي تحول الآن إلى إمبراطورية، ولا يرغب في التضحية بما ارتبط بهذه الإمبراطورية من أمجاد، وثروات، وقوة سياسية وعسكرية. وبمعنى أوسع، فقد كانت أثينا بحاجة للإمبراطورية لحماية أمنها، وتوفير الدعم لفكرة خلق المجتمع الديمقراطي العظيم وصيانته، وهي الفكرة التي كانت تراود عقل بيركليس. وتطلب أحد جوانب هذه العظمة الشروع ببرنامج بناء وإعمار باهظ الكلفة، لم يكن تنفيذه ممكناً إلا بالاعتماد على تمويلات خزانة الإمبراطورية لتلبية أغراض غير عسكرية وأثينية محضة هذه المرة. لذا فقد بات بيركليس والأثينيون معاً ملزمين بإيجاد تبريرات، سواء لإجبار الحلفاء على مواصلة دفع الضرائب والجزية التي اعتادوا دفعها، أو لإعادة توظيفها في أغراض جديدة.

ولكن الاضطرابات كانت قائمة بالفعل داخل الإمبراطورية؛ ففي عام 454-453، كانت قائمة الجزية قد ضمت 208 مدن، ويقدّر ما تدفعه من مبالغ بأكثر من 498 طالين. غير أن هذه القائمة تقلصت بعد أربع سنوات لتضم 163 مدينة فقط، لا يزيد إجمالي ما تدفعه على 432 طالين. بل إن بعضها دفع جزءاً مما ترتب عليه، وبعض آخر تأخر في التسديد، فيما لم يسدد ثالث شيئاً على الإطلاق. وشاعت وقتذاك مظاهر التردد، وحالات التشكيك، وتعالت صيحات الاعتراض والاحتجاج، لتضع وجود الإمبراطورية ذاته أمام خطر

الزوال، فيما باتت التهديدات القادمة من إسبارطة تلوح في الأفق في الوقت ذاته. ومع أن أمد الهدنة التي توصل إليها كيمون عن طريق التفاوض كان سينقضي في غضون سنوات قلائل، فإنه لم يعد في عداد الأحياء كي يقلل من حدة مخاوف إسبارطة. وهكذا، فالخلافات الحادة ظلت محتدمة بين هاتين القوتين، في غياب أي اقتناع بإمكانية التغلب عليها من دون الذهاب إلى الحرب، لكن خطط بيركليس ومشروعاته كانت تتطلب شيوع السلام.

وبعيد إبرام معاهدة السلام التي تحققت على يد كلياس، وفي مسعى منه لحسم مشكلاته، يتقدم بيركليس بمقترح بدا أنه الأكثر براعة ودهاء، ويقوم على

> دعوة الإغريق قاطبة، أينما أقاموا، سواء في أوروبا أو في آسيا، أو في المدن الصغيرة أو الكبيرة، لإرسال مندوبين عنهم إلى مؤتمر يُعقد في أثينا، للتشاور بشأن الأماكن المقدسة التي دمرها البرابرة، وبشأن التضحيات التي يتعين عليهم [أي الإغريق] تقديمها، والتي وعدوا الآلهة بها عندما دخلوا في حرب مع أولئك البرابرة، وبشأن السيطرة على البحر كي يتمكن الجميع من الإبحار فيه دون خوف والحفاظ على السلام.[13]

ويبعث بيركليس برسله إلى جميع أركان العالم الإغريقي حاملين دعوته «للمشاركة في تنفيذ خطط إحلال السلام وحماية المصالح اليونانية المشتركة». وطبقاً لأحد الباحثين، كان بيركليس «يناشد العالم الإغريقي تأسيس كيان آخر يأخذ على عاتقه القيام بما كان ينبغي على التحالف اليوناني الذي أسس في عام 480، بزعامة إسبارطة، أن يقوم به ولم يفعل، وتلبية متطلبات زمن السلم، التي تولى اتحاد ديلوس حتى الآن النهوض بها».[14] والأكثر من ذلك هو أن هذه الدعوة حملت معها تطلع أثينا لتبوؤ موقع زعامة الإغريق على أسس جديدة. فإن كانت الحرب قد وحدت صفوف اليونانيين في الأصل، فإن الحفاظ على السلم والأمن من شأنه تمتين ركائز وحدتهم ابتداءً من الآن فصاعداً. وهكذا، فإن مبادئ ومفاهيم كالورع والتقوى، والإيمان ووحدة الفكر، والحضارة الهيلينية، وحماية الصالح العام، باتت الآن تمثل مبررات لاستمرار الولاء وتقديم التضحيات.

فهل كان بيركليس نزيهاً صادقاً في دعوته هذه؟ فالمعابد التي أحرقها الفرس يقع معظمها في منطقة أتيكا، والقسم الأكبر من قطع الأسطول الذي يفترض به حماية السلم والحفاظ عليه سيكون أثينياً في المقام الأول. وعلى هذا، فلعل بيركليس وضع في حسابه أن ترفض إسبارطة وحلفاؤها مقترحاته تلك؛ فتقدم له بالتالي مبرراً يدعوه لتوطيد دعائم إمبراطوريته. ومن جهة أخرى، فإن بيركليس ربما كان يحاول بصدق أن يحقق للإغريق جميعاً حريتهم، وأمنهم، ووحدتهم من خلال مشروعه هذا. إن وجهات النظر المشككة تغفل الحقائق التي تمثلت في محاولات بيركليس استحضار أفكار كيمون القائمة على المصالحة والتقارب. كما أن اتفاق الهدنة الذي أبرمه مع إسبارطة كان يؤمل له أن يكون مدخلاً لسياسة "السلام الدائم" الجديدة التي كان يدعو إليها. بيد أن صورة بيركليس، كداعية قليل الحماسة لبناء التعاون الهيليني الجامع، لم تحمل معها الامتيازات والمنافع الكبيرة لأثينا في حال انعقاد المؤتمر الذي دعا إليه ومصادقته على مقترحاته.

ومن المرجح أن بيركليس ربما كان يأمل أن تقبل إسبارطة دعوته؛ فالسياسة التي اعتاد الجناح المتشدد في إسبارطة انتهاجها قد جلبت عليها الكوارث، ومكّنت أثينا من بلوغ منزلة أرفع مستوى بكثير. ومن ثمّ، فإن موافقة إسبارطة على الاتفاقية التي عرفت باسم "سلام السنوات الخمس" عام 451، تنبئ بضعف موقف هذا الجناح. وقد لا نبتعد عن المنطق إن افترضنا أن التيار الداعي للسلام [في إسبارطة] الذي أخذ انطباعاً إيجابياً عن التحالف غير المتوقع الذي أقامه بيركليس مع كيمون وتبنيه سياسة خارجية جديدة واضحة، ربما استغل الاضطرابات التي باتت تواجه أثينا في إمبراطوريتها البحرية من أجل التفاوض على إقامة سلام دائم، وكما حدث في عهد كيمون. ولعل هذا التطور كان سيحقق لبيركليس أهدافه، وقد يمثل انتصاراً دبلوماسياً لسياسته الإمبريالية السلمية الجديدة.

أما إن كانت إسبارطة سترفض مشروعه، فلم يكن هناك ما سيخسره، بل لعله كان سيكسب كثيراً. فأثينا كانت ستثبت تمسكها بفكرة توحيد الروح الهيلينية، وبتقواها

وعقيدتها الدينية، وبتطلعها لقيادة الإغريق لما فيه صالحهم العام. وهكذا، فهي ستمتلك أساساً أخلاقياً صريحاً تقيم عليه مساعيها الرامية لبلوغ أهدافها وغاياتها دون عائق أو اعتراض من أحد.

غير أن إسبارطة ترفض الدعوة الموجهة إليها للمشاركة في تنفيذ خطة "التعاون الدولي" الجديدة هذه، أما المؤتمر المقترح فلم ير النور. وجاء هذا الحدث ليذكّر العالم الإغريقي باستعداد أثينا لتكون في الطليعة صوب النهوض بهذه المهمة المقدسة، وليوفر لها المبرر الذي كانت تحتاجه لإعادة بناء معابدها. وبهذا، لم يعد هناك ما يعترض سبيل بيركليس نحو استعادة النظام من جديد داخل الإمبراطورية، ومواصلة جبي الجزية وفقاً لأسس جديدة، واستخدام العوائد المتحققة في تنفيذ ما كان يجول في ذهنه من مشروعات وخطط.

وفي هذا الشأن، فإن أوراق البردي، المحفوظة اليوم في ستراسبورج، والتي تمزق بعض أجزائها، تقدم تصوراً جيداً لهذه الخطط؛ فهي تنقل لنا مرسوماً كان بيركليس يعتزم إصداره صيف عام 449، وبعيد فشل المؤتمر المقترح مباشرة. فقد كان ينوي سحب خمسة آلاف طالين من خزانة الإمبراطورية لتمويل مشروع بناء المعابد الجديدة في أكروبول أثينا؛ إضافة لمائتي طالين أخرى، يتم تحويلها سنوياً على مدى السنوات الخمس عشرة اللاحقة، لاستكمال العمل في هذا المشروع وإنجازه كلياً. ومع ذلك، لم يكن هذا المشروع يتعارض مع خطة صيانة الأسطول وإدامته، التي اتخذت مبرراً لمواصلة جبي الجزية. وكان على مجلس المدينة أن يشرف على إجراء إصلاحات مهمة وشاملة في السفن القديمة، على أن تضاف عشر سفن جديدة للأسطول سنوياً. وعلى أي حال، فإن كان هناك اعتراض من قبل، فلا اعتراض اليوم على الإطلاق؛ فقد تحول اتحاد ديلوس، أو تحالف الدول المستقلة، إلى ما بات الأثينيون أنفسهم بشكل متزايد يطلقون تسمية "إمبراطورية" عليه؛ ليكون بذلك المؤسسة التي ما فتئت تدر عليهم منافع مشتركة فريدة من نوعها، برغم خضوعها لهيمنة أهل أثينا.

ولم تمض سوى سنوات قلائل على بدء تنفيذ المشروع الجديد حتى وجد بيركليس نفسه في مواجهة معارضة حادة من جانب عصبة سياسية كبيرة بزعامة ثوكيديدس، إبن مليسياس Melesias، الخطيب اللامع والقائد السياسي المحنك. وقد لجأ ثوكيديدس إلى استخدام الانتقادات الشخصية المعتادة كسباً للدعم والتأييد، زاعماً أن بيركليس كان يسعى لتنصيب نفسه "طاغية" أثينا؛ وهو الانتقاد الذي قرنه بذكاء باتهامه له باستخدام أموال الإمبراطورية في خدمة برنامج البناء الذي اقترحه بيركليس. ويعرض بلوتارك Plutarch خلاصة للاعتراضات والشكاوى التي طرحت على مجلس المدينة:

> يشعر الناس بالإهانة والإساءة إلى سمعتهم لأن هذا البرنامج كان وراء نقل المال العام للهيلينيين من ديلوس إلى أثينا. لقد حرم بيركليس برنامجه هذا من التبرير الأنسب، الذي كان بإمكانه تقديمه لمن يكيل له التهم، بالقول إن نقل المال العام إلى هذا المكان جاء خوفاً من البرابرة وحماية له منهم. ويقيناً إن اليونان بأسرها قد أثيرت حفيظتها بفعل هذه الغطرسة البغيضة، وتشعر بأنها قد اضطهدت بشكل جلي وهي ترانا نزخرف مدينتنا، ونطليها بمظهر جذاب خادع مثل امرأة لعوب، ونزينها بما غلى ثمنه من أحجار كريمة، وتماثيل، ومعابد، بلغت كلفتها الملايين، وباستخدام أموال كانت قد انتزعت من اليونانيين أصلاً لخوض الحرب.[15]

وقد تميز هذا الاتهام بالقسوة والمكر والبراعة، فضلاً عما حظي به من دعم وإسناد كبيرين. وهو، على أي حال، لم يكن موجهاً للإمبراطورية ذاتها، أو للجزية التي تتأتى منها، الأمر الذي كان سيثير نفور غالبية الأثينيين. وبدلاً من ذلك، فهو قد انصب، من جهة، على التوظيف الخاطئ للمال العام في برامج بيركليس المحلية، ما ذكّر أصدقاء كيمون وأنصاره، وقد أصبحوا الآن طرفاً في الحلف الذي أقامه بيركليس، بأن سياسة زعيمهم الأصلية قد جرى تشويهها والتخلي عنها. ومن الجهة الأخرى، فإن أثر الاتهام قد امتد بعيداً ليصل إلى شرائح وقطاعات رئيسية من خلال اعتماده لهجة أخلاقية حادة. وحين يستخدم ثوكيديدس اللغة التقليدية العتيقة الطراز على المستويين الديني والأخلاقي، فهو إنما يلعب على وتر الغموض والالتباس اللذين كانا يساوران شرائح عريضة من الأثينيين حيال الهيمنة التي يفرضونها على أبناء جلدتهم من سائر الإغريق.

أرغمت انتقادات ثوكيديدس بيركليس على عرض دفاعه عن الإمبراطورية وسياساته الجديدة المرتبطة بها بصورة مباشرة على الأثينيين أنفسهم. وقد آثر في رده على اعتراض ثوكيديدس الرئيسي ألا يقدِّم اعتذاراً؛ قائلاً إن شعب أثينا ليس مطالباً بتقديم كشف حساب بما ينفق من الأموال التي يتلقاها من حلفائه، مادام يؤمِّن هذا الشعب لهم الحماية من البرابرة:

> فهم لا يأتون بالجياد، أو بالسفن، أو بجنود من المشاة حملة الرماح (الهوبليت *hoplites*)؛ وإنما بالأموال فقط، وهذه لا تعود إلى المانح، بل للمتلقي مادام يؤدي دوره بحسب الاتفاق المبرم بينهما. ولكن لما كانت هذه المدينة قد هيأت نفسها بشكل وافٍ لخوض الحرب بكل متطلباتها الضرورية، يغدو من المناسب توظيف مواردها تحقيقاً لهذه الأغراض، لأنها ستكتسب سمعة حسنة أبدية حالما يتم إنجازها كاملة. وفي غضون ذلك، ستحافظ المدينة على رخائها ورفاهيتها، إذ سيتم بذلك تحفيز جميع أنواع الصناعات والنشاطات، وزيادة معدلات الطلب بمختلف أشكاله؛ وهذا بدوره سيسهم في تنشيط المهارات والفنون بكل أنواعها، وتوفير فرص العمل للجميع، ورواتب تعطى لمن في المدينة برمتها تقريباً؛ الأمر الذي سيجعلها في الوقت نفسه أكثر جمالاً وازدهاراً.[16]

ومن الواضح أن الجزء الأول من دفاعه هذا يشكل رداً على الانتقادات ذات البعد الأخلاقي؛ إذ شدد بيركليس القول إن استخدام عوائد الإمبراطورية المالية تحقيقاً لأغراض خاصة بأثينا ليس مرادفاً للطغيان، بل للاستخدام غير المحدود للرواتب أو الأرباح من قبل شخص أبرم اتفاقاً مع آخر. وإن كان هناك أي خرق أخلاقي لهذا الاتفاق، فلابد أن يكون من جانب أولئك الحلفاء الذين امتنعوا عن دفع الجزية في وقت مازالت فيه أثينا تؤمن الحماية لهم. أما الجزء الثاني فقد كان موجهاً تحديداً للطبقات الأدنى شأناً، التي انتفعت من الإمبراطورية بصورة مباشرة أكثر من غيرها، لتذكيرها، بأكثر المصطلحات والتعابير بساطة، بما تعنيه بالنسبة إليهم.

وقد تفهم الأثينيون ما قاله بيركليس إلى حد كبير. وفي عام 443 وجه إليهم الدعوة للتصويت على قرار بإقصائه من المجتمع، والذي أراد له أن يكون اقتراعاً على الثقة

بزعامته، واستفتاءً على سياساته، في الوقت عينه. ولكن الذي أقصـي كان ثوكيديدس، في حين ارتقى بيركليس إلى مستويات أرفع وأعظم من النفوذ السياسـي. وثمة أسـباب عـدة وقفت وراء مساندة عامة الناس له؛ ليس أقلها المصالح والامتيازات الكبـيرة التـي كـانوا يراهنون على أن تحققها لهم الإمبراطورية.

لا يحظى مفهوم "الإمبراطورية"empire في عـالم اليـوم بالتعـاطف والتأييـد، بـل إن مصطلح "الإمبريالية" imperialism، المشتق منه، ينطوي على معنى سلبي ومهين إلى حد كبير منذ ابتكاره في القرن التاسع عـشـر. وكـلا المـصطلحين يعنيـان ضـمناً الهيمنـة التـي تُفرض بالقوة، أو عن طريق التهديد باستخدامها، على شعب أجنبي في إطـار نظـام يقـوم على استغلال المحكومين لما فيه صالح الحكام ونفعهم. وعلى الرغم من أن محاولات "غـير نزيهة" تبذل اليوم لإسقاط مصطلح "الإمبريالية" على أي دولة كبيرة قوية يمكنهـا فـرض نفوذها على دول ضعيفة، فإن أي تعريـف حيـادي يقـوم عـلى تجـارب تاريخيـة لابـد وأن يتطلب توخي الدقة في صياغته على المستويين السياسـي والعسكري لتبرير استخدامه.

وإذ هي تتبنى رؤى وآراء كهذه، فإن شعوب عصـرنا هذا تغدو فريدة بين تلك التـي عاشت منذ بزغت شمس الحضارة. ومع ذلك، فـإن كـان علينـا اسـتيعاب مفهـوم تلـك الإمبراطورية التي حكمها أثينيون في عصـر بيركليس، والمواقـف التـي اتخـذوها حيالهـا، يكون لزاماً علينا الانتباه إلى الهوة الـشاسعة التـي تفـصل مـا بـين مـواقفهم تلـك والآراء السائدة في زماننا هذا. وإذا كان تطور الأحداث عـلى مـا جـرت عليـه يعـد مـصدر فخـر وابتهاج، فإنها - وإن في بعض جوانبها - كانت أيضاً سبباً للشعور بـالإحراج والارتبـاك، بل وبالخزي بالنسبة إلى بعض أبناء أثينا، على أقل تقدير. وهذا في مجمله أثـار مـشكلة كـان على بيركليس نفسه التصدي لها في أكثـر مـن مناسـبة، والتعامـل معهـا بنزاهـة واسـتقامة استثنائيتين، برغم أنه لم يستطع على الإطلاق، ولا الأثينيين أيـضاً، تبديـد مـا اكتنفهـا مـن غموض والتباس.

ولا يتردد الأثينيون من الإقرار مرة بعد أخرى بسوء سمعة حكمهم وافتقاره إلى الشعبية. وفي هذا الخصوص، يعرض علينا ثوكيديدس، المؤرخ ذو البصيرة الثاقبة الاستثنائية، وجهة نظره بكلماته هو؛ فيقول لنا والحرب مازالت في أولى مراحلها:

> إن حسن النية جاء بشكل مطلق من جانب الإسبارطيين، خاصة منذ أن أعلنوا عزمهم على تحرير اليونان؛ فاندفع الجميع، أفراداً ودولاً، بقوة لمد يد العون لهم، قولاً أو فعلاً، وبكل ما أوتي لهم من سبل... بيد أن أغلبية الناس كانت تشعر بغضب عظيم حيال الأثينيين؛ منهم من يتطلع للتحرر من نير حكمهم، وآخرون يخشون وقوعهم تحته.[17]

كان بيركليس واعياً تماماً لهذه المشاعر والأفكار، وما تنطوي عليه من معضلات أخلاقية ومخاطر فعلية. ولكنه، مع ذلك، لم يتوان يوماً في الدفاع عن الإمبراطورية ومؤازرتها.

وفي عام 432، عندما بات خطر اندلاع الحرب وشيكاً، وفد إلى إسبارطة فريق من دبلوماسيي أثينا لإنجاز "مهمات أخرى" ظاهرياً، ولكنه في الحقيقة جاء ليعرض موقف أثينا على الإسبارطيين وحلفائهم، فجاءت حججه متطابقة تماماً مع تلك التي يتبناها بيركليس. وقد سعى المبعوثون الأثينيون إلى إثبات أنهم ما امتلكوا إمبراطوريتهم هذه إلا نتيجة ظروف وأوضاع لم يكن الأثينيون من خلقها، بل هي مخاض طبيعي لقدرات البشر الغريزية الخلاقة. وقد أوضحوا موقفهم بالقول:

> نحن لم نكتسب هذه الإمبراطورية بالقوة، ولم يكن ذلك إلا بعد أن أبيتم [الإسبارطيون] الاحتفاظ بمواقعكم لمواجهة مَنْ تبقى من فلول البرابرة، فجاء الحلفاء يتوسلون إلينا تولي زعامتهم. وهذا هو مسار الأحداث الذي أجبرنا على الوصول بإمبراطوريتنا إلى المنزلة التي تحتلها حالياً، بدافع من خوف في المقام الأول، وطلباً من ثم للإجلال والفخر، وسعياً للحصول على المنافع والمكاسب، لاحقاً. وبعدئذٍ، وعندما صرنا موضع كره أغلب الحلفاء، وبعضهم تمرد علينا وتم سحقه، وحين لم تعودوا تعاملوننا بود مثلما كنتم تفعلون قبلاً، بل صرتم تميلون إلى التشكيك بنا وإثارة النزاعات معنا، لم يعد مأموناً بالنسبة إلينا التخلي عن

> زمام الحكم، لأن المتمردين ربما اتجهوا للوقوف إلى جانبكم. وبطبيعة الحال، فلا أحد يُلام إن هو سعى لضمان مصالحه الخاصة وحمايتها متى ما وجد نفسه في مواجهة أخطار عظيمة.[18]

ومضوا إلى القول إن الأثينيين، وعلى العكس من ذلك، لم يفعلوا إلا ما كان الإسبارطيون سيتعين عليهم فعله لو أنهم احتفظوا بموقع القيادة. وفي تلك الحال، فإنهم [أي الإسبارطيين] سيواجهون القدر ذاته من الكراهية والبغضاء. لذا «فنحن لم نأتِ بأي تصرف غير عادي، أو مخالف للطبيعة الإنسانية، بقبولنا الإمبراطورية عندما عرضت علينا، ورفضنا من ثم التنازل عنها، بعد أن استبدت بنا الدوافع الأقوى المتمثلة في طلب المجد، والمقام الرفيع، والمخاوف، والمنافع».[19]

ويكاد يكون مؤكداً أن بيركليس قد اعتقد أن الظروف والأوضاع التي نشأت يومذاك هي التي جعلت إقامة الإمبراطورية أمراً حتمياً، وبأن الدافع الرئيسي وراء تحرك أثينا، في أعقاب موقعتي بلاتيا وميكال Mycale، كان خوفها من احتمالات عودة الفرس. ففي ضوء النجاحات التي حققها اتحاد ديلوس، وضعف تعهدات الحلفاء والتزاماتهم، فقد صار الأثينيون يخشون تفكك هذا الاتحاد وعودة الجيوش الفارسية من جديد. وعندما اتخذ الإسبارطيون موقفاً عدائياً حيال أثينا، شعر الأثينيون بالخوف من انشقاق عدد من الحلفاء عنهم والتحاقهم بمعسكر هذا العدو الجديد. ولعل التدابير القسرية، التي كان ينبغي اتخاذها لمعالجة هذه المشكلات، قد أشاعت قدراً من الكراهية، لكن التخلي عن زمام السيطرة كان عملاً محفوفاً بالمخاطر إلى حد بعيد. وهذا ما حرص بيركليس على إيضاحه لأهل أثينا لاحقاً:

> لا يظنن أحدكم أننا نقاتل بدافع من مسألتي الحرية أو العبودية، ليس إلا. على العكس، فنحن نواجه خطر ضياع الإمبراطورية، إضافة للمخاطر التي يمكن أن يخلقها أولئك الذين يشكلون جزءاً من الإمبراطورية ويضمرون الكراهية لنا. وبناء عليه، لم يعد ممكناً التفريط بها، حتى وإن كان بينكم من تخلى، جراء حالة الفزع السائدة في هذه اللحظة، عن اتخاذ الخطوات المسؤولة، ويتطلع الآن لارتداء لباس الفضيلة. ولعلكم اليوم تضعون هذه الإمبراطورية في

مصاف النظم الاستبدادية، وهو ربما يجعل من الخطأ الإبقاء عليها، ولكن الخطر كل الخطر يكمن في التنازل عنها.[20]

وإذا كان من الواضح أن بيركليس قد أدرك طبيعة المخاطر التي تستلزم الحفاظ على الإمبراطورية وحمايتها، فإنه كان مدفوعاً أيضاً بذرائع امتلاك المنزلة الرفيعة، وتحقيق المصالح الذاتية. وفي "خطاب التأبين" الشهير الذي ألقاه عام 431، لفت بيركليس الانتباه إلى المنافع والامتيازات التي توفرها الإمبراطورية والعوائد الناجمة منها:

لقد وفرنا كثيراً من وسائل الراحة مما يخفف عن أرواحنا وعقولنا ضغوط العمل، إلى جانب الاحتفالات والنشاطات الرياضية بشكل منتظم على مدار السنة، وبيوتنا صارت تزدان بالجمال والذوق إلى الحد الذي بات استمتاعنا بها يزيل إحساسنا بالقلق والتوتر. وبفضل ما بلغته من عظمة، فقد أمست كل الأشياء النافعة في الأرض تتدفق على مدينتنا. ولقد أُنعم علينا بفرصة التمتع بما يأتينا من منتجات من سائر أرجاء العالم، وهي ليست بأقل أهمية من تلك التي نجنيها هنا في وطننا.[21]

بيد أن بيركليس اعتبر أن كل هذه الميّزات والملذات أقل شأناً بكثير من الإجلال والمجد والمنزلة العالية التي تحققها الإمبراطورية للأثينيين؛ وهي - في تقديره - عوائد تستحق أن يجازفوا بحياتهم من أجلها. وفي السياق نفسه، فقد طلب من أبناء مدينته «التأمل يومياً في ما بلغته مدينتنا من قوة، وأن تكونوا عشاقاً لها. وعندما تقدرون عظمتها حق قدرها، فعليكم أن تدركوا أن كل هذا ما كان ليترسخ إلا بفضل رجال شجعان عرفوا مسؤولياتهم، وحققوا إنجازات عظيمة بدافع من الإحساس بالفخر والشرف».[22] وفي العام التالي، وفي لحظة أشد قتامة، وعندما لم يعد بالإمكان تجاهل احتمالات الهزيمة النكراء، عاد بيركليس من جديد ليوجه أنظار الأثينيين إلى عظمة إنجازات إمبراطوريتهم وقوتها، وإلى ما تتميز به من أهمية وقيمة دائمتين:

بكل تأكيد، مَنْ يكره أعمالنا ونشاطاتنا لابدّ من أن يجد عيوباً فيها. ولكن أولئك من أمثالنا الذين يتطلعون إلى إنجاز شيء ما، فسيجعلونه هدفاً لهم. أما الذين يعجزون عن بلوغه

فسيشعرون بالغيرة. سيكون قدر أولئك الذين تشاء الظروف أن يفرضوا حكمهم على غيرهم في هذا الوقت الكراهية والاستياء؛ لأن كل من يضع نصب عينيه بلوغ أهداف عظيمة، فعليه أن يتقبل مشاعر الحقد والضغينة، ومن الصواب أن يفعل ذلك. والكراهية، على أي حال، لا تدوم طويلاً، ولكن عظمة المرحلة الراهنة تمثل – في الوقت نفسه – أمجاد المستقبل التي ستظل ماثلة في الذاكرة لأمد بعيد. وبهذه المعرفة المسبقة بأمجاد المستقبل، ينبغي عليكم التصرف بكل فخر في هذا الوقت، وبفضل جهودكم الحثيثة الجادة، يمكنكم امتلاك الاثنين معاً.[23]

ولم تكن هذه الحجج والآراء مجرد خطاب بلاغي حماسي؛ فقد تحدث بيركليس في لحظات بالغة الدقة والحساسية من تاريخ أثينا؛ ليمسّ أهم وأعمق القيم والمثل التي يتعامل معها أبناء جلدته بكل اعتزاز وتبجيل، مثلما يفعل هو ذاته أيضاً، وكما ينبئ بهذا كل ما صرنا نعرفه عنه. ولكنه يعطي قيمة كبرى للإمبراطورية لأسباب ليست ذات أهمية ولا تحظى بالقبول بالنسبة إلى المواطن الأثيني العادي. وكان يطمح لتأسيس دولة من نمط جديد، ليجعلها مكاناً تتطور فيه القدرات الجمالية والفكرية العظيمة المتأصلة في أعماق الإنسانية، لاسيما في مقومات الثقافة الإغريقية. وكان مقدراً لأثينا أن تصبح داراً لهذه الثقافة؛ ووصولاً لهذا الهدف، صار يتعين على المدينة استقطاب كبار الشعراء والرسامين والنحاتين والفلاسفة والمدرسين، من كل نوع ولون. ولهذا الغرض، برزت الحاجة لما تدره الإمبراطورية من نفوذ وقوة وثروات، إضافة لتمويل برامج وخطط إعداد القصائد والمسرحيات التي يتم تأليفها وإخراجها مسرحياً، والمباني الرائعة التي تشيد، واللوحات والمنحوتات الفنية الجميلة التي أثريت بها المدينة.

وتطلبت مثل هذه الرؤية تأسيس إمبراطورية، لكنها ينبغي أن تكون مختلفة عن كل ما سبقها، بل وحتى عن تلك التي أقامها كيمون. وبغية إنجاز أغراض ومشروعات غير عسكرية، فقد كان هذا النوع الجديد من الإمبراطوريات يقتضي توفير أوضاع آمنة وعوائد مالية لا يتحققان إلا في وقت السلم. ومع ذلك، وكما هي حال سابقاتها، فإن إمبراطورية أثينا إنما تأسست عن طريق الحروب، وهناك كثير ممن لا يتخيل إمكانية قيام

الأولى (الإمبراطورية) من دون الثانية (الحرب). وقد ازدادت هذه المشكلة حدة بسبب طبيعة الإمبراطورية الأثينية، التي لم ترتكز أساساً على عملية هيمنة ينفذها جيش عظيم على مساحات شاسعة من الأرض، وإنما على قوات بحرية أحكمت سيطرتها على البحر. وهذه الإمبراطورية الفريدة من نوعها قد أذهلت العديد من الشخصيات التي عاصرتها من ذوي البصيرة. وقد جاء في "الأوليغاركي القديم" بعض سماتها وخصائصها المتميزة:

> قد يكون بإمكان مدن صغيرة تابعة تقع على البر الرئيسي أن تتحد وتشكّل جيشاً واحداً. أما في إمبراطورية بحرية، فليس بإمكان سكان الجزر توحيد قواتهم، لأن البحر يفرق بينهم، فيما يفرض حكّامهم سطوتهم على البحر. وحتى لو استطاع هؤلاء السكان تجميع قواتهم على جزيرة واحدة دون أن يفطن إليهم أحد، فسوف يموت الجنود جوعاً. ومن بين المدن الواقعة على البر الرئيسي التي تخضع لسيطرة أثينا، فإن الكبيرة منها يحكمها الخوف، بينما تحكم الصغيرة منها الحاجة؛ فليس هناك من مدينة ليست بحاجة لاستيراد سلعة ما أو تصديرها. ولن يكون هذا ممكناً إلا في حال رضخت لمشيئة القوى التي تتحكم بالبحر.[24]

وعلاوة على ذلك، فإن القوى البحرية قادرة على شن غارات كرٍّ وفرٍّ على مواقع العدو، فتلحق به أضراراً كبيرة دون أن تتكبد خسائر كثيرة في الأرواح. ويمكن لسفنها الحربية أيضاً قطع مسافات طويلة وصولاً إلى مناطق يتعذر على الجيوش البرية بلوغها، والإبحار بأمان إلى ما وراء المناطق التابعة للعدو، بينما يتعين على القوات البرية شق طريقها عنوة من خلال عمليات قتالية. ولأن في وسعها استيراد كل ما تحتاج إليه، فإنها لن تخشى حدوث أي تدهور أو قصور في إنتاج محاصيلها الزراعية. وإضافة لما تقدم، ثمة مواطن ضعف تكمن في جميع القوى المعادية في إطار العالم الإغريقي: «فلكل دويلة تقع على البر الرئيسي إما لسان من الأرض يمتد داخل البحر، أو جزيرة قريبة إلى الساحل، أو برزخ ضيق يمكن لسفن القوى المهيمنة على البحار المرور عبره وإيقاع الأذى بالقاطنين هناك».[25]

ولم يكن إعجاب ثوكيديدس بالقوى البحرية أقل من ذلك؛ إذ حرص على عرض أهميتها بعمق أكبر. فعندما أعاد كتابة المرحلة المبكرة من التاريخ الإغريقي، واصفاً نشوء

الحضارة وارتقاءها، جعل من القوة البحرية العامل الديناميي الحيوي الذي يقف وراء ذلك التطور. ومتى ما وُجدت مثل هذه القوى، يصبح بالإمكان القضاء على القرصنة، وضمان سلامة الملاحة التجارية. إن شيوع الأمن جراء ذلك سيمهد الطريق أمام تراكم الثروات وتكديسها، ما يتيح ظهور المدن المسورة إلى الوجود؛ وهذا بدوره سيسهم في امتلاك ثروات أعظم، وتنامي حجم الإمبراطورية؛ لأن المدن الأضعف ستسعى إلى دفع استقلالها ثمناً مقابل الأمن والرخاء. وبالتالي، فإن الثروة والقوة، اللتين يتم امتلاكهما على هذا النحو، لابد من أن يضاعفا قدرات مدينة أثينا بشكلها الإمبراطوري. وهذا الأنموذج يصور بوضوح نشوء إمبراطورية أثينا وصعود نجمها. وعلى أي حال، فإن ثوكيديدس يصور هذه الأحداث على أنها تطور طبيعي متأصل في صلب القوة البحرية، ولم يتحقق ذلك للمرة الأولى إلا في أثينا، التي نشأت في زمانه.[26]

ومن جانبه، فقد استوعب بيركليس نفسه تماماً الميزات الفريدة التي تتمتع بها الإمبراطورية البحرية، كوسيلة تحقق أثينا من خلالها العظمة، وقد حرص عشية الحرب البيلوبونيزية الكبرى على رفع معنويات الأثينيين بعرض تحليل لميّزاتها؛ فالانتصار يمكن بلوغه في الحرب بفضل الاحتياطيات المالية، وبسط الهيمنة على البحر، والذي حققت الإمبراطورية لأثينا تفوقاً مؤكداً فيه:

> إنْ هم زحفوا صوب أراضينا بجيشهم، فسوف نهاجم أراضيهم بحراً؛ ولسوف يأتي الأذى الذي سنوقعه مختلفاً للغاية عن الدمار الذي ألحقوه بأتيكا. فهم ليس بوسعهم الحصول على أرض أخرى بديلاً منها دون قتال، بينما نمتلك نحن أراضي شاسعة، سواء في الجزر أو في البر الرئيسي. نعم، إن بسط الهيمنة على البحر لأمر عظيم حقاً.[27]

بل إن بيركليس يحرص، في ثانية سنوات الحرب، على عرض وجهة نظره هذه بقوة أكبر، في إطار سعيه لإحياء روح القتال من جديد في نفوس الأثينيين، بعد أن أصابهم الإحباط ووهنت عزيمتهم:

> أود أن أوضح لكم هذه المسألة التي تتعلق بعظمة إمبراطوريتكم، والتي أعتقد أنكم لم تمعنوا النظر فيها مطلقاً. وأنا لم أتطرق إليها في خطاباتي السابقة، ولا أعتزم التحدث عنها الآن؛ لأن الحال ستبدو، إلى حد ما، وكأنني أتبجح إن فاتتني رؤية معنوياتكم وهي تنهار إلى حد غير معقول أو مقبول. ولعلكم تحسبون أنكم تسيطرون على حلفائكم فحسب؛ إلا أنني أؤكد لكم أنه من بين الميدانين المتاحين لاستخدام البشر، أي اليابسة والبحر، فأنتم تتسيدون أحدهما بشكل مطلق، لا بمقدار ما تفرضونه الآن فعلاً من سيطرة عليه فحسب، وإنما بمقدار أكبر من هذه السيطرة التي تودون فرضها. وليس هناك من يستطيع منعكم من الإبحار أينما شئتم بما لديكم من قوات بحرية، سواء أكان الملك العظيم أو أي دولة أخرى على الأرض.[28]

ومع هذا، فإن ثمة نقطتي ضعف يمكن أن تعرّضا للخطر هذه القوة التي لا سابق لها؛ الأولى وليدة واقع جغرافي لا سبيل للتغلب عليه، لأن موطن هذه الإمبراطورية البحرية العظيمة كان مدينة تقع على البر الرئيسي وعرضة لهجمات الجيوش البرية المعادية. ولأن الأثينيين ليسوا من سكان الجزر، فإن موقع مدينتهم قد أمسى نقطة ضعف، نظراً إلى أن أصحاب الأملاك ليسوا على استعداد لرؤية بيوتهم وممتلكاتهم وهي تُدمر أمام أعينهم.

ولم يفت على بيركليس طرح هذه المسألة بالذات، فقال إن «بسط الهيمنة على البحر لأمر عظيم، ولكن تخيلوا فقط لو أننا من سكان الجزر، فمن سيكون أقل منا عرضة للغزو؟»[29] ولكن بيركليس لم يكن ليسمح للمشكلات التي تخلقها الطبيعة أن تعترض طريقه إلى تحقيق غاياته. ومادام الأثينيون يمكن أن يحظوا بموقع حصين لو كانوا من سكان الجزر، فإنهم يجب أن يكونوا من سكانها. ووفقاً لذلك، فقد دعا بيركليس أهل أثينا إلى هجر حقولهم ومنازلهم في المناطق الريفية والانتقال إلى المدينة ذاتها. وفي الفضاء الواقع ما بين الأسوار الطويلة لأثينا، يمكن للإمبراطورية تزويدهم بالطعام والمؤن والتجهيزات، وبذلك يمكنهم حرمان العدو من فرصة شن حرب برية ضدهم. وفي خطاب بدا تحريضياً بشكل استثنائي، قال بيركليس: «لا ينبغي لنا أن نشعر بالأسى حيال بيوتنا وأراضينا، بل حيال أرواح الناس؛ فالبيوت والأراضي لا تخلق بشراً، وإنما البشر من يخلقها. ولو

اعتقدت أن بإمكاني إقناعكم، لطلبت إليكم التوجه لهدمها بأنفسكم، كي تثبتوا للبيلوبونيزيين بأنكم لن تركعوا أمامهم بسبب أشياء كهذه».[30]

ولكن حتى بيركليس نفسه لم يكن قادراً على إقناع الأثينيين بأن يفعلوا ذلك. إن تطبيق استراتيجية كهذه، تقوم على معطيات وحجج مثبطة للهمم وتتعارض مع التقاليد السائدة والرغبات الطبيعية للكائن البشري، يتطلب توافر زعامة استثنائية لا أحد غيره يأمل في ممارستها. لا بل إن بيركليس لم يستطع إقناع الأثينيين بالرحيل عن مزارعهم وحقولهم حتى عندما كان عليهم مواجهة غزوات إسبارطة خلال الفترة 465-446 قبل الميلاد. وفي عام431، فرض بيركليس تطبيق استراتيجيته، برغم المصاعب الكبيرة التي حالت دون بقائه أميناً لها تماماً. ومع ذلك، فهو يومئذٍ قد امتلك ما يكفي من القوة والنفوذ ليجعل منها استراتيجية تتبناها أثينا بأسرها.

أما نقطة الضعف الرئيسي الثانية فقد كانت أقل وضوحاً، لكنها ليست أقل خطورة من الأولى؛ إذ إنها نتاج الدينامية ذاتها التي جاءت بالإمبراطورية البحرية إلى الوجود. وثمة مراقبون دهاة، أثينيون وأجانب، أدركوا طغيان سمة الحماسة والحيوية على الإمبراطورية، والفرص والمخاطر التي يمكن أن تتمخض عنها. وبعد سنوات على وفاة بيركليس، رسم ألسيبياديس Alcibiades، الذي كان بيركليس وصياً عليه، وأثناء مناقشة شن حملة إمبراطورية على صقلية، صورة لإمبراطورية ليس من ثمن لكبح حيويتها وحماستها الشديدتين إلا بدمارها ذاته. إذ يقول في هذا الشأن إن على أثينا أن تستجيب لكل الفرص التي تتيح لها توسيع دائرة نفوذها؛ «فهذه هي الطريقة التي امتلكنا من خلالها إمبراطوريتنا... أي إن نهبَّ بحماسة شديدة لنجدة أولئك الذين يستنجدون بنا، برابرة كانوا أم إغريقاً. أما إن كنا، في الناحية الأخرى، سنحرص على الحفاظ على السلام الذي أقمناه، ونرسم خطوطاً فاصلة دقيقة لتحديد من ينبغي (ومن لا ينبغي) علينا مساندته، فإننا لن نضيف إلا نزراً يسيراً إلى ما بحوزتنا بالفعل، وسنواجه خطر ضياع الإمبراطورية

نفسها».[31] وكما سبقه بيركليس إلى ذلك، فقد حذر ألسيبياديس من أن الأوان قد فات على أثينا لتغيير سياساتها. ومادامت قد أطلقت عملية بناء الإمبراطورية، فلم يعد مأموناً بالنسبة إلى المدينة التخلي عنها؛ فهي من يجب أن يمسك بزمام الحكم، وإلا فستكون دويلة تابعة لأخرى غيرها. ويمضي ألسيبياديس إلى أبعد من ذلك، مشدداً القول على أن الإمبراطورية الأثينية باتت لها شخصية لا تسمح لها بوقف التوسع؛ وتتمثل هذه بقوة دينامية داخلية لا تسمح بوضع حدود أو الركون إلى الاستقرار؛ فـ«الدولة المفعمة بالنشاط والحيوية سيكون من السهل تدميرها إن هي آثرت التحول إلى السكون والخمود؛ بينما سيعيش شعبها بأمان تام في حال قبل بما توافر له بالفعل من شخصية ومؤسسات، حتى وإن لم تكن مثالية تماماً، ولم يُعترض عليها إلا بأدنى قدر ممكن».[32]

في عام 432، وفي سياق محاولاتهم إقناع الإسبارطيين بإعلان الحرب على أثينا، طرح أهل مدينة كورينث Corinth وجهة نظر مماثلة من منظور عدائي، من خلال عقد صلة بين الطبيعة الدينامية للإمبراطورية وللأثينيين أنفسهم. وأجروا في الوقت نفسه مقارنة دقيقة بين شخصية الإسبارطي التي تتميز برباطة الجأش والثبات والميل إلى المواقف الدفاعية، وبين شخصية الأثيني العدائية الخطرة:

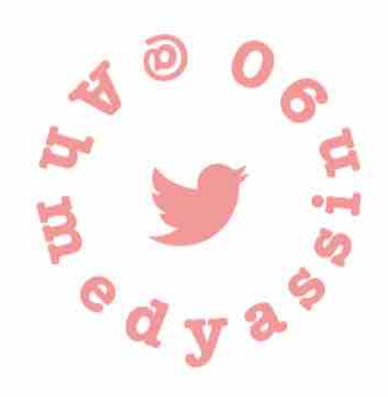
عندما تدور في أذهانهم خطة ما، ويفشلون في تنفيذها بنجاح تام، فهم يظنون بأنهم قد حرموا من صفاتهم الطبيعية المميزة. ومتى ما حصلوا على ما كانوا يستهدفون امتلاكه، خالوا أنه شيء ضئيل مقارنة بما سيحصلون عليه في المستقبل. وإذا أخفقت إحدى محاولاتهم، عمدوا إلى صوغ طموحات جديدة لأنفسهم تعويضاً عما خسروه. وعندهم فقط، يتساوى ما يأملونه وما يملكونه، ومتى ما خرجوا بخطط جديدة، فإنهم ينفذون ما خططوا له بسرعة خاطفة. وبهذه الطريقة، فهم يستنزفون حياتهم بالعمل الشاق ومواجهة الأخطار؛ وهم يستمتعون بما في حوزتهم، وإن كان هو الأقل قياساً على ما لدى سائر البشر؛ لأنهم ينهمكون دائماً في السعي لحيازة المزيد، ولأنهم يعتقدون أن وقت راحتهم هو وقت أداء مهماتهم، ولأنهم أيضاً يعتبرون أن السلام الهادئ هو كارثة أعظم من الجهود الشاقة. ونتيجة لذلك، فإن من الصواب القول إن طبيعتهم تفرض عليهم ألا ينعموا بالسلام، وألا يدعوا غيرهم ينعم به.[33]

غير أن بيركليس اعترض بقوة على مثل هـذه التحلـيلات؛ فهـو لم يكـن ليـؤمن بـأن الإمبراطوريـة البحريـة الأثينيـة كانـت بحاجـة للتوسـع بـلا حـدود، أو بـأن الدسـتور الديمقراطي والإمبراطورية قد اجتمعا ليسهما في خلق مـواطن أثينـي لـيس مـن شـأنه أن يركن على الإطلاق للسكينة والقناعة. ولا نريد بهـذا القـول إنـه كـان غـافلاً عـن مخـاطر الطموحات التوسعية المبالغ فيها؛ بل إنه كان على دراية بأن هناك من الأثينيـين مـن يتـوق لغزو مناطق جديدة، وتحديداً في شـرقي البحـر المتوسـط وصـقلية وإيطاليـا، بـل وحتـى قرطاج. وكما ستثبت تصـرفاته المستقبلية بشكل واضح، فهو كان قد اتخذ موقفـاً مناهـضاً حازماً لأية توسعات جديدة، حتى إنه كان إبّان الحـرب البيلوبونيزيـة الكـبرى قـد حـذّر الأثينيين مراراً وتكراراً من أي محاولة لزيادة مساحة الإمبراطورية وحجمها. ولعل ما ينبئ أيضاً بطبيعة مواقفه عدم تطرقه في خطاباته مطلقاً إلى القوة الهائلة المحتملـة للإمبراطوريـة البحرية إلا قبل سنة من وفاته، وعندما استبد القنوط والجزع بالأثينيين، وأمـسوا بحاجـة إلى جرعة استثنائية من التشجيع ورفع المعنويات. لكنه أحجم عن ذلك لاحقاً، لا ليتفادى الظهور بمظهر المتباهي المتبجح فحسب، كما قال، بل ليتفادى بالدرجة الأولى إذكاء نـيران تطلعات التوسع المفرط.

وحتى لو كان بيركليس قد خطط في أي وقت مضـى لتوسيع حـدود الإمبراطوريـة، فإن النتيجة الكارثية للحملة المصـرية في خمسينيات القرن الخامس قبل الميلاد أقنعته في مـا يبدو بعكس ذلك؛ فقد جاء فـشل الحملـة ليتـسبب في اهتـزاز أسـس الإمبراطوريـة، وفي تعريض أمن أثينا نفسها وسلامتها للخطـر. وابتـداءً مـن ذلـك الوقـت فـصاعداً، عمـل بيركليس بشكل ثابت على التصدي لرغبات دعاة التوسع وطموحـاتهم المفرطـة، وتجنـب ركوب أخطار لا داعي لها. وقد عبّر صـراحة عـن إيمانـه بـأن التمـسك بـالفكر المنطقـي العقلاني من شأنه كبح جماح المشاعر والمواقف الجامحة والحادة، والإبقاء على الإمبراطورية بحجمها الحالي، وتوظيف مواردها وعوائدها لتحقيق أمجاد مختلفة وأكثر أمناً، بـل وحتـى أكبر مما عرفه اليونانيون حتى حينه. لقد اعتبر بيركلـيس الإمبراطوريـة الأثينيـة كبـيرة بـما

يكفي، وأي توسع جديد لم يعد ضــرورياً، بـل ومحفوفـاً بالمخـاطر. والآن وقـد وضـعت الحرب مع الفرس أوزارها، فإن نجاح خطط بيركليس وسياساته بات رهنـاً بقدرتـه عـلى إقامة سلام مع الإسبارطيين وتوطيد دعائمه.

وهكذا، فإن حملة الدفاع عن إمبراطورية أثينا التي قادها بيركليس قد اقتضت صياغة استراتيجية معقدة. فالأثينيون كانوا بحاجة إلى ردع حركـات التمـرد والعـصيان بواسـطة القدرات الضخمة التي يتمتع بها أسطولهم البحري، والاستعداد لسحقها حـال وقوعهـا، وكما فعل بيركليس بحق متمردي مدينتي أيوبيـا Euboea في عـام 446-445، وسـاموس Samos في عام 440، وفي مناطق أخرى وفي أوقـات مختلفـة. وفي الوقـت نفـسه، ومـع أن السياسة التي اتبعها بيركليس لقيادة الإمبراطورية والتحكم بها كانت قد اتسمت بـالحزم، فإنه لم يتبع أساليب وحشية لتطبيقها، وهذا ما آلت إليه الحال بعـد وفاتـه عـام 429. فقـد أقدم خلفاؤه على قتل الرجال جميعاً في سيون Scione وميلوس، وبيع النسوة والأطفال في أسواق النخاسة. ولم يسبق لكيمون أو بيركليس أن سمحا بارتكاب فظائع وآثام كهـذه في يوم من الأيام. وحتى عندما أوصـى بيركليس بإخضاع الحلفاء لهيمنة صـارمة، فقـد كـان يـرفض في الوقـت نفـسه الـضغوط الداعيـة إلى مزيـد مـن التوسـع، خـشية أن يعـرض إمبراطورية أثينـا لمخـاطر جديـدة. وأخـيراً، واصـل بيركلـيس مـساعيه لإقنـاع منتقديـه الأثينيين، وسائر الإغريق، بأن بناء الإمبراطورية الأثينية كان ضـرورياً، ومـبرراً، وهـي لا تشكل تهديداً لأي دويلة أخرى. وعلى الرغم من الشكوك التـي سـاورت ثوكيديـدس في قدرة النظام الديمقراطي على كبح جماح طموحات الإمبراطورية، وتبني مـنهج الاعتـدال في إدارة شؤونها لأمد طويل قادم، فقد كان مقتنعاً تماماً بأنهـا مـا كانـت لتحقـق ذلـك إلا بزعامة قائد فذٍ كبير مثل بيركليس.


@Ahmedyassin90

الفصل الثالث

صمود التحصينات الدفاعية
دراسة حالة لأسوار أثينا في العصر القديم

ديفيد بيركي

ارتبط تاريخ أثينا، إبان الحقبة القديمة من تاريخ الإغريق عامة، ارتباطاً وثيقاً بعمليات بناء أسوار المدينة، وإعادة بنائها، وكذلك بتوسيع خطوط المدينة الدفاعية الخارجية على امتداد حدود منطقة أتيكا بأسرها. وفي كل مرحلة من مراحل بنائها، كانت الأسوار تحدث تغييراً في المشهد العام لأثينا، وتتحول إلى رمز لقوتها، سواء وهي في أوج عظمتها أو في دركها الأسفل.[1] وقد أسهم الآلاف من مواطنين وأرقّاء في بناء أسوار المدينة والحُصون الملحقة بها، ولم يوقف كثير منهم عمله المضني حتى أثناء لحظات الخطر والغموض في تاريخ أثينا. وعلى امتداد الحقبة القديمة، كان بناؤها يمثل أحد مشروعات الأعمال العامة البالغة الأهمية، لما لها - أي الأسوار - من أهمية عظمى على المستويين السياسي والاستراتيجي بالنسبة إلى أثينا. وفي عصرنا الراهن المتميز بتقنياته المتطورة، تبدو التحصينات الدفاعية حاضرة في كل مكان، بل وتعاود الظهور بأنماط وأشكال جديدة مبتكرة، على الرغم من رفض أي جيل جديد من المخططين الاستراتيجيين العسكريين الإقرار في ما يبدو بجدواها ونفعها. وتوضح أي مراجعة لتاريخ مشروع التحصينات الدفاعية الأثينية، الذي امتد قرناً من الزمن، أسباب متانة الأسوار وديمومتها، وكيفية تطور عمليات البناء بمرور الزمن كي تلبي متطلبات الأجندات العسكرية والسياسية الجديدة، على اختلافها.

وفي السياق نفسه، فقد كانت الاستثمارات الضخمة، التي استخلصت من موارد المدينة وثرواتها البشرية والمادية، على حد سواء، قد ارتبطت بشكل وثيق بأسماء بعض أبرز قادة المدينة السياسيين والعسكريين، خاصة ثيميستوكليس Themistocles، وبيركليس، وكونون Conon. وفي أعقاب حقبة سادت فيها الأزمات والانتصارات في آن معاً، ومع انتهاء الحروب الفارسية، شرع ثيميستوكليس بتوسيع قدرات أثينا الدفاعية، واضعاً في حساباته تحويل المدينة إلى القوة البحرية الأبرز في العالم الإغريقي. وفي العقود التالية، بشر بيركليس بإطلاق المرحلة التالية المتمثلة في بناء "الأسوار الطويلة". وفي أواخر القرن، تسببت الحروب البيلوبونيزية، التي طال أمدها سنوات كثيرة، في تدمير هذه الأسوار. غير أن النظام الديمقراطي الأثيني، الذي تميز بمرونة عالية، استهل حقبة ما بعد الحرب بالإعراب عن رغبته الشديدة في استعادة المدينة لمنزلتها المتميزة في إطار منظومة الدويلات الإغريقية. وحلَّ دور كونون ليقر بما لأسوار المدينة من أهمية بالغة، وليوجه جلّ اهتمامه لمشروعات تعزيزها وتقويتها. وبرغم إدراك هؤلاء القادة جميعاً لما للتحصينات الدفاعية القوية من قيمة استراتيجية، فإن الظروف التي نفذت في ظلها هذه المشروعات، وما انطوت عليه من أهمية بالنسبة إلى المدن المعنية في لحظات محددة من الزمن، بدت استثنائية وغير مسبوقة. وفي ظل التغيرات التي طرأت على البيئة السياسية، باتت الأسوار تخدم أغراضاً استراتيجية مختلفة. ومن خلال تفحص تاريخها إبّان الحقبة القديمة الغابرة، يصبح بإمكاننا تحديد قيمتها الاستراتيجية المتغيرة، واستحضار نظائر مماثلة لهذه الآثار القديمة التي تبقت من أمجاد أثينا الإمبراطورية.

وفي ما يتعلق بالغزو الفارسي لمنطقة أتيكا، فقد قضت استراتيجية ثيميستوكليس بضمان سلامة النسوة والأطفال من أهل أثينا، وتمكين رجالها من إطلاق هجوم عسكري مضاد فاعل ومؤثر. وعلى أي حال، فإن أسوار أثينا لم تكن ملائمة لحماية المدينة باتباع أسلوب الدفاع السلبي في مواجهة قدرات جيش زركسيس القوية. ومع أن حصن المدينة الرئيسي (الأكروبول) كان محاطاً بسور بُني وفقاً لأسلوب البناء المعروف

بـ "السيكلوبي" Cyclopean – وقد سمي كذلك بسبب إيمان الإغريقيين القدامى بـأن كتل الحجارة الضخمة التي تستخدم لإقامة تحصينات من هذا النوع كانت قـد وضـعت هناك من قبل جيل أسطوري من العمالقة – فإن أعداداً كبيرة مـن مـواطني أثينـا كانـت ستباد بالتأكيد بفعل أي هجوم فارسـي مباشـر، فما بالـك إن استمر لأمـد طويـل.[2] ويعرض المرسوم، الذي أصدره ثيميستوكليس عام 480 قبل الميلاد، التدابير الاستثنائية التي لجأ إليها الأثينيون حفاظاً على أرواحهم، فقد عمـدوا إلى مغـادرة أتيكـا، وهجـروا أراضيهم لتقع تحت هيمنة البرابرة:[3]

إن المدينة ستؤتمن لدى الإلهة أثينا، حامية مدينة أثينا، وللآلهة الآخرين قاطبة، دفاعاً عنها وحماية لها من البرابرة، بما يصب في صالح البلاد بأسرها. ويجب على أبناء أثينا جميعـاً، ومـن يقـيم فيهـا مـن الأغراب، إيداع أطفالهم ونسائهم في تـروزين Troezen. ولـضمان الـسلامة، يـتم إيـداع العجـائز والممتلكات (المنقولة) في سلاميس. أما أمناء الخزانة والكاهنات فيمكثـون في الأكروبـول لحراسـة مقتنيات الآلهة وممتلكاتها. ويتعين على سائر الأثينيين برمتهم، وأولئك الأغراب الـذين بلغـوا سـن الشباب، أن يستقلوا السفن المائتين التي تمت تهيئتها، ويتوجهوا لصد البرابرة حفاظاً عـلى حـريتهم هم وحرية الإغريق الآخرين أيضاً، بالاشتراك مع أبناء لاسيديمون Lacedaimmon، وكورينـث، وإيجة، إضافة إلى غيرهم ممن يتطلعون ليكون لهم دور في التصدي للخطر.

وفيما هم يقتربون من أتيكا، لم يتردد الفرس مـن إحـراق مـدينتي ثيـسبيا Thespiae وبلاتيا، اللتين رفض أبناؤهما تقديم العون للقوات الفارسية.[4] وفي ظل أجواء تبعـث عـلى اليأس والقنوط كهذه، يذكر هيرودوت أيـضاً أنـه بالإضـافة إلى أولئـك الأثينيـين الـذين أوكلت إليهم مهمة الدفاع عن أكروبول أثينا، فإن:

العديد من فقراء المدينة، وفي مسعى منهم لدرء أذى الغزاة، تحصنوا في الأكروبول خلـف سـور واقٍ أقاموه من أبواب وألواح خشبية ثقيلة. وقد رفض هؤلاء الجلاء عن أراضيهم والتوجـه إلى سلاميس، ليس بسبب فقرهم فحسب، بل ولاقتناعهم بأنهم اكتشفوا المغـزى الحقيقـي لجـواب الآلهة الذي نقلته الكاهنة الوسيطة. فما جاء به الوحي من أن السور الخشبي حصين قد فُسـر من قبلهم على أنه يعني أن هذا المكان بالذات، وليس السفن، هو ملاذهم الآمن.[5]

ومن جانب آخر، فقد ثبتت صحة تفسير ثيميستوكليس للرد الموحى الذي جاءت به الوسيطة أريستونايك Aristonike،[6] ومفاده أن "السور الخشبي" إنما هو إشارة إلى قيام الأثينيين ببناء أسطول من السفن الحربية الثلاثية المجاديف، بتمويل من عوائد تدرها عليهم مناجم الفضة في لوريون Laureion. وفي هذا السياق، أصبح النجاح الذي حققته استراتيجية ثيميستوكليس في سلاميس عاملاً حاسماً لانتصار الإغريق على الأسطول الفارسي.[7] وفي مقابل ذلك، قام الجيش الفارسي بقتل كل من تبقى في أثينا، وبنهب الملاجئ وأماكن العبادة، وإشعال النار فيها.[8]

وفي العام اللاحق، عاد القائد الفارسي ماردونيوس Mardonius ليستولي من جديد على المدينة الخاوية أثينا، وقام قبل انسحابه نحو بؤوتيا Boeotia بهدم أسوارها، وإحراقها حتى سويت بالأرض: «ولكنه حين لم ينجح في إقناعهم [الأثينيين] بفعل ذلك [أي الدخول في اتفاق معه]، ولأنه بات الآن مدركاً للحقيقة كاملة، فقد عمد إلى هدم جميع الأسوار والمباني، وكل ما ظل قائماً من ملاجئ وأماكن عبادة، تاركاً كل شيء مجرد أكداس من الحطام والخرائب».[9] وعندما عاد الأثينيون إلى مدينتهم، بعد اندحار ماردونيوس في معركة بلاتيا عام 479 قبل الميلاد، فوجئوا ببيوتهم المدمرة وبتدنيس قدسية الأضرحة والمعابد.[10]

وهنا يصف ثوكيديدس المشهد الذي واجهه الأثينيون عند عودتهم:

> في غضون ذلك، وإثر رحيل البرابرة من موطنهم، مضى الأثينيون في الحال لاستعادة أطفالهم وزوجاتهم وما خلفوه وراءهم من مقتنيات، من تلك الأماكن التي أودعوها فيها أصلاً؛ وبدؤوا يهيئون أنفسهم لإعادة بناء مدينتهم وأسوارها. وما نجا من التدمير ليس إلا أجزاء معزولة من المباني الخارجية، فيما تحول القسم الأعظم من المنازل إلى خرائب، ولم يبق منها قائماً إلا القليل، الذي حوله نبلاء الفرس إلى أماكن لسكناهم.[11]

وفي أعقاب هذا الدمار الشديد، كان أول ما شغل بال الأثينيين هو خلق البيئة الآمنة التي يستطيعون في ظلها البدء بإعادة بناء وسائل عيشهم. وأمام وضع كهذا، لم يكن

بإمكانهم تجاهل الخسائر الكبيرة التي تكبدوها. وكما تعامل الأمريكيون مع التحدي المتمثل في إيجاد وسائل لتقدير أولئك الذين لقوا حتفهم في مدينة نيويورك [أحداث 11 سبتمبر]، وذلك بإقامة نصب في موقع الانفجار لإحياء ذكراهم أو ذكرى الواقعة برمتها، فقد كان ما يشبه هذا في نظر مواطني أثينا له أهمية فائقة.[12] فقد قرر مواطنو أثينا ألا يعيدوا استخدام مخلفات معابدهم المدمرة في إنشاء مبانٍ جديدة. وبدلاً من ذلك، أبقوا أكداس الحجارة كما هي للتذكير باجتياح الفرس لمدينتهم ونهبها، وربما تنفيذاً لما جاء في "قسم بلاتيا"[13]: «وإذ ألحقت الهزيمة بالبرابرة في الحرب، فإنني لن أدمر أياً من المدن التي حاربتهم، ولن أعيد بناء أي من المعابد التي جرى إحراقها وهدمها؛ بل سأدعها على حالها لتكون نصباً يراه الناس في ما بعد، وتذكاراً لآثام البرابرة وخطاياهم».[14] وطبقاً لذلك، فحين بنى الأثينيون سوراً جديداً، لحماية الجانب الشمالي من الأكروبول، وقرروا استخدام أجزاءٍ مما تبقى من معبد قديم مهجور، جاءت النتيجة بشكل نصب حربي يصلح شاهداً واضحاً للتذكير بالدمار الذي خلفه الفرس بالمدينة.[15]

وفي هذا الخصوص، استهل ثوكيديدس في البينتكونيتيا Pentekontaetia [التي يقص فيها أحداث نصف قرن من الزمن 480–431 قبل الميلاد]، الحديث عن بناء أسوار ثيمستوكلين Themistoclean، معتبراً إياها أولى مراحل تعاظم قوة أثينا:[16]

> إدراكاً منهم لما هم بصدد القيام به، فقد أرسل الإسبارطيون بعثة دبلوماسية إلى أثينا. ولعلهم كانوا يفضلون ألا يروا أثينا، أو أي مدينة غيرها، قد بنت لنفسها أسواراً، برغم أنهم في هذا الشأن كانوا أساساً يتصرفون بتحريض من حلفائهم، الذين راعتهم قوة أثينا وقدراتها البحرية التي امتلكتها حديثاً، والبسالة التي أظهرتها في حربها مع الفرس. ولم يناشدوها بالامتناع عن بناء أسوار لنفسها فقط، بل وأن تشاركهم أيضاً في سعيهم لهدم ما تبقى من أسوار المدن الواقعة خارج بيلوبونيز. ولم يعبروا صراحة عن النوايا المريبة من هذا المقترح في ما يتعلق بالأثينيين، ولكنهم تذرعوا أولاً بأن البرابرة، في حال وقوع حملة غزو ثالثة، لن يجدوا لأنفسهم مكاناً قوياً كهذا الذي وجدوه في طيبة خلال عملية الغزو الحالية، كقاعدة انطلاق لعملياتهم؛ وثانياً بأن

> بيلوبونيز ربما ستفي بالغرض، سواء كقاعدة للتراجع أو الهجوم. وبعد أن تحدث الإسبارطيون على هذا النحو، فقد رفض الأثينيون، تنفيذاً لمشورة ثيميستوكليس، حججهم هذه فوراً. وفي ردهم عليهم قالوا إن سفراء سيتم إيفادهم إلى إسبارطة لبحث هذه المسألة. وطلب ثيميستوكليس من الأثينيين التعجيل بإرساله مبعوثاً عنهم إلى لاسيدمون، على ألا يوفدوا مبعوثين من زملائه حال اختيارهم، بل الانتظار حتى يرتقوا - أي الأثينيين - بأسوارهم إلى الارتفاع الذي يصبح فيه الدفاع عن المدينة ممكناً. وفي غضون ذلك، يصبح لزاماً على جميع سكان المدينة، من الأثينيين وزوجاتهم وأبنائهم، أن يعملوا دون كلل أو ملل في بناء السور، وأن لا يبخلوا بأي مبانٍ، خاصة كانت أو عامة، قد تكون مفيدة لهذا المشروع، بل أن يبادروا إلى التخلي عنها وهدمها.[17]

ويقيم ثوكيديدس علاقة بين امتلاك أسوار خاصة بأثينا وبين قوتها. ويختم بالتعليق بأن السرعة التي بنيت بها أسوار المدينة الدائرية من شأنها الانتقاص من كفاءة الذين قاموا ببنائها وقدراتهم المتميزة:

> وعلى هذه الشاكلة، فإن الأثينيين قد سوّروا مدينتهم في برهة وجيزة من الزمن. ومازال البناء يظهر حتى يومنا هذا شواهد على سرعة تنفيذه. فالأسس قد أرسيت من حجارة من كل شكل ونوع، بل إنها في أماكن معينة لم يجر صقلها أو مراعاة توافقها مع غيرها، وإنما وضعت وفقاً للترتيب الذي جلبت به والذي يختلف باختلاف مصادرها. فكثير من الأعمدة التي جيء بها من مقابر ونصب منحوتة قد ثبتت إلى جانب غيرها كيفما اتفق. ولأن حدود المدينة قد جرى توسيعها في كل موضع من مواضع محيطها الخارجي، فقد كان على البناة بالتالي وضع اليد على أي شيء كان دون استثناء، لأنهم كانوا على عجلة من أمرهم.[18]

لذا، فالأثينيون كانوا قد عقدوا العزم على حماية أنفسهم. ومن الجائز أن ثوكيديدس كان يرمي إلى خلق تشابه بين أساليب بناء أسوار أثينا وتلك التي اتبعت في صعود الإمبراطورية؛ فهي في الحالتين تشكلت بسرعة، وكلتاهما تشير إلى القطيعة مع الماضي؛ فالأثينيون قد استخدموا حجارة قبور أسلافهم وأجدادهم في بناء أسوار مدينتهم؛ وخبروا، بفضل القوة التي جلبتها لهم الإمبراطورية، مستوى غير مسبوق من الرخاء

والازدهار؛ فصار بإمكانهم بالتالي إحداث تحولات مهمة في جوهر المدينة والمشهد العام لها. وعلى أي حال، وعلى الرغم من أنها بنيت بعجالة واضحة،[19] فإن الآثار المتبقية لسلسلة الأسوار الدائرية هذه، التي بلغت 6.5 كيلومترات طولاً، تثبت صلابة بنائها.[20]

وتعد مناقشة ثوكيديدس لميلاد إمبراطورية أثينا مشهورة وقيمة، وتفسر الدوافع الاستراتيجية لتوسيع سلسلة الأسوار هذه. وتكشف أيضاً عدم وضوح معالم طبيعة العلاقة بين أثينا وإسبارطة، وغياب التعاون بينهما فترة طويلة تمتد إلى ما قبل الحروب الفارسية.[21] أضف إلى ذلك أن تنامي القوة الأثينية قد أسفر أيضاً عن تشكيل بنية القطبية الثنائية في نظام ما بين الدولتين.[22] وثمة اختلاف بين أثينا وإسبارطة في ما يتعلق بالشؤون الدفاعية. ومع أن وجود الأسوار كان السمة الغالبة في الدويلات القديمة، فمن اللافت للنظر عدم امتلاك إسبارطة لها.[23] ومن المحتمل أن "عسكرة" المجتمع الإسبارطي جعلته لا يرى في لجوء مواطنيه إلى الاختباء وراء التحصينات الدفاعية أي شكل من أشكال البسالة والشجاعة.[24] ولم يحدث إلا أثناء غزوات إيبامنونداس لبيلوبونيز خلال السنوات العشر التي أعقبت اندحار إسبارطة في معركة ليوكترا Leuctra (عام 371 قبل الميلاد)، أن يجد الإسبارطيون أنفسهم مجبرين على الدفاع عن أراضيهم، وأن يروا بأم أعينهم تشييد مدن مسوّرة تناصبهم العداء.[25]

ويمضي ثيميستوكليس قدماً أيضاً في تنفيذ خططه الأولية الرامية لتحويل بيريوس إلى ميناء رئيس لأثينا، عسكري وتجاري على حد سواء؛ ليكون هذا المشروع الشرط المنطقي المسبق لبناء الأسوار الطويلة لاحقاً. ونتيجة لقرار نفيه في عام 472 قبل الميلاد، ووفاته لاحقاً عام 467، فلم يتسن لثيميستوكليس نيل مقاصده كاملةً أبداً. ومع ذلك، ومع تصاعد عدد سفن أسطولهم، وتعاظم العوائد التي تدرها عليهم إمبراطوريتهم، صار الأثينيون شهوداً على تنامي ميناء بيريوس، حجماً وأهميةً. واختاروا المهندس المعماري هيبوداموس Hippodamus من ميلتوس Miletus لوضع تصاميم مدينتهم، وذلك في

عهد بيركليس كما يُفترض.[26] ويعرض ثوكيديدس الأسباب المنطقية للأهمية التي علّقها ثيميستوكليس على تحصين ميناء بيريوس، ورؤيته الاستراتيجية الشاملة:

> أقنعهم ثيميستوكليس أيضاً بالانتهاء من تشييد أسوار ميناء بيريوس التي كان العمل على بنائها قد بدأ خلال السنة التي تولى فيها منصبه حاكماً للمدينة. وقد تأثر، إلى حد كبير، بجودة المنطقة التي تشتمل على ثلاثة مرافئ طبيعية، مثلما تأثر أيضاً بالتفوق الكبير الذي يمكن لأثينا أن تحققه من خلال امتلاكها للقوة والنفوذ عند تحولها إلى دولة بحرية. وكان أول من تجرأ على الطلب من الأثينيين الاعتماد على البحر، وشرع في الحال بإرساء أسس الإمبراطورية. وكان من بين نصائحه أيضاً أن تبنى الأسوار بتلك السماكة التي تبقي رؤيتها واضحة حول بيريوس، حيث يتم جلب حجارتها بواسطة عربتين تتحرك كل منهما في مواجهة الأخرى. وما بين الأسوار التي تبنى على هذا النحو، لا ينبغي وضع قطع من البلاط أو الحجر المتكسر، وإنما كتل كبيرة من الحجارة تقطع على شكل مربعات وتثبت كل منها إلى جانب الأخرى بشكل متناسب، ويربط بعضها بالبعض الآخر من الواجهة الخارجية بواسطة مشابك من الحديد والرصاص. وأمكن وقتذاك إنجاز ما يقرب من نصف الارتفاع الذي يفكر فيه. وبحسب فكرته، فإن حجم الأسوار وسماكتها سيكفلان رد هجمات العدو عن المدينة؛ وأن من الممكن حمايتها كما ينبغي من قبل مجموعة صغيرة من الجنود المعفين من الخدمة العسكرية، كي يتفرغ البقية للخدمة في الأسطول البحري الذي استحوذ على جلّ اهتمامه. وفي اعتقادي، فربما ارتأى أن تقدُّم قوات الملك [الفارسي] عبر البحر سيكون أيسر عليها من سلوك طريق البر، وأن أهمية الميناء تفوق كثيراً تلك التي تعطى للمدينة التي تقع أعلى التل [أثينا]. ولطالما كان ينصح الأثينيين أن عليهم إذا ما جاء اليوم الذي يواجهون فيه ضغوطاً شديدة من جهة البر التوجه إلى بيريوس ليتحدوا العالم بأسره بأسطولهم البحري. وبناءً على ذلك، فقد أنجز الأثينيون بناء الأسوار، ليشرعوا من ثم في تشييد المباني الأخرى بعد تقهقر الفرس مباشرة.[27]

وقد يكون القرار الذي اتخذه الأثينيون بتوظيف قدراتهم ومواردهم العسكرية في الحروب البحرية بشكل أساسي، وفي بناء السفن الحربية الثلاثية المجاديف، وصيانتها، واستخدامها، كانت له انعكاسات استراتيجية على امتداد الحقبة المتبقية من العصر القديم، لا في أثينا فحسب، بل وفي عموم أرجاء العالم الإغريقي. وفي هذا الجانب، فقد

استفادوا تحديداً من شدة بأس المواطنين، الذين لم تكن غالبيتهم مهيأة للقتال في صفوف كتائب المشاة من حملة الرماح (الهوبليت)؛ فيما بات ممكناً الآن استخدام "المعدمين" (الذين يحتلون المرتبة الدنيا في نظام طبقات المجتمع الأربع الذي وضعه سولون Solon) كمجدّفين في الأسطول الأثيني. وباتخاذهم هذا القرار، فقد استطاع الأثينيون تجنيد العدد الأكبر من المواطنين الباحثين عن الأمن وسعة العيش في أثينا. ولتفادي الاشتباك المباشر مع قوات العدو براً، فقد صار لزاماً على المدن الإغريقية بناء تحصينات دفاعية تحتمي بها. ولأنها أمست تمثل حجر الزاوية في عملية تعزيز القوة السياسية للآلاف من فقراء أثينا، فقد بدا أن أسوار أثينا – وبيريوس أيضاً – باتت تكتسب أهمية ديمقراطية جديدة في عقول بعض الأثينيين.[28]

وإثر الانتهاء من تشييد أسوار مدينة أثينا وميناء بيريوس، فإن المرحلة التالية من تاريخ تحصينات أثينا الدفاعية تمثلت في بناء "الأسوار الطويلة"؛[29] وهو المشروع الذي استلزم في بادئ الأمر تشييد سورين بطول ستة كيلومترات لكل منهما، يمتدان بين أثينا وميناءي بيريوس وفاليرون Phaleron. وقد أنجزت أولى مراحلها في وقت مبكر من حياة بيركليس السياسية؛[30] وهو الذي سيقنع الأثينيين لاحقاً ببناء سور ثالث موازٍ لأسوار بيريوس.[31] وفي حالات التعرض لحصار، فإن هذه الأسوار، التي تربط المدينة بالميناء، ستؤمن للأثينيين منفذاً يوصلهم لأسطولهم البحري، وللسفن التجارية والمؤن والإمدادات التي تحملها. بل إن هذه الأسوار كانت إبّان الحرب البيلوبونيزية قد وفرت ملاذاً آمناً لأبناء المناطق الريفية في أتيكا، برغم أن هذا لم يكن الهدف من بنائها أصلاً.[32] وفي الفقرة التالية، يقدم دونالد كاجان Donald Kagan وصفاً لاستراتيجية بيركليس:

> ومع ذلك، فقد عمل بيركليس على صياغة استراتيجية لا سابق لها، وما كان تطبيقها ليكون ممكناً إلا بفضل الميّزات الفريدة لقوة أثينا والمدى الذي بلغته. فقواتها البحرية كانت عوناً لها في بسط سلطتها على إمبراطورية تدر عليها عوائد تستطيع بها تعزيز تفوقها بحراً، والحصول على كل ما تحتاجه من سلع وبضائع، في آن معاً، إما شراءً أو تجارةً. وعلى الرغم من أن أراضي

أتيكا كانت سريعة التأثر بأي هجوم يشن عليها، فإن بيركليس أوشك على تحويل أثينا نفسها إلى جزيرة من خلال بناء الأسوار الطويلة التي ربطت المدينة بمينائها وقاعدتها البحرية في بيريوس. ويمكن لهذه الأسوار، خلال الحروب القائمة على الحصار التي شاعت وقتذاك، أن تتحول إلى دفاعات حصينة متى ما توافرت الحماية لها؛ ومن ثم، يصبح بإمكان الأثينيين، إن اختاروا الانسحاب إلى داخلها، المكوث هناك بأمان، وسوف يتعذر على الإسبارطيين الوصول إليهم أو دحرهم.[33]

وهكذا، فقد نجحت قدرات أثينا الدفاعية في توفير الحماية لساكنيها وقت الحرب؛ ولم يحدث إلا إبّان الحصار، الذي فرضته إسبارطة على ميناء بيريوس، أن وجد أبناء أثينا أنفسهم مرغمين على الاستسلام. ومع هذا، وحتى مع نجاح الأثينيين في الصمود أمام الإسبارطيين خلف أسوارهم، فإن استراتيجية بيركليس بدت متعارضة مع أخلاقيات المحارب الإغريقي التقليدية، وأخفقت في ردع جيش إسبارطة، الذي كانت غاراته على منطقة أتيكا تستهدف إجبار الأثينيين على خوض حرب مشاة معه. وعلى الرغم مما انطوت عليه الأسوار الطويلة من منافع، فإنها قد أسهمت في التقليل من أهمية المفاهيم التقليدية للردع. فحتى ربيع عام 431، كان الإسبارطيون قد أدركوا أن قواتهم من المشاة من حملة الرماح لن يكون عليها دفع ثمن باهظ أو مباشر جراء انتهاكها لسيادة أثينا. ومتى ما تبددت المخاوف من التعرض للانتقام، فالغزو سيصبح ظاهرة مزمنة، وليست استثنائية، حتى يجيء الوقت الذي يتسبب فيه إما تفشي الوباء، أو اعتقال إسبارطيين في جزيرة اسفكتيريا Sphacteria، وذلك إحياءً لمفهوم "العواقب الوخيمة".[34]

وأثناء الحرب البيلوبونيزية، سعت أثينا إلى حث الدويلات الديمقراطية الأخرى على مشاركتها في جهودها الرامية إلى تعزيز تحصيناتها الدفاعية وتوسيعها، بدءاً بالمدينة وانتهاءً بمينائها، وهذا ما صار واضحاً في عام 417 مثلاً؛ إذ يروي ثوكيديدس قيام قادة أرغوس بتجديد تحالفهم المعقود مع الأثينيين، وشروعهم بتشييد أسوار طويلة لربط مدينتهم بالبحر.[35] وقد حدث ذلك بعد أن تمكن الديمقراطيون من أبناء هذه المدينة من قتل أبرز

العناصر الأوليغاركية أو طردهم. وفي تقدير أبناء أرغوس، فإن هذه الأسوار قد بنيت أملاً في أن تشكل لهم «ميّزة استيراد ما يحتاجونه عن طريق البحر، متى ما تعرضوا لحصار بري، وبدعم من الأثينيين. وثمة مدن أخرى في بيلوبونيز كانت هي الأخرى على دراية بطرق بناء أسوار كهذه. وقد بذل أهل أرغوس قاطبة، بمن فيهم النسوة والعبيد، قصارى جهدهم في إنجاز هذا المشروع؛ فيما قَدِم النجارون وعمال البناء من أثينا لمساعدتهم».[36] وفي هذا الخصوص، فإن الأثينيين قدموا نوعاً مألوفاً من المساعدة بالنسبة إليهم، فقد ساعدوا النخب الديمقراطية في أرغوس على توطيد دعائم زعامتهم لها، ومهدوا الطريق أمام المدينتين لتتحالفا في ما بينهما. وفي حالة أرغوس، صممت الأسوار التي ربطتها بساحل البحر لتتيح لها التزود بالمؤن والإمدادات وقت الحصار، لا لتكون أساساً لبناء قوة إمبراطورية. وكنتيجة طبيعية لذلك، فقد حرصت أرغوس على إبقاء أبوابها مشرعة أمام الأثينيين. ومع ذلك، فلعل الأهم هنا هو الطابع الرمزي لهذا التصرف، فالأسوار بالنسبة إلى أثينا كانت مرادفاً للديمقراطية الأثينية، ورمزاً لقوة المدينة ونفوذها. أما بالنسبة لأبناء أرغوس، فإن إقدامهم على بناء هذه الأسوار كان بدافع من رفضهم الانصياع لهيمنة إسبارطة على مدينتهم.

ولعل الإقرار بالأهمية المركزية للأسوار الطويلة في استراتيجية أثينا، وارتباطها الرمزي بالنظام الديمقراطي، توضح بإصرار إسبارطة على هدمها حال انتهاء الحرب البيلوبونيزية (404 قبل الميلاد). ويومئذٍ، قضت شروط الاستسلام التي فرضت على أثينا بتدمير الأسوار الطويلة، وخفض حجم الأسطول الأثيني إلى ما لا يزيد على 12 سفينة حربية ثلاثية المجاديف، وتنصيب نظام أوليغاركي موالٍ لإسبارطة يحكم المدينة (وهو ما سمي بحكومة "الطغاة الثلاثين" Thirty Tyrants). لقد جاء انتصار ليساندر Lysander في معركة إيجوسبوتامي Aegospotami في عام 405 قبل الميلاد، ليرتقي بإسبارطة إلى ذروة قوتها وجبروتها.[37] ويصف زينوفون حالة الهلع التي استبدت بالأثينيين حال بلغت أسماعهم أنباء الكارثة:

كان الوقت ليلاً عندما وصلت [السفينة] برلوس Paralus إلى أثينا. ومع انتشار أنباء الكارثة، صار كل أثيني ينقلها إلى الآخر. وتعالت أصوات النحيب والعويل، لتنطلق أولاً من بيريوس، وصولاً إلى أثينا على امتداد الأسوار الطويلة. لم يذق أحد طعم النوم تلك الليلة. وصار الجميع يندب الخسارة، والأكثر من ذلك مصيرهم. وشاع بينهم الاعتقاد بأنهم الآن سيتم التعامل معهم على نحو ما فعلوه هم مع الآخرين؛ كما مع أبناء ميلوس، الذين استعمروا إسبارطة بعد حصارها؛ ومع أبناء دويلات هيستيايا Histiaea وسيون وتوروني Torone في منطقة بحر إيجة، وكثير غيرها... ولم يعودوا يتخيلون لأنفسهم مستقبلاً غير تكبد ما أجبروا الآخرين على تكبده؛ مثل شعوب دول صغيرة أنزلوا بها الظلم، لا انتقاماً لجريرة اقترفتها، بل بدافع من غطرسة القوة، ولا لسبب سوى أنها كانت مع الحلف الإسبارطي.[38]

الخطوة التالية التي اتخذها ليساندر هي استكمال حصار أثينا بعد أن حققه فعلاً براً، وذلك من خلال السيطرة على الميناء. ومع تناقص إمداداتهم من الحبوب، أدرك الأثينيون المحاصرون أن أوان المفاوضات قد أزف.[39] فكان أول المقترحات هو الانضمام إلى الحلف الإسبارطي، شريطة أن تسمح لهم معاهدة الحلف بالحفاظ على أسوارهم الطويلة وسور بيريوس دون المساس بها. وعندما وصل سفراء أثينا مدينة سلاسيا Sellasia على حدود منطقة لاكونيا، لم يسمح لهم قضاة [إسبارطة] الخمسة بدخولها، ورفضوا ما جاؤوا به من شروط.[40] غير أن وفداً لاحقاً ترأسه ثيرامينيس Theramenes سيستمع إلى الجدل الذي دار بين المنتصرين بشأن مصير الأثينيين المدحورين:

عند وصولهم [ثيرامينيس وسفراء أثينا الآخرين]، دعا القضاة الخمسة إلى عقد اجتماع رفضت فيه دويلات يونانية كثيرة، ومنها تحديداً كورينث وطيبة، عقد أي اتفاق سلام مع أثينا، بل وطالبت بوجوب القضاء على الأثينيين. بيد أن الإسبارطيين قالوا إنهم لن يستعبدوا مدينة إغريقية قدمت خدمات جليلة لليونان يوم تعرضت لأعظم الخطر. وعرضوا إقامة سلام وفقاً للشروط الآتية: هدم الأسوار الطويلة وتحصينات بيريوس الدفاعية، واستسلام السفن الحربية جميعاً باستثناء 12 سفينة، وإعادة المنفيين، وأن تتخذ أثينا لها أعداءً وأصدقاءً من هم أعداء وأصدقاء إسبارطة أنفسهم؛ وأن تخضع لإسبارطة في زعامتها لأية حملة عسكرية تشنها، سواء أكان ذلك براً أو بحراً.[41]

وتشدد إسبارطة الأوليغاركية، غير المسوّرة، على هدم أسوار أثينا. وما إن أعلن المجلس الأثيني العام (المعروف باسم إيكليسيا Ecclesia) موافقته على العرض الإسبارطي، حتى كانت «سفن ليساندر تتهادى في ميناء بيريوس، وعاد المنفيون، وهدمت الأسوار، وكل ذلك وسط مشاهد من الحماسة والابتهاج الشديدين، وعلى أنغام موسيقى عازفات الفلوت. وثمة من اعتبر أن هذا اليوم يؤشر بداية الحرية في اليونان».[42] ولا ريب في أن مشاهد الابتهاج هذه تعيد إلى الذهن الاحتفالات التي رافقت تدمير جدار برلين، والتي تجمعت فيها الجماهير المبتهجة، سواء لتشهد عملية هدم الستار الحديدي، أو للمشاركة بشكل رمزي فيها؛ وإن كانت أسوار أثينا قد صممت لإبقاء العدو خارجها، وليس لاحتجاز المواطنين داخلها.

وتحمل رواية زينوفون هذه عن سقوط أثينا ما يوحي بانتهاء الحلف السياسي الذي انضوت داخله الدويلات اليونانية، والذي ظل قائماً ليس أثناء الحرب البيلوبونيزية فحسب، بل أيضاً لعقود من الزمن قبلها في كثير من الحالات.[43] ولم يكن قرار إسبارطة الرامي إلى إنقاذ أثينا من الإبادة إلا تعبيراً عن تقديرها للخدمات التي قدمها الأثينيون لليونان إبّان الحرب الفارسية. ويبدو أن القرار يعكس بشكل خاص قدراً كبيراً من الشهامة ورحابة الصدر، نظراً إلى ضراوة الحرب البيلوبونيزية وطول أمدها. ولربما أن الأهم من ذلك كله هو ميل إسبارطة إلى تجاهل نصائح اثنتين من الدويلات الحليفة الرئيسة (كورينث وطيبة) دفاعاً عن أثينا وحفاظاً عليها. ومع ذلك، فإن إسبارطة، وكما سبق ذكره، هي التي سعت إلى إيقاع الشلل بالنظام الديمقراطي الأثيني عن طريق تدمير أسطول أثينا وأسوارها، وحكم المدينة بأسلوب قريب الشبه بذلك الذي ابتدعه ليساندر والقائم على تنصيب حكومات ديكارشية decarchy تضم كل منها عشرة أشخاص يطلق عليها اسم حكومة العشرة]، يتولى رئاستها حاكم عسكري harmost، ونشر حاميات عسكرية. وحين تحرص إسبارطة على نشر قوات عسكرية في منطقة أتيكا، فهي

ستتمكن من وضع حد لتوسع مدينة طيبة في وسط اليونان. وربما هناك بين الإسبارطيين من كان راغباً في انتهاج أسلوب أثينا في إقامة قلاع وحصون حدودية لهذا الغرض.[44]

وأحدث الانتصار الذي حققته إسبارطة على أثينا تغييراً واضحاً في منظومة الدويلات الإغريقية؛[45] إذ إن تخلي أثينا عن زعامة ما كان نظاماً يقوم على مبدأ القطبية الثنائية، قد شجع إسبارطة على إطلاق العنان لطموحاتها بصفتها زعيمة تحالف الدول المنتصرة. وبرغم ذلك، وبدلاً من ترسيخ موقع إسبارطة كقائد لا منازع له، فقد أفرزت الفترة ما بين عامي 404 و395 انتقالاً مضطرباً من نظام القطبية الثنائية إلى آخر يستند إلى تعددية الأقطاب. وخلال هذه الفترة الانتقالية، غاب الاستقرار عن بنية نظام الدويلات الإغريقية بشكل متأصل؛ فلا الأقطاب فيها ثنائية ولا متعددة. ويكمن السبب في حالة عدم الاستقرار هذه في زوال أثينا كقوة كبرى، وفي الغموض الذي اقترن بطبيعة الدولة (أو مجموعة الدول) التي ستحل بديلاً عنها. فبعد هزيمتها في الحرب البيلوبونيزية، بدا أن استعادة أثينا لعافيتها سيكون مرهوناً، إلى حد ما، بقدرة الأثينيين على امتلاك الموارد المالية اللازمة لإعادة بناء تحصينات مدينتهم الدفاعية.[46] ومن حسن حظ أثينا أن يأتي لنجدتها طوعاً ممولون لهم مصالح استراتيجية مكملة لمصالحها. فعندما التقى المَرْزُبان [الحاكم الفارسي] فارنابازوس Pharnabazus، عند برزخ كورينث، بمندوبين عن دويلات طيبة وكورينث وأرغوس، بمعية القائد الأثيني كونون (الذي كان الملك الفارسي أرتازركسيس Artaxerxes قد عينّه قائداً لأسطوله عام 397)[47] عرض عليهم دعماً معنوياً ومالياً، كما عقد (بحسب ديودوروس Diodorus) حلفاً معهم.[48] ويوثق لنا زينوفون وجهة نظر كونون التي عرضها على فارنابازوس، والخطوات التي اتخذها هذا الحاكم الفارسي في وقت لاحق:

> طلب كونون، مع ذلك، إبقاءه قائداً للأسطول؛ قائلاً إن بإمكانه توفير الدعم له من المساعدات والهبات التي تقدمها له الجزر، واقترح أيضاً الإبحار إلى أثينا ومساعدة أبناء جلدته في بناء الأسوار الطويلة وأسوار بيريوس. وقال: «لا يخطر ببالي أي تصرف آخر يمكن أن يلحق أذى

أكبر بالإسبارطيين. وبفعل هذا، فلن تقدِّم للأثينيين معروفاً يقابلونه بالامتنان فحسب، بل وستسبب المعاناة للإسبارطيين أيضاً. وستبطل إنجازهم ذاك الذي كلفهم من المصاعب والجهد المضني ما لم يكلفهم أي شيء غيره». فكان هذا الاقتراح موضع ترحيب فارنابازوس إلى حد أنه لم يكتف بإيفاد كونون إلى أثينا، بل وزوده أيضاً بأموال إضافية يستفيد منها في إعادة تشييد الأسوار. واستطاع كونون بعد وصوله إلى هناك إنجاز بناء جانب كبير من التحصينات الدفاعية باستخدام طواقم أسطوله لهذا الغرض، وتوظيف العديد من النجارين وعمال البناء، والوفاء بجميع النفقات الضرورية الأخرى.[49]

ويعود فارنابازوس من بعد إلى فارس، تاركاً لكونون قيادة الأسطول، ويعود هذا الأخير نفسه إلى أثينا ليأخذ على عاتقه مهمة إعادة تشييد تحصينات المدينة الدفاعية. وثمة مراجع قديمة قد اعتبرت أن أهداف كونون ومراميه كانت تكمن في الإطاحة بإمبراطورية إسبارطة، والعمل في غضون ذلك على إعادة أثينا إلى منزلة القوة الكبرى.[50] وبغياب الدعم الفارسي، فسيغدو مستحيلاً من الناحية العملية تمويل حرب يشنها الأثينيون ضد إسبارطة، التي عاد إنزال الهزيمة بها ليصبح مرة أخرى هدفاً أساسياً من أهداف سياسة أثينا الخارجية.[51] وفي ذلك الوقت، شرع الأثينيون بالفعل في إعادة بناء أسوار ميناء بيريوس، فيما كان العمل يمضي بصورة جادة في بناء أسوارهم الطويلة.[52]

وحتى وهم في خضم الهزيمة، لم يوقف الأثينيون مساعيهم لإعادة بناء كل من قوتهم وصورتهم في أذهان الآخرين. وخلافاً للأثينيين المنتصرين الذين بنوا أسوار ثيميستوكليس حين وضعت الحرب الفارسية أوزارها، فهم اليوم الأثينيون المهزومون. هذه المهمة الشاقة – التي جسدت إعادة الصلة باستراتيجية أثينا العسكرية السابقة – لم تكن ابتكاراً جديداً. ومع ذلك، فباعتبارها وسيلة لإبراز "القوة الناعمة"[53]، فإن إعادة بناء أسوار أثينا الطويلة، كرمز لإمبراطوريتها في القرن الخامس، تظهر رغبة الأثينيين في استعادة مكانة دويلتهم في أعين الدويلات المجاورة، التي ربما كانت وقتئذٍ تبحث عن حليف مهم يقف إلى جانبها بوجه إسبارطة.[54] ومن هنا، فقد جاء اكتمال العمل في بناء هذه

التحصينات ليعلن للمدن الإغريقية الأخرى ضمناً استعادة أثينا استقلاليتها، واستعادة نظامها الديمقراطي حيويته ونشاطه.

إن تطلع الأثينيين لإحياء إمبراطوريتهم كان لايزال قوياً في أثينا، ولكن كون هذا هدفاً واقعياً أو لا فهذا شأن آخر. فقد كانت أثينا، ومعها دويلات إغريقية رئيسة أخرى، قد أخفقت في انتزاع زمام الزعامة والهيمنة من أيدي إسبارطة أثناء الحرب الكورينثية [نسبة إلى كورينث]. وفي تلك الأثناء، بدا من المؤكد أن الأثينيين لم يعد بوسعهم بناء أسطول بالحجم الذي يتناسب مع قوتهم الإمبراطورية السابقة وتوفير احتياجاته. كما لم يعد خافياً على أحد الدور الحيوي الذي لعبته فارس؛ فالمعاهدة التي سميت بـ "سلام الملك" كانت قد اشتملت على أحكام تضع حداً للعمليات الحربية استناداً لشروط أرتازركسيس؛ وقد قضت بتحويل مدن آسيا الصغرى جميعاً، وكذلك جزيرتي كلازوميناي Clazomenae [55] وقبرص، إلى ممتلكات فارسية.[56] أما الدويلات الأخرى جميعاً - باستثناء ما يعود لأثينا من ممتلكات في جزر ليمنوس Lemnos، وسكايروس، وإمبروس Imbros، التي تمثل مواقع حيوية من الناحية الاستراتيجية في ما يتعلق بجهودهم الرامية لحماية شحنات الحبوب المتجهة إلى ميناء بيريوس[57] - فتُمنح حكماً ذاتياً.[58] والمدن التي لا تمتثل لهذه الشروط فستدرج على قائمة أعداء الملك، وتصبح هدفاً لهجمات تشنها فارس لا عليها فحسب، بل وعلى كل من يبدي استعداده للوقوف إلى جانبها.[59]

إن انتهاء الحرب بحد ذاته عدّ انتصاراً لإسبارطة؛ فقد تمكنت إسبارطة من تفكيك كل من الاتحاد البؤوتي Boeotian League، والتحالف الذي جمع كورينث وأرغوس حين أعادت الأولى إلى معسكر حلفائها، ووضعت حداً لتطلعات أثينا التوسعية. ومع ذلك، فإن زينوفون يرى أن الانتصار الذي حققته إسبارطة في الحرب الكورينثية كان انتصاراً دبلوماسياً وليس عسكرياً؛ فـ «إذا كان الإسبارطيون قد أفلحوا خلال عمليات القتال الفعلية، في تفادي هزيمة محققة، فإنهم الآن، وبفضل المعاهدة التي تعرف باسم

سلام أنتلسداس The Peace of Antalcidas (أو سلام الملك King's Peace)، باتوا يظهرون بصورة المنتصر العظيم».[60] ولا ريب في أن قبول المدن الإغريقية البارزة بالشروط التي وضعت عام 387 ينطوي على التغييرات المهمة التي طرأت على القدرات النسبية لكل منها، ما يعني تحولاً في ميزان القوى عامة.[61]

وقد عُدَّ "سلام الملك" هذا أول مثال على ظاهرة معاهدات السلام العامة التي شاعت إبّان القرن الرابع قبل الميلاد.[62] وبالمقارنة مع ما سبقتها من أمثلة، فإن هذه المعاهدات أمست متعددة الأطراف (على عكس الثنائية منها)، وباتت تحظى بقبول المدن الإغريقية الرئيسة (حتى وإن لم توقعها رسمياً)، فضلاً عن أنها ذات أمد غير محدود من الناحية النظرية (وليس لأمد محدد زمنياً)، وتلتزم بمبدأ منح الحكم الذاتي للدويلات الإغريقية قاطبة. ومع أن معاهدة "سلام الملك"، عند النظر إليها عبر هذا المنظور، تلبي بشكل وافٍ بعض هذه المعايير، فإنها تعجز عن ذلك في نواح أخرى.[63] وربما الأصح هو النظر إليها على أنها معاهدة سلام تم التوصل إليها عبر المفاوضات سعياً للتعامل مع نقاط الضعف التي شابت معاهدات سابقة. وعلى سبيل المثال، فالمعاهدة التي أنهت الحرب البيلوبونيزية خلقت المزيد من العداوات بين الأطراف المتحاربة نتيجة طابعها الثنائي بالدرجة الأولى؛ فأثارت بذلك مشكلات أكثر من تلك التي حسمتها. ولم تكن الحرب البيلوبونيزية إلا صراعاً من أجل الهيمنة دخل في أتونه العالم الإغريقي برمته. وإذا كانت المعاهدة، التي أبرمت بين إسبارطة وأثينا، قد وضعت نهاية للصراع الذي دار بين هاتين القوتين الكبيرتين، فإنها لم تعالج العدد الكبير من الهواجس التي كانت تشغل بال أطرافه الأخرى. ومن هنا، فقد ساد الاعتقاد بأن المفاوضات الثنائية غير كافية لمعالجة المعضلات والتعقيدات التي لازمت العلاقات الداخلية إبّان القرن الرابع، والتي غالباً ما تُقحم فيها أعداد كبيرة من المدن التي تسعى لبلوغ أهداف متعارضة على صعيد السياسة الخارجية. وعلى الرغم من أن معاهدة "سلام الملك" تشمل ظاهرياً الدويلات الإغريقية جميعها، فإنها جاءت نتاج مفاوضات ثنائية من النوع ذاته.[64]

ومع أن البند المتعلق بالحكم الذاتي من هذه المعاهدة (387-386 قبل الميلاد) يمنع تأسيس إمبراطورية وفقاً للأنموذج الذي شاع في القرن الخامس، فإن الأثينيين استنبطوا حلاً ذكياً لمشكلة إيجاد الطريق الذي يأخذهم من جديد لموقع بارز في منظومة الدويلات والمدن الإغريقية. ولم يمض إلا وقت قصيرعلى الهجوم الذي قاده سفودرياس Sphodrias على ميناء بيريوس عام 378 حتى بادر الأثينيون إلى إقامة ما عرف بـ "الاتحاد الأثيني الثاني".[65] وكان تقدم جيشه عبر المناطق الريفية من أتيكا حتى سهل منطقة ثريا Thria قد أثار انتباه الأثينيين إلى وجوده، فبادروا إلى تعبئة قواتهم. وبعد أن أوقع الخراب في السهل، عاد سفودرياس دون أن يحقق أهدافه، برغم أن الأثينيين لمسوا نقاط ضعفهم. ومن هنا برزت حاجتهم مجدداً إلى ترسيخ الاستقرار داخل منظومة تحصينات المدينة الدفاعية إن كانوا يأملون استعادة أمجادهم الإمبراطورية؛ فناشدوا حلفاءهم الوقوف إلى جانبهم من أجل حرية الجميع.[66] وبرغم أن تلك المعاهدة كانت، في تقديرهم، قد حرمتهم كل ممتلكاتهم في الخارج (باستثناء جزر ليمنوس وسكايروس وإمبروس)، فقد أقروا بأنها أتاحت لهم، في الوقت نفسه، قدراً من الحماية. لذا فقد حرصوا على الالتزام بشروط التسوية السلمية هذه وأحكامها، واستثمار حالات انتهاك الإسبارطيين لها. وقد أراد الأثينيون، وهم يؤكدون تمسكهم بهذا الاتفاق، استعادة ما كانوا يتمتعون به من سمعة حسنة، سواء لدى المدن الإغريقية أو بلاد فارس، من خلال النهوض بدور القوة المضادة المطلوبة لإحلال التوازن في القوى بوجه الحكم الإسبارطي الاستبدادي. ويوثق نصب أرسطو التذكاري بنود اتفاقية الاتحاد الأثيني، التي جاءت في واقع الأمر بشكل يوضح السياسة التي انتهجتها أثينا في هذا المضمار. فهي قد طمأنت الدويلات الأعضاء فيه، الحالية منها والمحتملة، إلى أن الاتفاقية تضمن لكل دويلة أو مدينة حريتها واستقلالها، وأن أثينا لن تقيم حاميات عسكرية فيها أو تنصّب ضباطاً عسكريين عليها، وبأنها لن تجبرها على دفع الجزية،[67] وبأنها ستعيد للمدن الأعضاء في الاتحاد جميع الأراضي التي تخضع لسيطرة الأثينيين، سراً أو علانية، وتوقف إنشاء أنظمة المستوطنات (المستعمرات)

الأثينية فيها. ومن ثمّ، صارت الأعمدة والنصب التذكارية تتضمن قائمة بأسماء الدويلات الأعضاء في الاتحاد الأثيني الثاني.

وكان على أثينا أيضاً أن تنأى بهذا الاتحاد الجديد عن كل ما له صلة بإمبراطوريتها السابقة، وأن تقدم من التنازلات ما يرضي حلفاءها؛ بغية استمالتهم إليها، وإبقائهم من بعد داخل حظيرة الاتحاد. وهكذا، فقد بات الاتحاد نموذجاً لمعسكر توحد فيه دويلات صغيرة قواها لخلق توازن تجاه دولة واحدة أكثر قوة. ويوفر هذا الاتحاد شيئاً من الردع لحماية كل من طيبة وأثينا؛ إذ لم يعد بوسع إسبارطة بسط هيمنتها على وسط اليونان من دون الدخول في مواجهة مع تحالف يضم كثيراً من المدن والدويلات الإغريقية. وفي هذا السياق، كان واضحاً أن كلاً من أثينا، التي تخطط بجرأة عالية لتشكيل اتحاد جديد، وطيبة، التي ذاقت لتوها طعم الحرية، كانت بحاجة إلى ضمان المتطلبات الأمنية الأساسية لاتقاء شر هجمات إسبارطة الوحشية الغاشمة، إن هي أرادت إعادة تأهيل دولتها.[68] أما الدافع الذي حدا بمدن منطقة بحر إيجة الصغيرة للانضمام إلى الاتحاد، فربما كان الحصول على الأمن الجماعي الذي يقدمه لها هذا الاتحاد حديث التشكيل، إضافة لاسترداد ممتلكاتها التي كانت أثينا قد وضعت يدها عليها. وبكلمة موجزة، فإن الهدف المعلن للاتحاد كان حماية استقلال المدن الأعضاء فيه من تجاوزات إسبارطة واعتداءاتها. وربما يبدو هذا مستغرباً، نظراً إلى أن الخطر المحتمل، الذي تهدد حرية أولى الدويلات التي انضوت تحت لواء الاتحاد (ما خلا أثينا وطيبة)، كان يأتي من فارس، وليس من إسبارطة. وفي تلك الأثناء، كانت أثينا تعمل على الاضطلاع بدور الراعي لمعاهدة "سلام الملك" بديلاً عن إسبارطة؛ لاسيما أن الاستيلاء على كادميا Cadmeia، والهجوم الذي شنه سفودرياس (على بيريوس)، قد أثبتا للمدن الإغريقية جميعها، أن إسبارطة هي من ينتهك المعاهدة، وليست الضامن لها. وعلى هذا، فإن إسبارطة، وليس فارس، هي الخطر المباشر الآني الذي يتهدد أثينا والبر اليوناني الرئيس.

واكتسبت عودة أثينا لشغل مكانة القوة البحرية التي يمكن الاعتماد عليها أهمية كبيرة في إطار المنظومة المشتركة للدويلات الإغريقية، من حيث عدم اضطرار مدن آسيا الصغرى ومنطقة بحر إيجة للاعتماد على إسبارطة كلياً دون غيرها طلباً للحماية من الهجمات الفارسية. وما لم يكن الأثينيون سيتخلون عن مدينتهم، فإن أي استراتيجية تركز اهتمامها على القدرات البحرية ستقتضي حتماً صيانة الأسوار الطويلة. ومع ذلك، ففي غياب أسطول كبير وقوي، لن يحقق الأثينيون لأنفسهم أفضلية مؤثرة إن هم اعتمدوا بشكل كلي على الأسوار الطويلة وتحصينات ميناء بيريوس الدفاعية لضمان بقائهم. وفي بيئة كهذه تتعدد الأقطاب فيها، وتحتدم المنافسة بينها، لابد أن تدفع بالأثينيين لتوظيف قدراتهم وطاقاتهم في الدفاع عن حدودهم وحمايتها.[69] ونظراً للإشكالات المعقدة التي تكتنف أي محاولة لتحديد تواريخ ثابتة لإقامة الأسوار القديمة في مجملها؛[70] فقد تعذر التوصل إلى ذلك بالنسبة إلى هذه المجموعة من التحصينات موضوع البحث بأي درجة من الدقة العالية المتوخاة،[71] وإن بدا معقولاً بشكل عام تحديد تاريخها بالقرن الرابع قبل الميلاد. وعندما يعمل الأثينيون على توسيع مشروعاتهم الدفاعية وتعزيزها، فهم يميزون بين رغبتهم في فرض سطوتهم على الآخرين، وبين حاجتهم إلى إحكام سيطرتهم على موطنهم ذاته.

وفي هذا السياق، يشدد جوسيا أوبر Josiah Ober كثيراً على العقلية الدفاعية التي كان لها تأثير طاغٍ في الأثينيين إبّان القرن الرابع،[72] مع أن بناء التحصينات التي أقاموها حماية لمدينتهم وحدودهم قد تزامن مع تلك الفترة التي كانوا خلالها يتبنون سياسة خارجية ذات طابع هجومي عدواني، خاصة في ضوء القيود والمحددات التي فرضتها عليهم طبيعة المنظومة المشتركة للمدن الإغريقية حديثة التكوين. ونتيجة لتجربتهم التي اكتسبوها خلال الحرب البيلوبونيزية، فقد بدا من الطبيعي تماماً أن تكتسب مهمة حماية منطقة أتيكا أهمية خاصة بالنسبة إليهم.[73] ومن هنا، فقد عقدوا العزم على التصدي لأي تجاوزات واعتداءات تستهدف أراضيهم، كالدمار الذي أحدثته إسبارطة بالمناطق الريفية

في أتيكا بداية الحرب البيلوبونيزية، واحتلال قرية ديكيليا Decelea لاحقاً في آخر مراحل هذه الحرب، والغارة التي شنها سفودرياس مؤخراً [على ميناء بيريوس]. ومرة أخرى، فالأثينيون عندما يتبنون عقلية دفاعية بشكل واضح، فهم يحاولون تشديد سيطرتهم على أراضيهم، ويقدمون أنفسهم حليفاً جاذباً مهماً للدويلات التي تشاطرهم الأفكار والغايات ذاتها في إطار الصراع ضد هيمنة إسبارطة أولاً، وطيبة من بعد.

ولكي يتمكن الأثينيون من إشاعة الأمن من جديد في مدينتهم، وتعزيز مصالحهم، فقد استقر رأيهم على انتهاج استراتيجية جديدة اقتضت تقوية القدرات الدفاعية للمدينة والأراضي المحيطة بها. وفي هذا السياق، يغدو الوصف، الذي أورده أرسطو لاحقاً في كتاب **السياسة** *Politics* عن استخدام الأسوار وغيرها من التحصينات الدفاعية (ولم يشر بالضرورة إلى أثينا بالذات)، وثيق الصلة بعقلية المخططين العسكريين إبّان القرن الرابع:

> ما برحت مسألة تحصين المدن بواسطة الأسوار موضع خلاف. وثمة من يجادل أحياناً بأنه يجدر بالدويلات التي تزعم لنفسها تفوق قدراتها العسكرية الاستغناء عن هذه الوسائل الدفاعية. إلا أن وجهة نظر كهذه باتت بالية، ولاسيما بعد أن أمسى بادياً للعيان أن منطق الحقيقة صار يجهض حجج تلك الدويلات التي تتباهى بقدراتها في هذا المجال. فعندما تتعلق المسألة المختلف عليها بأسلوب التعامل مع مدينة معادية ذات طبيعة مماثلة، لكنها تتميز بالتفوق عددياً بعض الشيء، فإن أي محاولة لضمان الأمن عن طريق إقامة الأسوار كحواجز دفاعية لن تعود على صاحبها إلا بالقليل من الفخر والتمجيد. غير أن ما يحدث بالفعل أحياناً - وما يرجح حدوثه دوماً - هو أن تفوق القوات المهاجمة قد يكون أكبر من مجرد بسالة أو جرأة، لا فرق إن كانت بشرية أو فوق قدرات البشر. ومن ثم، فإن تعين على دويلة ما تفادي ما يمكن أن يلحق بها من دمار، ولتوفر على نفسها الأذى والإذلال، فإن الأسوار ينبغي اعتبارها الأسلوب الدفاعي الأفضل، خاصة في يومنا هذا الذي تحقق فيه هذا المستوى العالي من الدقة للمنجنيق، وغيره من آليات حصار المدن ومعداته. وهنا تبدو أي دعوة إلى ضرورة إبقاء هذه المدينة أو تلك من غير أسوار تدافع بها عن نفسها أشبه بالدعوة إلى إبقاء أراضيها مفتوحة أمام عمليات الغزو، وإلى تدمير أي إنجازات كبيرة حققتها تدميراً تاماً. كما أنها أشبه برفض بناء سور لحماية

> الواجهة الخارجية للمنزل لا لشيء سوى خشية أن يُعتبر ساكنوه من الجبناء. ولابد لنا أيضاً من أن نتذكر أن أبناء المدينة المحمية بالأسوار يمتلكون فرصة اختيار البديل الذي يناسبهم؛ إذ يصبح بإمكانهم إما التعامل مع مدينتهم على أنها مدينة مسورة [فيتخذون بالتالي موقفاً دفاعياً]، أو اعتبارها غير مسورة [فيبادرون بالتالي إلى تبني موقف هجومي]. ولكن من كان بلا أسوار، فلا خيارات أخرى له. وفي حال حظيت هذه الحجة بالقبول، فإن الحكم النهائي لن يقتصر على ضرورة إحاطة المدينة بالأسوار فحسب، بل ينبغي أيضاً الحفاظ على هذه الأسوار بحالة سليمة دوماً، وأن تبنى على النحو الذي يفي، على حد سواء، بمقتضيات الجمال وبمتطلبات الجدوى الحربية لها؛ خاصة تلك التي أفرزتها الابتكارات العسكرية الأخيرة. ولطالما كان الشغل الشاغل "للمهاجم" استنباط أساليب جديدة قد يتمكن من خلالها اكتساب الأفضلية، فإن "المدافع"، الذي توصل فعلياً إلى بعض الابتكارات الجديدة، معني أيضاً بالمثل بأن يضع في حسبانه قدرات الآخرين قبل اتخاذ القرار. والقوة المهاجمة، أياً كانت، لن تحاول حتى مجرد التفكير بشن هجوم على أولئك الذين أعدوا له عدتهم على أفضل وجه.[74]

وفي مجمل القول، فإن التحصينات التي تقام لحماية المدينة وحدودها لا تمثل عاملاً حاسماً وحيوياً في الدفاع عنهما ضد الأعداء الخارجيين فحسب، بل وكذلك ضد العناصر المقيمة داخل أسوار المدينة، التي قد تنزع للإخلال بأمن المدينة عن طريق التمرد والعصيان والتحريض عليهما. وفي هذا السياق، فإن الدليل الذي وضعه أينياس Aeneas في القرن الرابع قبل الميلاد حول **قضايا الحصار** *Poliorcetica* يحث قادة المدن وحكامها على توخي اليقظة والحذر من الأعمال الخيانية التي قد تقع داخل المدينة؛ وهو بذلك يوحي بأن اعتماد المدينة على أسوارها يستوجب أيضاً التحكم بتصرفات سكانها المحليين ومراقبتهم.[75]

وعلى امتداد تاريخ أثينا، فقد أدت أسوارها أدواراً عدة لأنها شكلت دائماً العامل المركزي في حماية المدينة. وابتداءً بالقائد ثيميستوكليس، فإن تشييد أسوار أثينا ضمن لها أمنها ضد أي غزوات جديدة. ومهد هذا بدوره الطريق أمامها لبناء إمبراطوريتها، وسمح بازدهار النظام الديمقراطي بنمط خاص عزز قواتها البحرية، التي اعتمدت على آلاف الفقراء ممن انتفعوا منها. وفي عهد بيركليس، واصل الأثينيون تطوير مشروعاتهم

الدفاعية، وتأمين قدراتهم على مستوى الإمبراطورية بأسرها، في إطار استراتيجية شكّلت الأسوار جزءاً لا يتجزأ منها، لكن استراتيجية بيركليس هذه كانت خلال الحرب البيلوبونيزية قد أساءت تقدير حجم الدمار الذي كان سيحدثه الإتيان بالآلاف من أبناء أثينا للاحتماء خلف أسوارها تاركين أماكن إقامتهم في أرياف منطقة أتيكا؛ فكان هذا سبباً في تفشي وباء فتاك أحدث فوضى عارمة في الداخل. ويبدو أن بيركليس لم يحسب عواقب فقدان الردع العسكري؛ فالأمر الواقع يبين عدم وجود عواقب آنية لغزو أرض أتيكا، بسبب المقاومة التي قد تبديها قوات المشاة المسلحة، ولكن كان من المرجح أن الحرب ستعقب ذلك.

وفي أعقاب هزيمة أثينا، وهدم أسوارها، أعاد كونون بناءها من جديد لأغراض عملية ورمزية في الوقت عينه. غير أن هذه الاستراتيجية الجديدة كان مآلها الإخفاق نتيجة التحولات العديدة التي شهدتها منظومة الدويلات الإغريقية الأوسع نطاقاً. وفي تعاطيهم مع هذه التحولات، والعمليات القتالية التي جرت في إطار الحرب الكورينثية، أدرك الأثينيون أن استراتيجيتهم السابقة لم تكن تفي بالهدف المعقود عليها، وأن عليهم تقوية قدرتهم على بسط سيطرتهم على أراضيهم عن طريق بناء دفاعات حدودية محكمة، بغية توسيع دائرة خياراتهم إلى ما هو أكثر من أسلوب الدفاع السلبي القائم على استخدام قوات المشاة. ولسوف يؤذن النصف الثاني من القرن الرابع بحدوث تحولات عميقة في حروب الحصار، وفي استخدام قوات "المدفعية"؛ وهي - على أي حال - لا تدخل في صميم هذا البحث.[76] وفي أثينا، لم تكن أسوار المدينة ودفاعاتها الحدودية لتصمد أمام الملك المقدوني فيليب الثاني وجيشه؛ وقد خضع الأثينيون لحكمه دون أن يختبروا قوة شبكات قدراتهم الدفاعية التي كلّفتهم غالياً.

وطوال قرن من الزمن أو يزيد، دأبت أنظمة الحكم الديمقراطية الأثينية على تجريب تشكيلة واسعة من نظم التحصينات الدفاعية الحدودية وأنماطها - بدءاً بأسوار المناطق

الحضرية، ومروراً بالأسوار الطويلة، وانتهاءً بشبكات الدفاعات الحدودية – لاستعراض منافعها من الناحية العسكرية، وتطبيقاً لأجندات سياسية واقتصادية فرضت هيمنتها وقتذاك. وبدا أن الاتجاه الوحيد الثابت تمثل في تشييد استحكامات ومتاريس حجرية لتلبية أي متطلبات يمكن تخيلها، مهما اختلفت وتعددت. وفي السنوات الخمسين الأخيرة من عصر الدويلات الإغريقية الحرة، ظهرت إلى الوجود خارج أثينا أنماط من التحصينات أكثر حداثة وطموحاً؛ كالأسوار الدائرية في مانتينيا Mantineia، وميجالوبوليس Megalopolis، وميسينيا، في بيلوبونيز. وقد أقيمت على شكل قلاع وحصون جديدة ضخمة ومسورة، صممت بحيث تضم أراضي زراعية داخل المدينة، وتوفر الحماية لتجمعات صارت تدمج فيها مدن متناثرة لتتحول إلى دويلات ديمقراطية جديدة موحدة.

وحتى في يومنا هذا، في عصر التقنيات المتطورة، ما برحت الأسوار والتحصينات الدفاعية تؤدي دوراً مهماً على المستويين الدفاعي والاستراتيجي، وإن لم يكن حاسماً بالدرجة ذاتها. وعلى الرغم من أن التطورات المتسارعة التي تشهدها تقنيات الأسلحة، وولادة القوات الجوية والفضائية قد تسببت في التقليل كثيراً من فاعليتها وكفاءتها كخطوط دفاعية، فهي مازالت تؤدي وظائف ذات قيمة كبيرة في بيئات وأوضاع معينة، ما يؤكد استمرار دورة "التحديات والرد عليها" على المستويين الهجومي والدفاعي، ودون ارتباط ذلك بزمن محدد.

في السنوات الأخيرة، تسببت الأوضاع الخطرة التي نشأت في العراق في التعجيل ببناء أسوار و"مناطق آمنة" للفصل بين الطوائف والتنظيمات المتحاربة.[77] فقد أقامت القوات الأمريكية حواجز ومتاريس في بغداد لتعزيز قدرة المواطنين العراقيين على تدبر شؤون حياتهم اليومية في بيئة سوية إلى حد ما. ولعل إزالة هذه الجدران الإسمنتية الضخمة شيئاً فشيئاً تصلح مؤشراً إلى تراجع حدة التوتر بين الجماعات المتصارعة في تلك

المدينة التي مزقتها الحرب.[78] وفي إسرائيل، أثبتت سلسلة مترابطة من الأسوار والحواجز، التي أُنشئت لمنع الانتحاريين من دخولها، فاعليتها كوسيلة للحد من الهجمات، على الرغم من أن فريقاً من الخبراء تنبأ بأن مثل هذه الحلول التي تعود للماضي نادراً ما يحالفها النجاح. ولنا في الجدار السعودي، الذي أقيم حديثاً ليفصل ما بين المملكة العربية السعودية والعراق، مثال آخر. والسعوديون قد شيدوا شبكة الدفاعات الباهظة الكلفة هذه على امتداد حدودهم مع العراق بسبب التنبه إلى حالات الخطر المتمثلة في تدفق المقاتلين الأجانب عبر هذه الحدود. وتعكف الولايات المتحدة الأمريكية على بناء "سياج" ضخم من مواد إسمنتية ومعدنية بكلفة تصل إلى مليارات الدولارات، بقصد إحكام السيطرة على الحدود الأمريكية-المكسيكية. وتوشك اليوم على الانتهاء من أولى مراحله التي تمتد بين سان دييغو (كاليفورنيا) وإل باسو (تكساس)؛ والتي أسهمت على ما يبدو في الحد كثيراً من حالات عبور الحدود بشكل غير قانوني، وبصورة مؤثرة لا تقل فاعلية عن وسائل أخرى من قبيل تعزيز دوريات المراقبة، وأجهزة الاستشعار الإلكترونية، وما يسمى بـ"الأسيجة الافتراضية"، والعقوبات التي تُفرض على أرباب العمل الذين يوفرون فرص العمل للمهاجرين غير الشرعيين. وإذ يتزامن وجودها مع أجهزة الاتصال عبر الأقمار الاصطناعية، والطائرات غير المأهولة، وأجهزة الاستشعار المتطورة التي تدار بواسطة الحاسوب، فإن الأسلاك المعدنية الشائكة والحواجز الإسمنتية، التي تقام في شتى أرجاء العالم، ما فتئت توفر الحماية المتوخاة على النحو الذي تعجز عنه بدائل تكنولوجية أخرى عالية المستوى. وكلما ازداد تطور التقنيات التي تتيح اختراق هذه الأسوار بالمرور من فوقها أو من خلالها أو من تحتها، ازداد أيضاً تطور أجهزة التصدي المضادة التي تستنبط لتطوير فوائد التحصينات الدفاعية ومزاياها، والتي – أي التحصينات – لاتزال قادرة إما على منع تسلل العناصر غير المرغوب فيها (وتحول أحياناً دون خروجها أيضاً)، وإما على جعل جهود المهاجمين ومحاولاتهم باهظة الكلفة إلى الحد الذي يمكن أن تتمخض فيه عن نتائج معاكسة.

ومثلما هي الحال بالنسبة إلى أي من عناصر الحرب ومقوماتها، فإن وظائف الأسوار ومقاصدها يمكن أن تتغير بمضي الوقت، غير أن فكرة إقامة حواجز ومعوقات مادية لم تنته حتى الآن. وعلى النقيض من الخنادق المائية والجسور المتحركة، فإن استخدام هذه الحواجز آخذ في التزايد، بل وصار يتخذ أشكالاً بارعة ومبتكرة.[79] وفي العصر الإغريقي القديم، لم تكن الأسوار تشكل في نظر الأثينيين مجرد خطوط دفاعية فحسب، بل تحولت أيضاً إلى رموز للقوة والفخر أسهمت في إعادة صياغة المشهد الاستراتيجي في إطار منظومة الدويلات الإغريقية، وفي تقوية إحساس الطبقات الدنيا باستقلاليتها ومشاركتها في الحكم؛ وهي الطبقات التي عُدَّت أحد العوامل الجوهرية لضمان حيوية النظام الديمقراطي في أثينا وإمبراطوريتها البحرية.

هذه التحصينات باتت تخلق أمام أي قوة صاعدة فرصاً وخيارات استراتيجية؛ فتدميرها يدل على هزيمة حقيقية، فيما أسهم بناؤها مجدداً في استعادة أثينا موقعها حليفاً قوياً محتملاً لتلك المدن التي كان يصب في صالحها جميعاً احتواء إسبارطة وكبح جماحها. وكما هي الأدوار التي أدتها القوة البحرية البريطانية في تحقيق مجموعة من المقاصد المتنوعة، عبر مراحل مختلفة إبان صعود نجم الإمبراطورية البريطانية وأفولها - حماية النشاطات التجارية، وتعزيز حركة التوسع الاستعماري، وإنزال العقاب القاسي بمن يستحقه في أعالي البحار - فقد كان لأسوار أثينا أيضاً أسياد كثر، وبناة كثر، وغايات كثر. ولعل التعامل معها مستقبلاً، وسط التقنيات فائقة التطور، سيقع في سياق حقيقة لا خلاف عليها مفادها: كلما ازدادت حالات رفض الأسوار والتحصينات المماثلة، باعتبارها آثاراً جامدة بالية من بقايا ماضينا العسكري، ازدادت حالات عودتها للظهور بأشكال جديدة وفريدة من نوعها، وازدادت حاجتنا لتقصي الماضي بحثاً عما يوضح لنا الأسباب التي تقف وراء ديمومتها والسبل التي اتبعت لتحقيق هذا الهدف.

الفصل الرابع

إيبامنونداس الطيبي ومبدأ الحرب الاستباقية

فيكتور ديفز هانسون

كان ميشيل دي مونتين Michel de Montaigne، وهو أحد أبرز كتاب المقالة الحديثة إبّان عصر النهضة الفرنسية في القرن السادس عشر، قد عقد يوماً ما مقارنة بين ثلاثة كانوا، في تقديره، من أعظم قادة العصور القديمة. وعلى نحو مثير للاستغراب، خلص إلى أن إيبامنونداس Epaminondas الطيبي (المتوفى عام 362 قبل الميلاد)، الذي يعد الآن من الرموز الغامضة المبهمة، وليس الإسكندر الأكبر أو يوليوس قيصر، هو القائد الأعظم شأناً، نظراً إلى طبيعة شخصيته، والسجايا الأخلاقية التي طغت على سجل حياته العسكرية، والنتائج التي ترتبت على انتصاراته العسكرية، والتي ما برحت حية حتى يومنا هذا.

ودي مونتين هذا، الذي أظهر ذكاءً شديداً في دراسته للعصور الغابرة، يكاد لا يبدو خارجاً عن القياس في الحكم الذي أصدره بتفوق هذا القائد المغمور، محرر عبيد الأرض في المنطقة الجنوبية-الغربية من بيلوبونيز، على اثنين من القادة "الإمبرياليين" كانا قد تعاقبا على احتلال أجزاء واسعة من الإمبراطورية الفارسية وأوروبا الغربية. وعوضاً عن ذلك، فهو يعكس الموقف العام للإغريق والرومان أنفسهم، الذين يعلقون أهمية بالغة على مسألة توظيف الحنكة العسكرية في خدمة المثالية السياسية. وعلى سبيل المثال، فإن شيشرون Cicero، رجل الدولة الروماني والخصم اللدود ليوليوس قيصر ومارك أنتوني، رأى في إيبامنونداس، بعد ثلاثة قرون على وفاته، مدافعاً قوياً عن الليبرالية الجمهورية؛ فمنحه لقب "رجل اليونان الأول". وفي مثال

آخر، هناك إفورس Ephorus، المؤرخ الذي يندر ذكره، والذي عاصر حقبة تسيُّد مدينة طيبة اليونان في القرن الرابع قبل الميلاد، وكان يدون مؤلفاته في ظل الملك المقدوني المستبد فيليب الثاني بأسلوب أشبه بسيَر القديسين الذاتية. وقد اعتبر إيبامنونداس الأعظم بين كل الإغريق، والقائد العسكري النابغة الذي قاتل انتصاراً لقضايا أخرى غير تعظيم الذات.[1]

ولكن إن كان الأقدمون قد وضعوا الدمار الذي ألحقته طيبة بإسبارطة وقوتها، وتحرير عبيد ميسينيا، في مصاف المعالم الأخلاقية التي اختزنتها ذاكرتهم الجمعية، فإننا اليوم لا دراية لنا إلا بالقليل فقط عن السيرة المهنية لإيبامنونداس، القائد العسكري ورجل الدولة، وأقل من ذلك عن إنجازاته، وفكره الاستراتيجي، والمذهبين المثيرين للجدل اللذين يتبناهما: الحرب الاستباقية و"الدمقرطة". ومع أن ما يحيط به من غموض - وكما نراه اليوم - يرجع في بعض أسبابه إلى ضياع ما تبقى فعلاً من المراجع وتبعثرها، فهو يعكس أيضاً النزعة التي شاعت ماضياً وحاضراً إلى التركيز على ما له صلة بدويلتي أثينا وإسبارطة بالدرجة الأولى، فضلاً عن صيت التخلف الذي اقترن بأبناء مدينة طيبة.[2]

ومع ذلك، فقد أمكن لإيبامنونداس، في ما يزيد قليلاً على سنتين (371-369 قبل الميلاد)، إلحاق هزيمة مذلّة بدولة إسبارطة "العسكرية"، وهو ما لم يسبق للفرس والأثينيين تحقيقه على الإطلاق حتى في حروب ممتدة. وقد أمكنه أيضاً عتق رقبة نحو مئة ألف من عبيد ميسينيا، وتوطيد ركائز الحكم الديمقراطي لصالح عشرات الآلاف من الإغريقيين، وقام بدور فاعل في تأسيس مدن محصنة ومستقلة جديدة، وشن حملة عسكرية استباقية بارعة ضد إمبراطورية إسبارطة. وتبدو هذه الأحداث - على نحو غريب - وثيقة الصلة، بعد ما يقرب من 2400 سنة، بما أعقب الهجمات الإرهابية التي استهدفت الولايات المتحدة الأمريكية في الحادي عشر من سبتمبر 2001.

بؤوتيا القرن الرابع

لقد اعتدنا ربط الديمقراطية الإغريقية القديمة بأثينا القرن الخامس في عهد بيركليس؛ لما توافر لهذه الأخيرة من أسطول ضخم، وعدد كبير من الفقراء النشطين ممن لا يملكون أراضي، وإمبراطورية بحرية، وإنجازات ثقافية وفنية باهرة حققها من عاصروا بيركليس، أمثال أريستوفانس Aristophanes، وسوفوكليس Sophocles، ويوربيديس Euripides، وفيدياس Pheidias، وسقراط، وثوكيديدس. وخلافاً لذلك، فإن النظام الديمقراطي لمدينة طيبة، الذي برز لاحقاً ودانت له الهيمنة إبّان القرن الرابع، غالباً ما كان يُقابل بالإهمال وقصور في الفهم، على الرغم من خصائصه غير العادية، وأهميته الفائقة من الناحية السياسية. ومن المؤكد أن البيئة الثقافية الديمقراطية في بؤوتيا لم تنجب أشخاصاً مثل ثوكيديدس أو يوريبيدس؛ ولم تعكس - شأنها شأن معظم الديمقراطيات القديمة التي أقيمت في بقاع أخرى - الدور المؤثر الذي أدته الشريحة الواسعة من العاملين في الأسطول البحري (الذين يشار إليهم انتقاصاً بـ "الرعاع")، ولم تسعَ إلى إعادة توزيع الدخل العام، أو تطبيق مذهب المساواة بين مواطنيها بشكل جذري يتخطى حدود المساواة السياسية فقط. والأحرى هو أن الديمقراطية البؤوتية ربما كانت قد اقتصرت على توسيع دائرة المشاركة السياسية، واستمدت الدعم في المقام الأول من المشاة من حملة الرماح (الهوبليت) من ذوي الأصول الفلاحية والميول المحافظة. وعلى نحو مماثل، وفي ما يتعلق بمفهوم الإمبراطورية، فقد بدا أن الديمقراطيين الإصلاحيين في طيبة كانوا يشككون في صلاحية مجمل نظام المدن الإغريقية، الذي كان وقتئذٍ يضم مئات المدن-الدول المستقلة، بدلاً من اتباع أسلوب إمبريالي مميّز لإقامة إمبراطورية استغلالية تنضوي داخلها مدن ثانوية تابعة خارج طيبة.[3]

وإذا كان دحر الفرس عام 479 هو الذي خلق الحافز لنشوء الإمبراطورية الأثينية وتسيدها، فإن الانتصار الذي حققته المدن الإغريقية المتحالفة على أثينا في عام 404 قد

أسهم بدوره في تنامي قوة طيبة وصعود نجمها بصورة تدريجية. وما إن انتهت الحرب البيلوبونيزية (431-404 قبل الميلاد)، حتى انقلبت الحليفتان السابقتان كل منهما على الأخرى، ونشبت النزاعات بينهما بشأن تقسيم غنائم الحرب ومناطق النفوذ، وحول سبل التعامل مع أثينا المهزومة. بل إنهما كانتا، طوال معظم سنوات نصف القرن التالي (403-362)، في حالة حرب شبه دائمة كثرت فيها المعارك الشرسة الضارية، والهجمات التي تشنها إسبارطة لغزو طيبة، وفترات الهدنة التي لا تدوم طويلاً. وبوجه عام، فإن ثمة مجموعة من الباحثين المعاصرين أجملت النزاعات المبكرة التي نشبت بين إسبارطة وطيبة في صراع غير متكافئ أحياناً؛ أي بين الكتائب الإسبارطية المتفوقة تقليدياً، وبين جيش طيبة المؤلف من فرق مشاة قليلة الخبرة لا ترتقي - برغم ضخامة حجمها - إلى مستوى القدرة على إظهار قوة طيبة في ما وراء حدود فضائها الثقافي ذي التاريخ المشكوك فيه.[4]

إن هذه الصراعات، التي إن هدأت اليوم فما تلبث أن تندلع غداً على مدى قرون من الزمن، اتخذت في عام 379 قبل الميلاد منعطفاً مختلفاً من حيث الجوهر. ففي ذلك العام، أطاحت مجموعة من العناصر الديمقراطية البارزة في طيبة بالنظام الأوليغاركي الحاكم بزعامة ليونتيادس Leontiades، الذي كان يحظى بدعم عدد من كبار المشرفين والمسؤولين. وبديلاً عن ذلك النظام، أقام الإصلاحيون الديمقراطيون حكومة ائتلافية في بؤوتيا، لا تخضع لأي نفوذ خارجي، وعزمت على وضع نهاية لتدخلات إسبارطة في الشؤون الداخلية للدويلات الإغريقية على نحو لا رجعة فيه. وهكذا، فإن الحرب المتواصلة الناشبة بين الخصمين المتصارعين لم تتخذ الآن بعداً أيديولوجياً جديداً فحسب (الديمقراطية في مواجهة الأوليغاركية)، بل إن الصراع ازداد ضراوة بتأثير هذه المجموعة الجديدة من مثيري الفتن، التي لم تكن لتتقبل بشكل عقائدي الأفكار التقليدية ذات الصلة بتوازن القوى بين الدويلات الإغريقية. وعوضاً عن ذلك، عاد أنصار التيار الديمقراطي، بقيادة بيلوبيداس Pelopidas، ومن بعده إيبامنونداس نفسه، إلى الواجهة وقد صمما على استئصال مصدر التهديدات الإسبارطية إلى الأبد.

وفي ردة فعلهم على ذلك، لم يهن عزم الإسبارطيين، طوال السنوات الثماني اللاحقة، عن الأخذ بالثأر انتقاماً لإقصائهم من إقليم بؤوتيا. وكان الملك أجيسلاوس Agesilaus على حق حين عبّر عن خشيته من أن النظام الديمقراطي الجديد في هذا الإقليم، بقيادة إيبامنونداس، لم يعد مجرد نظام يقود دويلةً خصماً فحسب، بل إنه أيضاً قوة تغيير ثورية لا نظير لها، ويمكن أن تعرض مصالح إسبارطة ذاتها في بيلوبونيز للخطر، فضلاً عن أنها قد تحدث تحولاً جذرياً في المنظومة التقليدية للدويلات المستقلة الصغيرة، بما يحيلها إلى تكتلات وتحالفات ديمقراطية أكبر حجماً وأشد عداءً. ونتيجة لهذه المخاوف، وفي أربع مناسبات على أقل تقدير بين عامي 379 و375، غزا الملك الإسبارطي بؤوتيا (أو حاول ذلك) بقصد تقويض نظامها الائتلافي الديمقراطي الجديد.[5]

وبصرف النظر عن التحالفات العسكرية التي أقامها البؤوتيون من حين إلى آخر مع أثينا، فقد عمد هؤلاء إلى تبني طائفة من الاستراتيجيات الحربية، تباينت بين السلبية والفاعلية، لدرء خطر هجمات إسبارطة المتكررة؛ فلجؤوا في أوقات شتى إلى إقامة حواجز دفاعية خشبية كبيرة حول مزارعهم الأكثر خصوبة، وإلى إزعاج الغزاة بغارات متكررة، أحياناً أخرى، سواء باستخدام مفارز الدورية المسلحة تسليحاً خفيفاً، أو عناصر من الخيالة. ونجحوا، في حالات نادرة، في إغواء قوات الغزو للدخول في مناوشات ومعارك صغيرة، كتلك المعركة التي نجحوا، بشكل يدعو إلى الدهشة، في خوضها بمدينة تيجيرا Tegyra عام 375.

وكان هذا الصراع الناشب بين طيبة الديمقراطية وإسبارطة الأوليغاركية قد شهد تطوراً محدوداً، وذلك تبعاً "للبروتوكولات" الإغريقية التقليدية، الخاصة بـ "الغزوات السنوية"، التي تسعى فيها قوات المدينة المعتدية إلى تدمير البنى التحتية الزراعية للدويلة المعتدى عليها. ومع أن الملك أجيسلاوس، العقل المدبر للحملات التي تستهدف غزو طيبة، كاد أن ينجح، في موسم زراعي واحد أو اثنين، في إحداث ما يقرب من المجاعة في

طيبة، وتمكن من إقامة قلاع وحصون في عدد من مدن بؤوتيا (بلاتيا، وأوركومينوس Orchomenos، وتاناغرا Tanagra، وثيسبيا) فقد آلت إلى الفشل جميع محاولات إسبارطة، التي تواصلت على مدى عقد من الزمن تقريباً، لإنهاء هيمنة نظام طيبة الديمقراطي على إقليم بؤوتيا. ويبدو أن سنوات من المعارك المتواصلة غير الحاسمة التي دارت رحاها في هذا الإقليم هي التي بررت ليس فقط القرار المتطرف الذي اتخذه إيبامنونداس لاحقاً بالدخول في حرب ضارية مع الجيش الإسبارطي في ليوكترا، بل إقدامه أيضاً على خوض مجازفة أكبر بمهاجمة إسبارطة في عقر دارها. ففي وقت ما من ذلك العقد، بدا أن إيبامنونداس قد خلص إلى أن ما من نهاية لهذا النمط الذي بات مألوفاً من المعارك والغزوات المتواصلة إلا بالقضاء على إسبارطة، التي عرفها الإغريق خلال السنوات الثلاثمئة المنصرمة.[6]

غزو الشتاء والربيع (370–369)

تغيرت القوى المحركة لحرب الاستنزاف الطويلة هذه للمرة الثانية في منتصف صيف عام 371 بشكل جذري، عندما نقض الإسبارطيون الهدنة التي تم عقدها عام 375؛ وحيناً آخر عندما عادوا لغزو بؤوتيا مجدداً. ولكن الجيش البؤوتي الأكثر عدداً، بزعامة القائد إيبامنونداس، يقرر أخيراً في هذه المرة، خوض مواجهة حاسمة مع الغزاة الإسبارطيين في معركة ضارية درامية وسط منحدرات تلال ليوكترا، التي لا تبعد كثيراً عن طيبة نفسها. وهناك، كاد جيش بؤوتيا، الذي انتهج أسلوباً يدلل على براعة وحنكة فائقتين، أن يوقع دماراً تاماً بالغزاة؛ فقد استطاع قتل الملك كليومبروتوس Kleombrotos، وما يربو على 400 جندي إسبارطي من قوات المشاة-النخبة من أصل 700 جندي، إضافة إلى المئات من جيوش إقليم بيلوبونيز المتحالفة مع إسبارطة. ومن نجا من الجنود الذين تفرقوا هنا وهناك عادوا إلى مواطنهم مهزومين مجللين بالعار. وهكذا، تكون طيبة قد أعادت في الحال ترتيب بنية توازن القوى الاستراتيجي ما بين المدن

الإغريقية، وبشرت بنهاية دائمة لغزوات إسبارطة في الشمال، بعد أن أمست عرفاً يكاد يتكرر سنوياً تقريباً.[7]

كان معظم الانتصارات الحاسمة السابقة التي تحققت في معارك قوات المشاة (الهوبليت) قد أسهمت، على مدى السنوات القليلة اللاحقة، في الحيلولة دون اندلاع حروب كبرى؛ وتلك المعارك هي: كورونيا Coronea الأولى (447)، وديليون Delion (424)، ومانتينيا الأولى (418). غير أن الانتصار في ليوكترا، وبرغم طبيعته الحاسمة، سرعان ما أذكى من جديد نار العمليات القتالية بين طيبة وإسبارطة، بدلاً من أن يضع نهاية لها؛ بل إنه شكّل بداية لعملية واسعة النطاق تستهدف إعادة ترتيب أوضاع إقليم بيلوبونيز. وفي هذا السياق، فإن كانت حملة صقلية خلال الفترة 415-413، التي راح ضحيتها 40 ألفاً من جنود أثينا وحلفائها بين قتيل وأسير، قد أنهت أحلام أثينا بإقامة إمبراطورية شاسعة الأرجاء، فإن ما أفضت إليه معركة ليوكترا من خسائر في الأرواح بلغت ألفاً تقريباً من أبناء بيلوبونيز، وإذلالٍ لقوة إسبارطة العسكرية الأسطورية، كان له الأثر ذاته في نسف السياسة التوسعية الإسبارطية، وفي التشكيك بقدرة إسبارطة على ضمان استقرار حكمها في ما وراء حدود وادي لاكونيا.

بعد قرابة 18 شهراً من المعركة (التي وقعت في يوليو 371 قبل الميلاد)، وأثناء شتاء 370-369 قبل الميلاد، أمكن للجنرال إيبامنونداس إقناع قيادات بؤوتيا بتوجيه ضربة استباقية في الجنوب. وكان السبب الظاهري للتدخل نداء الاستغاثة الموجه إلى طيبة من قبل مانتينيا (التابعة لإقليم أركاديا Arcadia التي توحدت حديثاً) لدرء مخاطر الغزو الإسبارطي المستمر بقيادة الملك أجيسلاوس. وعلى ما يبدو، فإن إيبامنونداس كان قد خلص إلى أن الجيش الإسبارطي سيظل - حتى بعد معركة ليوكترا - يشكل تهديداً للدويلات الديمقراطية الكبيرة، وأن الإسبارطيين سرعان ما سيشرعون بإعادة تنظيم قواتهم وشن غارة "سنوية" أخرى على بؤوتيا. ويبدو أيضاً أن الدعوة التي وجهتها في

الوقت المناسب مدن إقليمي أركاديا وبيلوبونيز لجيش طيبة للتدخل نيابة عنها، قد حفزت إيبامنونداس على صوغ خطة نهائية أوسع تستهدف إنهاء سطوة إسبارطة على إقليم بيلوبونيز بصورة كلية.[8]

تضمن جيش إيبامنونداس الضخم قوات المدن الحليفة، فقد اشتمل على الآلاف من أبناء بيلوبونيز الذين التحقوا به من أماكن شتى في جنوب برزخ كورينث، وربما كان من بينهم من كان في الاحتياط لأكثر من سنة قبل معركة ليوكترا. وقد سلك الجيش طريقاً يقرب من 200 ميل طولاً نحو قلب إسبارطة، الذي اشتهر على نطاق واسع بأنه مكان محرّم عصي على الانتهاك، ولم تطأه قدم عدو لما يربو على 350 عاماً مضت. وعلى الرغم من الخراب والنهب اللذين أوقعهما هذا الجيش في إسبارطة، ومحاصرته لجيشها داخل المدينة عبر نهر يوروتاس Eurotas المتجمد، فقد عجز الجيش البؤوتي عن اقتحام معبد إسبارطة. وبدلاً من ذلك، وبعد أن أشعل الحرائق في ميناء غيثيون Gytheion الإسبارطي (على مبعدة 27 ميلاً جنوباً) قرر الجيش البؤوتي، ومعه عدد من الفرق العسكرية التابعة للمدن الحليفة في بيلوبونيز، التوجه غرباً عبر وديان جبل تايجيتوس Mt. Taygetos، وصولاً إلى ميسينيا (التي تُعرف تاريخياً بأنها سلة الخبز) التي يقوم العبيد فيها، الملزمين بالعمل بعقود مؤقتة، بتزويد الدولة الإسبارطية بما تحتاج إليه من غذاء وأيدٍ عاملة.[9]

ومن المرجح أن البؤوتيين، في وقت ما مطلع عام 369 قبل الميلاد، قد انقضوا من أعالي الجبل على الإسبارطيين ليقضوا عليهم تماماً في محميتهم الغنية في دويلة ميسينيا، ويعتقوا القسم الأغلب من هؤلاء العبيد، ويمدوا من ثم يد العون لبناء قلعة ضخمة في عاصمتها ميسين Messene. وقبل رحيلهم في فصل الربيع التالي، كان إيبامنونداس قد ضمن تأسيس دولة مستقلة ديمقراطية جديدة في ميسينيا، وأيقن من أن عاصمتها المحصنة باتت منيعة على الهجمات الانتقامية من جانب إسبارطة. وبعد ذلك، عاد إيبامنونداس إلى موطنه، فقد استطاع كسر شوكة الدولة الإسبارطية وإذلالها، ووضع حداً لتطفلها على ما

تنتجه ميسينيا من غذاء. وللأخيرة علاقة مهمة في إنهاء طبقة المحارب/ المواطن في المجتمع الإسبارطي التي تركز جهدها على الحرب. وفي تلك اللحظة، بات قريباً تحقق حلمه في تأسيس محور مناهض لإسبارطة تتكون مرتكزاته الأساسية من مدن: ميسينيا، ومانتينيا المحصّنة الجديدة، وميجالوبوليس الناشئة.[10]

إن عملية غزو إسبارطة المميزة هذه شكلت خروجاً على القياس في نواحٍ مختلفة عدة. فالجيوش الإغريقية عند مطلع القرن الرابع، كانت، حتى بعد استنباط أساليب حربية مبتكرة إبّان الحرب البيلوبونيزية (431-404)، تفضل الزحف إلى ميادين الحرب أواخر الربيع عادة، وحبذا عند حلول موسم حصاد الحبوب، كي تضمن ظروفاً مناخية حسنة، وإمدادات غذائية كافية ميدانياً، إضافة لامتلاك فرصة أفضل لإحراق محاصيل العدو من القمح والشعير الناضجة المجففة. بيد أن جيوشاً "موسمية" كهذه لم يكن بوسعها الغياب عن أوطانها إلا لبضعة أيام أو أسابيع، بسبب ما يترتب عليها من التزامات متى ما حان موعد جني محاصيلها الزراعية هي. ولأنها لم ترتق بعد إلى مستوى الاحتراف المنشود، فهذه الجيوش افتقرت إلى القدرة الكافية على تزويد نفسها بالمؤن والمتطلبات الأخرى التي تسد حاجتها لفترات طويلة تقضيها بعيداً عن أوطانها، سواء بمقياس المسافة أو الزمن. والهدف عادة هو جيش معادٍ يعسكر في الجوار، أو موارد ومحاصيل زراعية لدويلة معادية متاخمة، وليس إلحاق هزيمة تامة بخصم يحتل موقعاً نائياً وإنهاء وجوده كدويلة مستقلة. ومن هنا، فقد ندر كثيراً شن حرب شاملة واسعة النطاق تستهدف تدمير دويلة كبيرة نسبياً.[11]

وكان واضحاً أن إيبامينونداس قد تجاهل، بأسلوب لافت، كثيراً من أحكام وبنود "بروتوكولات" الحروب الإغريقية الضروس. فهو قد غادر طيبة في شهر ديسمبر، أي في وقت لم تكن فيه المحاصيل الزراعية جاهزة للحصاد بعد في حقولها، والطرق موحلة؛ لا بل إن مدة ولايته البالغة سنة واحدة في منصب "بؤوتارك" Boeotarch (كبير حكّام بؤوتيا)، كانت ستنتهي في غضون أيام بعد رحيله مطلع تلك السنة البؤوتية. وربما ظلَّ

بعيداً عن طيبة لخمسة أشهر أو ستة حتى أواخر ربيع 369، أي مع حلول موسم الحصاد. وبالتالي، فقد كان من المؤكد أن يحال إلى المحاكمة عند عودته بتهمة خرق شروط ولايته كقائد لسنة واحدة. ومع ذلك، فإن الأهداف التي حددها لحملته هذه لم تقف عند حدود دحر المؤسسة العسكرية الإسبارطية، أو الاستيلاء على أكروبول إسبارطة فحسب، بل أراد لها – بشكل واضح إما قبل وصوله إلى إقليم بيلوبونيز أو بعده – أن تكون جهداً حربياً مستداماً لتقويض دعائم الدولة الإسبارطية نفسها نهائياً.[12]

وكان واضحاً أن الإحساس بأهمية عنصر السرعة كان قد وقف وراء قراره بشن حرب استباقية غير مسبوقة منتصف فصل الشتاء؛ وأن خروجاً كهذا على المعايير المعتادة يثير عدداً من الأسئلة المهمة. فهل أن ضربة استباقية مثل هذه كانت ستعد استثنائية في التاريخ الإغريقي؟ وما الأهداف الأكبر التي كان إيبامنونداس قد وضعها نصب عينيه؟ وهل حقق مبتغاه البعيد المدى؟ وهل أمكن لأتباعه من البؤوتيين توسيع نطاق الصراع الناشب بين الحليفين السابقين الطويل الباهظ الكلفة أصلاً؟ وهل كان ممكناً توفير المستلزمات الضرورية لضمان ديمومة هذه الحرب الاستباقية، في ضوء ما كان يواجهه من معارضة سياسية في الداخل، ومحدودية الموارد والإمدادات المتاحة للوفاء بتعهدات والتزامات مكلفة وطويلة الأمد، في الخارج؟ وهل تجربة طيبة في ميداني الحرب الاستباقية ونشر الديمقراطية قد أفرزت بالفعل دروساً يُستفاد منها حاضراً؟

قبل الإجابة عن هذه الأسئلة يبدو لزاماً التذكير مجدداً بأنه على الرغم من أن العالم الإغريقي القديم يضع إيبامنونداس في مصاف البطل القومي الأبرز، فنحن لا يتوافر لنا إلا القليل جداً من معلومات عن سيرة حياته المهنية، بل وما هو أقل من ذلك سواء عن تفصيلات أول حملة كبرى قادها لغزو إقليم بيلوبونيز، أو عن تأسيس العاصمة ميسين (لدويلة ميسينيا). فلا التاريخ أبقى لنا خطباً أو مقالات قديمة معمقة ومفصلة تصور خططه، ولا المؤرخون أفصحوا عن آرائهم بشأن نواياه ومقاصده. وحتى زينوفون،

المؤرخ القديم الوحيد الذي عاصر تلك الفترة، والذي أرخ غزوات طيبة على أساس زمني، فهو إما أنه لم يقدّر إنجاز إيبامنونداس الضخم حقّ قدره (لم يردْ ذكر إيبامنونداس بالاسم في كتاب زينوفون **هيلينيكا** [أو التاريخ الهيليني]، حتى وقت آخر حملاته ووفاته في مانتينيا، انظر: *Hellenica*,7.5.4- 25)، أو كان يضمر تحاملاً "عنصرياً" ضد كل ما هو طيبي. ولأن كتاب بلوتارك عن حياة إيبامنونداس مفقود، فقد صرنا نعتمد على أجزاء وفقرات صغيرة مأخوذة من مؤلفات ديودوروس، وبوسانياس Pausanias، وكتابي بلوتارك المعنونين **أجيسلاوس** *Agesilaus* و**بيلوبيداس***Pelopidas*، ومن تبع هؤلاء من أمثال نيبوس Nepos. إن دوافع إيبامنونداس وغاياته تبدو متعارضة مع ما كان سائداً من معتقدات ومقاربات تقليدية، كما يصعب إلى حد كبير إعادة اكتشافها واستيعابها بشكل تام.[13]

الحروب الاستباقية والوقائية

بدرجات متفاوتة، يمكن تبرير الحربين الاستباقية والوقائية كلتيهما على أنهما أفعال دفاعية؛ ويفترض بالتالي اختلافهما عن الحروب العدوانية الصريحة والضربات التأديبية السافرة. وعلى سبيل المثال، لا أحد يزعم أن الملك الفارسي زركسيس أقدم على غزو اليونان في عام 480 ليمنع هجوماً هيلينياً كبيراً وشيكاً على إمبراطوريته الفارسية! أو أن الإسكندر الأكبر قد اجتاز بجيشه مضيق الدردنيل ليمنع داريوس الثالث من أن يكون البادئ بتوجيه ضربة لليونان. فعلى الرغم من كل ما دار من حديث عن فكرة "الأخوة بين البشر"، فقد عزم الإسكندر على تنفيذ مخططاته العدوانية، وأعمال السلب والنهب والاحتلال، تحت شعار الثأر من الفرس لتدخلاتهم في شؤون اليونان الداخلية طوال قرن من الزمن، أو يزيد.

وعلى الرغم من الخطاب الأثيني البلاغي الحماسي عشية حملة غزو صقلية الكارثية عن المظالم السابقة والمخاطر القادمة من الغرب (كالتحذير الذي جاء على لسان

ألسيبياديس بقوله إن «الإنسان لا يظل مكتوف الأيدي قانعاً بتفادي اعتداءات من هو أكثر منه قوة، بل غالباً ما يوجه الضربة الأولى ليحول دون تعرضه للهجوم الذي يحاك ضده»)، فإن قلة قليلة فقط من الأثينيين ربما صدقت المزاعم القائلة بأن الحملة التي شنت على سرقوسة Syracuse قد أحبطت اعتداءً صقلياً على الإمبراطورية الأثينية، سواء على المدى القصير أو الطويل. لقد كانت هذه أيضاً حالة واضحة من حالات العدوان الإمبراطوري التي استهدفت إيجاد مزية استراتيجية خلال إحدى فترات التوقف التي شهدتها الحرب البيلوبونيزية. وكان من السهل توسيع قائمة الحروب العدوانية الصريحة كهذه في العالم الإغريقي، لتشمل وقائع كحملتي الغزو الفارسيتين ضد اليونان خلال عامي 492 و490؛ والهجوم الذي شنه الملك أجيسلاوس على آسيا الصغرى في عام 396 لتحرير دويلة أيونيا الإغريقية؛ واجتياح [الملك المقدوني] فيليب للأراضي اليونانية، والذي بلغ ذروته باندحار اليونانيين في [معركة] خيرونيا Chaeronea.[14]

وخلافاً لذلك، وفي إطار ما سمي "الحرب الدفاعية"، يتم عادة التفريق بين مفهومي الحرب "الاستباقية" و"الوقائية"، من خلال التركيز على فكرة وجود تهديد وشيك الوقوع على نحو يسهل تصديقه، أو على الأقل الزعم بوجوده. وفي هذا السياق، فإن واقعية مثل هذا التركيز ستحدد مدى تقبل الهجوم بشكل عام على أنه دفاعي حقاً. وعندما تقدم دولة ما (وهي غالباً تلك التي تعد تقليدياً الطرف الأضعف) على استباق الأحداث فتبادر هي للهجوم أولاً، فمن المفروض أنها قد اقتنعت بأن العدو المستهدف نفسه، الذي يتهدد وجودها ذاته، كان بخلاف ذلك، سيسارع قطعاً لمهاجمتها، وبأنه سيفعل ذلك بقدر أكبر من الأفضلية والتفوق. ومرة أخرى نقول إن هجمات الحروب "الاستباقية" العدوانية يتم عادة تأطيرها بطابع دفاعي من حيث الجوهر في حال الإقرار بأن خطراً داهماً يلوح في الأفق؛ بل تزداد هذه الذريعة قوة إن كان هناك تاريخ طويل من الصراعات السابقة يجمع بين الطرفين المتحاربين.[15]

ومن جهة أخرى، فإن الحروب التي توصف بالوقائية حقاً، كحرب العراق عام 2003، والغزو الألماني للاتحاد السوفيتي في يونيو 1941، تثير قدراً أكبر من الخلاف والجدل. فالطرف المهاجم فيها – وهو عادة الجانب الأقوى اليوم – بات يزعم أن الوقت سيعزز بشكل متزايد الوضعية الجيوسياسية للعدو المغامر بطبيعته ويضاعف قوته، وسيبادر بالتالي لتوجيه ضربته عاجلاً أو آجلاً، فيحدث بذلك تغييراً في الوضع الراهن. ومن هنا، فإن الطرف الأكثر اندفاعاً لشن الحرب يعتقد أن بإمكانه وقف تراجع قوة موقعه في مواجهة خصمه عن طريق المبادرة إلى إضعاف التهديد المحتمل، أو القضاء عليه تماماً، قبل أن يصبح مثل هذا الإجراء غير ذي جدوى كبيرة، أو متعذراً في المستقبل. ولكن لأن احتمالات الإقرار بوجود خطر ما تبدو أقل بالمقارنة مع خطر الهجمات الاستباقية، وطالما أن من بيده زمام المبادرة يكون عادة هو الأقوى عسكرياً، فلسوف يسهل كثيراً في الأغلب انتقاد الحروب الوقائية باعتبارها حروباً عدوانية.

وعلى سبيل المثال، فاليابان لم تقنع أحداً بأن الضربة "الوقائية" التي وجهتها لميناء بيرل هاربر، في السابع من ديسمبر 1941، استهدفت إضعاف عدو ربما كان بحاجة إلى يوم واحد فقط ليصبح الطرف الأقوى في حرب أمريكية - يابانية حتمية قادمة. بيد أن كثيرين اعتبروا أن الضربة كانت الخطوة الأولى على طريق التمدد غرباً عبر الباسفيك بقصد توسيع نطاق منظمة "المجال الآسيوي للرفاهية المشتركة" Asian Co-Prosperity Sphere التي تتزعمها اليابان. ومن جانبها، لم تشأ الولايات المتحدة الأمريكية أن تكون البادئة بمهاجمة اليابان خشية أن يكون هناك من لا يتفهم هذا الهجوم على أنه حرب "استباقية" يراد بها درء عدوان ياباني وشيك، فيعدها، بدلاً من ذلك، وفي أحسن الأوصاف، حرباً "وقائية" أكثر إثارة للجدل والخلاف، وقد تكون موضع إدانة أغلب أنصار النزعة الانعزالية من الأمريكيين، معتبرين إياها حرباً انتقائية، إمبريالية، عدوانية، وليست حرباً دفاعية لا غنى عنها.

وكانت قد حظيت بإقرار عالمي عام [بحسب وجهة نظر الكاتب] الخطوة التي أقدمت عليها إسرائيل عندما استبقت أعداءها العرب بما لا يتعدى ساعات قلائل فقط، إبّان حرب يونيو 1967، فوجهت ضربتها للمطارات المصرية قبيل قيام جاراتها - وكما كان متوقعاً - باجتياحها. وعلى العكس من ذلك، فإن انتقادات واسعة ستوجه لأي هجوم تشنه المؤسسة الإسرائيلية العسكرية الأقوى اليوم ضد منشآت نووية إيرانية، ووفق الأسلوب الذي اتبعته بقصف مفاعل تموز العراقي في عام 1981. فهجوم كهذا ربما سيفسر على أنه أول فصول حرب وقائية أكثر التباساً وريبة، وبأنه يرتكز على فرضية تثير الجدل لأنها لا تستند إلى القول بأن إيران تخطط لمهاجمة إسرائيل في الحال، بل إلى الادعاء بأن حصول إيران على سلاح نووي، إذا ما اقترن بتوعدها بإزالة الدولة اليهودية من الوجود الذي أحيط بدعاية إعلامية واسعة النطاق، سيثير مستقبلاً خطراً درامياً يتهدد أمن إسرائيل، ويضعف تفوقها العسكري المسلّم به في المنطقة.

وبطبيعة الحال، فإن الفارق الدقيق بين الحرب الوقائية النادرة الحدوث، والحرب الاستباقية الأكثر شيوعاً، لا يبدو واضحاً بشكل جلي على الدوام. وقد أصبح ما يعده هذا الطرف أو ذاك "تهديداً وشيكاً" موضع خلاف وجدل دائماً. وبشكل عام، فإن تلك الدولة التي تبادر إلى إطلاق شرارة العمليات العسكرية العدائية ستنكر حتماً أنها تتصرف من منطلق هجومي، وستزعم أنها أجبرت على الذهاب إلى الحرب دفاعاً عن النفس؛ وسرعان ما ستصبح المعطيات والبيانات التفصيلية التي طرحت ابتداءً غير ذات أهمية أو صلة بالموضوع. وعندما اختارت إدارة الرئيس الأمريكي جورج بوش الابن التركيز على التهديد الذي تشكله أسلحة العراق ذات التدمير الشامل دون غيرها لتبرير الغزو "الوقائي" للعراق - برغم أن الكونجرس الأمريكي كان في أكتوبر قد أجاز 23 قراراً تقضي بإسقاط نظام صدّام حسين في العراق - اتخذ الرأي العام العالمي، والرأي العام الأمريكي، من ثمّ، موقفاً مناهضاً لهذه الحرب المثيرة للجدل. وأثبت غياب أي مخزونات من هذه الأسلحة الخطرة زيف التبريرات الرسمية، التي رُوج لها إعلامياً، لشن

حرب تستهدف الإطاحة بطاغية مدان بجرائم إبادة جماعية. ومع ذلك، وبرغم عدم العثور على مخزونات كهذه، فإن الانتقادات التي استهدفت هذه الحرب لم تتصاعد كثيراً إلا في صيف عام 2003، يوم لم تستطع الإدارة الأمريكية إحلال السلام والحفاظ عليه في أعقاب الانتصار الباهر الذي حققته على النظام البعثي، وعندما شكلت حركة التمرد هناك الحافز لشن حرب "قذرة" جديدة.

وبالعودة إلى العالم الإغريقي القديم، يمكننا اكتشاف أمثلة واضحة للاستراتيجيتين الاستباقية والوقائية. فالإسبارطيون الأقوى عسكرياً بشهادة الجميع تقريباً قد اجتازوا حدود أثينا في عام 431، مدعين لأنفسهم حق القيام بغزو وقائي للبدء بالحرب البيلوبونيزية. ولم يكن ما أقدمت عليه إسبارطة وليد اقتناعها بأن أثينا كانت تعد العدة لمهاجمتها في ذلك العام، بل لأنها في حال عدم قيامها بتوجيه الضربة الأولى – وكما يوضح ثوكيديدس ذلك – فإن تنامي قوة الإمبراطورية الأثينية المعادية على هذا النحو الذي لا يمكن وقفه يمكن أن يفضي سريعاً إلى إضعاف إسبارطة حتماً. ومن هنا، فإن إحساس الإسبارطيين بالهلع كان مبرراً: «فقد شعروا آنذاك أنهم لم يعودوا قادرين على تحمل وضع كهذا؛ بل إن الوقت قد حان كي يضربوا هذه الدولة المناوئة بكل قوة، وأن يوقفوها، إن استطاعوا، عن طريق الشروع بهذه الحرب الحالية».[16]

وبالأسلوب ذاته، وقبيل وصول الملك الإسبارطي أرخيداموس Archidamaus إلى منطقة أتيكا، بادر جيش طيبة بالهجوم على مدينة بلاتيا القريبة من بؤوتيا. ومرة أخرى، فإن الطيبيين لم يكن يقلقهم كثيراً أن مدينة صغيرة مثل بلاتيا يمكن أن تساعد أثينا لتقوم بمهاجمتهم، بل إنهم حسبوا – بدلاً من ذلك – أن الحركات الديمقراطية في بؤوتيا، وبما تلقاه من زخم وأموال من الإمبراطورية الأثينية، وبتأثير أنموذج الاستقلال الذي تتمتع به بلاتيا، يمكن أن تتسبب في إضعاف الموقع القوي نسبياً الذي تحقق لدويلة طيبة.

في الحقيقة، فإن الأسلوب المعتاد الذي تلجأ إليه الجيوش الإغريقية القديمة كان يتمثل في مهاجمة الدويلة القريبة المشكوك في أمرها دون إنذار مسبق، وهدم أسوارها، كما يشهد بذلك التاريخ المشؤوم لمدينة ثيسبيا التي كانت هدفاً لكثير من الغزوات. ولعل خير ما قيل دفاعاً عن الهجمات الاستباقية هو ما جاء على لسان القائد الطيبي باجونداس Pagondas قبيل اندلاع معركة ديليون (424 قبل الميلاد) بلحظات: «إن أناساً كالأثينيين في هذه الحالة باتت تغويهم عنجهيتهم وجبروتهم لمهاجمة جيرانهم؛ وغالباً ما يزحفون بثقة عالية نحو أولئك الذين آثروا التزام الهدوء والسكينة، والدفاع عن أنفسهم داخل حدود أوطانهم، ويفكرون ملياً قبل الاشتباك مع الذين يتصدون لهم خارج حدودهم هذه، ويوجهون الضربة الأولى متى ما سنحت الفرصة لهم».[17]

ويجب أن ينظر إلى الضربة التي قادها إيبامينونداس عام 369 بأنها استباقية أكثر من كونها وقائية. صحيح أن إسبارطة كانت قد تلقت هزيمة واضحة في معركة ليوكترا قبل ما يزيد قليلاً على سنة واحدة، ولم تكن تخطط لغزو بؤوتيا في الحال، إلا أنها كانت - مع ذلك - منهمكة في غزو أراضي دويلات أخرى، بينما تعكف في الوقت عينه على إعادة بناء قواتها وقدراتها الحربية. بل إنها في واقع الأمر كانت في صيف 370 قد اجتاحت مانتينيا لنسف أي محاولة ترمي إلى تأسيس مدينة ديمقراطية موحدة جديدة هناك. وفي ما يتعلق بطيبة، فثمة دويلات إغريقية كانت تعدها القوة الأضعف تقليدياً؛ ولم يكن مستغرباً شيوع انطباع بأن الإسبارطيين، ومثل ما فعلوا أثناء الحرب البيلوبونيزية، هم من سيسارع ليكون البادئ بالهجوم، في محاولة لمحو آثار الهزيمة في ليوكترا، واستعادة ما كان لإسبارطة من سيادة وهيمنة في ثمانينيات القرن الرابع قبل الميلاد.

وعلى الرغم من أن الهزيمة في معركة ليوكترا منتصف صيف 371 جاءت مؤشراً إلى بداية النهاية للقوة الإسبارطية، فإن الجانب الأكبر من هذه الصدمة كان نفسياً، فجيش إسبارطة ربما لم يتكبد إلا مقتل ما يزيد قليلاً على ألف من الجنود وجنود المشاة الحلفاء،

مجتمعين. وبرغم هذه الخسارة الموجعة، فقد شكل الناجون ما يقرب من 90٪ من هذا الجيش بكل مكوناته الموحدة، وتمكنوا من العودة إلى إقليم بيلوبونيز. ولعل معظم الدويلات الإغريقية كان سيتفق مع إيبامنونداس على أن الخطر الإسبارطي الذي يتهدد الاتحاد البؤوتي، من جانب إسبارطة بما اكتسبته من قوة أكبر في العام 370، ما برح خطراً حقيقياً بل وداهماً، وليس نظرياً وبعيد الأجل.

إيبامنونداس وأهدافه الطويلة المدى

استندت الخطة التي وضعها إيبامنونداس - التي اعترض عليها دون شك بعض رفاقه الأعضاء في المجلس الوطني لاتحاد بؤوتيا Boeotarchs - إلى استباق إسبارطة بغزو إقليم بيلوبونيز، والتوجه من ثم في خطوة غير مسبوقة للتقدم داخل أراضي لاكونيا ذاتها. ويأتي القرار غير العادي بقبول دعوة مانتينيا والتأهب لشن حملة شتوية ليوحي بأن إيبامنونداس قد وضع في حسابه اعتبارين اثنين إضافيين؛ أولهما أن إسبارطة لن تتأخر كثيراً في توجيه ضربتها بعد انتهائها من غزو أراضي مدينة مانتينيا، وربما يحدث ذلك إبّان "موسم" الحملات العسكرية الإغريقية أواخر الربيع أو في الصيف المقبل. وسواء أكان ذلك قرب مانتينيا أو لاكونيا نفسها، فإن انطلاق حملته في الشتاء سيمكنه من توجيه الضربة الأولى لإسبارطة، فيحول دون إمساكها بزمام المبادرة، ويأخذها على حين غرة إلى حد ما. لقي هذا المخطط بعض الدعم والمؤازرة، فقد بادرت دول أخرى في إقليم بيلوبونيز إلى إرسال إسهامات مالية للمشاركة في تكاليف عملية الغزو الاستباقية هذه.[18]

أما الاعتبار الثاني، ففي بدايات عام 370، إن لم يكن قبله، عُدَّ الغزو جزءاً من حملة أضخم تستهدف إعادة ترتيب أوضاع إقليم بيلوبونيز عن طريق إذلال المؤسسة العسكرية الإسبارطية أو تكبيدها هزيمة بينة، وضمان الحماية لمدينتي مانتينيا وميجالوبوليس من جانب الاتحاد البؤوتي، وعتق رقاب العبيد في ميسينيا، وتأسيس عاصمة جديدة لهذه الأخيرة باسم ميسين على جبل إيثوم Ithome. وكل هذا سيتطلب قضاء شهور في الخارج؛

ما يجعل الشتاء الوقت الأفضل للرحيل، ليتسنى لأفراد الجيش، ومعظمهم من المـزارعين، العودة إلى بؤوتيا في موعد لا يتجاوز موسم الحصاد لعام 369 قبل الميلاد.[19]

وبرغم قلة ما قيل وكتب وصفاً للغزو البؤوتي، فبإمكاننا الافتراض أن إيبامنونـداس قد استماتت في سعيه لجر الكتائب الإسبارطية جراً إلى ميدان المعركة؛ ليتجه من بعد – مـا لم يحل دونه حائل – لعبور نهر يوروتاس، فيقتحم أكربوول إسبارطة ليدمر تماماً موقع القلب في جسد الحكم الإسبارطي. ومن هنا، فإن رغبته لم تكن مقتصـرة على دحر إسبارطة، بـل القضاء نهائياً على إمبراطوريتها التي أقامتها في إقليم بيلوبونيز. ولكن ما إن آلت أهدافه إلى الإخفاق، وتأكد عجز البؤوتيين، سواء عن سحق الجيش الإسـبارطي أو الاسـتيلاء عـلى المدينة نفسها، عمد إيبامنونداس إلى تجاهل موعـد انتهـاء ولايتـه قانونـاً كقائـد للجـيش؛ وأبقى جيشه، عوضاً عن ذلك، في أراضـي الإقليم. وإثـر مـشاورات قـصيرة أجراهـا في أركاديا، واصل تقدمه أملاً في تحقيق هدفه الآخر، وهو تحرير عبيد ميسينيا، اعتقاداً منـه – على ما يبدو – بأن وضع نهاية لنظام العبودية في هذه الدولة سيوقع الـشلل بإسـبارطة، في نهاية المطاف، التي لم يستطع حتى الآن تدميرها كلياً.[20]

ويفرض هذا الهدف الطموح على إيبامنونداس دفع جيشه لاجتياز الممـرات الجانبيـة الوعرة لجبل تايجيتوس مطلع فـصل الـشتاء، وإزالـة المواقـع والثكنـات الإسـبارطية مـن أراضـي ميسينيا، وتنظيم حشود عبيد الأرض بشكل فرق عمـل، والـشـروع فـوراً ببنـاء مدينة كبيرة جديدة؛ مفترضاً أن الجماعـات القوميـة في ميـسينيا سـتقف إلى جانبـه حليفـاً ديمقراطياً جديراً بالاعتماد عليه. وكان عليه، إضافة إلى كل هذا، أن يعمل في الوقت نفـسه على منع قوات الملك الفارسـي أجيسلاوس، الموجودة في المواقـع الخلفيـة لمعـسكره، مـن التقدم نحوه. وبدا واضحاً أن القائد الطيبي كان يحلم بإقامة اتحاد في إقليم بيلوبونيز يـضم ثلاث قلاع حصينة كبيرة: مانتينيا وميجالوبوليس وميـسين؛ تتبنـى النظـام الـديمقراطي، وقادرة على كبح جماح المغامرات الإسبارطية بتوجيه من طيبة، ليتسنى لها شيئاً فشيئاً تجريد إسبارطة من قوتها وهيمنتها، وتحييد العمال العبيـد فيهـا وحلفائهـا المـوالين لهـا. ومـع أن

إيبامنونداس لم يعترض على الدخول، من حين إلى آخر، في ما يسمى "تحالفات المصالح" مع دويلات تحكمها نظم أوليغاركية، فإنه بدا مقتنعاً بأن هذه الديمقراطيات المتحالفة الجديدة في أركاديا وميسينيا، وبتأثير مصالحها السياسية الطبيعية، ربما ستظل، من حيث الجوهر، تناصب إسبارطة العداء، وتتعاطف مع شقيقتها الديمقراطية أيضاً في بؤوتيا.[21]

العواقب والآثار

هل نجحت الضربات الاستباقية التي وجهها إيبامنونداس خلال الفترة 370-369 على المدى البعيد؟

لعل الجواب سيكون بنعم لا لبس فيها، إن كان الهدف من هذه الضربات مقتصراً كلياً على وضع حد لأربعة عقود من غزوات إسبارطة المتتابعة لبؤوتيا؛ فالجيش الإسبارطي لم يتجه مطلقاً مرة أخرى بعد ذلك صوب شمال البرزخ بنية مهاجمة دويلة إغريقية أخرى. أما إن كان الهدف تقويض أسس الإمبراطورية الإسبارطية وقوتها، فالهدف قد تحقق بشكل جلي وتام. فعلى الرغم من أن جيش إسبارطة كان لايزال قادراً بين الفينة والأخرى على دحر دويلات إقليمية منافسة في المعارك التي خاضها، وأبرزها معركة "بلا دموع" tearless battle الشهيرة [التي لم يصب فيها جندي واحد من الجيش الإسبارطي فسميت كذلك]، وتكبيد الأركاديين هزيمة نكراء عام 368، فإن عقد إمبراطورية إسبارطة على أراضي إقليم بيلوبونيز صار ينفرط، وإن ببطء، مع تأسيس الدويلات المستقلة في مانتينيا وميسين وميجالوبوليس؛ الذي اقترن بتحرير عبيد ميسينيا، وفقدان إسبارطة أراضي هذه الدويلة الزراعية. وفي فترة الانحطاط هذه، جاهدت إسبارطة كثيراً لتبقى في عداد القوى المهمة التي تقف على قدم المساواة مع دويلات الإقليم؛ بيد أن تراجعها إلى موقع الدويلة التي لا أهمية لها من الناحية الاستراتيجية أفقدها حضورها، على نحو لافت للنظر، في الجهود التي بذلت خلال السنوات الثلاثين اللاحقة على المستوى الهيليني كافة، لوقف تقدم المقدونيين في خيرونيا.[22]

والسؤال الثاني الذي يثار: هل الهجمة التي قادها إيبامنونداس عام 369 قد وضعت حداً للحروب مع إسبارطة بصورة نهائية؟ بالكاد فعلت ذلك؛ فالنظم الأوليغاركية كانت، بالتعاون مع إمبراطورية إسبارطة، قد أشاعت نوعاً من أنواع الاستقرار داخل إقليم بيلوبونيز منذ أن وضعت الحرب الأثينية أوزارها أواخر القرن الخامس. وبعد أن تمكنت طيبة من تحرير العبيد والمدن المتحالفة من نير الهيمنة الإسبارطية، اندلعت هناك انتفاضة دفعت بالبؤوتيين لشن ثلاث غزوات أخرى ضد الإقليم في الأعوام 369 و368 و362، قبل أن تختتم بمعركة مانتينيا (عام 362) غير الحاسمة. فقد لقي إيبامنونداس حتفه في هذه المعركة لحظة الانتصار البؤوتي. ويقول المؤرخ زينوفون، في وصف متميّز للأوضاع يومئذٍ: «لقد شهدت اليونان من الاضطرابات والانتفاضات بعد هذه المعركة أكثر مما شهدته قبلها». ولم يفت على ديودوروس استغلال المناسبة ليشيد بإيبامنونداس في سياق قوله إن موته قد أنهى بشكل مطلق الهيمنة التي بسطتها طيبة لأمد وجيز.[23]

من الواضح أن رؤى إيبامنونداس الأصلية، أينما تحققت مادياً على أرض الواقع، ربما لم تكن تستهدف مجرد إبقاء إسبارطة بعيداً خارج أراضي بؤوتيا فحسب، بل وإعادة ترتيب أوضاع العالم الإغريقي أيضاً على النحو الذي يحرم إسبارطة من أي فرصة تتيح لها العودة إلى سابق عهدها. وهذا مشروع ضخم كان سيعني، بالنسبة إلى الطيبيين المقيمين في أماكن نائية، حضوراً عسكرياً يكاد يكون متواصلاً في إقليم بيلوبونيز؛ بل وربما تطلب توفير احتياطيات مالية كبيرة، وامتلاك بعض القوات البحرية، وضمان الوحدة على المستوى السياسي، وهي المتطلبات الأساسية التي تقع حتماً خارج حدود قدرات وموارد طيبة، الدويلة الديمقراطية، التي يغلب عليها الطابع الريفي، والمنقسمة على نفسها على نحو خطير. وفي هذه المرحلة، بدا أن إيبامنونداس نفسه قد أدرك أخيراً حدود قوة بؤوتيا وإمكاناتها، ومدى تنامي المعارضة السياسية التي تتعرض لها خططه ومشروعاته الخارجية المتسمة بالأبهة والفخامة المغالى فيها، عندما قرر عام 362 اجتياح مقاطعة لاكونيا مجدداً والاستيلاء على أكروبول إسبارطة؛ وكأن إنجازاته السابقة (تحرير العبيد، وتأسيس

مدن ديمقراطية محصّنة جديدة) لم تفضِ إلى النتائج المتوخاة المتمثلة في القضاء عاجلاً على إسبارطة قضاءً تاماً، فلا تعود لاعباً مهماً في المشهد السياسي الإغريقي الإقليمي.[24]

كان الاستقلال السياسي المحلي *Autonomia* قيمة هيلينية عليا آمن بها الإغريق أكثر من إيمانهم بالديمقراطية. فحالما حصلت دويلات أركاديا الديمقراطية المتحالفة على استقلالها من كل من إسبارطة وطيبة، لم يعد هناك ما يضمن أن تواصل جمعياتها العمومية، بغض النظر عن عرفانها بالجميل لإيبامنونداس، الالتزام بالحلف البؤوتي ومؤازرته. ففي عام 362، وكما تقدم ذكره، كان إيبامنونداس يقود حملة لغزو إقليم بيلوبونيز، ليس ليجهز على إسبارطة كلياً فحسب، بل أيضاً ليقاتل مانتينيا، الحليف الديمقراطي، الذي دفعته محنته لشن أولى غزواته عليها قبل عقد من الزمن تقريباً.

خلص أبناء مانتينيا في عام 362 بشكل واضح إلى أن إسبارطة الضعيفة، القريبة إليهم، التي تتحدث اللهجة الدورية Doric [إحدى اللهجات اليونانية القديمة المستخدمة في إقليم بيلوبونيز]، يمكن أن تكون حليفاً براغماتياً، وقوة مضادة، أفضل من ذلك الحليف البؤوتي العدواني المتسلط القابع في الشمال. ومع أن طيبة كانت قد أشاعت الديمقراطية يوماً ما في مانتينيا، فإنها أسهمت في إضعاف إسبارطة حليفتها التقليدية؛ فما كان من مانتينيا إلا الرد بالمثل حين اعتبرت أن طيبة العدوانية "الديمقراطية" – برغم أنها من ذوي القربى – تشكل خطراً أكبر بكثير على الحكم الذاتي التقليدي لأي دويلة إغريقية.

دروس مستقاة من حروب إيبامنونداس الاستباقية

أين خط النهاية؟

في الوقت الذي يمكن فيه للحرب الاستباقية الناجحة أن تحقق فوائد استراتيجية فورية، فإن عوائد مثل هذا المشروع المحفوف بالمخاطر قد تُهدر إذا لم يكن هناك جهد خطط له بشكل جيد مسبقاً، بحيث يدمج النجاح العسكري في إطار سياسي أوسع، بما

يفضي إلى قيام شكل من أشكال السلام الإيجابي الذي يعود بالنفع على الجميع. وبحكم تعريفها ذاته، فإن أي حرب استباقية "اختيارية" ينبغي أن تكون قصيرة، وأشبه بعملية ضرب رأس قوة العدو بما يوقعه في شلل تام، ويرغمه على تقديم تنازلات سياسية. وفي الدول التي تحكمها نظم ديمقراطية، فإن مغامرة مثيرة للجدل كهذه قد لا تحظى بدعم متواصل من جانب الرأي العام المحلي في حال أفضى الهجوم الاستباقي - عوضاً عن ذلك - إلى صراع ممتد لا يبقي ولا يذر؛ ما يعني نشوء مأزق من ذلك النوع الذي كان يُراد للضربة الاستباقية أصلاً أن تمنع حدوثه. وسواء شئنا أم أبينا، فالعملية الاستباقية إن نجحت، وتلتها فترة من الهدوء والسكينة، فغالباً ما تعد في نهاية الأمر عملية أخلاقية مبررة ودفاعية. أما إن كانت باهظة الكلفة، وأخفقت في إحلال السلام، فإنها، عند النظر إلى الأحداث بعد وقوعها، ستبدو دائماً وأبداً عملية "اختيارية" طائشة وعدوانية.

ولعل إيبامنونداس كان قد أدرك المعضلة التي وقع فيها؛ إذ وجد نفسه في صراع مع الإسبارطيين ومع الوقت أيضاً؛ وذلك في ضوء غموض موقف الرأي العام وتذبذبه في دولته. ومن ثم، فما إن أخفق في تدمير أكروبول إسبارطة ونخبها السياسية والعسكرية، حتى اتجه لاعتماد اثنتين من خطط الطوارئ اللتين ربما كانتا ستضعان حداً للعمليات الحربية بصورة نهائية، وتوهنان قوى إسبارطة بشكل دائم وفق شروط تصب في صالح طيبة. ولو كان إيبامنونداس قد تمكن، قبل أن يغامر باجتياح ميسينيا، من عبور نهر يوروتاس، وإحراق إسبارطة، ودحر ما تبقى من قوات المشاة الإسبارطيين داخل مقاطعة لاكونيا، وتحرير عبيد المقاطعة جميعاً، فإن إسبارطة كانت غالباً ستختفي من الوجود كلياً كمدينة كبرى في شتاء عام 370-369، وما كان الجيش البؤوتي سيغدو بحاجة إلى القيام بحملات غزو إضافية جديدة في السنوات التالية.

وخلافاً لذلك، فإن إشاعة الديمقراطية في إقليم بيلوبونيز يعد من المشروعات الطويلة الأمد؛ ففي حال نجاحه، فإنه سينطوي على تدني قدرات إمبراطورية إسبارطة

الأوليغاركية بشكل بطيء، نظراً إلى أنها لن تتمكن أبداً من إعادة بناء تحالفاتها في هذا الإقليم وتحت رعايتها في ضوء وجود ثلاثة من المنافسين الكبار الأقوياء، فضلاً عن افتقارها إلى الكفاءة والمهارة في توظيف "فنون" الحصار والاستفادة منها.[25]

إضافة إلى ما تقدم، فإن وضع نهاية لنظام العبيد في ميسينيا كان سيفرض على الإسبارطيين في آخر الأمر العمل بأنفسهم على إنتاج المزيد مما يحتاجون إليه من غذاء، والتخلي شيئاً فشيئاً عن فكرة "المواطن/ المحارب" (أو "عسكرة" المجتمع) التي تدعمها حكومة المدينة. وكان واضحاً أن الأعداد المتبقية من العبيد المحليين، الخاضعين لنظام العبودية في لاكونيا، لم تكن توفر ما يكفي من المواد الغذائية اللازمة لضمان النجاح المستمر لعملية بناء الثقافة العسكرية التقليدية في إسبارطة على أرفع مستوى.

وعندما توفي إيبامنونداس، كان معظم أهدافه العسكرية قد تحقق، برغم تضاؤل مستوى الدعم الذي كانت تقدمه بؤوتيا، بعد موته، لغزو جديد يستهدف بيلوبونيز استكمالاً لغايته الأصلية في تدمير إسبارطة ذاتها. ويوحي هذا بأن الجانب المحزن لمشروعات إيبامنونداس وخططه ربما كان عجزه عن إدراك حقيقة مفادها أن الطيبيين كانوا، بحلول عام 362، قد حققوا مقاصده التي اجتمعت على إضعاف ما كانت تتمتع به إسبارطة من نفوذ وتأثير بشكل دائم. وبهذا المعنى أو ذاك، فإن ما كان الزعيم الطيبي قد بذله من جهود مستمرة في إقليم بيلوبونيز إنما كان يستهدف في المقام الأول التعجيل في إنهاء الهيمنة الإسبارطية، بأسلوب اتسم بالخطورة أحياناً، برغم أن هذه الجهود والمحاولات بدت كأنها من دون داعٍ أحياناً، حين غدا واضحاً أن نهاية هذه الهيمنة أصبحت لا مفر منها في ضوء نشاطاته ومحاولاته السابقة. وحتى لو لم تتمكن طيبة بعد وفاته من الحفاظ على ما تحقق لها من تفوق على الصعيد العسكري، فإن ما تبدى من علامات تلاشي سطوة إسبارطة ونفوذها كان قد شكّل، على أقل تقدير، ظاهرة ثابتة ودائمة.

الوسائل والغايات

إن الإخفاق الذي آلت إليه في بادئ الأمر المحاولات الرامية لتدمير إسبارطة نفسها، في عام 369، صار يعني أن ما كان سيعد حرباً استباقية سريعة قد تحول بشكل غريب إلى مهمة شاقة طال أمدها عقداً كاملاً، وتطلبت من الموارد ما زاد كثيراً على ما تم تخيله لها أصلاً. إن الجاذبية الخادعة التي اتسمت بها الحرب الاستباقية تكمن في اعتبارها وسيلة اقتصادية لحل مشكلة سلام خطر ولا طائل تحته، وبأنها لن تفضي إلى حرب استنزافية ممتدة. وتأسيساً على ذلك، فمن غير المرجح أن إيبامنونداس في عام 370 كان يتخيل أن حملة الغزو الأولية، التي شنها شتاء ذلك العام، ستعقبها في الحال تقريباً حملة ثانية يوجهها أواخر صيف عام 369، وحملتان أخريان خلال الأعوام السبعة اللاحقة، وأن الخاتمة ستكون موته في معركة يخوضها بعد ثماني سنوات ضد الإسبارطيين في مانتينيا.

وكحالة مشابهة، بدا واضحاً أن الولايات المتحدة الأمريكية وحلفاءها قد أدركوا، بعد حرب عام 2003، أن هذا الجهد الحربي الاستباقي، الذي استهدفوا به إسقاط صدّام حسين، صار يتطلب نوعاً من الاحتلال فوراً. إن المحاولات التي بذلها هذا التحالف، دعماً لعملية بناء مجتمع مدني ديمقراطي في العراق، كانت قد صممت من حيث الجوهر للحؤول دون ظهور زعيم أوتوقراطي شبيه بصدّام حسين مرة أخرى، ربما يعمد، على نحو مشابه، إلى ترجمة ثروات هذا البلد النفطية الهائلة إلى ترسانات عسكرية، وحروب عدوانية إقليمية، وأخطار تتهدد الجزء الأعظم من احتياطيات النفط العالمية.

وقد بدت الافتراضات المنطقية، التي بنيت عليها هذه المحاولات، سليمة في بادئ الأمر. غير أن ما بدا تفاؤلياً أكثر مما ينبغي هو التقديرات التي وضعت لمدى صعوبة الإتيان بأول حكومة دستورية إلى الشرق الأوسط العربي الإسلامي، وفي قلب موطن الخلافة الإسلامية القديمة؛ فلا العراق بخاصة، ولا الشرق الأوسط بعامة، بدا منفتحاً على نظام ديمقراطي تقيمه قوى أجنبية إثر زوال نظام صدّام حسين. وفي ضوء طبيعة

النظام الرأسمالي الديمقراطي الاستهلاكي المعاصر، فإن درجة استعداد الرأي العام، سواء في أمريكا أو في الدول الأوروبية الحليفة، لتحمّل احتلال يطول خمسة أعوام، ويوقع أكثر من 4200 قتيل، وتصل تكلفته إلى قرابة تريليون دولار، كانت أقل بكثير من استعداد بؤوتيا الصغيرة لدعم خطط إيبامنونداس الحربية التي امتد بها الزمن تسع سنوات، والتي كانت تعني - ابتداءً بالانتصار الذي تحقق في ليوكترا حتى هزيمة مانتينيا - معارك تكاد لا تنتهي، واستنزافاً لا يقف عند حد للموارد المالية لدويلات زراعية فقيرة. ومن دون شك، فإن خصوم إيبامنونداس ساقوا حججاً ضد حرب استباقية تشن عليهم من الخارج، مطابقة لتلك التي جاء بها مناهضو مبدأ الحرب في حالة حرب العراق، ومن بينها ضبابية المكاسب التي يمكن أن تتحقق على المدى البعيد، في حين أن ضخامة تكلفتها لا تقبل جدلاً أو خلافاً.

وبناء عليه، ولكي يحالفها النجاح، فإن أي عملية استباقية، شأنها في ذلك شأن الحرب الوقائية، ينبغي أن تصمم بحيث تحدث تغييراً في ما يحيط مصدر العداء الأصلي من أوضاع وظروف، ومن دون إبطاء، إما بتدمير العدو تدميراً تاماً، وكما آلت إليه حال قرطاج بعد الحرب البونية الثالثة Punic War التي شنتها روما عليها، وإما بإجباره على تغيير سياساته بما يجعله حليفاً، وليس عدواً. ومع أن الضربة الاستباقية يمكن أن توهن قوى العدو، فإن من الخطر تركه وشأنه جريحاً، غاضباً، تواقاً للانتقام استناداً إلى حق قانوني يجيز له ذلك.

وبكلمة أخيرة، فإن مفهوم الحرب الاستباقية ينطوي على تناقض ذاتي وإن هو بدا سليماً أول وهلة في ظاهره. فهو يبدو جاذباً لأنه يعرض وسيلة سريعة ومباغتة للقضاء على الخطر الذي يتهدد هذه الدولة أو تلك، بافتراض أن العدو لن تكون لديه القدرات العسكرية التي تمكنه من الصمود أمام الضربة التي توجه إليه. ولكن كي يكتب لهذه الحرب الاستباقية النجاح على المدى الطويل، فإنها غالباً ما ستتطلب توظيف ما ينبغي

توظيفه في حقبة ما بعد الحرب من وقت وجهد وموارد، بما يتناقض مع الخصائص الأصلية الجاذبة التي تتميز بها هذه الحرب من سرعة، ومباغتة، وهجمات محدودة النطاق.

مفارقة "ديمقراطية"

في كل من إقليم بيلوبونيز القديم والعراق المعاصر، كان يراد للحرب الاستباقية أن تفضي إلى إنشاء دول ديمقراطية جديدة، تسهم من جانبها في تعزيز الاستقرار الإقليمي، وتتقدم شيئاً فشيئاً لتشكل في ما بينها تجمعاً لدول ذات ميول وأفكار متشابهة. وقد صحت هذه الفرضية إلى حد كبير حقاً بالنسبة للنتائج التي تمخضت عنها حملة الغزو التي قادها إيبامنونداس في شتاء 370-369؛ إذ تحولت دويلات مانتينيا وميجالوبوليس وميسين، وإن لبعض الوقت، إلى عقبات كأداء حالت دون تقدم الجيش الإسبارطي، سواء لإعادة بناء إمبراطورية إسبارطة، أو للزحف شمالاً باتجاه برزخ [كورينث]. وبرغم ذلك، ولأنها دول ديمقراطية مستقلة، فإن سياساتها الخارجية تعكس هموماً ذات طابع محلي، ويمكن أن تتخطى أحياناً مقتضيات التضامن الأيديولوجي في ما بينها، وقد تعتمد أكثر فأكثر على الاعتبارات التي يفرضها توازن القوى. فقد عادت مانتينيا، على سبيل المثال، في عام 362 لتقف إلى جانب إسبارطة الأوليغاركية، ولتكون طرفاً في حرب ضد طيبة؛ "شقيقتها" الديمقراطية.

ومرة أخرى، فإن المفارقة تكمن في أن تحرير "العفريت" الديمقراطي من قمقمه نادراً ما يضمن لمحرره ولاءً دائماً وثابتاً؛ وكما اكتشفت ذلك واشنطن في عام 2008 أثناء المفاوضات التي أجرتها مع الحكومة العراقية بشأن كل شيء تقريباً، ابتداءً بالضمانات الأمنية المستقبلية وانتهاءً بالعلاقات مع إيران. وأياً يكن الأمر، فإن ثمة حقيقة ثابتة لا خلاف عليها في العالمين القديم والمعاصر، على حد سواء، مفادها أن الدول الديمقراطية، مقارنة بالدول ذات النظم الأوليغاركية، أقل نزوعاً لمحاربة دول ديمقراطية أخرى؛ وهي الحقيقة التي تصب في آخر المطاف في صالح "المحررين الديمقراطيين" على المدى البعيد.

الحروب الاستباقية والعراق المعاصر

بحلول عام 2004، دأب كثير من المراقبين على الاستشهاد بحملة أثينا العسكرية سيئة الصيت، التي وجهتها لغزو صقلية في الفترة 415–413 قبل الميلاد التي خفّت حدة الحرب البيلوبونيزية أثناءها – خسرت أثينا فيها 200 سفينة حربية، وعشرات الآلاف من جنود قوات الدويلات المتحالفة معها بين قتيل ومفقود – كأفضل رسالة تحذير بشأن حرب العراق. وقد رأى البعض أن كلاً من الولايات المتحدة الأمريكية وأثينا القديمة، وقد حفلت قائمة كل منهما بكثير من الأعداء في حرب قائمة بالفعل، لم يولِ اهتمامه كاملاً لجميع الاعتبارات والعوامل ذات الصلة، فأقدمَ، دونما داعٍ هذه المرة، على عمل استباقي أشعل به منفرداً فتيل صراع "اختياري" ثانٍ، ضد عدو لم يكن يشكل تهديداً رئيساً. وهناك كثير من المعلقين الذين ألمحوا إلى الدعوات التحريضية الهستيرية التي تصاعدت داخل الجمعية العمومية الأثينية عشية الحرب، والتي يصفها المؤرخ ثوكيديدس بدقة عالية على أنها رسالة تذكير مخيفة بمدى قدرة الخطباء والقادة العسكريين والساسة على استثارة مشاعر عامة الناس، ودفعها دفعاً لمؤازرة مخططات إمبريالية طائشة ذات عواقب كارثية.[26]

ولكن كثيراً من أوجه التشابه هذه ستتلاشى بإلقاء نظرة فاحصة عليها؛ فأثينا الديمقراطية شنت هجومها على كيان ديمقراطي هو الأكبر في العالم القديم برمته، إذ إن عدد سكان سرقوسة كان يفوق كثيراً عدد سكان أثينا ذاتها. وللإبقاء على وجه التماثل القديم – الحديث هذا دقيقاً وحقيقياً، فإن الحال تبدو وكأن واشنطن قد غزت بشكل مباغت، وخلال فترة هدنة نسبية مع الإسلام الراديكالي، دولة الهند الديمقراطية البعيدة، المتعددة الأديان، التي لا تشكل تهديداً لواشنطن بأي شكل كان، والتي تبعد كثيراً عن الولايات المتحدة الأمريكية وتفوقها حجماً.

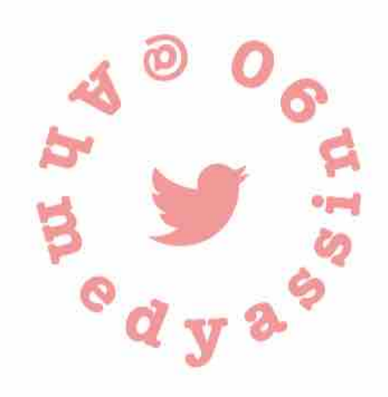
كما أن الأكثر إثارة للخلاف من ذلك هو التقييم التحليلي الذي أجراه المؤرخ ثوكيديدس للكارثة التي وقعت في صقلية، والذي يتناقض في بعض جوانبه مع روايته السابقة للأحداث. فهو يقول إن الهزيمة التي تكبدتها أثينا في سرقوسة لم يكن مقدراً لها

أن تحدث حتماً. وهي لم تنجم بالضرورة عن عيوب في الأفكار أو ضعف في الخطط؛ على الرغم من أن الأحداث التاريخية، التي سردها في كتابيه السادس والسابع، غالباً ما توحي بذلك تحديداً. وفي المحصلة التي خرج بها، يقول هذا المؤرخ إن ما يجب توجيه الاتهام إليه حقاً هو إخفاق الأثينيين في الداخل في تقديم كامل دعمهم للحرب التي أجازوها بأنفسهم. ويردد ثوكيديدس هذه النقطة مراراً وتكراراً في السجل التاريخي الذي وضعه، لاسيما في خطابات بيركليس، رجل الدولة الأثيني، الذي يؤنب فيها الأثينيين على تقلب مواقفهم. ومن ذلك – مثلاً – أنهم لم يصوتوا لصالح دخول الحرب البيلوبونيزية إلا لاعتقادهم بأنها ستكون حرباً سهلة وقصيرة؛ لكنهم صاروا يحملونه المسؤولية كاملة عندما تبين لهم أن الحرب طويلة وشاقة.[27]

وبدلاً من ذلك، وفي ما يتعلق بأوجه التشابه غير القياسية في العالم القديم، التي تصلح كثيراً لتذكيرنا بالمصاعب والتعقيدات الملازمة للحرب الاستباقية وعواقبها (مع الإشارة بشكل خاص إلى العراق بالذات)، فلا شيء يعبر عن ذلك أكثر مما تفعل الحرب التي أطلق شرارتها إيبامنونداس في 370–369. فالأخيرة استهدفت استئصال نظام يضمر العداء لبؤوتيا منذ أمد بعيد، أملاً في إحلال الاستقرار وتوحيد الصفوف، من خلال ترسيخ أسس الديمقراطية في المنطقة. وقبل هذا الهجوم الاستباقي، كانت بؤوتيا تخوض بين حين وآخر معارك متقطعة مع إسبارطة امتدت لفترة أطول من فترة الأعوام الاثني عشر التي استغرقها الصراع بين الولايات المتحدة الأمريكية والعراق، بدءاً بعام 1990عندما غزا العراق الكويت، وما تلاها من قيام واشنطن بفرض مناطق حظر الطيران على الفضاء الجوي العراقي. لقد تم النظر، في الداخل والخارج، إلى إيبامنونداس ومستشاريه على أنهم من مناصري الديمقراطية المتحمسين التواقين لوضع أهداف بعيدة المدى تتخطى حدود موارد بؤوتيا وقدراتها، والتي لا تحظى بدعم شعبي يمكن التعويل عليه في المدى الطويل. وقد نفترض أن فريقاً من الطوباويين المتحمسين من أنصار الفلسفة "الفيثاغورية" كانوا قد أحاطوا بإيبامنونداس، بالطريقة نفسها التي اتبعتها مجموعة من المحافظين الجدد "المثاليين" لفرض تأثيرها ونفوذها على جورج بوش.[28]

إن تقرير مدى حصافة الجهود الحربية الأمريكية أو البؤوتية، أو إن كانت قد حققت النتائج التي تبرر النفقات التي ترتبت عليها، يعتمد إلى حد ما على كيفية تقييم الحسابات والاعتبارات الاستراتيجية التي ستتمخض عن ذلك، والتكلفة البشرية والمادية لكل عملية على حدة، وأعداد البشر الذين عادت عليهم هذه الجهود بالنفع أو بالضرر، على حد سواء. فقبل ظهور إيبامنونداس كقائد لمدينة طيبة، كانت معظم دويلات إقليم بيلوبونيز تدار من قبل نظم أوليغاركية، فيما كان الإقليم نفسه يرزح تحت هيمنة إسبارطة، وفيه تم استعباد مئات الآلاف في دويلة ميسينيا، فضلاً عن تاريخ إسبارطة الطويل الحافل بغزواتها للدويلات الديمقراطية في شمال اليونان. ولكن بعد تسع سنوات من حروب طويلة باهظة الكلفة (لا تتوافر لنا وثائق أو بيانات للأعداد الإجمالية من القتلى والمصابين البؤوتيين)، باتت الأنظمة الديمقراطية تحتل الجزء الأكبر من الإقليم، وصار عبيد ميسينيا ينعمون بالحرية في دولة ديمقراطية مستقلة، وكُسرت شوكة إسبارطة بشكل دائم تقريباً، وتحررت الدويلات اليونانية في الشمال من هواجس الهجمات الإسبارطية المتكررة عليها.[29]

في عام 2008، كانت محنة العراق التي طال أمدها قد أوقعت، بصورة مأساوية، أكثر من 4200 قتيل أمريكي، والمئات من القتلى وآلاف الجرحى في صفوف قوات الحلفاء، وبلغت تكلفتها ما يقرب من تريليون دولار. وعلى ما يبدو، فإن حرب العراق قد أفضت إلى إشاعة الهدوء والديمقراطية فيه، وإن بصورة نسبية؛ فيما تحرر أبناؤه من الحصار الذي كان مفروضاً عليهم، وأمكنهم انتخاب حكومة تضمر للولايات المتحدة الأمريكية من الود بقدر ما تضمر من عداء للعناصر الإرهابية من الإسلاميين المتطرفين. وبعد أن مضى كثير منذ أن هدأت الأصوات السياسية الغاضبة التي أثارتها حرب العراق، فلا شيء غير التاريخ من سيصدر حكمه على حالة الحرب الاستباقية المعاصرة هذه، وكما فعل بالنسبة للحالات القديمة منها، لتقرير ما إذا كانت مثل هذه "المقامرة" الاستباقية المكلفة يمكن أن تبرر الثمن الذي ترتب عليها.[30]


@Ahmedyassin90

الفصل الخامس

الإسكندر الأكبر: بناء الدولة وتأسيس الإمبراطورية وصيانتها

إيان وورثنجتون

خاض الإسكندر الأكبر (356–323 قبل الميلاد) حروباً تميزت بمستوى عالٍ من الحنكة والدهاء على المستوى الاستراتيجي، ضد أعداءٍ كانت كفتهم هي الأرجح من الناحية العددية، واستطاع فرض الحصار عليهم في مواقع عدة، ليؤسس واحدة من أعظم إمبراطوريات العصور الغابرة على الصعيد الجغرافي؛ إذ امتدت من اليونان غرباً حتى ما كان يسميه الإغريق الهند (باكستان الحديثة) في الشرق. وعندما توفي كان قد أعد عدته لغزو شبه الجزيرة العربية، وكان من المرجح أنه سيتجه بعد ذلك صوب قرطاج. وقد أقام إمبراطوريته هذه في ما يزيد قليلاً على عشر سنوات؛ إذ اجتاح آسيا في عام 334، وتوفي في بابل عام 323. وعلى صعيد المقارنة، فليس حتى للرومان – مثلاً – الذين طالما تفاخروا بأنهم بناة الإمبراطورية الأكبر في العصور القديمة، أن ينسبوا فضل إقامتها لشخص واحد، بل إن الوصول بإمبراطوريتهم هذه للحدود التي بلغتها قبل سقوطها كان قد استغرق قروناً من الزمن. أضف إلى ذلك أن إمبراطورية الإسكندر قد مهدت الطريق لشيوع الثقافة الإغريقية في البقاع التي اجتازها مع جيشه، وخلق فرصاً وميادين للمبادلات التجارية ما بين الغرب والشرق؛ فتغيرت بذلك إلى الأبد طبيعة العلاقات التي تصل اليونان بآسيا.

ويستعرض هذا الفصل أولاً السبل التي اتبعها الإسكندر في تأسيس إمبراطوريته، ويتناول، ثانياً، المشكلات التي واجهها في إدارة شؤون الدول والشعوب التي أخضعها

لحكمـه مهـما تعـددت ثقافاتهـا وكـبرت أعـدادها، ويتقـصـى، ثالثـاً وأخـيراً، المقاربـات والاستراتيجيات التي تبناها لإنجاز مهمة قد يجوز لنا وصـفها اليـوم بـ "بنـاء الدولـة". وبذلك، فسيتيح لنا هذا الفصل مدح أو نقد تصـرفاته وأساليب عمله. ونزعم أن من شأن التجارب التي خاضها الإسكندر في آسيا توسيع خبرات صانعي الاستراتيجيات الحديثة، وتسليط الضوء على المشكلات المعاصـرة، سواء في هذه المنطقـة مـن العـالم أو تلـك التـي تختلف عنها من الناحية الثقافية. وهناك من يزعم أيضاً بأن إخفاقات الإسكندر (سواء مـا يُلام عليها أو التي لا ذنب له فيها) تدلل على مدى ضآلة مـا يتعلمـه العـالم المعاصـر مـن تجارب الماضـي، بل وحتى على تجاهله لها كلية.

ارتقى الإسكندر عرش مقدونيا يوم اغتيل والده الملك فيليب الثـاني عـام 336 قبـل الميلاد، وعندها أثبت بالفعل براعته في ساحات الحرب. ففي عام 340، ولم يكن قد تجـاوز السادسة عشـرة من عمره، نصّبه والـده وصـياً عـلى العـرش. وخـلال ولايتـه هـذه قـاد الإسكندر حملة مظفرة ضد الميديين Maedians في أعالي نهر سـترايمون Strymon وألحـق الهزيمة بهم. ومن فرط انبهار والده بهذا الانتصار، فلم تمض سوى سنتين حتى أوكل إليـه في عام 338 قيادة كل من الجناح الأيسـر للجـيش المقـدوني وسـلاح الفرسـان في معركـة خيرونيا التي خسـر الإغريق استقلالهم كنتيجة لها، ليصبحوا في العام التالي أعـضاءً في مـا عرف بـ "اتحاد كورينث" League of Corinth الذي فرض عليه الملك المقدوني زعامتـه، مثلما فرض هيمنة بلاده على بلاد الإغريق. وقد أبلى الإسـكندر بـلاء شـديداً في إبـادة مـا سمي بـــ "عـصبة طيبـة المقدسـة" Theban Sacred Band، التـي ضـمت ثلاثمئـة مـن المحاربين ذوي البأس الشديد.

وما إن أصبح ملكاً، حتى وجد الإسكندر نفسه ملزماً بمعالجة عدد مـن المـشكلات، منها تمرد الإغريقيين سعياً للخلاص من نير الحكم المقدوني، والذي كان من الـسهل عـلى الإسكندر إخماده. وتعين عليه، من ثم، إحياء اتحاد كورينث الذي أقامه والده، والتخطـيط

لغزو آسيا باسم العالم الهيليني مجتمعاً (في إطار ما سيعرف بالحروب الإغريقية-الفارسية) عقاباً للفرس على ما جلبوه على الإغريق بعامة، والأثينيين بخاصة، من معاناة قاسية، ولتحرير المدن الإغريقية الواقعة في آسيا الصغرى. وفي ربيع 334 قاد الإسكندر جيشاً من اليونان باتجاه آسيا؛ مؤلفاً من نحو 48 ألفاً من المشاة، وستة آلاف فارس، يساندهم أسطول ضم 120 سفينة حربية. وثمة رواية تقول إنه رمى، قبل أن يحط الرحال، رمحاً باتجاه الأراضي الآسيوية للإيحاء بأنه يعتبر آسيا أرضاً تابعة له فاز بها بقوة الرماح.[1]

وكبّد الإسكندر الفرس هزائم في ثلاث معارك كبرى خاضها ضد جيوش فارسية تتفوق على جيشه عددياً (معارك نهر جرانيكوس Granicus، وإيسوس Issus، وجاوجميلا Gaugamela في الأعوام 334 و333 و331، على التوالي). وقد أحرز الانتصار فيها بفضل جيشه (الذي ورثه عن أبيه فيليب الثاني) الأرقى تدريباً من الجيش الفارسي، فضلاً عن مزيج من الحنكة العسكرية، والجرأة، والحظ الحسن.[2] ومع أن الملك الفارسي العظيم داريوس الثالث Darius III، لم يكن حاضراً في معركة جرانيكوس (إذ كان أرستيس Arsites، مَرْزُبان فريجيا Phrygia، التابعة لمقاطعة هيليسبونت Hellespont، قد تولى قيادة الجيش الفارسي فيها)، فقد كان داريوس نفسه من تصدى للإسكندر في معركتي إيسوس وجاوجميلا؛ وفيهما تمكن الإسكندر، الذي ارتكزت استراتيجيته في جوهرها على قتله أو إيقاعه في الأسر، من إجبار داريوس عنوة على الانسحاب من ميدان القتال. وقد ثبط هذا الانسحاب معنويات القوات الفارسية، وقلب مجرى المعركة لصالح الإسكندر في المعركتين. لكن معنويات تلك القوات كانت قد ضعفت أصلاً قبل نشوب هاتين المعركتين بفعل زيارة الإسكندر عام 333 إلى جورديوم Gordium (القريبة مما يعرف بأنقرة اليوم). فهناك كانت العربة التي خصصت من قبل ميداس Midas، ابن جورديوس Gordius، الذي قيل إنه - أي هذا الأخير - رحل عن مقدونيا ليصبح ملكاً على جورديوم. وقد اكتسبت هذه العربة شهرتها من العقدة المصنوعة من خشب القرانيا، التي ربطها ميداس على محور عجلتي العربة، وقد كانت هناك نبوءة تقول إن من يفك هذه العقدة ستكون له

السيادة على آسيا. وغني عن القول إن الإسكندر قد استطاع حل هذه العقدة إما بضربة من سيفه، أو بتفكيكها أجزاء.[3] فكانت زيارته هذه إلى جورديوم زيارة سياسية، أراد بها أن يثبت للجميع أنه سيد آسيا القادم.

وفي الفترة ما بين معركتي جرانيكوس وإيسوس، سار الإسكندر بجيشه على امتداد سواحل آسيا الصغرى وسوريا؛ فكانت المدن هناك تعلن استسلامها له في الحال أحياناً، وفي أحيان أخرى كان عليه فرض الحصار على بعضها أولاً (ولعل أشهر عمليات الحصار هذه حصار مدن هاليكارناسوس Halicarnassus، وصور، وغزة). وفي عام 332، دخل الإسكندر مصر، وأعلن المَرْزُبان مازاسس Mazaces استسلام عاصمتها ممفيس فوراً، ليعقب ذلك استسلام مصر برمتها. لم يكن لدى هذا الحاكم الفارسي خيار آخر، فالمصريون كانوا قد سئموا الهيمنة الفارسية، فرحبوا - بالتالي - بالجيش المقدوني كمحرر لهم. ولو كان مازاسس قد أبدى أي قدر من المقاومة لكان هؤلاء قد أعلنوا الثورة عليه. وبينما هو في مصر، قام الإسكندر برحلته الشاقة الشهيرة إلى واحة سيوه Siwah في الصحراء الليبية كي يستشير وسيط الإله زيوس-آمون Zeus-Ammon ليحصل منه على تأكيد بأنه ابن زيوس.[4] بيد أن ما أبداه من خيلاء وغرور على هذا النحو كانا كفيلين بالتسبب في انهيار إمبراطوريته، وكما سيعرضه هذا الفصل.

ولم يعد خافياً وقتئذٍ أن انتصار الإسكندر في معركة جاوجميلا كان يعني ضمناً أن الإمبراطورية الفارسية لم يعد لها وجود من الناحية العملية، ومن حيث مقوماتها الرئيسة. فلم يمضِ طويل وقت حتى كانت أهم مدنها وأكثرها ثراءً قد وقعت تحت سطوة المقدونيين؛ ابتداءً ببابل وإكباتانا Ecbatana (همدان حالياً) وسوسا Susa، وانتهاءً ببيرسيبوليس Persepolis «أكثر مدن آسيا مدعاة للبغض»،[5] حيث يقع فيها قصر داريوس وزركسيس. فما إن رحل الجيش المقدوني عن هذه المدينة في ربيع عام 330 حتى التهمت النيران القصر فلم تبق له أثراً. وليس معروفاً يقيناً إن كان إحراقه قد جرى

عرضاً أو عمداً؛ ولكن رمزية الحدث، وكما هو شأنها بالنسبة لـ "عقدة جورديوم"، قد استُثمرت على النحو المطلوب. فشعوب إمبراطورية فارس لم تعد ملزمة بتقديم فروض الطاعة والولاء للملك العظيم، وإنما للإسكندر، سيد آسيا.

وفي المقابل، فإن حادثة الحريق هذه كانت تعني، من الناحية الفعلية، أن الأهداف الأصلية لغزو آسيا - معاقبة الفرس، وتحرير المدن الإغريقية في آسيا الصغرى - قد تحققت؛ وبالتالي فقد ساد الاعتقاد لدى أفراد الجيش بأن الوقت قد حان كي يعودوا إلى الوطن.[6] غير أن الإسكندر لم يولِ وجهه شطر الغرب؛ فهو كان يريد مطاردة داريوس، وقد انطلق بالفعل يتقفى أثره. وعندما أدركه في هيكتومبيليس Hecatompylus، فوجئ بأن وجده ميتاً، وبأن بيسوس Bessus، مَرْزُبان مقاطعة باكتريا Bactria، أحد الذين شاركوا في عزل داريوس عن العرش، وكان له ضلع في مقتله، قد أعلن نفسه "ملكاً عظيماً" تحت اسم أرتازركسيس الخامس Artaxerxes V. ومرة أخرى يساور الأمل جنود الإسكندر بأن مليكهم سيصدر أوامره ببدء رحلة العودة إلى الديار.[7] ولكن آمالهم تخيب مرة أخرى؛ فأوامر الملك تقضي الآن بملاحقة بيسوس!

وبرغم أن جنوده كانوا في بيرسيبوليس وهيكتومبيليس قد عبّروا بالفعل عن رغبتهم في العودة إلى ديارهم، فإن الإسكندر كان محقاً في تقديره لضرورة خلع بيسوس عن العرش ضماناً لاستقرار إمبراطوريته الآسيوية الجديدة. ومع هذا، فالغزو المقدوني كان قد دخل الآن مرحلة مختلفة حملت عنوان: الاحتلال من أجل الاحتلال. ولعل ما اختلف فيها أيضاً هو الأسلوب الذي اتبعه الإسكندر في التعامل مع معارضيه بينما هو يشق طريقه غرباً، إذ غدت عمليات القتل الجماعي، بل وحتى الإبادة أحياناً، ظواهر مألوفة.

وسرعان ما انضم إلى معسكر بيسوس كل من ساتيبارزنس Satibarzanes، مَرْزُبان مقاطعة آريا Areia، وبعض زعماء قبائل باكتريا، مثل أوكسيارتس Oxyartes (والد

روكسانا Roxane)، وسبيتامانيس Spitamanes مع أعداد كبيرة من أتباعه، وبينهم مجموعة من أمهر الفرسان وأكثرهم براعة. وفي تصديه لهذا التهديد، توجه الإسكندر عاجلاً لغزو باكتريا وسوغديانا Sogdiana؛ فكان تحركه السريع هذا سبباً في تقهقر هؤلاء القادة وقواتهم إلى ما وراء نهر أوكسوس Oxus. وما إن تمكن الإسكندر من عبور هذا النهر حتى سارع أوكسيارتس وسبيتامانيس للانشقاق على بيسوس وخذلانه كسباً لود الإسكندر الذي أمر بإعدامه (أي بيسوس). ومن جديد، لم يكن القضاء على زعيم واحد ليغير شيئاً؛ فقد عاد سبيتامانيس إلى الواجهة من جديد، وأمسى الجيش المقدوني الآن يواجه حرب عصابات شرسة بقيادته في هذه البقعة المختلفة المعادية من آسيا الوسطى. غير أن حركة المقاومة هذه كانت بحلول عام 327 قد انتهت، ولقي سبيتامانيس مصرعه، فأمكن للإسكندر أن يضم إلى جيشه فرق الفرسان التي جاءت من تلكما المنطقتين.

وأثناء حملات غزو باكتريا تم الكشف عن مكيدتين كبيرتين حيكتا ضد الإسكندر؛ وقد وقعت أولاهما، التي عرفت باسم "قضية فيلوتاس Philotas"، عام 330 في فرادا Phrada عاصمة مقاطعة درانجيانا Drangiana. وعلى الرغم من أن فيلوتاس، قائد كتيبة الفرسان وابن بارمنيون Parmenion، لم يكن ضالعاً في هذه المكيدة، إلا أن انتقاداته لنزعة الإسكندر الاستشراقية، ونزوله عند رغبات النبلاء الفرس وأهوائهم، هي التي أفضت إلى القضاء عليه؛ فقد اتهم بالتورط في هذه المؤامرة، وحكم عليه من ثم بالموت. بل إن الإسكندر لم يتردد في إعطاء الأمر بقتل بارمنيون نفسه. ومع أن هذا الأخير لم يكن أقل انتقاداً للإسكندر من ابنه، إلا أنه كان مقيماً في إكباتانا، ولا يعلم شيئاً عن مكيدة كهذه. وفي عام 327، اكتشفت مؤامرة أخرى في باكتريا بتدبير من مجموعة من أفراد حاشية الإسكندر نفسه. وفيها تتجه أصابع الاتهام نحو كاليستينيس Callisthenes، مؤرخ البلاط، الذي اعترض على محاولة الإسكندر تطبيق التقليد الفارسي (المعروف باسم"التكريم" *proskynesis*) الذي يقضي بالسجود أمام "الملك العظيم"؛ فكان جزاؤه الموت، برغم

غياب أي دليل يدينه. ولم يكتف الإسكندر باستغلال هاتين المؤامرتين للتخلص من معارضيه استغلالاً بشعاً، فقد قتل أيضاً الجنرال كليتوس Cleitus، قائد جيشه في ماراكاندا Maracanda (سمرقند) في شجار عنيف نشب بينهما بعد أن بلغت الخمرة بالرجلين حد الثمالة. لقد شكلت حملة غزو باكتريا هذه منعطفاً مهماً على طريق سقوط الإسكندر؛ ملكاً وإنساناً.

وإذ هدأت الأوضاع في باكتريا (أو هكذا اعتقد)، فقد قاد الإسكندر جيشه شرقاً بصعوبة بالغة ميمماً شطر الهند، التي لم يخض فيها سوى حرب كبرى واحدة في عام 326 ضد الأمير الهندي بوروس Porus عند نهر هيداسبس Hydaspes. ومع أن انتصاره فيها عُد انتصاراً مقدونياً آخر يضاف إلى ما سبقه من انتصارات، فإنه يعتبر الحدث العسكري الأهم الذي يواجهه الإسكندر في سياق حملته في الهند. فقد كان جنوده منذ عام 330 يمنون النفس بالعودة إلى الوطن بعد إحراق مدينة بيرسيبوليس، غير أن تصرفات الإسكندر وتحركاته لم يكن فيها ما ينبئ بذلك؛ فتحولت حملة غزو الهند إلى ما يشبه القشة الأخيرة التي قصمت ظهره. فبعد سبعين يوماً أمضاها سيراً تحت وابل شديد من الأمطار الموسمية الاستوائية باتجاه نهر الغانج Ganges، أعلن جيشه الثورة عليه عند وصوله نهر هيفاسيس Hyphasis (بياس Beas حالياً)، ما أجبره على العودة أدراجه. في الهند، كان الإسكندر يطمح إلى اجتياز مياه نهر السند، ومنه الوصول إلى مياه جنوب المحيط (الهندي). ولعله كان سيحقق بغيته (ولكنه كاد وهو في طريقه إلى ذلك أن يفقد حياته أثناء عملية حصار مالي Malli)، فكانت رحلته تلك إحدى الوقائع الأبرز التي اقترنت بوجوده في الهند.

وبينما هو في طريق العودة منها، قاد الإسكندر فرقة من قواته باتجاه الغرب في رحلة عبر صحراء غدروسيا Gedrosia، وبدافع شخصي محض؛ فقد كان ديونيسوس Dionysus، الذي كان الإسكندر وقتذاك يتعاطف معه ويشاطره مشاعره، قد ارتحل عبر هذه الصحراء، في حين باءت بالفشل محاولة عظيم الفرس قورش اجتيازها. وراح ضحية

رحلة الإسكندر المشؤومة هذه قرابة ثلث من رافقه فيها جراء قساوة الظروف الطبيعية. ولكن حدثاً كهذا لم يكن يعني شيئاً بالنسبة إلى الملك؛ فالأهم هو ما كان سيجنيه من مجد عظيم في حال أفلح في عبور هذه الصحراء.[8]

وفي تلك الأثناء، تعلن مقاطعتا باكتريا وسوغديانا تمردهما عليه، وتحذو الهند حذوهما. وإذا كان الإسكندر قد ذهب به الظن خطأً إلى الاعتقاد بأن الهزيمة في الحرب تعني تركيع المهزوم وقهره، فإن لا أحد أمكنه يوماً ما (أو سيمكنه اليوم) تركيع الأفغان وقهرهم. فالصراعات الناشبة بين قبائل البشتون، المنتشرة عند حدود أفغانستان الشمالية-الغربية الحالية، لم تتوقف في أي وقت من الأوقات. ومع ذلك، فهي يمكن - طبقاً للاعتقاد السائد - أن توحد كلمتها متى ما واجهت ما يمكن وصفه بالعدو المشترك. والعدو المشترك هو الوصف الذي انطبق تماماً على الإسكندر في عشرينيات القرن الرابع، وكما انطبق تماماً على البريطانيين في القرن التاسع عشر، ومن بعدهم الروس في القرن العشرين، وكما يصح كلياً في يومنا هذا، وما كان بوسع الإسكندر أن يفعل هذه المرة إلا القليل جداً.

وفي عام 324، لم تكن قد مضت سوى سنتين حتى وقع عصيان آخر في أوبس Opis بسبب السياسة التي صار الإسكندر ينتهجها في ما يتعلق بإعفاء كبار ضباطه من الخدمة العسكرية. ولم تكن أي من خططه التي وضعها لغزو شبه الجزيرة العربية، أو تبني نظام للألبسة يجمع بين الأزياء المقدونية والفارسية،[9] أو استعراض اعتقاده بألوهيته، لتجدي نفعاً في إخماد حركة التمرد هذه. إذ إن عبارات التهكم التي صار رجاله يرددونها، مثل «اذهب إن شئت أنت وأبوك زيوس إلى شبه الجزيرة العربية»، باتت تدلل على أن قدرته على الإقناع أمست أعجز من أن تنهي هذا العصيان. ولم ينجح إلا بعد ثلاثة أيام عندما أثار في جنوده إحساساً بالخزي حين قرر إناطة قيادات الفرق العسكرية بضباط من الفرس. وهو، بمعنى آخر، قد استغل الكراهية العنصرية التي يضمرها رجاله للفرس ليضع حداً لتمردهم عليه.

وفي بابل، وبعد عام واحد فقط، أي في يونيو 323، يفارق الإسكندر الحياة عشية انطلاق حملته العسكرية لغزو شبه الجزيرة العربية، وقبل أشهر قلائل من احتفاله بعيد ميلاده الثالث والثلاثين، دون أن يخلف وريثاً للعرش (كانت زوجته روكسانا، إحدى أميرات مقاطعة باكتريا، حاملاً وقتئذٍ). وعندما سُئِل لمن سيورث إمبراطوريته، بدا جوابه غامضاً حين قال: «إلى الأفضل». فأطلق هذا شرارة دورة من حروب دموية نشبت بين جنرالاته وطال أمدها ثلاثين عاماً، جرى خلالها تفتت الإمبراطورية المقدونية، وظهرت ممالك الحقبة الهيلينستية الكبرى.

لم تعرف إمبراطورية الإسكندر الركود يوماً، وقد تغيرت حدودها تمدداً واتساعاً واستيعاباً لشعوب وأمم جديدة. ولا تعد أي حرب كان يخوضها الإسكندر الوحيدة أو الأخيرة في أي مرحلة من المراحل، ولم يحدث مطلقاً أيضاً أن حكم إمبراطوريته هذه بسلام وسكينة، كما لم تتوقف حركات المقاومة والاحتجاج التي تتصدى له طوال وجوده في آسيا؛ ابتداءً بالملك العظيم، ومروراً بزعماء قبائل آسيا الوسطى، وأمراء الهند، وانتهاءً بالعائلات الأرستقراطية الكبيرة. وبطبيعة الحال، فالكل كان يرى في الإسكندر خطراً يتهدد سلطته ونفوذه ومكانته الرفيعة. ففي أعقاب معركة نهر جارنيكوس في عام 334، فرت أعداد كبيرة ممن قدّر لهم النجاة صوب مدينة ميلتوس لإطلاق حركة تمرد ضده من هناك. وعندما استسلمت هذه المدينة له بعد حصار قصير، فر كثيرون من أبنائها إلى هاليكارناسوس؛ فأجبروا الإسكندر بذلك على تنفيذ عملية حصار أخرى. وعلى خلفية عمليات المقاومة التي لا تهدأ اليوم حتى تتأجج غداً، فإن فك "عقدة جورديوم" بات يوحي معنى أكبر، حين كان الإسكندر يحاول جاهداً أن يثبت للجميع أنه حاكم آسيا الجديد، لا بقوة الغزو والفتح، بل وتحقيقاً للنبوءة التي اقترنت بهذه "العقدة".

وقد يجوز لنا توقع أن يكون التوظيف السياسي لهذه الرمزية الدينية فاعلاً ومؤثراً، ولعل الإسكندر نفسه اعتقد أنه سيكون كذلك، نظراً لما تتميز به شعوب المنطقة من التزام

بالمعايير والتعاليم الدينية. ومع ذلك، فإنه جاء غازياً فاتحاً؛ أي برغم المحاولات التي بذلها ليحبب نفسه إلى الطبقة الأرستقراطية بإشراك أبنائها في إدارة شؤون الحكم (انظر تالياً)، فما من أحد من هؤلاء يود العيش في ظل القهر الناتج عن التعرض للغزو. فحتى في أعقاب هزيمة داريوس في إيسوس، والذي شكّل نقطة تحول مهمة في هذا السياق، فقد استطاع داريوس إعادة تنظيم قواته، ودفع بالإسكندر لخوض معركة معه في جاوجميلا. وعلى أي حال، فإن انتصارات الإسكندر ما كانت لتتحقق إلا بشق الأنفس، فقوات العدو كانت دوماً هي الأكبر عدداً؛ وإضافة لما توافر لداريوس من موارد وقدرات ضخمة (أضخم بكثير مما استطاع الإسكندر حشده منها)، فهذا الملك الفارسي كان قائداً استراتيجياً على درجة عالية من الحنكة والبراعة.[10] وهو، إضافة لذلك، لم يكن من النوع الذي يسارع إلى الاستسلام؛ فبعد معركة إيسوس، استطاع تعبئة جيش آخر؛ وعقد العزم إثر معركة جاوجميلا على الذهاب إلى حرب جديدة مع الإسكندر بقيادة جيش تألف بالدرجة الأولى هذه المرة من أتباعه وأنصاره الذين جاء بهم من أقاصي الشرق، غير أن إخفاقاته في ساحة الحرب بلغت حداً يفوق الاحتمال، فكان جزاؤه الإطاحة به من عرشه، ومن ثم القتل.

وحتى في تلك الحالة، لم تقف المقاومة التي كان يواجهها الإسكندر عند حد، بل تواصلت بقيادة بيسوس، الذي أجبره على خوض حرب معه في كل من باكتريا وسوغديانا. وسرعان ما انضم ساتيبارزنس (الذي كان الإسكندر قد عيّنه حاكماً لمقاطعة آريا Areia) إلى جانب بيسوس، وتعرض الإسكندر كثيراً لهذا النمط من أعمال الخيانة والغدر مرة بعد أخرى.

وفي بادئ الأمر، كانت للإسكندر اليد الطولى في باكتريا، كما رأينا في خيانة بيسوس كسباً لود الإسكندر؛ ولكن سبيتامينيس Spitamenes، الذي خلف بيسوس، كان أشد خطورة منه وأكثر دهاءً من الناحية التكتيكية. فقد استفاد من تضاريس المنطقة الصخرية

القاحلة المدمرة، التي هو وأتباعه أدرى كثيراً بشعابها من جيش الغزاة؛ ليجبر الإسكندر على خوض حرب عصابات قاسية ومعارك حصار دموية طال أمدها أكثر من سنتين. وقد تعين على الإسكندر عند ذاك التعامل مع كل هذه الصراعات، وكذلك مع حالات المعارضة والعصيان التي واجهته، سواء من جانب كبار ضباطه، أو جنوده العاديين؛ والتي تفجرت عام 326 عند وصوله نهر هيفاسيس، ما أرغمه على أن يعود أدراجه. ولو لم يكن جيشه قد تمرد عليه، لكان الإسكندر قد وصل إلى نهر الكنج؛ ولو لم توافه المنية في بابل، لكان قد غزا الجزيرة العربية.

وهكذا، فلم يحدث في وقت ما بعينه أن حكم الإسكندر بقعة جغرافية محددة واحدة؛ مثلما لم يحدث في أي وقت من الأوقات أن بدا قانعاً بحكم إمبراطورية ذات حدود ثابتة (كما تظهر حملاته العسكرية التي لم تتوقف يوماً) أو أن يركن أبناء الشعوب التي أخضعها جميعاً إلى السكينة والهدوء وتقديم الدعم له أثناء وجوده بينهم. ولا ريب في أن عوامل كهذه قد ضاعفت من صعوبة مهمته في إدارة إمبراطوريته بأسلوب ناجع وفعّال ومنتظم على المدى الطويل، وفي إقناع رجاله بمواصلة التقدم والقتال.[11]

لقد أدرك ملوك الفرس استحالة تمكن رجل واحد من بسط سلطته على مملكة كبيرة متنوعة الأعراق والأجناس كتلك التي أقاموها. ولعل هذا هو السبب الذي حدا بداريوس الأول (522–486) لتجزئة إمبراطوريته إلى عشرين مقاطعة إدارية satrapy، يتولى هو شخصياً تعيين مَرْزُبان (حاكم) لكل منها. وبصرف النظر عن الضرائب التي يدفعونها سنوياً للملك العظيم، ورفد الجيش الفارسي بالجنود من مقاطعاتهم، فإن حكام المقاطعات يمارسون سلطاتهم وصلاحياتهم كاملة فيها، على الرغم من أن الملك يقف على قمة الهرم الإداري، ويمارس حكمه بشكل مطلق.

ولم يكن نظام المقاطعات هذا ليظل قائماً إلا بفضل الاستقلالية النسبية التي حظي بها الحكام، واعترافهم بالملك العظيم. ومن جانبه، فحتى لو جاز للإسكندر أن يطلق على

نفسه لقب "سيد آسيا"، فهذا شيء مختلف للغاية عن كونه "ملكاً عظيماً"، وهو ما دفع بحكام المقاطعات إلى خوض المعارك ضده. ولربما كانت لدى الإسكندر الفاتح من الأسباب ما يدعوه للتشكيك بولاء هؤلاء الحكام له؛ بيد أنه كان مدركاً لأهمية هذا النظام، فقرر بالتالي الإبقاء عليه، وإجراء بعض التغييرات عليه.[12] وقام في المراحل المبكرة من حملته على آسيا بتنصيب عدد من قادته وأعوانه حكاماً للمقاطعات الغربية؛ ومنهم، على سبيل المثال: كالاس Calas (حاكماً لمقاطعة فريجيا هيليسبونت)؛ وانتيغونس Antigonus (مقاطعة فريجيا)؛ وأساندر Asander (مقاطعة ليكيا Lycia)؛ وبالاكروس Balacrus (مقاطعة كيليكيا Cilicia). ولكن حين أخذت إمبراطورية الإسكندر تتسع باتجاه الشرق، خاصة في أعقاب معركة جاوجميلا، بدأ بإفراد مواقع لأبناء العائلات الأرستقراطية الفارسية في مؤسساته الإدارية، فعين عدداً منهم حكاماً لمقاطعاته هناك؛ وفي مقدمتهم مازيوس Mazaeus الذي عيّنه في عام 331 حاكماً لبابل، إضافة لأبوليتس Abulites (مقاطعة سوسا)، وفراسورتس Phrasaortes (مقاطعة بيرسيس Persis)، وأرتابازوس Artabazus (مقاطعة باكتريا وسوغديانا). وكان يأمل أن تمهد خطوات كهذه الطريق لقيام نظام "انتقالي" جديد، وذلك من خلال إحباط اعتراضات هذه العائلات المتنفذة في مسعى منه للحد من نفوذها وقوتها. وهو، على أي حال، كان بحاجة إلى مثل هذه الشخصيات لما تمتلكه من دراية واسعة بلغات شعوبها وأعرافها وتقاليدها. ولربما كان السبب المهم الأخير الذي وقف وراء جعلهم جزءاً من الهرم الإداري الإمبراطوري هو قدرتهم على ترويض عامة الناس وحملها على القبول بحكمه، في إطار خطة تستهدف مساعدته في الحفاظ على احتلاله "سلمياً".

وبطبيعة الحال، تكمن المخاطر في أن الشعوب المقهورة لا يجب أن تترك لها حرية التصرف كيفما تشاء دون رقابة. ولم يكن الإسكندر ليتحمل تفجر عصيان آخر أو أن يسمح بحدوثه؛ ولذلك أجرى عدداً من التعديلات المهمة على نظام المقاطعات. وإذا كان الحكام المحليون لايزالون يمتلكون بعض الصلاحيات المدنية، وبوسعهم فرض

الضـرائب في مقاطعاتهم، فإنهم لم يعودوا سوى حكام فخريين، أو أكثر مـن ذلـك قلـيلاً، بعد أن صار الإسكندر يعين مواطنين مقـدونيين يتولـون مـسؤولية إدارة شـؤون الخزانـة والجيش في هذه المقاطعات؛ فباتت السلطة الفعلية - بالتالي - تتركز في أيدي رجالـه هـو. بل إن هذه التغييرات أسهمت في توسيع نطاق الخطوات التي اتخذها، كما حـدث في كاريـا Caria حيث بقي آدا Ada حاكماً للمقاطعة، إلا أن بطليمـوس Ptolemy هـو الـذي تـولى إدارة الشؤون العسكرية،[13] أو كما في مصـر حيث كان دولوسبيس Doloaspis، الفارسـي الأصل، حاكماً من النوع الرديء، ولكنـه كـان خاضـعاً لهيمنـة كليـومينس Cleomenes، الإغريقي القادم من مدينة نوكراتيس Naucratis، الذي استغل منصبه مسؤولاً عن جباية الضـرائب، والإشـراف على بناء مدينة الإسكندرية، كي يمسك بمقاليـد الـسلطة فعليـاً. وظل هذا النظام الجديد نافذاً طوال فترة حكم الإسكندر، مع أنه، عند عودته من الهنـد في عام 325، كان قد اضطر إلى معاقبة كثير ممن غدر به من حكام المقاطعات (وعدد من كبـار ضباط جيوش المرتزقة) بالموت؛ وتعيين أشخاص من أصول فارسية ومقدونية خلفاً لهـم؛ ومنهم مثلاً بيكستاس Peucestas الذي عيّنه حاكماً على مقاطعة برسـيس (وهـو المقـدوني الوحيد الذي تعلم اللغة الفارسية، واستوعب كثيراً من عـادات الفـرس وتقاليـدهم، مـا أشاع السـرور إلى حد كبير في نفوس السكان المحليين، بحسب أريان Arrian).[14]

ومع أن الإسكندر كان قد سمح لحكام المقاطعات بمواصلة جباية الـضـرائب، فإنـه عمل في الوقت نفسه على استحداث منصب أمين الخزانة عـلى المـستوى الإمبراطـوري في وقت ما قبل عام 331، أو خلاله. فكان رفيق صباه هاربـالوس Harpalus هـو مـن تـولى الإشـراف على خزائن الإمبراطورية وأموالها (ابتداءً بإكباتانـا أولاً، وانتهـاءً بمقـاره التـي أقامها في بابل). وفي ما يتعلق بجباية الضـرائب، فإن الإسكندر- على ما يبدو - قد وضـع المدن الإغريقية الخاضعة لإمبراطوريته في فئة خاصة؛ فكان فيلوزينوس Philoxenus هـو من تولى الإشـراف على الضـرائب الآتية من المدن التي تقع في آسيا الصغرى، أما بالنـسبة لمدن فينيقيا، فقد أناط هذه المهمة بكويرانوس Coeranus.[15]

وفي واقع الحال، فقد وجد الإسكندر نفسه محاصراً بين جنوده وضباطه الذين لم يتخيلوا احتفاظ العدو بمناصب ومراكز مهمة ومؤثرة، وبين حكام المقاطعات الذين كانوا بطبيعة الحال سيرفضون فقدان سيطرتهم على جيوشهم وخزائنهم. وعلى الرغم من أن المقدونيين قد استطاعوا، بما توافر لهم من قدرات عسكرية كبيرة، إخضاع الحكام المحليين للرقابة والسيطرة، فلم يكن مستغرباً أن يتخلى هؤلاء الحكام عن ولائهم للإسكندر عندما كان في الهند؛ وأن يعلن حاكما باكتريا وسوغديانا (في آسيا الوسطى) العصيان عليه في مناسبتين. وكانت الأولى قد عدت من المناطق المثيرة للمشكلات والمتاعب إلى حد أن الإسكندر، حين استقال أرتابازوس من منصبه في عام 328، قام بتعيين كليتوس، القائد المناوب لسلاح الفرسان، حاكماً لها. ولكن الإسكندر قتل هذا الأخير قبل توليه مهمات منصبه الجديد، ونصّب بدلاً منه مقدونياً آخر هو أمينتاس Amyntas، الذي سيقود أكبر فرقة من القوات التي يمكن أن تنتشر في مقاطعة واحدة.[16]

إن أعمال خيانة كهذه لابد أن تكون أيضاً من بين المظاهر التي لا تنفصل عن أي قوة إمبراطورية يقودها رجل واحد، اشتهر، إضافة لذلك، بكونه فاتحاً. وعندما يكون الإسكندر حاضراً بجيشه القوي، لم يكن التمرد عليه يعد خياراً مطروحاً. ولكن ما إن يغادر، حتى تختلف الحال. ولنا في باكتريا والهند خير شاهدين على ما نقول؛ ففي الهند كان الإسكندر قد عمل على تعزيز نفوذ وسلطات الأمراء الهنود المحليين الذين أعلنوا ولاءهم له، ومن بينهم الأمير تاكسيلاس Taxiles أحد أمراء منطقة شرقي السند، والأمير بوروس الذي سمح له الإسكندر، إثر معركة هيداسبس، بالاحتفاظ بسلطته (وإن كان قد تحول إلى مجرد إقطاعي تابع للملك المقدوني). ولكن حال رحيل الإسكندر عن الهند، عاد هؤلاء الحكام إلى ممارسة أساليبهم القديمة، ولا شيء يقدمونه له سوى المداهنة والولاء الزائف.

ويعرض أمامنا المؤرخ ديودوروس مقاربة أخرى أراد الإسكندر من خلالها إدارة شؤون إمبراطوريته. فعند تناوله ما سمّاه آخر خطط الإسكندر، يذكر أن الأخير كان يعتزم

تأسيس مدن يجعل منها موطناً لأناس يأتي بهم من آسيا وأوروبا وبالعكس، كي يجمع «القارتين الأضخم في بوتقة وحدة مشتركة ويقيم علاقة صداقة بينهما عبر الزيجات المختلطة والروابط العائلية».[17] ومع أن الإسكندر لم يشرع بتطبيق سياسته الرامية إلى "نقل البشر عبر الحدود"، إلا أنه أقام بالفعل عدداً كبيراً من المستوطنات البشرية ربما بلغ السبعين. ولكن أغلب هذه المستوطنات لم تكن مدناً حقيقية ذات كيانات ومؤسسات متطورة، ومبانٍ للألعاب الرياضية، ومسارح، وما إلى ذلك من مكونات المدن ومقوماتها. لكنها كانت حاميات ومواقع عسكرية مضافة، غالباً ما يقيم فيها جنود وسكان محليون، بقصد إحكام السيطرة على منطقة معينة.[18] وأغلب الظن هو أن الإسكندر لم يؤسس أكثر من عشر مدن حقيقية، أكثرها شهرة هي الإسكندرية في مصر.[19]

وفي الحقيقة، فإن بناء المدن لدوافع استراتيجية ليس جديداً؛ فقد كان الملك فيليب الثاني قد فعل الشيء نفسه في عام 345 على امتداد حدود بلاده الشمالية-الغربية التي تفصله عن قبائل إليريا Illyria. ولعل في توجه الإسكندر ليحذو حذو والده في هذا الخصوص ما يوحي لنا بأنه قد خلص إلى أن تنصيب حكام محليين للمقاطعات قد لا يكون كافياً لاسترضاء الشعوب التي أخضعها لإمبراطوريته، واستمالتها إلى جانبه. فوالده كان قد غزا بالفعل مواطن تلك القبائل الإليرية، على اختلافها وتعددها، وتمكن من توحيد الدولة المقدونية، وألحق أبناء هذه القبائل بجيشه الذي كان قد أنشأه حديثاً، لكنه، مع ذلك، كان مجبراً على مراقبتهم ورصد تحركاتهم طوال فترة حكمه.[20] لذا، فالإسكندر لم يكن بوسعه التسليم بأن الترتيبات التي اتخذها في ما يتعلق بالحكام المحليين ستفي بالغرض الذي حدده لنفسه.

ومن هنا، فقد حرص على بناء كثير من المستوطنات، التي تتكون أساساً من الحاميات والثكنات العسكرية المنتشرة فيها، في عموم أرجاء إمبراطوريته، خاصة في الأماكن التي يتوقع مواجهة المعارضة الأشد فيها، ولم يكن مستغرباً أن تتركز الأعداد الأكبر منها في

النصف الشرقي من الإمبراطورية. ومع ذلك، فقد ثبت عدم جدوى هذه المستوطنات في مقاطعتي باكتريا وسوغديانا.[21]

مهدت هذه المستوطنات الطريق أمام النشاطات التجارية وإقامة وسائل الاتصالات، مع أنها لم ترتق إلى مستوى الازدهار الاقتصادي إلا بعد عهد الإسكندر. لذا، فلم تتحول الإسكندرية إلى مركز ثقافي وقوة اقتصادية إلا إبّان العصر الهيلينستي، بعد أن اتخذها بطليموس الأول عاصمة له.[22] وكانت الميّزة الحقيقية لتوظيف المدن في إدامة السيطرة على الإمبراطوريات المترامية الأطراف قد اتضحت في أوضح صورها على أيدي حكّام سوريا السلوقيين. ولم يكن من قبيل المصادفة أن سلوقس Seleucus، أول هؤلاء الحكّام، وأول من اتخذ من بناء المدن سياسة ثابتة له، كان واحداً من قادة الإسكندر؛ ويبدو أنه قد تعلم الدرس على أفضل وجه!

ويتحدث ديودوروس أيضاً عن "الوحدة المشتركة" بين نصفي إمبراطورية الإسكندر، شرقيها وغربيها، وعن "الزيجات المختلطة". ومن الجائز أن هذا النمط من التوجهات والتصرفات، معززاً بصورة الفيلسوف "المثالي" المذهب، التي يرسمها بلوتارك للإسكندر في كتابه المعنون **حول حظوظ الإسكندر أو فضائله** *On the Fortune or the Virtue of Alexander*، قد يدفع بالمرء إلى الظن بأن الإسكندر كان يتطلع لتأسيس رابطة "للأخوة بين البشر" ليتخذ منها أداة لإدارة شؤون إمبراطوريته. وهناك، بطبيعة الحال، من المزايا ما يضفي الأهمية والجدارة على سياسة يراد بها جعل السلطة الحاكمة مقبولة لدى عامة الناس، لا عن طريق فرضها قسراً، بإشاعة مبادئ المساواة والتشاركية بين الجميع. وفي واقع الأمر، فقد كان في بعض تصرفات الإسكندر وتحركاته خلال فترة حكمه ما يقوي الاعتقاد بأنه كان يبذل كثيراً من الجهد لتحقيق مثل هذه المساواة. ولعل أبرز ما فعله في هذا المضمار كان دمج عناصر أجنبية في مؤسساته العسكرية والإدارية؛ وزواجه في ربيع عام 327 من روكسانا، إحدى أميرات مقاطعة

باكتريا؛ وسعيه لفرض تطبيق تقليد "التكريم" الفارسي الأصل في بلاطه (السجود للملك)، وإقامة زواج جماعي في سوسا عام 324 جرى خلاله عقد قران تسعين من كبار موظفيه على نسوة فارسيات ينتمين إلى طبقة النبلاء، وأخيراً إقامة مأدبة عامة في العام نفسه لإصلاح ذات البين بين الأطراف المتخاصمة في أوبس، وهي التي أدى الصلاة خلالها من أجل إحلال الوفاق بين الجميع.

وبرغم كل ما تقدم، فليس هناك على أرض الواقع شيء اسمه "سياسة" يمكن أن تنسب للإسكندر تدعو إلى تحقيق "وحدة البشر"؛[23] وليس بين تحركاته التي سبق ذكرها ما يمكن وصفه بالأيديولوجي من حيث الغرض المتوخى منه، بل هي جميعها تحركات براغماتية، كما هو الإسكندر نفسه، ولم تكن لتختلف بشيء عن سياسة بناء المدن بهدف الحفاظ على السيادة المقدونية. فالعناصر الأجنبية التي ضمها إلى جيشه (مثل الوحدات المتخصصة التي جاء بها من إيران، وفرق الفرسان التي أتت من باكتريا) كانت قد أبقيت معزولة في تشكيلاتها التي أنشئت على أساس عرقي حتى عام 324 حين قرر دمجها في صفوف جيشه لأسباب تكتيكية صرف قبل انطلاق حملته لغزو شبه الجزيرة العربية.[24] وكما أشرت قبلاً، فإن المَرْزُبانات (حكام المقاطعات الفرس) المحليين لم يكونوا سوى حكام صوريين، وما مُنح للعائلات الكبيرة المتنفذة من مراكز اجتماعية مهمة طلباً لدعمها وتأييدها لم تكن لتضاهي مراكزها الرفيعة السابقة إلا قليلاً.

وبالنسبة إلى الإسكندر، فربما كانت روكسانا هي «الأنثى الوحيدة التي أحبها»، ولكن زواجه منها كان زواجاً سياسياً بالتأكيد.[25] فوالدها أوكسيارتس كان من ألد خصوم الإسكندر ومعارضيه؛ ولعل هذا الأخير كان يأمل من زواجه من ابنته أن يضمن له وقوف الأب إلى جانبه، ومن ثم استسلام باكتريا له. وفي هذا الاتجاه، عيّنه الإسكندر حاكماً على مقاطعة بارابامسادي Parapamisadae. إذاً، فزواج الإسكندر لم يختلف عن زيجات والده الست السابقة التي أراد بها توطيد الأمن عند حدود مقدونيا، والحصول على

وريث لعرشه. وقد رزقت روكسانا بوليد مات في هيداسبس عام 326؛[26] ما كان حافزاً للإسكندر ليعقد قرانه في عام 324 على أميرتين فارسيتين، أملاً في تقوية ركائز حكمه، وإنجاب ورثة له، فيما هو يستعد لغزو شبه الجزيرة العربية (أصبحت روكسانا حاملاً بعد ذلك بوقت قصير).

من جانب آخر، تسببت طقوس "التكريم" في إقامة حاجز بين الفرس والإغريق الذين اعتبروا أنها أشبه بطقوس العبادة. وقد بدا الإسكندر، وهو يحاول تطبيقها على رجاله قسراً، كأنه يسعى لصياغة شكل من أشكال "مدونات السلوك" الاجتماعية التي تناسب أعراقاً مختلفة، أي جعل الشرق يلتقي بالغرب. وعلى أي حال، فالإسكندر قد تمت تنشئته وفقاً لمفاهيم الإيمان بالآلهة التقليديين، ولم يتوقف - وقد صار الآن ملكاً - عن أداء التضحيات الدينية التقليدية حتى آخر أيام حياته. لذلك فهو لابد قد أدرك أن جنوده يرون في هذه الطقوس ممارسات تجديفية. بل حتى إن طريقة أداء هذه الطقوس لم تكن مقبولة؛ فالإغريق غالباً يؤدون صلاتهم وقوفاً رافعين أذرعهم إلى الأعلى، بينما يستلقي العبيد على الأرض. وبالتالي، فلعل الأكثر ترجيحاً هو أن الإسكندر بات الآن ينزع إلى وضع نفسه في مصاف الآلهة، وأن هذه الطقوس تمثل انعكاساً لنزوعه هذا.

وعلى الرغم من الرمزية الواضحة التي انطوت عليها الزيجات الجماعية التي عقدت ما بين أعراق وأجناس مختلفة، فإن من المهم التأكيد على أنه لم يحدث أن جيء بنسوة إغريقيات من بلادهن لتزويجهن من نبلاء آسيويين، وهو ما كنا نتوقع حدوثه لو كان الإسكندر صادقاً في سعيه لصهر الأعراق في بوتقة زيجات مختلطة كهذه. وما كان الإسكندر يفعله حقيقة هو "تلويث" للسلالات كي يضمن أن لا أحد من ذرية هذه الزيجات سيطالب يوماً ما بالعرش الفارسي. ولابد أن نضيف هنا أن رجاله أنفسهم كانوا ضد هذا الزواج، حتى إنهم طلقوا زوجاتهم جميعاً بعد موته، باستثناء سلوقس.

أخيراً، وبالعودة إلى الصلاة التي أداها الإسكندر طلباً لإحلال الوئام والانسجام إثر حادثة العصيان التي وقعت في أوبس، فإنه لم يتمكن من وضع حد لهذا العصيان إلا باستغلال الكراهية التي يضمرها رجاله للفرس. وفي مأدبة المصالحة التي أقامها مساء اليوم نفسه، بدا واضحاً أن ترتيب أماكن الجلوس أريد به التأكيد على تفوق الغزاة وأفضليتهم؛ فقد جلس المقدونيون إلى جوار الإسكندر، ومن بعدهم الإغريق، ثم الآخرون سواهم جميعاً. وعلاوة على ذلك، فقد أقام تلك الصلاة تضرعاً لتقوية أواصر الوحدة بين صفوف قواته، وليس وحدة أبناء البشر؛ لأن آخر ما كان يتمنى حدوثه، فيما هو يخطط لغزو شبه الجزيرة العربية، نشوب النزاع والخلاف بين جنوده.

وفي إحدى نصائحه للإسكندر، يوصيه أرسطو؛ معلمه ومرشده الشخصي مذ كان في الرابعة عشرة من عمره، أن «يعامل الإغريق وكأنه قائد لهم، ويعامل غيرهم وكأنه سيدهم. وأن يحترم الإغريق احترامه لأصدقائه وأفراد أسرته، وأن يتصرف حيال غيرهم على أنهم مجرد نباتات أو حيوانات».[27] وإذا كان لأرسطو دوره في إثارة الفضول العلمي عند الإسكندر ما دفعه للتعرف إلى ثروات المناطق التي يرتحل عبرها وموارد ها الطبيعية،[28] فإن الإسكندر، في جانب آخر، لم يعمل وفقاً لنصيحة معلمه في ما يتعلق بالتعامل مع رعاياه من الآسيويين. وكان يعلم في الوقت نفسه أن عليه التعامل مع أبناء الشعوب التي يخضعها لحكمه بشك وريبة؛ ومن هنا، فإن أسباباً سياسية كانت تقف وراء أي شيء يفعله.

وثمة جانب آخر يمكن أن يسلط الضوء على طبيعة علاقة الإسكندر بالشعوب المقهورة، وما يرتبط بها من رغبة في الحفاظ على إمبراطوريته، وذلك هو نشر الثقافة الإغريقية. فـ "الهيلينة" Hellenization أمست مقوماً أساسياً من مقومات مقاربة بناء الدولة التي يتبناها الإسكندر. وهنا يجدر التنبيه إلى أن نشر هذه الثقافة بدا أمراً حتمياً إلى حد بعيد كنتيجة لزحف جيش الإسكندر عبر بقاع ومناطق جديدة، فيصبح سكانها

عرضة للتأثر بالأعراف والعادات والتقاليد اليونانية. وكان الإسكندر قارئاً شرهاً لمؤلفات هوميروس (خاصة **الإلياذة**) والتراجيديا الإغريقية (وكاتبه المفضل هو يوربيديس)، ويشاطره رجاله في اختياراته وميوله هذه. لذا، فعندما وصل الجيش المقدوني إلى صور عائداً من مصر، أقام الإسكندر مهرجاناً احتفالياً تكريماً لهيركليس Heracles، اشتمل على ألعاب ومباريات وعروض مسرحية. وكان بين المشاركين في المهرجان الممثلان الشهيران ثيسالوس Thessalus (الصديق الشخصي للإسكندر) وأثينودوروس Athenodorus؛ الذي لم يتردد في الإخلال بشروط عقد كان يلزمه بأداء عروض في مهرجان ديونيسيا Dionysis (في أثينا) المهم للغاية على الصعيد الثقافي، كي يذهب إلى صور، وبسبب ذلك جرى تغريمه، ولكن الإسكندر هو من دفع مبلغ الغرامة.

ولا ريب في أن رجاله لن يعيروا مثل هذا النوع من الأحداث والمناسبات الثقافية ما تستحقه من اهتمام، لكنها تركت تأثيرها في السكان المحليين. ومن المؤكد أن مساعي الإسكندر لتعزيز الثقافة الإغريقية ونشرها كان قد دفع بكتاب متأخرين، أمثال بلوتارك، لوصفه بمبشر الحضارة للشعوب الأجنبية.[29] ومع ذلك، فلعل هناك من يرى أن الترويج للثقافة الإغريقية لم يكن أحد نتاجات حملات الإسكندر الحربية، بل إنه كان قد اقتنع بأن ثمة منافع سياسية يمكن أن تتمخض عن التحولات الثقافية المحتملة، لكن المشكلة التي اقترنت بهذه العملية كانت تكمن في أنه لم يظهر كثيراً من التسامح حيال الأعراف والعادات والممارسات الدينية المحلية، بل كان يمنع إقامة تلك التي لا تحظى بقبول الإغريق لها، أو ما كان يكرهه منها شخصياً.

وعلى سبيل المثال لا الحصر، فقد أثار فزع الإغريق علمهم أن بلاد فارس تجيز زواج الأشقاء من شقيقاتهم، والأبناء من أمهاتهم.[30] ولكن ممارسات كهذه كان يمكن، من ناحية أخرى، التغاضي عنها، نظراً إلى أن المقدونيين كانوا يتبعون أعرافاً وعادات اجتماعية يعتبرها غيرهم من الإغريق منافية لتقاليدهم، ومنها بشكل خاص تعدد الزوجات.

(جرى لاحقاً في مصر إبّان حكم البطالمة تطبيق عرف يجيز زواج البطليموس من شقيقته، بدءاً بزواج الملك بطليموس الثاني فيلادلفوس Ptolemy II Philadelphus من شقيقته أرسينوي Arsinoë). أما عادات قبائل الإسكيثيين Scythians، المتمثلة في التخلص من آبائهم وأمهاتهم الكبار في السن بشكل ذبائح، وشرب دماء أول من يقتله الإسكيثي من بني البشر، واستخدام أكبر قدر ممكن من بقايا الجثث في حياتهم اليومية، فهي مسألة أخرى؛[31] شأنها في ذلك شأن العرف المتبع في مقاطعة باكتريا في ما يتعلق بكبار السن: «أولئك الذين يصيبهم الوهن والعجز بسبب التقدم في السن أو المرض يلقى بهم أحياءً فرائس لكلاب يتم الاحتفاظ بها خصيصاً لهذا الغرض؛ والكلب منها يسمى باللهجة المحلية "الحانوتي". وبينما تبدو الأرض الواقعة خارج أسوار مدن باكتريا نظيفة، فإن ما يقع منها داخل الأسوار مملوء بعظام البشر».[32]

ومع أننا نعتبر ممارسات كهذه مرعبة، كما اعتبرها الإغريق في ذلك الوقت، فإنها كانت تعد عرفاً تقليدياً محلياً، وبرغم ذلك، فإن هذا لم يمنع الإسكندر من وضع نهاية لها، من غير أن يعود عليه ذلك بأي نفع. وهكذا، فإن قرارات من هذا النوع تستهدف منع أعراف وممارسات اجتماعية راسخة الجذور هي التي يمكن أن تثير الاستياء والسخط في المناطق المعنية بها، وتشجع السكان المحليين على مقاومة المقدونيين، وتؤجج مشاعر الكراهية والعداء للإغريق. وقد اتضح هذا بوضوح عندما أقدم ملوك مصر البطالمة، على سبيل المثال، على إقامة حواجز تعزل المواطنين المصريين المحليين عن سائر شرائح المجتمع، وتمنعهم من تولي وظائف إدارية في مؤسسات الدولة، حتى تعاظم الإحساس بالاستغلال والاضطهاد إلى حد الانفجار إبان حكم بطليموس الخامس (221–203)، ما تسبب في انقسام مصر على نفسها في حرب أهلية أخضعت حكم البطالمة لاختبار قاسٍ للغاية.

وعلى صعيد آخر، ومع أن الإسكندر كان قد أبدى قدراً أكبر من التسامح حيال المعتقدات الدينية المحلية، فقد انتشرت في كل مكان تقريباً نظائر بديلة للآلهة الإغريقية.

ففي صور، مثلاً، اعتبر الإسكندر الإله [الفينيقي] المحلي ملقرت (أو ملك-قرت) Melqart متماهياً مع هيركليس. وفي سيوه، كان هناك وسيط ومهبط للوحي للإله زيوس-آمون؛ وفي نايسا Nysa (الهند)، عُدَّ الإله إندرا Indra (أو شيفا Shiva) نظيراً للإله ديونيسوس. وقد لا نكون بحاجة إلى القول إن العقيدة الدينية تمثل أداة عظيمة التأثير والفاعلية في تحقيق وحدة الهدف والتوافق في الآراء، غير أن الإسكندر استخدمها كيفما (وحيثما) وجد ذلك مناسباً، وإن هو لم يكن في كل الأوقات واعياً بشكل دقيق لما تمثله هذه العقيدة بالنسبة للشعوب على اختلافها. لذلك، فقد حرص وهو في ممفيس، عاصمة مصر، على تقديم أضحية للإله [الفرعوني] آبيس Apis؛ وفي بابل أعطى أوامره بإعادة بناء معبد بيل Bel الذي كان [الملك الفارسي] زركسيس قد أمر بهدمه. ويقرر في نايسا في عام 326 الإبقاء على حياة أبنائها (خروجاً على ما أصبح في ذلك الوقت منهجاً ثابتاً يقوم على الإبادة الجماعية لأبناء القبائل المحلية)، وذلك لأنهم زعموا انتسابهم لأولئك الذين رافقوا الإله ديونيسوس في رحلته عبر المنطقة، ولأن نايسا هو اسم ممرضة هذا الإله، ولأن الإسكندر كان قد اقتنع بأن نبتة اللبلاب المحلية، التي انتشرت في كل مكان، لابد وأن تكون رمزاً لديونيسوس.

وبرغم ذلك، فإن الإسكندر يبدو أحياناً قليل التبصر والتمييز إلى حد كبير. ففي عام 332، وبعد استسلام سكان مدينة صور له، أبدى رغبته في أداء الفرائض الدينية في معبدهم. وكان هذا المعبد للإله ملقرت، النظير المحلي لهيركليس أحد أسلاف الإسكندر الأوائل. ولأن المعبد ليس لهيركليس، بل هو لملقرت، فقد اعتبر أهل صور أن تعبُّد الإسكندر في معبدهم فيه تجديف وتدنيس له؛ فرفضوا ذلك طالبين منه التعبُّد في البر الرئيس قبالة المدينة (كانت صور في العصور الغابرة تقع على جزيرة وسط البحر). وبدلاً من الإقرار بالمكسب السياسي الذي حصل عليه تواً من استسلام أبناء المدينة له (كان من الضروري جداً بالنسبة للإسكندر بسط سيطرته على صور لمنع البحرية الفينيقية من استخدامها قاعدة لها)، والقبول بهذه التسوية بسبب طبيعتها الدينية، فقد اعتبر الإسكندر

هذا الرفض إهانة شخصية له. ولما استبد به الغضب، أصدر أوامره بمحاصـرة صور. وما إن سقطت المدينة بعد حصار طويل وشاق، أمر بقتل القسم الأكبر من ساكنيها، وبـاع مـا تبقى منهم عبيداً في سوق النخاسة. ولكي تُتخذ عبرة في أماكن أخرى قـد تنـتفض عليـه، فقد أمر بإقامة صلبان علقت عليها أجساد 2000 شخص على امتـداد سـاحل البحـر. ولم يؤد هذا إلا إلى زيادة حدة المقاومة ضده؛ فقد رفضت غزة، المدينة التالية التي توجه إليهـا، فتح أبوابها أمامه. ولكن المدينة سقطت بعد حصار لم يدم طـويلاً، وأنـزل بهـا الإسـكندر عقاباً قاسياً، بما في ذلك ربط باتيس Batis، قائد حاميتها، إلى عربة ظلت تجره حول أسوار غزة حتى مات.

بوصفه ملكاً أو حتى أحياناً قائداً عـسكرياً، لم يكـن الإسـكندر يخلـو مـن النقـائص ونقاط الضعف، ولكن هزيمته كانت مستحيلة. فهو، إذاً، يمثل «الإنجـاز الأعظـم الـذي صنعه بنفسه لنفسه».[33] ومع ذلك، فقد كـان مألوفـاً أن يعـزو الـبعض عيوبـه وأخطـاءه، بصفته ملكاً أو رجلاً عادياً، للخطط التي وضعها لبناء إمبراطوريته. ولم يكن لديه سياسـة اقتصادية واعية – إن لم يكن هذا المصطلح عصـرياً أكثر مما ينبغي – تغطـي الإمبراطوريـة بأسـرها؛ برغم أنه كان على دراية تامة بالثروات والموارد الاقتـصادية المتـوافرة في المنـاطق التي اجتاحها وتلك التي ينوي غزوها لاحقاً (ولا بد أن أحد أسـباب تطلعـه لغـزو شـبه الجزيرة العربية كان يكمن في تجارة التوابل التي اشتهرت بها). ولعل زحفه المتواصل باتجاه الشـرق (حتى أرغمه رجاله على أن يعود أدراجه) قد يدفع المرء إلى الاعتقـاد بأنـه لم يكـن يفقه شيئاً غير القتال.[34] وعلى ما يبدو، فـإن الإسـكندر كـان يفكـر مليـاً في كيفيـة معالجـة المشكلات التي واجهته، وإدارة شؤون إمبراطوريته على النحو الذي يبقيها خاضعة لحكـم المقدونيين. ولهذا الغرض، فقد اتخذ عدداً من الخطوات والتدابير الإداريـة، ومنهـا تفعيـل نظام حكم الولايات والمقاطعات وتحديثه، واستحداث منصب أمين الخزانة على مـستوى الإمبراطورية، وتوظيف أبنـاء العـائلات الأرسـتقراطية المتنفـذة في أجهزتـه ومؤسـساته الإدارية ليضمن دعمها ومؤازرتهـا لـه، بـل وصـار يرتـدي اللبـاس الفارسـي والعمامـة

المنتصبة التي كان يعتمرها قدامى الفرس (بعد مقتل داريوس الثالث في عام 330) كسباً لود أبناء بلاد فارس وتحبيب نفسه إليهم، وللحد بعض الشيء من خطورة التهديد المتمثل في كل من بيسوس وأرتازركسيس الخامس.[35]

ومن المؤكد أن هذه العوامل في مجملها تساعدنا على أن نرى كيف يمكن لإنجازات الإسكندر ومآثره، التي حققها قبل أكثر من ألفي عام، أن تسلط الضوء على المآزق والطرق المسدودة التي باتت تقترن بمشروعات بناء الدولة العصرية في عصرنا هذا. ومن السهل علينا التفكير في الطرق والوسائل التي كان سيمكنه من خلالها التقرب أكثر فأكثر إلى الشعوب التي أخضعها لحكمه وكسب ودها. وعلى سبيل المثال، ربما كان عليه بذل جهد أكبر لتفهم أعراف الشعوب الأخرى وتقاليدها وعقائدها الدينية وثقافاتها، ورعايتها بقدر رعايته لتقاليده ومعتقداته هو. وفي الوقت الذي بدا فيه وضع الشعوب الآسيوية على تماس مباشر مع الثقافة الإغريقية عملاً بارعاً إلى أبعد حد، فما كان ينبغي تجاهل ثقافات هذه الشعوب، أو عدم الإقرار بها، أو الانتقاص منها لا لشيء سوى اعتقاد الإغريق بأن ثقافتهم هم هي الأفضل (أياً ما كان يعنيه هذا). وما فعله الإسكندر (أو ما لم يفعله) يكشف لنا بوضوح أن معضلة بناء الدولة الغربية كانت قائمة في العصور القديمة بمثل قيامها اليوم. وعلى العكس من ذلك، فقد تكون المشكلات المزمنة التي واجهها الإسكندر في عملية بناء الدولة قد خلقت سابقة شاعت في القرون التالية وحتى عصرنا الحديث هذا، ولم يمكن حتى الساعة حسمها أو التغلب عليها.

ومن هنا، فلكي يقنع مقاتليه بمواصلة الزحف والفتوحات، ما يعني بالتالي مواصلة توسيع حدود الإمبراطورية، فقد كان مجبراً على إظهار المنافع والمكاسب التي يمكن لمشروع نشر الثقافة الهيلينية تحقيقها لشعوب الإمبراطورية الفارسية السابقة، إضافة لتلك الفوائد التي يمكن أن تجنيها مقدونيا (اقتصادية كانت أو غير ذلك) من فتح آسيا والحفاظ على السيطرة عليها. وبناءً عليه، فهذه المكاسب تستحق القتال – والموت – من

أجلها، على الرغم من أن الجيش لم يكن سيضيع فرص الفوز بالمنافع المادية من غنائم الحرب. وكان على الإسكندر - في الوقت نفسه - حمل المناطق التي يغزوها على تقبل حكمه والتكيف معه، ليتمكن بذلك من تسيير شؤون إمبراطوريته بأدنى قدر من المقاومة والاعتراض. ومع ذلك، فقد كان يمكن جذب هذه الشعوب من خلال التركيز على جوانب معينة من المقاربة التي تبناها لنشر الثقافة الهيلينية، وليس على حساب ثقافاتها هي، أو حريتها، وهي الأهم. وهنا لابد من التأكيد على أن مبادرات من قبيل توظيف أبناء العائلات البارزة القوية في تسيير مؤسساته الإدارية، والسماح لشخصيات محلية بشغل منصب حاكم المقاطعة (المَرْزُبان)، وإتاحة الفرصة للسكان المحليين بالانضمام إلى جيشه، وارتداء اللباس الآسيوي وتبنيه، تقع ضمن الطرق والسبل التي كان يمكن للإسكندر من خلالها أن يحظى بشعبية واسعة بين السكان المحليين في المناطق التابعة لإمبراطوريته.

ومع ذلك، فإن هذه الوسائل التي اتبعها أثارت نفور رجاله، وفي الوقت نفسه بدا هدفها واضحاً للسكان المحليين: فلم يكن هناك بين حكام المقاطعات المحليين من كان سيعتقد، ولو للحظة واحدة، أن لا شيء قد تغير منذ عهد الملك العظيم [الفارسي]. فحين يتولى المقدونيون حصراً مسؤولية القيادة العسكرية والخزانة في ولاية هذا الحاكم المحلي أو ذاك، فهذا يمثل رسالة تذكّره يومياً بأن نظاماً جديداً موجوداً. وبفضل انتصارات الجيش المقدوني المتواصلة، فإن مكانة الإسكندر سيداً لآسيا ظلت آمنة مضمونة. ولكن مشكلاته تزداد كلما ازداد ابتعاداً باتجاه الشرق بقصد توسيع حدود إمبراطوريته. فقد شكّلت المعارك الضارية التي خاضها في مقاطعتي باكتريا وسوغديانا نقطة تحول مهمة في علاقات الإسكندر بضباطه وجنوده، في كل جوانبها. فهؤلاء كانوا حتى تلك اللحظة موالين لمليكهم تماماً. ولكن المعارك التي نشبت في هاتين المنطقتين، والحملات التي شنها في الهند، والنزعة الاستشراقية التي استحوذت على الإسكندر، قد فرضت على جيشه من الأعباء ما هو أثقل مما ينبغي، وانعكس هذا في حركة العصيان التي اندلعت عند وصوله نهر هيفاسيس (بياس). وقد جاء هذا الحدث ليشير إلى تراجع قدرة الإسكندر على فرض

سيطرته على آسيا برمتها. إن نجاحاته العسكرية كانت أساس قوته، وليس نشر الثقافة الهيلينية ولا بناء الدولة. وقد ثبتت صحة ذلك من خلال الثورات التي قامت في الهند وباكتريا وسوغديانا حال رحيله عنها، وكذلك من التصرفات التي قام بها حكام الولايات وقادة الجيش وأمناء الخزينة في غيابه. ولعل ما يكتسب أهمية خاصة هنا هو أن بارمنيون نفسه كان، قبل اندلاع الحرائق في مدينة بيرسيبوليس، قد حذّر الإسكندر من مغبة ردة فعل عنيفة محتملة من جانب أهل المدينة جراء تدمير القصر فيها. ومع أن شيئاً من هذا القبيل لم يحدث، فإن عدم حدوثه لا يجب أن يعد دليلاً قاطعاً على القبول بحكم الإسكندر والتسليم به، ولا على عظمة قوة الجيش الفاتح عسكرياً.

لا أحد يريد أن يُغزى ويقهر؛ ولكن في النهاية، فالقوة العسكرية، وليس المفاهيم والمقاربات المثالية التي يمكن أن تديم للفاتح قوته وجبروته. ومع أن إمبراطورية الملك المقدوني قد قضت بانقضاء أجله، فإنها كانت في أغلب الظن ستؤول إلى مصير كهذا بأي حال من الأحوال. لقد أنشأ الإسكندر إمبراطورية لم يكن لها، في وقت من الأوقات، نظير أو منازع، ولكن ضخامة مساحتها وتنوع ثقافاتها ذاتها جعلا من المستحيل على رجل واحد، أو نظام واحد، أن يحكمها بفاعلية وكفاءة عاليتين. وقد يكون هذان العاملان سبب فشل محاولاته في المحافظة على إمبراطوريته واستمرارها. وفي الوقت نفسه، ففي غياب الإسكندر ما كانت سترى النور الممالك الهيلينستية العظيمة، والعواصم الثقافية التي أقيمت في الإسكندرية، وأنتيوك Antioch (أنطاكيا حالياً)، وبيرجاموم Pergamum. فهذه المراكز نشأت من رحم الحضارة الإغريقية التي بدأت مع ظهور الإسكندر، وتواصلت على أيدي الملوك الهيلينستيين، وتوضح ذلك من سهولة اجتذاب أعداد كبيرة من الإغريق من الغرب للعيش والعمل في إمبراطوريتي ملوك البطالمة في مصر والسلوقيين في سوريا (اللتين تم تأسيسهما من قبل جنرالات الإسكندر عند تفكك إمبراطوريته).

الفصل السادس

حروب المدن في العالم الإغريقي القديم

جون لي

مع حلول صيف عام 431 قبل الميلاد، وفي ليلة مطيرة مظلمة، اقتحمت مدينة بلاتيا الصغيرة وسط اليونان قوة مؤلفة من 300 رجل من مقاتلي طيبة. وقد مكنهم من دخولها أحد أبناء المدينة من الجناح الأوليغاركي الذي يحدوه الأمل في الاستيلاء على السلطة بدعم من طيبة. وفي ظلمة الليل الحالكة، توجهت القوة الغازية مسرعة نحو ساحة المدينة التجارية الرئيسة، لتصدر من هناك بياناً تقول فيه إن بلاتيا مدينة محتلة، وإن التصرف العقلاني الذي يجب القيام به هو القبول بهذه الحقيقة. لقد كانت بلاتيا وطيبة في وقت من الأوقات طرفي تحالف، وربما كان بوسعهما أن تتحالفا من جديد. وإذ استبد بهم الفزع وهم يرون جنود العدو في قلب مدينتهم، فقد قبل أبناء بلاتيا، في بادئ الأمر، بهذا الأمر الواقع. وبعد وقت قصير أدركوا قلة عدد جنود طيبة، وعندما تمكن سكان بلاتيا من حفر ممرات عبر جدران منازلهم المبنية من الطين، ووضعوا عرباتهم حواجز ومتاريس في شوارع مدينتهم، فقد صار بإمكانهم تطويق الغزاة. وفي غسق الفجر ضربوا ضربتهم. انطلق جنود بلاتيا في شوارع المدينة، فيما كانت النسوة والعبيد يرمون الغزاة بالحجارة وبقطع البلاط من على أسطح البيوت. ومع أن جنود طيبة، الذين أُخذوا على حين غرة استطاعوا الصمود بوجه هجمات ضارية عدة، فإنهم انهاروا في النهاية ولاذوا بالفرار، فيما كان أبناء مدينة بلاتيا يلاحقونهم. وإذ بدت الشوارع الملتوية غير مألوفة لجنود طيبة، وقطعت الأوحال والظلمة سبل الفرار عليهم، فقد تفرّقوا وهم في حالة من اليأس الشديد. وقد ظنت مجموعة منهم أنها وجدت مخرجاً، فدخلت خطأً مستودعاً للبضائع بجوار سور

المدينة ليتم تطويقها فيه. ولم يتمكن سوى بضعة رجال من شق طريق لهم إلى بوابات المدينة، فيما لقي آخرون مصارعهم في شوارعها. وما إن طلع النهار حتى كانت عملية الغزو قد انتهت بأكملها، حيث تناثرت جثث 120 من جنود طيبة في شوارع مدينة بلاتيا وبيوتها، وتمكن سكان المدينة من أسر 180 جندياً آخرين، قاموا بإعدامهم جميعاً خوفاً من تعرضهم لعمل خياني آخر.

وبفضل المؤرخ الأثيني ثوكيديدس، فقد دخل الصراع الضاري في بلاتيا كتب التاريخ ليشكل الفصل الافتتاحي لقصة الحرب البيلوبونيزية (431–404 قبل الميلاد) بين التحالفات المتصارعة التي أقامتها مدينتا أثينا وإسبارطة.[1] وكانت البراعة التي تميز بها ثوكيديدس في سرد الأحداث قد جعلت من الهجوم على بلاتيا الحدث الأشهر بين أحداث هذه الحرب. ومع ذلك، فإن الظاهرة الأهم التي جسدتها واقعة بلاتيا – وأعني بها الحرب الضارية التي دارت رحاها داخل أسوار المدينة – ظلت مهملة نسبياً من جانب الدراسات التي تناولت الحروب الإغريقية القديمة.[2] وبدلاً من ذلك، فقد راح الكتّاب والباحثون يولون جلّ اهتمامهم للمعارك التقليدية النظامية التي يحسب الطرفان لكل شيء فيها حساباً دقيقاً، والتي تدور رحاها عادة في ساحات قتال مفتوحة بين جيوش من المشاة من حملة الرماح (الهوبليت). وعلى نحو مماثل، فإن الدراسات التي تقصت التحصينات الدفاعية وعمليات الحصار قد تركزت على سبل إدارة الحصار وتصميم وسائله، وعلى الصراعات التي تنشب من أجل السيطرة على أسوار المدينة، وليس على المعارك التي تندلع داخل المدن نفسها.

ومع ذلك، فإن العمليات القتالية التي تدور في المناطق الحضرية من اليونان القديمة لم تكن ظاهرة نادرة أو غير مألوفة. وفي واقع الحال، فإن المدن المهمة في هيلاس Hellas [الاسم القديم لليونان]، بما في ذلك أرغوس، وأثينا، وكورينث، وإسبارطة، وطيبة، كانت جميعاً قد شهدت خلال الفترة 500–300 قبل الميلاد حروباً رئيسة ضمن حدودها. بل إن

بعض الصدامات الفاصلة الأشد ضراوة في العصور الغابرة كانت قد اندلعت في مناطق حضرية. وكان النظام الديمقراطي في أثينا قد ولد من رحم ثورة شعبية انطلقت من أحياء حضرية بين عامي 508 و507 قبل الميلاد ضد حكومة النظام الأوليغاركي وأنصارها الإسبارطيين. وفي أعقاب الحرب البيلوبونيزية، وعندما اغتصبت السلطة زمرة عرفت باسم "الطغاة الثلاثين"، لم يكن بالإمكان استعادة الديمقراطية إلا بعد نشوب حرب أهلية تخللتها معارك حامية في ميناء بيريوس في أثينا. ولم يكن بإمكان أبناء طيبة التحرر من نير هيمنة إسبارطة إلا عبر انتفاضة شعبية انطلقت عام 379 قبل الميلاد من مناطق حضرية، ومكنتهم من بسط هيمنتهم على اليونان، والتي لم تدم طويلاً. واستطاع جيش طيبة، خلال الفترة ذاتها، أن يهاجم إسبارطة مرة في شتاء 370-369، وأخرى في عام 362، حيث كاد في تقدمه أن يصل إلى قلب مدينة إسبارطة. ومن جانبه، أمكن للإسكندر المقدوني أن يقضي على قوات مدينة طيبة عبر قتال وحشي في شوارعها، قبل أن يسوي المدينة بالأرض في عام 335 قبل الميلاد.

وشهدت المناطق الشرقية والغربية من العالم القديم هي الأخرى حروباً دارت داخل المدن. ففي أثناء أولى معارك التمرد الأيوني للفترة 499-494 (التي ستؤدي في آخر المطاف إلى نشوب الحروب اليونانية-الفارسية) ومعارك ماراثون، وثيرموبيلاي، وسلاميس، قامت قوات الأيونيين اليونانيين وحلفائهم الأثينيين باجتياح ساردیس، العاصمة الفارسية الإقليمية ونهبها.[3] وخلال عامي 401 و400 قبل الميلاد، خاض مرتزقة قورش، الذي يروي زينوفون قصتهم في كتابه **الصعود** *Anabasis*، معارك داخل المدن أثناء تقهقرهم من بلاد ما بين النهرين باتجاه بيزنطة.[4] وفي صقلية، كانت سرقوسة، ومدن عدة غيرها، مسرحاً لحروب حضرية تكرر نشوبها ما بين ستينيات القرن الخامس وخمسينيات القرن الرابع.[5]

وعلى مدى 25 قرناً منذ معركة بلاتيا، لم تغب ساحات المعارك الحضرية عن أذهان المخططين الاستراتيجيين والقادة الميدانيين.[6] وعلى الرغم من المجازر التي اقترنت بحروب

المدن المعاصرة التي دارت رحاها في مدن، مثل ستالينغراد وبرلين وهوي Hue [فيتنام] ومقديشو وغروزني، فإن مشهد الحروب الحضرية كثيراً ما تلاشى في العقود القليلة الماضية في الوعي العسكري. ومثلما كان اليونانيون القدامى يولون أهمية قصوى للمعارك الفاصلة التي يخوضها المشاة من حملة الرماح (الهوبليت)، فإن كثيراً من الجنود المعاصرين يفضلون التفكير بالمعارك التقليدية التي تدور بين جيوش ضخمة العدد في ساحات حرب واسعة ومفتوحة. ومع ذلك، ففي نهاية العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، عادت حروب المدن لتصبح من جديد هاجساً ومبعث قلق ملحاً. وقد أضحى التورط الأمريكي في العراق - حيث تبدو القوات الغربية التي تم تدريبها وتجهيزها لخوض معارك مفتوحة بطيئة في التكيف مع تحديات القتال في مناطق حضرية واحتلالها - أحد العناصر الحاسمة لأي تقييم وفهم جديدين لحروب المدن. وفي عالم مليء بوسائل الاتصال المتلفزة الفورية، بات المتمردون والإرهابيون على وعي لا بالمزايا التكتيكية لجر القوات التقليدية الغربية للقتال داخل المدن فحسب، بل وما يحققه ذلك من قيمة دعائية، نظراً إلى أن هذه القوات لابد أن تقدم على قتل مدنيين أبرياء. والمسألة لا تتعلق بالعراق وحده؛ إذ إن قرابة نصف سكان هذا الكوكب يعيشون في المدن، في وقت لا يلوح خلاله في الأفق أي مؤشر إلى تراجع وتيرة توسع رقعة المناطق الحضرية على المستوى العالمي.[7] وبمرور سنوات هذا القرن، فإن المشكلات ذات الصلة بالمعارك التي تدور في المناطق المأهولة المكتظة بالمباني ستظل تشغل بال المفكرين والمخططين العسكريين.

وما بين بلاتيا والفلوجة، فمن البديهي أن تتغير طبيعة الجيوش والمدن التي تدور فيها المعارك. وعلى أي حال، فرغم الفوارق والاختلافات الكثيرة في التضاريس، والتقنيات المستخدمة، والثقافات التي تفصل ما بين العصور القديمة والقرن الحادي والعشرين، فإن دراسة حروب المدن الإغريقية القديمة لا تسلط الضوء على تاريخ الحروب في تلك العصور فحسب، بل وتقدم أيضاً منظوراً جديداً لرؤية الحاضر من خلاله. ويشتمل هذا الفصل على مدخل للتعريف بالتقاليد والأيديولوجيات التي اقترنت بحروب المناطق

الحضرية في العالم الإغريقي القديم، ثم نلقي نظرة على مختلف أنماط المعارك والصدامات القديمة التي شهدتها هذه المناطق، ونتحول إلى تقصي طبيعة المدينة القديمة من حيث كونها ساحة حرب، وكذلك تقييم قدرات الجيوش القديمة في ما يتعلق بخوض عمليات قتالية داخل المدن. ويتيح لنا المزج بين تضاريس ميدان القتال ونوعية القوات المتحاربة امتلاك فهم أفضل لطبيعة حروب المدن القديمة، وتحليل موقع هذا النوع من الحروب في الفكر العسكري الإغريقي القديم. وسنسعى ختاماً إلى وضع هذه التجارب القديمة في سياق تاريخي أوسع نطاقاً للوقوف على الدروس التي يمكن أن تقدمها للمخططين العسكريين والقادة الميدانيين المعاصرين.

أنواع معارك المناطق الحضرية

تحفظ لنا المراجع والمصادر الأدبية الكلاسيكية كثيراً جداً من أحداث حصار المدن والهجمات التي تستهدف أسوارها، فضلاً عن وصف لمحاولات اغتيال، وأعمال شغب، وحروب العصابات الإجرامية التي تجري على مستويات أقل داخل المدن. ومع أن هذه الظواهر تستحق الدرس والتقصي بحد ذاتها، نظراً إلى ما تنطوي عليه من سمات تميزها عن غيرها، فإننا سنولي جلَّ اهتمامنا هنا للصدامات المسلحة واسعة النطاق التي وقعت داخل أسوار المدن، حيث تتحدد تحركات المقاتلين وتصرفاتهم وفقاً لجغرافية المناطق السكنية وتضاريسها، وليس تحصيناتها الدفاعية. وفي إطار هذه المحددات، فإن المدونات القديمة تسرد عشرات الروايات عن حروب المدن؛ ومع أن معظمها يتسم بالإيجاز الشديد، إلا أنها تتيح لنا التمييز ما بين أنماط رئيسة متعددة لهذه الحروب.

النمط الأول من حروب المدن، يمكن أن تلجأ القوات الغازية إلى اختراق أسوار المدينة عن طريق مهاجمتها بصورة مباشرة، أو محاصرتها، أو من خلال عمل خياني، لتُباغَت بمواجهة مقاومة متواصلة، سواء في شوارع المدينة، أو بيوتها، أو ميادينها العامة. تعد هذه

من العمليات الأشد قسوة للقتال داخل المدن؛ إذ غالباً ما تفضي إلى القضاء بشكل مبرم على القوات المدافعة عن المدينة. ويمكن لنا هنا استحضار مدينتي بلاتيا (في عام 431) وطيبة (في عام 335) كأنموذجين اثنين فقط لهذا النوع من الحروب. وليس أي حصار أو هجوم يمكن أن يتطور إلى حرب تندلع داخل المدن، مهما كان ناجحاً؛ ففي بعض الأحيان قد لا تتمكن القوات المكلفة بحماية المدينة من الصمود طويلاً، خاصة إذا أخذت على حين غرة.[8] ومع ذلك، فإن العمليات القتالية التي تجري أثناء الاستيلاء على المدن كان تحدث بوتيرة أكبر مما تتحدث عنه النصوص والمؤلفات القديمة. وهنا، تمثل مدينة أولينثوس Olynthos في شمال اليونان، التي استولى عليها فيليب الثاني ملك مقدونيا صيف عام 348، حالة وثيقة الصلة بهذا الموضوع وتحمل كثيراً من الدلالات؛ فعلى الرغم من أن المصادر القديمة لا تتحدث إلا عن عدد من أثرياء المدينة قد خانوا أبناء مدينتهم، امتثالاً لرغبة فيليب الثاني، فإن عمليات التنقيب في بقايا مدينة أولينثوس كشفت عن وجود المئات من مقذوفات المقلاع المصنوعة من الرصاص، ورؤوس السهام، وغيرها من الأسلحة الأخرى. ويوحي انتشار هذه الأسلحة والأماكن التي وجدت فيها بأن القوات المقدونية كان لزاماً عليها إخضاع المدينة لسيطرتها منزلاً منزلاً.[9] ولعل التنقيبات القادمة عن الآثار ستكشف يوماً ما حالات لم يتم توثيقها من حروب المدن التي شهدتها الحقب القديمة.

ويتمثل النمط الثاني من حروب المدن في الصراعات الأهلية التي تندلع بين فئات متنافسة داخل المدن.[10] وصراعات كهذه يمكن أن تكون وليدة تنافس عائلات متنفذة، أو نتيجة لعداوات طبقية، أو جراء تورط قوى خارجية. فخلال الحرب البيلوبونيزية، كان العداء الذي استفحل بين جماعات موالية لأثينا وأخرى لإسبارطة سبباً لحمامات الدم التي شهدتها مدن بلاد الإغريق. فمثلاً، كانت مدينة كورسيرا Corcyra (في شمال غرب اليونان) مسرحاً لأبشع هذه الصراعات، وذلك أثناء الحرب الأهلية التي دامت سنتين فيها، فقد بدأت بصدامات مكثفة في مناطقها الحضرية وانتهت بالقضاء تماماً على

الطرف الخاسر وعائلاته.[11] وفي مدن أخرى، كانت هذه الصدامات الفئوية تبدأ عادة بمجازر في ساحات المدن التجارية الرئيسة.[12] وغالباً ما كانت الأطراف المهزومة التي أمكنها الفرار تعود إلى ميدان القتال لتجرب حظوظها مرة أخرى، ما يسفر عن اندلاع الصراع مجدداً في المدينة.

وقد تنشب حروب المدن هذه نتيجة محاولات حركات التمرد طرد المحتلين الأجانب خارج مدينتها. ففي عام 335 قبل الميلاد - على سبيل المثال - أعلن أبناء مدينة طيبة الثورة بوجه ثكنة عسكرية مقدونية كانت قد أقيمت في مدينتهم.[13] وفي حالات أخرى، فإن وجود حامية عسكرية أجنبية توفر الدعم لفئة تحكم في المدينة، يمكن أن يشعل فتيل انتفاضة تستهدف طرد القوات الأجنبية المتمركزة فيها والعناصر المتواطئة معها، على حد سواء. وتشكل ثورة أثينا في عامي 508-507، وانتفاضة طيبة في عام 379، نموذجين لمثل تلك الحالات. ففي كلتا الحالتين، سمح الثوار المنتصرون لأفراد ثكنات العدو بمغادرة المدينة بموجب هدنة توصل إليها الطرفان. وعلى الرغم من أن حدوثها لم يكن مستغرباً في العالم القديم، فقد تسارعت وتيرة وقوع انتفاضات من هذا النوع إبّان الحقبة الهيلينية (323-30 قبل الميلاد) التي شاعت خلالها إقامة الثكنات العسكرية الأجنبية على نطاق واسع.

وبين الآونة والأخرى، يتسبب الغزو أو الحرب الأهلية في وقوع مواجهة داخل حدود مدينة ما بين الجيوش أو الفصائل المتصارعة فيها، والتي لم يستطع أي منها إحكام قبضته كلياً على المدينة. وهو ما حدث بالفعل خلال المراحل الأولى من الحرب الأهلية في مدينة كورسيرا، حيث أمكن للأوليغاركيين وللديمقراطيين، كل من جانبه، فرض هيمنته على أحياء مستقلة من المدينة خاضوا فيها على مدى أيام معارك شوارع شديدة.[14] وإذا كان أمد أغلب المعارك التي تدور في المناطق الحضرية يمكن قياسه بساعات أو أيام، فإن هذا النمط من الصراعات يمكن أن يصبح مزمناً، وفيه يتم تقسيم المدينة على نحو يكاد يكون

دائماً بين الأطراف المتحاربة، التي ربما قد تلجأ إلى إقامة تحصينات دفاعية داخلية يحتمي بها كل طرف من الآخر. وفي السنوات الأولى من الحرب البيلوبونيزية، شهدت مدينة نوتيوم Notium في آسيا الصغرى أنموذجاً لتقسيم المدن على هذا النحو، عندما تحصنت جماعتان، دانت إحداهما بالولاء لأثينا والأخرى للفرس، داخل مواقع حصينة في أحياء مستقلة من المدينة.[15] وعلى النحو نفسه، جرى أواخر ستينيات القرن الخامس قبل الميلاد شطر مدينة سرقوسة بين مواطنين من أبناء المدينة ومجموعة من المرتزقة الأجانب، الذين دأبوا على خوض معاركهم لسنوات عدة داخل المدينة وفي المناطق المحيطة بها.[16]

هذه الوقائع والأحداث تقدم، بأي حال من الأحوال، وصفاً دقيقاً للاشتباكات الكلاسيكية في المناطق الحضرية. وفي واقع الأمر، فإن بعض هذه المعارك شهد اتباع مزيج من الأساليب والوضعيات. وعلى سبيل المثال، ففي عام 369، كان لزاماً على أجيسلاوس، ملك إسبارطة، أن يحمي مدينته من هجمات قوات طيبة، وأن يخمد في الوقت ذاته تمرداً قادته مجموعة من الإسبارطيين الذين انشقوا عليه.[17] وفي عام 335، كان سكان طيبة نفسها قد نجحوا لتوهم في تحرير مدينتهم من هيمنة الحامية المقدونية المتمركزة فيها ليجدوا أنفسهم في مواجهة هجوم خارجي يشنه عليهم جيش الإسكندر الأكبر نفسه. وعلى أي حال، فأياً تكن الطريقة التي بدأت بها، فإن طبيعة حروب المدن وأشكالها كانت جميعاً تتحدد وفقاً لخصائص المدينة الإغريقية القديمة وسماتها المميزة.

ساحات المعارك في المدن

تعد الدويلة *polis*، والتي تترجم أحياناً إلى المدينة-الدولة، البنية السياسية المميِّزة لليونان القديمة.[18] وبالمعنى المادي، فإن المدينة-الدولة التقليدية تتألف من مستوطنة حضرية مسوَّرة، ومحاطة بمنطقة ريفية داخلية. ويتم بناء مركزها حول قلعتها الرئيسة التي تحتل موقعاً مرتفعاً يمكن الدفاع عنها. وتقام ضمن أسوارها المعابد، والمباني العامة،

والميدان التجاري الرئيسي، والمساكن الخاصة. وفي القرن الرابع قبل الميلاد، كانت دويلات مثل مانتينيا، وميجالوبوليس، وميسينيا، قد اشتملت داخل تحصيناتها الدفاعية على حقول مفتوحة، وأخرى لزراعة المحاصيل الزراعية؛ غير أن وجود مثل هذه الفضاءات الدائرية الشكل داخل المدن يعد ظاهرة استثنائية، على الرغم من أن ضواحي الدويلات كانت في أماكن أخرى تمتد إلى ما وراء أسوارها.[19] وثمة دويلات كبيرة ضمت بلدات أو قرى صغيرة في مناطقها الريفية الداخلية. وغالباً ما أمكن لأخرى تقع على مقربة من البحر، وليس عليه مباشرة، بناء مرافئ خاصة بها. وباستثناء ميناء بيريوس، الذي اتسع ليتحول إلى مدينة كبيرة، فلم يتسن لأي من هذه المستوطنات الفرعية مطلقاً الارتقاء إلى حد مضاهاة المراكز الحضرية الرئيسية، سواء من حيث الحجم أو الأهمية.

ووفقاً للمقاييس العصرية، فإن هذه الدويلات تعد كيانات صغيرة. وعلى سبيل المثال، فإن أكروبول مدينة هلاي Halai، التي تقع وسط اليونان، لم تزد مساحته على 160 متراً طولاً و70 متراً عرضاً، فيما بلغت مساحة المدينة المسورة كلها 0.85 هكتاراً (2.1 فدان) لا أكثر.[20] وربما لم يتخط عدد سكان هذه المدينة بضعة آلاف شخص. أما أثينا فقد مثلت حالة استثنائية بتعداد سكانها الذي بلغ مئات الآلاف من أثينيين أصليين وأجانب وعبيد. ومهما كان حجمها صغيراً أم كبيراً، فاليونانيون في معظمهم كانوا يقيمون في المناطق الريفية من دويلاتهم وليس في مركزها.

وبشكل عام، فإن جدار المدينة الدائري هو الذي يحدد مساحة فضائها الحضري.[21] ولم يبدأ اليونانيون ببناء أسوار محصّنة بصورة جدية إلا في القرن السادس قبل الميلاد. وبانتهاء العصور القديمة، لم تكن هناك مدن تخلو من أسوار كهذه إلا حفنة من الدويلات الرئيسية، وفي مقدمتها إسبارطة. وقد جرت العادة على استخدام القطع الحجرية الضخمة في بناء معظم هذه الأسوار، وإن كان الآجر والصلصال وقطع صغيرة من كسارة الحجارة وبقاياها قد استخدمت أيضاً. وكانت عملية تنظيم الدخول إلى المدينة تتم عبر بواباتها التي

تقام الأبراج على جانبي كل منها. وأحياناً، تكون لها مداخل يتم بناؤها بشكل دقيق ومحكم، وثمة أبراج ومواقع محصنة إضافية كانت تبنى على امتداد الأسوار لتوفير مواضع للقوات المدافعة عن المدينة.

وتبدأ حدود الميدان الفعلي لأي حرب حضرية داخل أسوار المدينة، وإن كان هذا لا يلغي جدوى هذه الأسوار. فحتى لو أنها لن تحول دول دخول القوات الغازية إلى المدينة، فإن الأسوار يمكن أن تتحول أثناء عمليات القتال إلى عوائق ذات تأثير مضاد، مثلما جرى في مدينة بلاتيا، حيث حالت أسوارها دون فرار كثير من قوات مدينة طيبة الغازية.[22] أضف إلى ذلك، أن الحواف الداخلية لأسوار المدينة يمكن أن توفر عوائق دفاعية خلفية تستطيع عندها القوات المشاركة في معارك المدن إعادة تنظيم صفوفها. ويمكن لبوابات المدينة أن تؤدي أيضاً دورها كمنافذ مهمة لإيصال التعزيزات العسكرية. ففي تيغيا Tegea في 370–369 قبل الميلاد، مثلاً، اضطرت الجماعتان اللتان تصارعتا من أجل الاستيلاء على المدينة إلى التراجع صوب مناطق متقابلة من المدينة بعد خوض المناوشات الأولية في ما بينهما. فقد تراجعت القوات الموالية لاتحاد أركاديا حتى البوابات المؤدية إلى مانتينيا شرقاً، حيث كانت تأمل هناك تلقي تعزيزات إضافية. أما خصومها فقد تجمعوا عند البوابات المؤدية إلى بلانتيون Pallantion في الطرف الآخر من المدينة، وبعد أن جرى تعزيز الأركاديين بقوات جديدة، سارع أعداؤهم إلى الفرار غرباً عبر هذه البوابات.[23]

وإلى جانب ما تقدم، فإن القلاع المحصّنة داخل المدن يمكن أن تسهم هي الأخرى في تحديد مسار المعارك. ومع أن المدن اليونانية في معظمها ليس لإحداها سوى قلعة حصينة (أكروبول) واحدة، فإن المدن الكبيرة منها يمكن أن تضم العديد من المواقع المنيعة القوية. وعلى سبيل المثال، فإن أثينا، وإلى جانب حصنها الشهير (الأكروبول)، كانت قد أقامت قلعة فوق تل موسيون Mouseion، القريب من هذا الحصن، وأخرى على تل مونيتشيا Mounichia، في ميناء بيريوس.[24] ويمكن للقوات المدافعة عن المدينة، التي تحكم سيطرتها

على قلعتها، أو أي موقع حصين آخر، أن تستخدمه كنقطة انطلاق لشن هجمات مضادة. وقد نتخذ من مدينة سرقوسة أنموذجاً بارزاً؛ وذلك عندما كانت في خمسينيات القرن الرابع قبل الميلاد مسرحاً لهجمات متكررة عليها شنتها قوات المرتزقة التابعة لديونيسوس الثاني Dionysus II، انطلاقاً من جزيرة أورتيجيا Ortygia الشديدة التحصين، ضد سائر أحياء المدينة.[25] ومع ذلك، فإن السيطرة على قلعة المدينة لم تضمن بسط الهيمنة على هذه المدينة أو تلك. وفي أثينا، على سبيل المثال، نجح الثوار من عامة الناس، خلال عامي 508 و507 قبل الميلاد، في تطويق قوات النظام الأوليغاركي الحاكم والإسبارطيين المساندين له داخل قلعة المدينة.[26] وفي عام 499 قبل الميلاد، تمكن الفرس من الاستيلاء على قلعة ساردیس، بيد أنهم عجزوا عن الحيلولة دون قيام الأثينيين والأيونيين باكتساح المدينة عند السفح ونهبها.[27] وعندما تمكن جنود مدينة طيبة في عام 335 من استعادة سيطرتهم على مدينتهم، فقد فرضوا الحصار على الحامية العسكرية المقدونية داخل قلعة المدينة التي كانت تعرف باسم كادميا Cadmea.[28] وهكذا، ففي الصراعات الممتدة التي تدور في المناطق الحضرية، وكما رأينا، فإن الفصائل المتحاربة قد تلجأ إلى الاعتماد على الأسوار المتقاطعة لتعزيز مواقعها وتقويتها.[29] إذ إن أسواراً من هذا النمط يمكن أن تحتجز المقاتلين داخل "مسلخ" ضيق لا مجال فيه للهرب أو المناورة، كما حدث في مدينة سرقوسة خلال عامي 357 و356 قبل الميلاد.[30]

إن عصب القيادة والتحكم البالغ الأهمية في المدينة الإغريقية القديمة يتمثل في ميدانها التجاري الرئيسي الذي يعرف بـ "أجورا" agora، ولأنه يقع عند ملتقى شوارع المدينة المهمة، ويضم غالباً عدداً من المباني الإدارية الرئيسية، فإن "الأجورا" يعد أكبر الساحات المفتوحة داخل أسوار المدينة. وفي معظم الأحيان، يندفع المهاجمون الأجانب عند دخولهم المدينة مباشرة صوب هذه الساحة، بينما تتراجع القوات المدافعة عن المدينة باتجاهها عادة.[31] وفي حال تمكنت هذه القوات من الصمود في "الأجورا"، وإعادة تنظيم صفوفها، فقد تتاح لها فرصة طرد الغزاة خارج مدينتها. ففي ساردیس، مثلاً، حدث في

عام 499 قبل الميلاد أن اضطر الأثينيون والأيونيون إلى التقهقر بعد أن جوبهوا بالقوات الفارسية التي احتشدت في "الأجورا".[32] وعلى نحو معاكس، فإن فقدان السيطرة على هذا الميدان يمكن أن يصبح الضربة الأخيرة التي تقوض معنويات القوات المدافعة عن المدينة.[33] ومع ذلك، فمهما ارتفعت معنويات القوات الغازية وتفوقت عدداً، فإنها قد تعتبر أن الاستيلاء على "الأجورا" وحده ليس كافياً، مثلما حدث لقوات طيبة عندما غزت مدينة بلاتيا.

وكان فتيل العديد من الحروب الأهلية قد أشعلته حركات انقلابية أو مجازر ترتكب في "الأجورا".[34] ومرة أخرى، فإن الاستحواذ على الميدان الرئيسي لهذه المدينة أو تلك، لم يضمن الانتصار لأحد، مثلما اكتشفت ذلك قوات النظام الأوليغاركي في مدينة إليس Elis عام 397 قبل الميلاد. فما إن استولت على "الأجورا" حتى سارعت إلى إعلان انتصارها، لتفاجأ بأن ثراسيديوس Thrasydaios، قائد قوات الفصيل الشعبي، مازال حياً يرزق، وأنه كان نائماً في منزله تحت تأثير الخمر التي تناولها عند الظهيرة. وما إن تخلص من الآثار التي خلفها إسرافه في الشراب، حتى قاد ثراسيديوس هجوماً مضاداً قضى به على قوات الأوليغاركيين تماماً.[35]

وإلى جانب تحولها إلى مراكز للاتصالات، ونقاط تجمع للقوات المحاربة، يمكن لساحات المدن التجارية الرئيسية أن تضم ما يحتاج إليه المقاتلون في المناطق الحضرية من إمدادات تسليحية حيوية.[36] وعلى سبيل المثال، فإن العناصر المنشقة التي تآمرت - كما قيل - للاستيلاء على السلطة في إسبارطة في 400-399 قبل الميلاد، كانت قد خططت للاستفادة من سوق العدد والأدوات في المدينة كترسانة لها، نظراً إلى ما تضمه من كميات وفيرة من الفؤوس، والبلطات، والمناجل.[37] وثمة مدينة واحدة أخرى على أقل تقدير أمكن لجماعات متمردة الاستيلاء عليها، مستخدمة أسلحة كان قد تم تهريبها إلى داخل "الأجورا" داخل سلال الفاكهة وعلب الملابس.[38] ولأنه نسي المخاطر التي يمكن أن

تنشأ نتيجة تسليح جماهير المناطق الحضرية، فقد ارتكب الضابط الإسبارطي، الذي تولى قيادة قوات الدفاع عن ميتيلين Mytilene عام 427، خطأ تسليح سكان هذه المدينة، الذين أعلنوا التمرد عليه في الحال.[39]

وباستثناء "الأجورا"، فإن أي موقع فسيح يمكن الدفاع عنه، وحيث يستطيع المقاتلون تنظيم صفوفهم فيه، أو اتخاذه ملاذاً لهم، يصبح موقعاً مهماً من الناحية التكتيكية. ومواقع كهذه يمكن أن تكون مسرحاً، أو معبداً، أو صالة للألعاب الرياضية، أو أي مبنى كبير غير هذه.[40] فخلال الحرب الأهلية الأثينية التي اندلعت في 404–403 قبل الميلاد، عمدت قوات الخيالة التابعة للأوليغاركيين إلى اتخاذ مسرح بيركليس، الذي يقع أسفل أكروبول المدينة تماماً، قاعدة لها، بينما تجمع المشاة التابعون للديمقراطيين في أحد مسارح بيريوس.[41] وشأنها شأن ساحات المدن الرئيسية، فإن المعابد والمباني العامة يمكن أن تتحول إلى ترسانات أسلحة إبّان العمليات القتالية التي تدور في المناطق الحضرية. ففي عام 379، استطاعت القوات المناهضة لإسبارطة في مدينة طيبة تسليح نفسها بأسلحة ربما كانت أصلاً نذراً دينية، تم الاستيلاء عليها في رواق ذي أعمدة.[42] وفي حال توافر لهم الوقت الكافي، فإن الجنود المدافعين عن مدينتهم قد يلجأون إلى حفر خنادق في المناطق المفتوحة، وربما يضعون عوائق فيها بغية الحيلولة دون تقدم قوات العدو.[43]

وعلى الرغم من أن المباني الضخمة يمكن أن تضمن الأمن لمن يحتلها، فإنها قد تتحول إلى شراك للموت. فخلال المراحل الأولى من الحرب الأهلية التي نشبت في مدينة كورسيرا، وبعد أن أيقنوا أنهم سيعدمون لا محالة، حاولت مجموعة من أنصار النظام الأوليغاركي الاحتماء في ما بدا مستودعاً للبضائع. فما كان من جنود القوات المعادية إلا الصعود إلى سطح المبنى، وإحداث فتحة فيه، ليمطروا خلالها المعتصمين داخله بوابل من قطع البلاط والسهام. ولم يتردد من استطاع النجاة في قتل نفسه بدلاً من الاستسلام.[44] وفي عام 370–369، وقعت حادثة مشابهة في تيغيا عندما اضطر أفراد من جماعة مهزومة إلى

اتخاذ معبد أرتيمس Artemis ملاذاً لهم؛ فسارع خصومهم إلى تطويق المعبد، والصعود إلى سطحه وتفكيك حجارته، ليرشقوا من احتمى به بسيل من قطع الآجر والبلاط. وبرغم استسلام هؤلاء، إلا أن الموت كان مصيرهم فيه.[45]

وتعني حروب المدن بالتأكيد خوض معارك الشوارع. ومن المعروف أن أقدم المدن الإغريقية كانت، على مدى قرون من الزمن، قد نمت نمواً طبيعياً دون أن تكون لها مخططات أو تصاميم قياسية منتظمة، ولا ريب في أن شبكة الشوارع والأزقة الضيقة غير المنسقة، التي تتقاطع داخل المدن، يمكن أن تتسبب في إرباك الغزاة الأغراب، وفقدانهم الإحساس بالاتجاه - وليتذكر القارئ وضعية جنود طيبة في مدينة بلاتيا - في حين أن القوات المدافعة عن المدينة، التي خبرت ما فيها من طرق مختصرة، يمكنها التحرك بسرعة أكبر عند الانتقال من حي إلى آخر. ومن المرجح أن شبكة طرق من هذا النوع ربما كانت قد أجبرت القادة العسكريين على تفريق قواتهم إلى وحدات صغيرة، ما جعل تأمين الاتصالات وتبادل الدعم ما بين هذه الوحدات أقرب إلى المستحيل. وهكذا، فمتى ما تفرقت القوات المهاجمة والمدافعة إلى مجموعات صغيرة تفتقر إلى التنسيق في ما بينها، فإن معارك الشوارع قد تطول الليل بأكمله، حيث يمكن أن يقتل الجنود المتحاربون أحدهم الآخر عشوائياً وسط الظلام، مثل ما حدث في مدينة سرقوسة عام 355 قبل الميلاد.[46]

وبحلول منتصف القرن الخامس، بات شق شبكات الشوارع المنظمة أمراً شائعاً في المدن الجديدة، وفي التوسعات التي أجريت للقديمة منها.[47] وقد يراوح عرض الشارع في هذه الشبكات بين 3-5 أمتار (9.8-16.4 قدماً)، بالنسبة للطرق الفرعية في المناطق السكنية، و13- 15 متراً (42.6-49.2 قدماً) بالنسبة للطرق العامة الرئيسية.[48] وكما أشار أرسطو، فإن الأسلوب المعروف بـ "الشبكي" Hippodamian، الذي بنيت وفقاً له المدن الجديدة، جعل أنماط العيش فيها أكثر يسراً وإمتاعاً، لكنه قلل من فرص تأمينها وحمايتها وقت الحرب.[49] ولتوفير إمكانات الدفاع عن المدينة، يوصي أرسطو بأن لا يستخدم

المهندسون المخططون النظام الشبكي هذا إلا في أحياء محددة، أو يعملون على تصميم مجمعات سكنية أو تجارية تشتمل على بضع جادات عريضة تربطها بشوارع صغيرة أخرى.[50] وفي مجمل الأحوال، فإن شبكة الشوارع القياسية المنسقة تجعل مهمة القوات المهاجمة أكثر يسراً، إذ يصبح بإمكان قادتها زج وحدات تتبادل الدعم والإسناد في ما بينها عبر شوارع متشابهة، فتقل بالتالي احتمالات أن تضل طريقها. ورداً على ذلك، يمكن للمدافعين عن المدينة حفر خنادق في شوارعها وإقامة المتاريس والحواجز؛ فضلاً عن حفر منافذ في جدران المنازل ليتسنى لهم الالتفاف على قوات العدو وتطويقها.[51]

وحتى في المدن التي يتبع فيها نظام الطرق الشبكي، فإن الشوارع الضيقة كانت تجبر القادة العسكريين على تنظيم قواتهم وفقاً لتشكيلات غير عملية تصعب إدارتها. ففي ميناء بيريوس، مثلاً، تعين على الأوليغاركيين في عام 404-403 ترتيب جنودهم من المشاة من حملة الرماح (الهوبليت) بعمق خمسين صفاً.[52] كما أن شبكة الشوارع المنتظمة توفر للقوات الضاربة ميادين أفضل لتوجيه ضرباتها. فمع أن أنصار الأوليغاركيين في هذه المدينة كانوا قد تمكنوا من احتلال الساحة الرئيسية فيها، فإنهم عندما تقدموا عبر إحدى الجادات الرئيسية باتجاه تل مونيتشيا، رد عليهم الديمقراطيون بسيل من رشقات الحجارة والرماح والسهام.[53]

ويتم بناء المنازل في هذه المدن عادة بشكل مجمعات تتشاطر جدراناً مشتركة، وهناك في بعض الحالات زقاق ضيق يخترق المجمع عند وسطه. وكما هي الحال في المجمعات الفرعية الحديثة، فغالباً ما يتم اتباع تصميم واحد في بناء مساكن كل مجمع منها. وتتميز المساكن، التي تبنى في مناطق تقام وفقاً لتصاميم نظامية معدة سلفاً، بالاتساع والرحابة. وعلى سبيل المثال، ففي منطقة التل الشمالي بمدينة أولينثوس، فإن مساحات قطع الأراضي السكنية قد تحدد بما معدله 17 متراً لكل جانب من جوانبها،[54] غير أن مساحاتها تصغر في المدن القديمة، وغالباً ما تفتقر إلى التناسق والانتظام. وعلى أي حال، فسواء

كانت قديمة أو جديدة، فالمنازل ربما كانت تشكل العوائق الأصعب في المناطق الحضرية اليونانية القديمة.[55] وتطل واجهات البيوت على داخل المدينة، ولكل منها مدخل ضيق هو المنفذ إلى فناء المنزل الذي تنتظم الغرف حوله. وترتفع النوافذ في الواجهة الخارجية عالياً عن سطح الأرض، وغالباً ما يتعذر الوصول إليها. ولبعض البيوت طابق ثانٍ يخصص في أغلب الأحيان لإقامة النسوة. وكانت ترصف سقوف البيوت عموماً بالقرميد، وتنحدر على الجانبين، برغم أن السطوح المستوية هي المفضلة في بعض المناطق.

وخلافاً للمعارك الكبيرة الضارية التي تحدث في ميادين مفتوحة واسعة، فإن معارك المدن تتخذ ثلاثة أبعاد، فأسطح المنازل توفر لهذا الطرف أو ذاك مزيّة حيوية تتمثل في شغل مواقع مرتفعة. كما أن قرميد الأسطح، التي تراوح أوزانها بين كيلوغرام واحد وثلاثين كيلوغراماً، يمكن أن تتحول إلى مقذوفات في أيدي المدافعين عن المدينة يطلقونها على الغزاة. ويمكن حتى للنسوة والعبيد الصعود إلى سطوح المنازل التي يقيمون فيها لمهاجمة القوات المتقدمة نحوهم بهذه المقذوفات.[56] وأحياناً، هناك هياكل ومبانٍ يمكن أن توفر أفضلية الموقع المرتفع؛ ففي عام 369 قبل الميلاد، أمكن لوحدات خفيفة صد محاولة من جانب قوات طيبة لاحتلال مدينة كورينث، وذلك عندما اعتلت نصب القبور التذكارية وشواهدها لرمي المهاجمين بالحجارة والرماح.[57] وفي حالات معينة، استخدمت القوات المهاجمة الأسطح كمنصات إطلاق، مثل ما فعل جنود مدينة طيبة عند استعادة مدينة أويوم Oeum من أيدي الإسبارطيين في عام 370–369.[58] إن المواضع التي تقام على سطوح المنازل ليست حصينة دائماً. وعلى سبيل المثال، فإن قوات بؤوتيا التي تولت الدفاع عن مدينة كورينث عام 393 تسلقت أسطح حظائر السفن والمستودعات، ولكنها حوصرت هناك وتم القضاء عليها.[59]

وبفضل مداخلها الضيقة وصلابة بنائها، فإن البيوت الخاصة يمكن أن تتحول إلى حصون يتخذها السكان المدافعون عن مدينتهم ملاذاً أخيراً. والمدينة يمكن أن تعلن أنها

قد حررت متى ما تم الاستيلاء على "الأجورا" والمباني العامة فيها؛ بيد أن أولئك الذين عزموا على المقاومة من سكانها قد يرغمون القوات المهاجمة على إبادتهم عن طريق ملاحقتهم من بيت إلى بيت. وفي المقابل، يستطيع سكان البيوت المتجاورة اختراق الجدران المشتركة لمنازلهم بغية إدامة التواصل بينهم، ومن ثم، فبإمكانهم تحويل المجمع السكني إلى حاجز دفاعي مهم وحاسم. ومن الواضح أن القتال من بيت إلى بيت يتسم بالخطورة والصعوبة الفائقتين. ففي كل مدخل مظلم، أو ركن معتم، قد يكمن مقاتل مستميت هيأ نفسه للقتال حتى الرمق الأخير. ففي أولينثوس، مثلاً، دلَّ انتشار مقذوفات المقلاع ورؤوس السهام المستخرجة من باطن الأرض على أن الجنود المقدونيين المهاجمين كان عليهم شق طريقهم بصعوبة إلى فناءات البيوت، حيث كانوا هدفاً لأسلحة السكان المتحصنين في الغرف المحيطة بتلك الفناءات. ويبدو أن المهاجمين ردوا عليهم بوابل من قذائفهم قبل أن يتوجهوا لتطهير هذه الغرف واحدة بعد أخرى.[60] ومن الواضح أيضاً أن المقدونيين ربما واجهوا بعد 13 عاماً وضعاً مماثلاً في طيبة. فبعد أن استولت قوات الإسكندر على المواقع الرئيسية في المدينة، فرَّ عدد من جنود طيبة المشاة كل منهم باتجاه منزله، حيث تصدوا فيها مع أفراد عائلاتهم للوحدات المهاجمة ليلقوا حتفهم في آخر الأمر.[61]

و إلى جانب المصاعب التكتيكية التي تنشأ عن عمليات القتال التي تدور داخل المنازل، فإنها يمكن أن تضعف قواعد الانضباط للقوات المهاجمة وتماسكها. فالجنود الذين يتخلون عن القتال ليقوموا بأعمال النهب والسلب والاغتصاب سيصبحون عديمي الجدوى في أي عمليات قتالية جديدة؛ بل إن الأدهى من ذلك هو احتمال تعرضهم لهجمات مضادة مباغتة. ففي سرقوسة عام 355 قبل الميلاد ألقى ديون Dion ومعه أبناء هذه المدينة القبض على عدد من مرتزقة العدو متلبسين بأعمال السلب فقضوا عليهم قضاءً مبرماً.[62]

وأحياناً، كان لبعض البيوت من المزايا ما يجعلها جزءاً من مجمل بنية التحصينات الدفاعية. فمدينة موتيا Motya الواقعة في صقلية – مثلاً – كانت تضم بيوتاً من طوابق عدة على مقربة من بوابة المدينة الشمالية. وخلال استيلاء الإغريق عليها في عام 397 قبل الميلاد، استخدم المدافعون القرطاجيون هذه البيوت كخط دفاع ثانٍ.[63] وعندما حاول الملك المقدوني فيليب الثاني اقتحام مدينة بيرنثوس Perinthos في عام 341–340، حوَّل أبناؤها المدافعون عنها بيوتهم وبشكل مرتجل، إلى قلاع حصينة، وأغلقوا الشوارع والأزقة ليعوقوا بذلك تقدم المقدونيين داخلها.[64] وفي هذا الشأن، يشدد أفلاطون على القول إن البيوت «ينبغي أن تنظم على النحو الذي يجعل المدينة بأسرها تشكل جداراً واحداً، ويجب أن تحتوي على جدران سليمة وصالحة... في مواجهة الطرق بحيث تأخذ المدينة برمتها شكل بيت واحد، وبما لا يجعل مظهرها بغيضاً، فضلاً عن أن هذا الأسلوب يمثل الخطة الأفضل لضمان سلامة المدينة وأمنها وسهولة الدفاع عنها».[65] وقد تجسدت توصيات أفلاطون على أرض الواقع في مدينة أولينثوس، حيث تم بناء الجدران الخلفية لأول صف من صفوف المنازل (على امتداد الحافة الغربية للتل الشمالي) بالشكل الذي يجعلها جزءاً من التحصينات الدفاعية في شمال غربي المدينة.[66]

وفي السياق نفسه، كانت التضاريس الطبيعية غير المألوفة لمدينة إسبارطة قد حولت هجومي قوات طيبة عليها إلى مزيج من المعارك المفتوحة وحروب المدن. فإسبارطة القديمة لم تكن مدينة مسورة؛ بل كانت تمتد على ضفتي نهر يوروتاس، والبيوت في أحيائها الخارجية كانت محاطة بالبساتين والمزارع. أما منطقة وسط المدينة، حيث يقيم الإسبارطيون، أو أبناؤها من ذوي المواطنة الكاملة، فيبدو أنها قد بنيت بشكل مكثف للغاية وفي غياب مخطط نظامي منسق. ومع ذلك، فإن مركز المدينة قد ضم جدراناً، وأسيجة، وفضاءات مفتوحة؛ وأحيط بمجموعة من دور العبادة والأماكن المقدسة والمباني العامة.[67]

وخلال عام 370–369، قصر الطيبيون، بقيادة إيبامنونداس، عملياتهم على نهب ضواحي مدينة إسبارطة وسرقتها، وقطع الأشجار لبناء تحصينات ميدانية أينما أقاموا معسكراً لهم، وكذلك فعلوا في المناطق الريفية. وفي آخر المطاف، وجهت قوات طيبة هجومها نحو قلب المدينة فتقدمت باتجاه مضمار السباق المفتوح التابع لمعبد بوسيدون Poseidon. ورداً على ذلك، استغل الإسبارطيون طوبوغرافيا المناطق الحضرية في مدينتهم لصالحهم، فنصبوا كميناً للقوات المهاجمة في معبد تينداردي Tyndaridae.[68] وإذ صاحب الكمين هجوم شنته مجموعة من سلاح الفرسان عبر المضمار، فقد أمكن بالفعل وقف تقدم قوات طيبة. وفي عام 362 قبل الميلاد، وخشية تعرض مدينتهم لهجوم مباشر، فقد استعد الإسبارطيون له بتهديم البيوت المقامة في وسط المدينة للاستفادة من حطامها في إغلاق مداخل المدينة وأزقتها والميادين المفتوحة فيها. بل إن البعض يزعم أنهم استخدموا حوامل برونزية كبيرة أخذوها من الأضرحة ودور العبادة لإقامة المتاريس والحواجز.[69] بيد أن إيبامنونداس لم يضع في حسابه توجيه ضربة مباشرة إلى إسبارطة خشية تعرض قواته للمقذوفات التي تطلق عليهم من فوق أسطح المنازل والمباني.[70] وآثر، عوضاً عن ذلك، اتباع أسلوب غير مباشر، بدا خلاله وكأنه يقوم بمناورة في ساحة حرب مفتوحة؛ ما أتاح لقواته التقدم نحو المناطق المأهولة بالسكان دون التعرض لمقذوفات العدو. ولم تكن إسبارطة لتصد هجوم طيبة وتحبطه إلا بهجوم مضاد شنته مجموعة تضم أقل من مئة من الإسبارطيين الشجعان بقيادة الملك أرخيداموس.

الجنود المحاربون

لم تكن معدات جيوش العالم الإغريقي القديم وتشكيلاتها ومنظومات القيادة فيها لتتناسب مع السمات الطوبوغرافية للمناطق الحضرية المكتظة بالمباني. فالدعامة الأساسية لكل جيوش الدويلات القديمة تتألف من كتائب المشاة من حملة الرماح (الهوبليت). ومع أن هذه الدروع تعد ثقيلة ويصعب التحكم بها، فإن هناك مؤشرات توحي بإمكانية

استخدامها بشكل فعال في القتال الفردي حتى في داخل المدن، بل إن بعض شواهد القبور في آسيا الصغرى، والتي تعود للقرن الرابع قبل الميلاد، تحمل نقوشاً تصور جنوداً يتسلقون السلالم التي تستخدم في الهجوم. وعلى الرغم من عدم توافر أدلة محددة على ذلك، فربما اضطر بعض هؤلاء المشاة من حملة الرماح أحياناً للتخلي عن دروعهم ليكونوا أكثر قدرة على الحركة والمناورة. ولكن ما يحملونه من أسلحة ربما كان المشكلة الأكثر جدية التي كانوا يواجهونها في المدن. فمع أنهم يحملون سيوفاً كسلاح ثانوي، فإن الرمح هو سلاحهم الرئيسي. ولأنه يبلغ 2.5 متر طولاً، فلابد أن استخدامه سيكون مربكاً في الأحياء الصغيرة أو داخل البيوت. وربما كانت الحال أسوأ بالنسبة إلى المقاتلين المقدونيين إذا علمنا أن الرمح الطويل المستدق الرأس الذي يتسلحون به يراوح طوله بين 12 و16 قدماً. وإذا كان هناك من الإغريق من برع في المبارزة بالسيف، فإن المشاركة في برامج تدريبية منتظمة كانت من اختصاص عدد محدود من أبناء الأثرياء. وفي واقع الحال، فإن الأغلبية العظمى من المشاة حملة الرماح خارج مدينة إسبارطة لم تخضع لتدريبات رسمية حتى نهاية العصر الإغريقي القديم.

إن التحدي الأكبر الذي تعرض له هؤلاء المشاة من حملة الرماح كان يتمثل في طبيعة التشكيلات القتالية. فهم تقليدياً كانوا يتبعون نظام المجموعات المعروفة بـ "الكتائب". والترتيب النموذجي للكتيبة، التي تشكل تكتلاً بشرياً منتظماً بعمق ثمانية صفوف، قد يمتد حجمه ليغطي مسافة ميل واحد أو أكثر عبر ساحة الحرب المفتوحة. إن كتيبة بهذا الحجم لا يمكن زجها في شوارع المدينة أو في منازلها، باستثناء ميدانها التجاري الرئيسي، الذي يمكنها فيه الحفاظ على التشكيل النظامي المعتاد لها. ويبدو أن التوجه لتجزئة الكتيبة إلى مفارز صغيرة، بقصد التغلب على العوائق التي تخلقها طوبوغرافيا المناطق الحضرية، ازداد تعقيداً جراء الافتقار بشكل عام إلى الضباط والوحدات العسكرية الفرعية. وباستثناء الجيش الإسبارطي، الذي يرتكز على نظام هرمي تكتيكي متطور، ويتميز بالتزام شديد بالانضباط الصارم الذي يكاد يأخذ طابعاً دينياً، فإن نسبة الضباط في أغلب جيوش

الدويلات الإغريقية كانت ضئيلة، فضلاً عن افتقارها إلى الوحدات التكتيكية الأدنى حجماً من تشكيل السرية. بل إن ما يتوافر فعلاً لهذه الجيوش من ضباط يمكن أن يصبحوا عديم الجدوى بسبب ضعف الانضباط العسكري الكلاسيكي.[71]

كان لتقاليد العمل غير المهنية، التي شاعت داخل صفوف جيوش المدن الإغريقية، تداعياتها على حروب المدن. ولعل من العوامل المؤثرة في هذا الخصوص هو أن الإغريق لم يطوروا وحدات عسكرية متخصصة، تشبه ما هو سائد اليوم مثل فرق الاستطلاع الأمامية، والمهندسين العسكريين. وإذا كان المشاة من حملة الرماح قد استطاعوا إنشاء بنى عسكرية ميدانية بصورة مرتجلة ومؤقتة، فإن معداتهم وقدراتهم الهندسية لم تضاه تلك التي تتمتع بها الفيالق الرومانية على الإطلاق. وفي الوقت نفسه، ولأن ميليشيات المشاة من حملة الرماح (الهوبليت) تسلح نفسها بنفسها، فإن الأسلحة باتت بحوزة نسبة عالية من المواطنين. لقد كان خوض معارك المدن، سواء اندلعت نتيجة غزو أو بسبب حرب أهلية، يتطلب تقليدياً مشاركة السكان جميعاً، وليس القوات المسلحة النظامية فحسب.

وفي ضوء ما تقدم، يمكن القول إن قوات المشاة الخفيفة، بما فيها رماة السهام والمقاليع وحملة الرماح، تصبح أكثر فاعلية في حروب المدن؛ إذ تستطيع إطلاق أعتدتها من فوق أسطح المنازل والمباني، أو إغراق الشوارع بسيل لا ينقطع من القذائف.[72] وتدلل الشواهد والاكتشافات الأثرية في مدينة أولينثوس على أن رماة السهام والمقاليع يمكنهم استخدام أسلحتهم هذه حتى داخل حدود المنازل.[73] وقد أثبتت القوات الخفيفة أهميتها بالفعل خلال المعارك التي دارت رحاها في ميناء بيريوس في عام 404–403. ويومذاك، كانت القوات الموالية للأوليغاركيين، التي ضمت من المشاة من حملة الرماح ما يكفي لتشكيل كتيبة بعمق 50 صفاً، تتقدم على الطريق المؤدية إلى تل مونيتشيا لمواجهة قوات الديمقراطيين، الذين لم يتمكنوا إلا من حشد عشرة صفوف منهم، ومع ذلك، فقد تجمعت خلف هذه الصفوف العشرة وحدات من قوات المشاة الخفيفة. ولأن تضاريس

منطقة مونيتشيا الجبلية قد منحت مزيّة الموقع المرتفع للمدافعين عن الميناء، فقد أمكن لقوات المشاة الخفيفة هذه إطلاق أسلحتها من فوق رؤوس حملة الرماح؛ ولأن خصومهم كانوا قد حشروا 50 صفاً من جنودهم حشراً في الطريق أسفل التل، فنادراً ما كان الجنود المشاة يخطئون في إصابة أهدافهم.[74]

وقد يصعب تحديد دور فرق سلاح الفرسان في المعارك التي تنشب داخل المناطق الحضرية. ففي عام 404-403، كانت حكومة "الطغاة الثلاثين" في أثينا قد زجت قوة كبيرة من سلاح الفرسان في معارك ميناء بيريوس، لكنها لم تؤد دوراً يذكر في تلك المعارك.[75] وإن كانت هذه القوة قد نُشرت في "أجورا" الميناء لحماية مؤخرة قوات المشاة من حملة الرماح الأوليغاركية. وفي طيبة، شارك فرسان المدينة في المعارك التي دارت فيها عام 335، لكن ضيق شوارع المدينة أعاق حركتهم كثيراً، وسرعان ما لاذوا بالفرار حال استيلاء المقدونيين على الميدان الرئيسي لمدينة بيريوس.[76] ويذكر الكاتب الروماني بوسانياس أنه شاهد على مقربة من "أجورا" أثينا نصباً تذكارياً يحمل نقوشاً تخلد الانتصار الذي حققه سلاح الفرسان الأثيني على نظيره المقدوني، ربما في عام 304 قبل الميلاد.[77] وعلى الأقل، فإن الإغريق القدامى لم يزجوا بالفيلة في معارك المدن، ولما حاول بيروس Pyrrhus، ملك إيبيروس Epiros، أن يفعل ذلك في أرغوس عام 272 قبل الميلاد، فإنه اكتشف أن على قواته أن تزيل معدات القتال من على ظهور الفيلة كي تتمكن من المرور عبر بوابات المدينة.[78]

حروب المدن والفكر العسكري الكلاسيكي

إن أي تقييم لموقع حروب المدن في الفكر العسكري الكلاسيكي سيتطلب حتماً تفهم الدور المحوري الذي تؤديه الأسوار، والذي كان يشغل بال حكام المدن الإغريقية. فيومئذٍ كان بناء سور دائري يعد المهمة الأكبر والأعلى كلفة التي يمكن أن يضطلع بها مواطنو

أغلب الدويلات على الإطلاق.[79] وبعد إتمام بنائها، فإن الأسوار تحدد هوية الدويلة ومعالم نظام حكمها. وكان أفلاطون قد دعا إلى بناء أسوار "من البرونز والحديد" بدلاً من الطين؛ ولكن حين تعين على الإغريقيين حماية مدنهم، فهم لم يستبعدوا من حساباتهم القيمة العملية للتحصينات الدفاعية.[80] وعلى أي حال، فمع أن الصراعات القديمة، وكما كانت تصور وقتذاك، كانت تطغى عليها مشاهد الممارسات الوحشية والمعاناة الشديدة، وفيها تعطى للحرب المفتوحة قيمة أكبر من تلك التي تعطى لعمليات الحصار والخدع الحربية. ففي منتصف القرن الخامس قبل الميلاد، كانت فكرة استنباط استراتيجيات دفاعية، تتخذ من الأسوار الحصينة أساساً لها، قد ترسخت عميقاً في أذهان حكام أثينا.[81] وأثينا، استثناءً، ربما بدت يومذاك الأكثر استعداداً لانتهاج استراتيجية كهذه، نظراً إلى قدرتها على توفير المعدات والتجهيزات اللازمة لهذا الغرض من المناطق التابعة لإمبراطوريتها. وأياً يكن الأمر، فإن مواطني المدن الأصغر كانوا قد اعتبروا أن البقاء خلف الأسوار إجراء دفاعي طبيعي تماماً؛ ولاسيما عند مواجهة قوات غازية تفوق قواتهم من الناحية العددية. ولم يفضلوا خوض معارك الميادين المفتوحة إلا في حال تكافؤ الجيشين المتحاربين من هذه الناحية. وفي واقع الحال، فقد كشفت الدراسات التحليلية الدقيقة للحرب البيلوبونيزية عن أن عمليات حصار المدن وخوض المعارك داخلها كانت أكثر شيوعاً بنسبة الضعف تقريباً قياساً على المعارك الواسعة التي تنشب في الميادين المفتوحة.[82]

ويمكن القول عموماً إن مدى اعتماد اليونانيين القدامى على أسوار مدنهم بهدف حمايتها كان ينعكس في حالة الهلع الشديد التي تنتاب المدافعين عن المدينة وتشل حركتهم متى ما تبينوا أن قوات العدو قد اخترقت حدود مدينتهم. وحتى الإسبارطيون، الذين طالما تباهوا بعدم حاجة مدينتهم إلى أسوار تحتمي بها، لم يكونوا محصنين من الشعور بالفزع حال ظهور طلائع جيش طيبة عند ضواحي إسبارطة.[83] وفي ضوء حجم النفقات الواجب توظيفها في بناء سور للمدينة، والقيمة السيكولوجية المرتبطة بالحفاظ على وحدة المدينة وسلامتها، لا يبدو مستغرباً أن اللجوء إلى خوض معارك تدور خلف هذه الأسوار كان

يحدث دائماً بحكم الضرورة، وليس كخيار استراتيجي. ولعل اللافت للنظر في هذا الشأن هو أن مصادرنا البحثية القديمة لا تقدم لنا إلا شاهداً واحداً على تخلي القوات المحاربة عن أسوار مدينتها عمداً كي تقاتل داخل المدينة ذاتها. وهو ما حدث في فارسيدون Pharcedon في ثيساليا Thessaly في وقت ما عند منتصف القرن الرابع قبل الميلاد، عندما حاول المدافعون عن المدينة دون جدوى إيقاع قوات الملك المقدوني فيليب في كمين نصبوه لها في إحدى مناطق المدينة.[84]

وربما كان المفكرون العسكريون الإغريق غير راغبين في اعتماد معارك المدن نمطاً حربياً مفضلاً، لأنه يفسد الهيكل الهرمي المقبول بشأن البنية الاجتماعية والفرق بين الجنسين؛ فالنموذج الكلاسيكي المثالي للمواطنة يشدد على أن عالم الحرب مقصور على الذكور الأحرار حصراً، بافتراض بقاء النسوة والعبيد بأمان بين جدران المنازل. ولكن القتال داخل المدن كان، مع ذلك، قد أضعف إلى حد ما نزعة الهيمنة الذكورية على الحرب؛ فضلاً عن الاعتقاد السائد بأن المنزل مكان خاص لا تنتهك حرمته، ولابد لساكنيه من الدفاع عنه. ومن اللافت هنا أيضاً أن عدداً من الأبحاث والدراسات التي تناولت حروب المدن تحدثت بشكل ملحوظ عن مشاركة النساء والعبيد فيها بصورة فاعلة ومؤثرة.[85] ولنا أن نضيف هنا أن الشرائح الاجتماعية التي كان يُفضل عادة زجها في معارك المدن هي أبناء الطبقة الفقيرة والعزل من السلاح؛ وهو ما كان يشكل تحدياً لهيمنة المشاة من حملة الرماح (الهوبليت)، وأغلبهم من أبناء الطبقة المتوسطة، على ساحة الحرب.

وإضافة لما تقدم، فإن القادة العسكريين الإغريق كانوا، فيما بدا، قد أدركوا أن حروب المدن تتسم بالشراسة بشكل خاص، وغير مضمونة النتائج، حتى وفقاً للمعايير القديمة. ففي حروب كهذه، تتحول النسوة والأطفال، وليس المقاتلون فقط، إلى أهداف "مشروعة"؛ فيما تصبح أعمال الخيانة، وارتكاب المجازر، والقتال دون رحمة حتى الموت، ظواهر عادية ومألوفة. وتسهم طوبوغرافيا المدن في جعل المعارك أكثر ضراوة ووحشية،

نظراً إلى أن القوات المتحاربة، في حال حشرت داخل المنازل وفي الشوارع الضيقة، لن يسهل عليها إيجاد سبيل للفرار، بل حتى إن الجنود الذين يفكرون بتسليم حي من أحياء المدينة لقوات العدو التي تحاصرهم قد يحجمون عن القيام بذلك إن كانوا يخشون تعرضهم لهجوم مباغت من اتجاه آخر. كما أن افتقار حروب المدن إلى منظومات الاتصال والسيطرة يقلل من احتمالات لجوء القادة العسكريين إلى تلك التدابير والإجراءات التي من شأنها التخفيف من حدة المعارك وضراوتها، كعقد هدنة، مثلاً. إن القتال ليلاً أو في ظروف جوية سيئة يفاقم المشكلات الناتجة عن طبيعة التضاريس وضعف السيطرة. وبالقدر ذاته، فإن نوعية الجنود المقاتلين وطباعهم غالباً ما تتسببان في زيادة حدة ضراوة المعارك ووحشيتها، كما أن الفصائل المشاركة في الحروب الأهلية تضمر كل منها عداءً شديداً للأخرى؛ ففي كورسيرا، مثلاً، قامت مجموعة من سكانها على نحو مشين بإشعال الحرائق في مدينتهم عمداً، في محاولة منها لإجبار منافسيها على مغادرتها.[86] وتدرك القوات التي تتولى حماية مدينة من المدن من غزو خارجي أنها لا تقاتل دفاعاً عن أرواح مقاتليها فحسب، بل وعن حياة أفراد عائلات أيضاً، وعن وجود موطنهم ذاته. ومن جانبهم، فإن المهاجمين الذين يجدون لأنفسهم منفذاً إلى المدينة المستهدفة، بعد حصار طويل وهجوم دموي، لن يترددوا في الانتقام بأبشع صورة من أي من مواطني المدينة، مسلحاً كان أو أعزل.[87] وقد اجتمعت هذه العوامل لتدفع باليونانيين القدامى إلى توخي الحذر واليقظة من الدخول في حروب المدن.

وبرغم هذا، فليس هناك سوى القليل من المؤشرات التي تدلل على تفهم القادة العسكريين لسبل إدارة معارك المدن متى ما دفعتهم الضرورة إلى ذلك. وعلى سبيل المثال، فإن أهل بلاتيا سارعوا إلى الاستفادة من الميّزات الطوبوغرافية لمدينتهم لإيقاع قوات طيبة المهاجمة في الشراك التي نصبوها لها. وفي ميناء بيريوس في عام 304-303، فلأن الديمقراطيين لم يحشدوا ما يكفي من المقاتلين للسيطرة على السور الدائري المحيط بالميناء، فقد ركزوا جهودهم على تل مونيتشيا؛ المعقل القوي الذي لا سبيل للوصول إليه إلا

باجتياز شبكة شوارع المدينة المعقدة. وبالانتشار على منحدرات هذا التل، تمكن قائد قوات الديمقراطيين ثراسيبوليس Thrasyboulos من مضاعفة الإمكانات الدفاعية التي تتيحها البيئة الحضـرية إلى أعلى مستوى لها، مستغلاً رجحان كفته بما توافر له من القوات الخفيفة بغية تحقيق التكافؤ أمام الأعداد الكبيرة من المشاة من حملة الرماح (الهوبليت) التي استطاع الأوليغاركيون حشدها.[88] وعلى النحو نفسه، وكأحد العقول المدبرة لانتفاضة طيبة عام 379، كان إيبامنونداس على وعي تام بتعقيدات معارك الشوارع ومصاعبها. ولأنه أدرك أيضاً عدم صلاحية السمات الطوبوغرافية الحضـرية لمركز مدينة إسبارطة لخوض معارك منظمة، فقد تجنب شن هجمات مباشـرة هناك، سواء في عام 370–369، أو بعد ذلك في عام 362.[89] وفي مدينة سـرقوسة، شهدت حقبة خمسينيات القرن الرابع محاولات عدة بذلها الجنرال ديون للتغلب على مشكلة تشتت قواته في معارك المدن؛ فقام بتجزئتها إلى قيادات منفصلة، ونظمها بشكل أرتال طويلة ليتمكن بذلك من مهاجمة أهداف عدة بصورة مباشـرة في وقت واحد.[90]

وفي العصـر الكلاسيكي المتأخر، حظيت حروب المدن بقدر من الاهتمام فعلاً في مؤلفات إينياسAeneas، الذي قيل إنه ينحدر من مدينة ستيمفلوس Stymphalos بإقليم بيلوبونيز، وربما كان أحد قادة اتحاد أركاديا. وقد اشتهر بنشاطاته الواسعة خلال النصف الأول من القرن الرابع قبل الميلاد. وعلى الرغم من أن أعماله لا يعرف عنها الكثير خارج الأوساط المتخصصة في التاريخ اليوناني، فقد يمكن وصف إينياس بأول مخططي حروب المدن الاستراتيجيين في العالم.[91]

ألّف إينياس العديد من الكتب التي لم يتبق منها سوى واحد حول **قضايا الحصار** *Poliorkêtika*، وقد أنجزه خلال الفترة 355–350 قبل الميلاد.[92] ومع أن كتابه هذا كان يقدم تحت عنوان *Siegecraft* (وقد يمكن ترجمته إلى "فن إدارة الحصار")، فإنه يمثل في الواقع دليلاً لكيفية حماية مدينة تواجه أخطار أعمال الخيانة من الداخل، والهجمات المباغتة،

وعمليات قوات المرتزقة الذين عرفوا بتأرجح مواقفهم وتذبذبها. وبحثه هذا يمثل في مجمله مجموعة غير عادية من النصائح والحكايات النادرة والملاحظات والتعليقات التي تتناول كل ما يخطر في البال، ابتداءً بالمعلومات والأفكار العملية: «عندما تحاول قطع عارضة حديدية بمنشار، صب الزيت عليها لتجعل مهمتك أسرع وأقل ضجيجاً»، وانتهاءً بمدركات سيكولوجية ذكية بارعة تتميز ببعد النظر والتبصر: «في تلك الأنحاء من المدينة التي يسهل على العدو... مهاجمتها... احرص على أن يوجد هناك ذوو المصالح الأكبر في المجتمع، لتخلق بالتالي الحافز الأقوى لدى المرء لحماية هذه المصالح بدلاً من الاستسلام لأهوائه وشهواته والمشاركة في أعمال النهب والسلب».[93]

ويولي إينياس جل اهتمامه للجوانب ذات الصلة بساحات حروب المدن التي تناولناها بالبحث تواً، فهو يؤكد أهمية الساحة العامة الرئيسية "الأجورا" في المدينة الإغريقية، وغيرها من المواقع الاستراتيجية الأخرى.[94] ويعرض من التدابير والخطوات ما يساعد المدن على أخذ الحيطة والحذر ضد الهجمات الخارجية المفاجئة، والدسائس والمكائد التي تحاك في الداخل. ويدعو في هذا الشأن إلى وجوب تنظيم قوات المدينة على أفضل وجه، وتوفير قيادة فاعلة قوية لها، ووضع نظام دقيق لتجنيد المرتزقة وضبط سلوكهم. ويعرب أيضاً عن تأييده لكل الأساليب والوسائل - التي تبدو عصرية على نحو لافت للنظر - الكفيلة بإحكام السيطرة على سكان المناطق الحضرية، ومن بينها: تسجيل الأسلحة بشكل رسمي أو مصادرتها، وإصدار بطاقات للتعريف بالهوية، واستجواب التجار ونزلاء الفنادق، ومنع إقامة الولائم والمآدب العامة، وما إلى ذلك. ويضيف إلى ذلك، ضرورة مراقبة حتى المواكب والاحتفالات الدينية خشية أن تتحول إلى مناسبات لاندلاع الانتفاضات المصحوبة بأعمال العنف. ويشدد القول على أن مراقبة تصرفات الأشخاص وأفعالهم ستحرم مدبري المكائد والدسائس أي فرصة لتنفيذ مخططاتهم.

وهكذا يصبح واضحاً أن إينياس على دراية واسعة بمفردات التاريخ الطويل لحروب المدن الإغريقية القديمة؛ ويضرب لنا أمثلة بالمعارك التي دارت في بلاتيا وإسبارطة وأرغوس حول كيفية حماية المناطق الحضرية والدفاع عنها. ولا ينسى أن يعرض علينا بعض أساليب القتال داخل الأسوار، بما في ذلك خداع قوات العدو من خلال فتح بوابات المدينة لإغوائها بالدخول عبرها ومن ثم إيقاعها في الفخ.[95] ومع ذلك، فإن الهدف الحقيقي لإينياس ليس تقديم وصف لطرق كسب معارك المدن، بل لكيفية الحيلولة مسبقاً دون اندلاعها، وذلك من خلال تشديد الحراسة على بوابات المدينة وفي ميدانها الرئيسي العام، والدفاع عن أسوارها بشكل نشط وفعّال، والرصد الدقيق للعناصر المتمردة المحتملة. وببساطة، فقد أراد التأكيد على الأهمية التي تولى تقليدياً للاستراتيجية الدفاعية التي تتخذ من الأسوار أساساً لها.

وعلى أي حال، فثمة مفارقة في مقاربات إينياس وأفكاره؛ فبعد إنجاز تأليف كتابه بزغ فجر عصر جديد لـ "تكنولوجيا" الإغريق العسكرية. فثمة آلة منجنيق حديثة، تعمل بقوة الحبال الملتوية، باتت تستخدم لرمي السهام القصيرة والحجارة، ما أتاح للقوات المهاجمة قدرة جديدة على بسط هيمنتها على ساحات معارك المدن. وبعد سنوات قليلة على صدور كتاب إينياس، استخدم الملك المقدوني فيليب ما ابتدعه من وسائل الحصار وأدواته ليستولي بها على أمفيبوليس Amphipolis، المدينة الحصينة التي كانت عصية عليه يوماً ما. ومع التركيز القديم لإينياس وزملائه من الإغريق على الأسوار كوسيلة دفاعية، فقد صب ذلك في صالح القدرات الهجومية التي تميزت بها معدات الحصار الجبارة الجديدة وآلياته. ولو كان قد كتب شيئاً بعد ذلك ببضع سنوات، فلعل إينياس كان سيتقدم بمقاربة مغايرة، لا يوصي فيها بالتصدي للمهاجمين عند أسوار المدينة، بل بإغوائهم - عوضاً عن ذلك - بدخول المدينة، حيث يمكن تطويقهم والقضاء عليهم، كما فعل ذلك تماماً أبناء بلاتيا عندما أبادوا جيش طيبة الذي هاجم مدينتهم عام 431 قبل الميلاد.

الدروس المستفادة

نحن أمام رماح وسيوف، وبيوت شيدت بحجارة من طين، ونسوة تسلحن بقرميد السقوف وحجارتها. للوهلة الأولى لا يبدو سهلاً تخيل كيف أن قصصاً وروايات تعود لخمسة وعشرين قرناً مضت يمكن أن تسلط الضوء على معارك المدن العصرية، التي تخوض فيها جيوش غربية مجهزة بأحدث التقنيات حروباً ضد مجموعات غير نظامية مسلحة بقاذفات الصواريخ (المعروفة اختصاراً بـ آر بي جي RPG) وسط تجمعات سكنية إسمنتية مترامية الأطراف. وفي خارج نطاق تجارب المدن المقسمة، كمدينتي نوتيوم وسرقوسة، مثلاً، فليس هناك إلا القليل مما ينقله لنا تاريخ حروب المدن الكلاسيكية مما يمكن تشبيهه بعمليات مكافحة حركات التمرد المعاصرة التي تتخذ من المناطق الحضرية ميداناً لها. ومع ذلك، فللقارئ أن يضع بلاتيا جنباً إلى جنب مع مقديشو في عام 1993، التي ضلت فيها قوة أمريكية هجومية كبيرة العدد طريقها في متاهة من الشوارع غير المألوفة لديها؛ ومن الواضح أن ثمة مظاهر لم تتغير في الحالتين.[96]

وبالحديث عن الدروس المستفادة من حروب المدن الإغريقية القديمة، فربما يكمن أولها في أهمية المعلومات الاستخبارية النافعة، وتلك المتعلقة بالطبيعة الجغرافية للمناطق المحلية. ففي غياب معرفة طوبوغرافيا المناطق الحضرية للمدن (لا فقط ما يتعلق منها بالمعنى المادي فحسب، بل وبالمعنى الأوسع للعلاقات الاقتصادية والاجتماعية التي تربط ما بين أحياء المدينة وأهلها)، فإن جندي جيوشنا الحديثة سيظل تائهاً لا يعرف طريقه وسط الأوحال والظلام الدامس، مثلما كانت عليه حال جنود طيبة في مدينة بلاتيا. وبالنسبة إلى جيوش الدول الغربية، التي تنفذ عمليات قتالية في مدن تقع خارج أوطانها، فإن حلولاً قليلة الكلفة، تستخدم فيها تقنيات متدنية؛ كتوظيف أعداد كافية من المترجمين، أو تعليم القوات المحاربة القواعد الأساسية للغات الأجنبية ذات الصلة، من شأنها خلق فرص للتواصل والتعرف إلى مختلف جوانب البيئة المحلية أفضل من تلك التي يمكن أن

توفرها الطائرات المقاتلة الباهظة الكلفة، أو الأجهزة والمعدات المتطورة تكنولوجياً في أي وقت كان.

بالإضافة إلى ذلك، فإن التجارب الكلاسيكية تساعد على التأطير الموضوعي لعمليات الانتقام والنزاعات الطائفية التي تتسم بها حروب المدن العصرية. فالعداوات الطائفية، التي تفرض نفسها على كثير من الصراعات التي تنشب اليوم داخل المدن، لن تبدو شاذة عند مقارنتها بما احتوته الخلفية التاريخية للحرب الأهلية في أماكن مثل مدينة كورسيرا. فالمدينة الإغريقية القديمة لا تعدو أن تكون شأناً عائلياً وقبلياً، والصراع الأهلي الذي يندلع فيها إنما هو بوتقة يصب فيها كل ما ينشب فيها من خصومات وحزازات، سواء لأسباب طبقية أو سياسية، أو جراء خلافات شخصية ليس إلا.[97] وما الكراهية الحزبية المريرة، وارتكاب المجازر، وتفضيل الانتحار على الاستسلام، إلا نتائج طبيعية حتمية لوصول الصراع إلى طريق مسدودة؛ وهي لم تكن سمة مميزة لأيديولوجيا بعينها، أو لمكان أو زمان محددين دون غيرهما. وكما أدرك ذلك ثوكيديدس منذ أمد بعيد، فمهما اختلفت التفاصيل، فلن تختلف ردات فعل البشر إحداها عن الأخرى.[98]

كما أن قدرة المدن الإغريقية على حشد سكانها جميعاً لخوض حرب تدور رحاها داخل المدن نفسها تنطوي على درس ينبغي أن تتعلمه الجيوش الغربية الحديثة التي اعتادت أن تقيم حداً فاصلاً منيعاً بين "العسكري" و"المدني" من أبناء المجتمع. أما في المنظور الكلاسيكي، فتبدو "عسكرة" عامة الناس وتسليحهم وضعاً طبيعياً أكثر مما تبدو عليه وضعية العسكري المحترف المتطوع الذي يكون معزولاً عن سائر المجتمع. ومع أن اليونانيين القدامى كانوا يفضلون اعتبار حروب قوات المشاة من حملة الرماح حكراً على الذكور من المواطنين، فإن هذا المفهوم لم يعد نافذاً في حروب المدن التي سمحت لكل ذكر وأنثى من أبناء المدينة بالمشاركة في العمليات القتالية. ولا ريب في أن مشهد النسوة اللائي يستخدمن قرميد سقوف المنازل في معارك المدن القديمة يذكرنا بمدى نجاح مقاتلي

حركات التمرد في الاستفادة من الخصائص الطوبوغرافية للمناطق الحضرية لتحييد القدرات والمزايا التكنولوجية التي تتمتع بها القوات النظامية.

وعلاوة على ما تقدم، فإن السجلات التاريخية لحروب المدن في أثينا وطيبة تثبت أن الثكنات والقوات الأجنبية، ومهما كان مقدار فائدتها في توفير الدعم والإسناد للأنظمة الحاكمة القائمة، تظل تشكل بؤرة مركزية تستهدفها المعارضة المحلية. وأحياناً يكون الضرر الذي تسببه القوات العسكرية في مدينة ما أكبر من المنفعة. ويتبادر إلى ذهن المرء على سبيل المثال ما كان سيحدث في أثينا في عامي 508-507 [قبل الميلاد] لو لم يستدعِ الطرف الأوليغاركي المدَد من إسبارطة. ربما كانت تشبثت بالسلطة [أي القوات] ووُلدت الديمقراطية الراديكالية الأثينية ميتة. وفي هذا السياق، فإن تحذيرات إينياس تكتيكوس بشأن مخاطر المرتزقة توفر مادة إضافية للتفكّر. فبينما بالغ الكتّاب الكلاسيكيون أحياناً بشأن الشرور التي يمكن أن تتأتى من الجنود المأجورين، كانت شكاواهم تعبِّر عن شيء من الحقيقة؛ ذلك أن المرتزقة، بعجرفتهم وعنفهم واستهتارهم، كان يمكن أن يثيروا السخط على المستوى الشعبي ويتسببوا في انتفاضات. وفي هذه الأيام، يشكل المتعاقدون العسكريون التابعون للشركات الخاصة، غير المنظَّمين، والمفرطون في العدوانية، من قبيل [شركة] بلاك ووتر، تهديداً لنجاح الجيوش الغربية، وعائقاً أمام تحقيق الأهداف الاستراتيجية.

وإذا كان لابد من فتح مدينة ما أو الاحتفاظ بها، فإن التجربة اليونانية تبيّن أن الاحتفاظ بنقطة مركزية وحيدة، سواء أكانت الأكروبول [من أكروبوليس اليونانية بمعنى المدينة العالية أو الحصن] أو "المنطقة الخضراء"، لا يكفي؛ ذلك أن حرب المدن تتطلب السيطرة على الأسواق والشوارع والبيوت. بل إن الأفضل، كما يقرّ إينياس تكتيكوس، تحقيق النصر باستخدام القمع والمراقبة والمسؤولية المتبادلة لإحباط العصيان أو الغزو قبل وقوعه. وبطبيعة الحال فإن إينياس لم يكن مضطراً إلى التعامل مع الرأي العالمي، لكن لعل

في ذلك الفرق يكمن الدرس الأعظم الذي يمكن استخلاصه من حروب المدن اليونانيـة. فالتجاوزات والفظائع التي شهدتها كورسيرا وطيبة وسرقوسة تؤكد المخاطر التي ينطـوي عليها جعل القوات تخرج عن نطاق السيطرة، والاستسلام لنفسية "الانتقام"، والقتال بلا غرض يسمو على الاستيلاء على السلطة أو الاحتفاظ بها. إن الجيوش الديمقراطية الغربية الحديثة ليست مجرد قوات عسكرية، إنها تجسد السمعة والقيم العامة لبلـدانها، ولا يتـسنى الإبقاء عليها خارج الوطن سوى بقدر ما تحظى به من دعم الأغلبية في الوطن. ومهما كان العدو مخادعاً وعديم الشـرف، فإن على الضباط والجنود في الأنظمة الديمقراطيـة الحديثـة أن يتذكروا دائماً التزاماتهم المعنوية والأخلاقية، سواء في ساحات حـروب المـدن أو في أي مكان آخر.

الفصل السابع

محاربة التمرد وأعداء روما

سوزان ماترن

افتقرت الإمبراطورية الرومانية، شأنها في ذلك شأن أي قوة إمبراطورية في التاريخ، إلى الموارد والقدرات التي تمكنها من الحكم بالقوة المطلقة. ووفقاً لبعض المقاييس، كان الاقتصاد الروماني يعد متقدماً؛ فقد بلغت الكثافة السكانية وحجم التحضر العمراني وسك العملة والتنقيب في منطقة البحر الأبيض المتوسط في القرن الثاني بعد الميلاد، مستويات بقيت لا تضاهى حتى العصر الحديث. ولكن، يتفق المختصون على أن الحكومة الإمبراطورية كانت تجمع ما نسبته أقل من عشرة بالمئة (وربما أقل من ذلك بكثير) من الناتج المحلي الإجمالي عن طريق الضرائب. وكان هذا العبء الضريبي يفرض بشكل متفاوت، في ظل اقتصاد لا تنتج فيه الأغلبية العظمى من السكان ولا تكسب إلا ما يكاد يكفيها للبقاء على قيد الحياة. وبواسطة هذه المدخولات، تمكنت الإمبراطورية الرومانية من إنشاء جيش مكون من نحو نصف مليون رجل وتأمين حاجاته، ليقوم بمهمات احتلال أراي الآخرين، والتوسع، والدفاع عن الإمبراطورية التي كان تعداد سكانها يتراوح بين 60 و70 مليون نسمة، وتمتد على مساحة بلغت 4 ملايين كيلومتر مربع.[1] وبوصفه القوة العاملة العامة الوحيدة، فقد كان الجيش يكلف أيضاً بالقيام بأعمال غير عسكرية أو شبه عسكرية، كإدارة مقرات جباية الضرائب، وحماية المواقع العسكرية، ومرافقة الشخصيات المهمة، وجمع الضرائب، وحراسة السجون وفرق العمل الجماعي، وإنجاز أعمال البناء.[2] وعلى الرغم من أن إيطاليا كانت مركز القوة في الإمبراطورية وموطن السكان الرومان، فإنها لم تصدِّر عدداً كبيراً من المهاجرين سواء

بصفة مستوطنين أو جنود. والاستثناء الوحيد لهذه القاعدة كان فترة وجيزة خلال حكم يوليوس قيصر Julius Caesar وأوغسطس Augustus، عندما وزعت قطع أراض في المستعمرات الخارجية على نحو مائتي ألف من الجنود المسرحين؛ وذلك بسبب ندرة الأراضي في إيطاليا، وهؤلاء كانوا في معظمهم من المحاربين القدامى الإيطاليين الذين سبق أن شاركوا في الحروب الأهلية، ولم يعد بقاؤهم في الجيش مأموناً أو عملياً. ومع أن هؤلاء قاموا بدور مفيد في التحولات الثقافية التي شهدتها الإمبراطورية الغربية، فهم لم يشكلوا إلا جيلاً واحداً كان يشكل حافزاً للأجيال الأخرى. ولم ينتج من هذه المستعمرات مطلقاً جماعة سكانية إثنية مميزة أو طبقة حاكمة. واقتصر مثل هذا التصنيف في الغرب على طبقة أرستقراطية محلية اكتسبت الصفة الرومانية، واقتصرت في الشرق، وفي جزيرة صقلية، على طبقة أرستقراطية هيلينية محلية، أو تحولت إلى الهيلينية قبل وصول الرومان.[3] كما لم تصدِّر روما أجهزة بيروقراطية واسعة؛ فلم يكن مجموع أعداد الموظفين المدنيين العاملين مع حاكم كل مقاطعة من المقاطعات، بالإضافة إلى كبار المسؤولين من حملة رتب الفروسية، أكثر من بضع عشرات، على الرغم من أنهم أحضروا معهم بطانات من الأصدقاء والعبيد والمعتقين.[4]

وقد شخّص المفكرون والباحثون المعاصرون القوى الفاعلة التي أحالت الإمبراطورية إلى كيان مفروض قسراً على المقيمين داخل حدوده. فالضرائب قد وحدت مقومات الاقتصاد ليصبح قائماً على العوائد المالية وليتخذ من الحواضر العمرانية أساساً له؛ فيما أدت إغراءات الحضارة إلى حدوث تحولات ثقافية عميقة وبخاصة في الغرب. وثمة قيم عليا وأعراف إمبراطورية - كالقانون الروماني، والبروتوكولات القانونية الرومانية، وصورة الإمبراطور، ونظام العقيدة الدينية الرومانية - ولّدت إحساساً بجماعية المشاركة في بناء مشروع شامل.[5] غير أن الرومان حققوا كل ذلك من خلال دولة بدائية وطبقة حاكمة صغيرة من مجلس الشيوخ آخذة في التلاشي، وتمارس عملها بشكل أساسي وفقاً لآليات اجتماعية.

ولمنع وقوع أعمال التمرد والرد عليها، اعتمد الرومان على: شبكة معقدة من العلاقات شملت كل شرائح المجتمع تقريباً، والاحتلال العسكري المكثف لأكثر المناطق اضطراباً وسخونة، والسمعة المرعبة للجيش في أثناء تعامله الوحشي مع أي جهة تتحداه، والقدرة على حشد قوات عسكرية ساحقة، على الرغم من صعوبة ذلك وارتفاع التكلفة حين تتركز الموارد العسكرية للإمبراطورية في مكان واحد. إن البلاغة التي ميزت الرومان عن رعاياهم وأعدائهم الأقل تحضراً وفضيلة وانضباطاً حجبت الواقع الذي عمل فيه عناصر من الرعايا جنباً إلى جنب مع الرومان على نحو يصعب معه التمييز بينهما. ولم تفلح أي من الوسائل، التي استخدمها الرومان لمكافحة حركات التمرد والثورة، في القضاء على المشكلة. ومع أن الرومان نجحوا في إدارة حركات التمرد والتعامل معها، فإنهم لم يتمكنوا من القضاء عليها نهائياً؛ إذ شهدت حقبة الحكم الإمبراطوري عدداً لا يحصى من الثورات، كبيرة وصغيرة، في حين ظلت أعمال اللصوصية وقطع الطرق واحدة من المشكلات المزمنة طوال عمر الإمبراطورية الرومانية، وفي جميع أرجائها. ولم تكن هناك قط فترة أمكن خلالها تقليص حجم الجيش الروماني بأمان – بعد إنهاء مهمته كقوة احتلال – أو تفريغه كلياً استعداداً لفتوحات جديدة. وعلى العكس من ذلك، فقد واصل الجيش الروماني توسعه تدريجياً، جنباً إلى جنب مع التوسع التدريجي أيضاً في حجم أقاليم الإمبراطورية.[6]

وقد أمكن توثيق العديد من أحداث التمرد الكبرى وأعمال العصيان الثانوية على امتداد حقبة الحكم الإمبراطوري. وأحصى أحد الأكاديميين مراجع ومصادر تتحدث عن وقوع أكثر من 120 حالة تمرد مستقلة، بدءاً بعهد الإمبراطور الأول أوغسطس ولغاية عام 190 بعد الميلاد. وعلى الرغم من أن هذا العدد يشتمل على الأحداث التي وثقتها المراجع القديمة، فيمكن افتراض أن هناك كثيراً من الحوادث التي فات على المؤرخين المعاصرين لها تدوينها.[7] وفي غضون ذلك، بقيت أغلبية المناطق المضطربة داخل الإمبراطورية بمنأى عن سيطرة الرومان عليها، وباتت خاضعة إما لسيطرة "قطاع

الطرق"، أو أصحاب القوة والنفوذ المحليين.[8] وتوثق مصادر شهود العيان بالتفصيل حالتي تمرد؛ هما ثورة فيرسنجتوريكس Vercingetorix في عام 52 قبل الميلاد، التي وصفها قيصر في كتابه **تعليقات على حرب الغال** *Commentaries on the Gallic War*، والانتفاضة اليهودية التي وقعت في الفترة 66-73 بعد الميلاد، ودوَّن يومياتها زمنياً جوزيفوس Josephus. وجوزيفوس هذا هو الذي قاد القوات المتمردة، وأُسر على يد فيسباسيان Vesppasian (الذي سيصبح إمبراطوراً لاحقاً)، ودوَّن أحداث تلك الحرب في نسخة باللغة الآرامية (وهي النسخة المفقودة)، وأخرى بالإغريقية (التي نجت من الضياع).[9]

ولم تكن هذه الانتفاضات العنيفة هي الوحيدة التي اندلعت ضد روما. ففي إحدى الوقائع سيئة الصيت في العام التاسع للميلاد، ألحق القائد الألماني أرمينيوس Arminius الهزيمة بفيلق الجيش الروماني الذي كان تحت قيادة كوينتيليوس فاروس Quintilius Varus في غابة تيتوبورج Teutoburg، وكانت النتيجة المدهشة لهذه الهزيمة أن روما لم تحاول بعدها السيطرة على "ألمانيا الحرة" مرة أخرى. ومن الوقائع الشهيرة الأخرى أيضاً ثورة بوديكا Boudicca في بريطانيا إبّان عهد نيرون Nero، وثورة باتيفيانس Bativians بقيادة سيفيليس Civilis في فترة الحرب الأهلية الرومانية عام 69 بعد الميلاد، وثورة اليهود بقيادة سيمون بار-كوخبا Simon Bar-Kokhba في الفترة 132-135 بعد الميلاد.[10]

وقد وصف بعض المؤرخين العملية المؤلمة والمهينة التي تلي الفتح مباشرة؛ إذ يتم ضم الأقاليم المفتوحة ودمجها، وتفرض ضرائب جديدة، ويتم تجنيد المواطنين لأداء الخدمة العسكرية؛ فتسود حالة من الغليان بين عامة الناس، وتتصاعد كثيراً احتمالات حدوث أعمال التمرد والعصيان. ويتفق السواد الأعظم من الرومان أيضاً مع هذا الرأي. وعندما يفصّل الكتّاب الرومان الأسباب والدوافع الكامنة وراء هذه الثورات المبكرة (لم يكتب البقاء للوثائق التي تدون آراء الثوار المحليين ووجهات نظرهم)، فهم يشددون

بدورهم أيضاً على مفهوم التحرر، والتهديد الذي تعرضت له القيم وأنماط الحياة المتوارثة، وفساد الأجهزة الإدارية الرومانية.[11] ومن بين الأمثلة على هذه الثورات، التي قادها مواطنون محليون كردات فعل على المصاعب والمشاق الناجمة عن الدمج، هي تلك التي قام بها فيرسنجتوريكس في بلاد الغال، وأرمينيوس في ألمانيا، وبوديكا في بريطانيا.

ولم تقتصر الثورات وحركات التمرد على تلك البلاد، بل اندلعت أيضاً في مقاطعات كانت قد ضُمت إلى الإمبراطورية الرومانية منذ أمد طويل، ولأسباب شتى. ففي المقاطعات ذات الحدود المفتوحة - أي تلك التي لم تتم إشاعة الهدوء فيها بعد، أو التي يتعذر الوصول إليها - نشأت منطقة تميزت بانعدام الاستقرار فيها لمدد طويلة أو حتى بصورة دائمة؛ إذ يلجأ السكان المحليون إلى تبديل ولاءاتهم بين مختلف سماسرة السلطة كرد على تقلب ظروف عيشهم (وقائمة هذه المناطق تشمل: شمالي إسبانيا، وشمال بريطانيا وشرقيها، والمقاطعات الإفريقية، وأجزاء أخرى خضعت لسيطرة قطاع الطرق على نحو مزمن، كما سنبين لاحقاً).

كما تزعّم عدد من الأرستقراطيين المحليين في المقاطعات التي أخضعت وتم إضفاء الطابع الروماني عليها حركات تمرد متى ما وجدوا الفرصة سانحة لذلك. ولعل أفضل الأمثلة في هذا الشأن هي الانتفاضات التي نشبت في بلاد الغال (انتفاضة يوليوس فلوروس Julius Florus ويوليوس ساكروفير Julius Sacrovir، وثورة يوليوس سيفيليس Julius Civilis، في العامين 21 و69 للميلاد، على التوالي). لقد تحولت بلاد الغال سريعاً إلى مقاطعة حضرية وذات طابع روماني؛ ففي القرن الأول الميلادي، حصل عدد كبير من العائلات على المواطنة الرومانية، ثم سمح قانون أصدره كلاوديوس Claudius في عام 48 للميلاد بأن يصبح بعض الرومان من أصول غالية أعضاءً في مجلس الشيوخ، الذي يمثل الطبقة الحاكمة للإمبراطورية. ولكن أصبح بوسع هؤلاء القادة أن يستلهموا الحس بـ "الهوية الوطنية"، وهو مفهوم ظهر أو تطور بشكل

أكبر نتيجة للفتح الروماني (لم يكن أهل بلاد الغال يعلمون بأنهم من الغال حتى قام يوليوس قيصر بتصنيفهم على هذا النحو). وأخيراً، فإنه رغبة في أن يكونوا ملوكاً وأباطرة من ذوي الدرجات الرفيعة والنفوذ الواسع، فقد كان البعض يقيم تحالفات محلية في الحروب الأهلية في سبيل الوصول للعرش (مثل سيرتوريوس Sertorius في إسبانيا، وفندكس Vindex في بلاد الغال، وأفيديوس كاسيوس Avidius Cassius في شرق الإمبراطورية. إن الحروب الأهلية، التي أنهت الحقبة الجمهورية، عقدت عدداً لا يحصى من مثل هذه التحالفات).[12]

ومع أن وصفاً كهذا ربما انطوى على مغالاة في التبسيط، يصح القول أيضاً إن هذه المقاطعات لم تحظ جميعها تقريباً بسلام يمكن التعويل عليه، على الرغم من أن طبيعة حركات التمرد وحدّتها قد تغيرتا بمرور الوقت. فثمة ثلاث انتفاضات على الأقل وقعت في آسيا وأكايا Achaea قادها رجال ادعى كل منهم أنه الإمبراطور نيرون، الذي كان قد انتحر بعد خلعه عن العرش في عام 68 ميلادية. وفي مقاطعة بيثينيا Bithynia، التي تقع في الوقت الحاضر شمالي تركيا، منع الإمبراطور تراجان Trajan أي نوع من التنظيمات أو التجمعات، لأن تلك المقاطعة كانت قد اشتُهرت بالتمرد. وعلى الرغم من قلة الأدلة التي تؤكد مخاوف تراجان، لم يسمح الإمبراطور حتى بوجود فرقة للإطفاء؛ وبدا أن قراره هذا قد شكل منطلقاً لمخططه الرامي إلى اضطهاد المسيحيين.[13] وعندما اندلعت انتفاضة بار-كوخبا، كانت مملكة يهودا لما تزل، ومنذ ما يقر ب من مئة عام، إما محمية رومانية، أو مقاطعة تابعة لروما. وخلال الأزمة السياسية والعسكرية، التي نشبت في القرن الثالث الميلادي، أعلنت أجزاء واسعة كبيرة في شرق الإمبراطورية وغربها الثورة - في سوريا ومصر التي كانت تحت حكم زنوبيا ملكة تدمر، وفي بلاد الغال إبّان حكم سلسلة من الأباطرة المحليين - وظلت لعقود من الزمن تعمل بصورة مستقلة قبل أن يتم إخضاعها في نهاية المطاف. بيد أني سأترك هذه الفترة المضطربة خارج نطاق

النقاش، وأركز اهتمامي على الفترة ما بين عام 100 قبل الميلاد حتى عام 200 بعده، والتي جرى توثيق أحداثها بشكل جيد.

وللحفاظ على السلام وتوطيد ركائزه، اعتمد الرومان اعتماداً جزئياً على قدرتهم – كما كانوا يتخيلونها – على إنزال العقاب بالآخرين، في إطار مفهوم اعتادوا التعبير عنه باستخدام المصطلحات القيمية، بدلاً من اللغة المطلقة ذات البعد الاستراتيجي. وفي حديثهم عن حركات التمرد هذه، فإن المؤرخين الرومان يصفونها وكأنها إهانة وتحد، ينبغي أن يكون الرد المناسب عليها هو الانتقام بمنتهى القسوة وبما فيه الكفاية لبث الرعب والخوف في نفوس الرعايا المتمردين. ونفّذ الرومان، في عدد من الحالات، عمليات إبادة جماعية، قضوا فيها قضاءً مبرماً على قبيلة بأكملها، أو شعب بأسره؛ وهو المفهوم الذي تكشف عنه بكل وضوح بعض الأدبيات الرومانية. واستخدموا الإرهاب كوسيلة سياسية، بمعنى معاقبة الرعايا بشكل جماعي بأقصى قدر من الوحشية بغية ترويعهم. وعلى الرغم من أن روما لم تقم، بعد التمرد الذي تزعمه أرمينيوس، باحتلال أي من أقاليم ما وراء نهر الراين مرة أخرى، فإن الحملات التي قادها تيبريوس Tiberius، الذي سيصبح إمبراطوراً فيما بعد، وتلك التي قادها جيرمانيكوس Germanicus، ابن أخيه (وابنه بالتبني)، قد عاثت في الأرض فساداً، ولم يسلم خلالها المدنيون غير المقاتلين من القتل، فيما بدا أنه مخطط يستهدف إبادة الجرمانيين.[14] ولجأ الرومان أيضاً إلى التمثيل بجثث أعدائهم، وإخضاعهم لعمليات ترحيل وتدمير وتقتيل جماعية، تكاد ترقى إلى أعمال الإبادة الجماعية، كوسيلة للعقاب والانتقام والردع. وفي أعقاب حركة تمرد بار – كوخبا، قام الإمبراطور هادريان Hadrian، الذي قاد حملة استهدفت قمع التمرد بنفسه، بطرد اليهود من القدس وأعاد تأسيسها كمستعمرة رومانية. وبحسب أحد المصادر القديمة، فإن قرابة نصف مليون شخص لقوا مصارعهم في تلك الحرب ولم يكتب البقاء إلا لقلة قليلة فقط من البشر. وثمة مصادر أخرى تشهد على ظهور ثقافة عبرية ثرية في المنطقة خلال الفترة التي تلت حركة التمرد -لعل من الصعب تنفيذ سياسة تستهدف تهجير السكان وإبادتهم بطريقة ناجحة

وشاملة- ولكن هناك أمثلة عديدة، سواء في هذا السياق أو في غيره، توثق عزم الرومان على استخدام أقصى درجات الوحشية مع خصومهم. ويتجلى هذا في المقولة التي ينسبها تاسيتوس Tacitus إلى المتمرد البريطاني كالجاكوس Calgacus: «يحولون المدينة إلى صحراء ويسمون ذلك سلاماً». وهناك من المقاطع الشهيرة، المنسوبة إلى كل من بوليبيوسPolybius وجوزيفوس Josephus (المؤرخان اللذان وصفا الهزيمة التي لحقت بشعبهما) ما يعكس سعي الرومان إلى جلب سمعة الوحشية على أنفسهم، وبأنهم القوة التي لا تقهر.[15]

لقد وظفت روما موارد كبيرة جداً في بعض هذه الحملات؛ فقد انشغلت عشرة فيالق، من مجموع ثمانية وعشرين فيلقاً كانت تحت قيادة تيبريوس (الذي أصبح إمبراطوراً فيما بعد)، في قمع انتفاضة إيليريكوم Illyricum في العام السادس للميلاد. وبعد ذلك ببضع سنوات، قام القائد نفسه، إثر اندلاع ثورة أرمينيوس، بغزو ألمانيا بثمانية فيالق، أي جيش الراين برمته البالغ تعداده أربعين ألف رجل، بالإضافة إلى جيش مساند لا يعرف شيء عن قوته، ولكنه ربما ضم العدد نفسه أو أكثر. أما التمرد اليهودي، الذي وقع عام 66 ميلادي، فقد تطلب توجيه نحو أربعة فيالق، أي ما مجموعه 50 ألف جندي، للتصدي له على مدى سنوات عدة.[16]

ومرة أخرى، فإن هذا التحليل ينطوي ضمناً على قدر كبير من التبسيط؛ فحركات التمرد والعصيان التي كانت تنشب في ظل الإمبراطورية الرومانية لم تكن مجرد سلسلة من الحوادث وردات الفعل التي تتم في الخفاء. وهناك الكثير من الأدلة التي تثبت وقوع هذه الحركات في كل مراحل تاريخ الإمبراطورية الرومانية، وفي الكثير من أركانها وبقاعها. فكيف تمكن الرومان من منع وقوعها، والتعامل معها، والرد عليها من يوم إلى آخر، وبواسطة أي أجهزة أو مؤسسات؟

بعض المتمردين لجأ إلى استخدام الإرهاب تكتيكاً، إذ يشير أغلب المؤرخين إلى مثال على ذلك، وهو الجماعة التي يُطلق عليها جوزيفوس اسم "سيكاري" *sicarii*. ووفقاً

لجوزيفوس، فهذه الجماعة كانت قد أعلنت الثورة في القدس في خمسينيات القرن الأول بعد الميلاد؛ وكان أفرادها يقومون باغتيال أهدافهم في وضح النهار، وفي الغالب تحت ستار المهرجانات المزدحمة بالناس. وقد اتخذوا تسميتهم هذه اشتقاقاً من اسم أحد أنواع المناجل التي كانوا يستخدمونها في عمليات الاغتيال. وكما تفعل بعض العناصر الإرهابية في الوقت الراهن، فقد كانت هذه الجماعة تختار أهدافاً لها دلالة رمزية؛ فأول ضحاياهم هو القس الأكبر جوناثان Jonathan «رمز الأرستقراطية الكهنوتية المتحالفة مع الحكام الرومان الأغراب واستغلالهم للناس».[17] واستهدفوا أيضاً ملاك الأراضي الأغنياء في الريف، ودمروا ممتلكاتهم، فيما بدا تحذير للمتعاونين مع الرومان وردعهم. ووفقاً لجوزيفوس، كانت جماعة سيكاري من أنصار أيديولوجية "الفلسفة الرابعة"، التي تنادي بالتمرد على الرومان بناءً على أسس دينية.[18]

ويصف جوزيفوس هذه الجماعة بـ "قطاع الطرق" *lestai*، وهي التسمية ذاتها التي يطلقها أيضاً على أفراد المقاومة الآخرين انتقاصاً وازدراءً. وقد شكلت أعمال السرقة وقطع الطرق ظاهرة واسعة الانتشار داخل الإمبراطورية، وحتى عندما تفتقر هذه الأعمال إلى أبعاد أيديولوجية، فقد كان مقبولاً إلى حد ما إطلاق صفة التمرد عليها بسبب تكرار إعلان الحكومة الرومانية عن رغبتها في القضاء عليها. وعلى الرغم من أن أباطرة وقادة عسكريين كانوا في خطابهم الدعائي قد زعموا بأنهم تمكنوا من القضاء على عمليات اللصوصية والسلب في المناطق الواقعة تحت سيطرتهم، فهناك - في الواقع - الكثير من المؤشرات والأدلة في الأعمال الأدبية والوثائقية التي تشير إلى استمرار تلك العمليات في جميع الفترات الزمنية للإمبراطورية الرومانية وفي كل أقاليمها، بما في ذلك أقاليمها الأكثر قِدماً، ومن بينها إيطاليا بصفة خاصة.[19] وغالباً ما تشير المدونات الإغريقية والرومانية ذات الصلة بعمليات قطع الطرق، إلى اتصاف هذه العمليات في المناطق الريفية بالعنف والجشع، والتي تتضمن أحياناً: شن غارات اللصوصية، وسرقة المواشي، والخطف، والابتزاز، وقطع الطرق العامة، والقتل. وبسبب هذه الأعمال، كان التنقل في الأراضي

الرومانية محفوفاً بالمخاطر حتى لمسافات قصيرة. ويعيش قطاع الطرق هؤلاء عادة على هامش المجتمع، وربما هم في الأصل من الرعاة العبيد الذين يعيشون على هامش الحضارة (وهو ما أثبتته الوثائق بالنسبة لمنطقتي صقلية وجنوبي إيطاليا)، أو من الجنود المتقاعدين، أو من الفارين من الخدمة العسكرية.

وقد وضعت مصادر قديمة جماعات أخرى أكبر تقيم داخل الإمبراطورية الرومانية، وتضم قبائل وجماعات إثنية معينة، في عداد اللصوص وقطاع الطرق. ومن بين أبرز هذه الجماعات الإثنية تلك التي تعرف باسم بوكولوي Boukoloi والتي اتخذت من مستنقعات دلتا النيل موطناً لها. أما في كيليكيا، الواقعة في جنوب شرقي آسيا الصغرى، فقد حافظ الإيسوريون Isaurian، الذين سكنوا المناطق المرتفعة، ولم يتم دمجهم مطلقاً في بوتقة الإمبراطورية الرومانية، على لغتهم ونظامهم القبلي الذي يقوم على الالتفاف حول الرجل الأقوى. ولم تخفت حدة الصراعات الشرسة التي كانت تدور بينهم وبين القاطنين في الأراضي المنخفضة الأكثر تحضراً وعمراناً، سواء خلال الفترة الرومانية أو على مر التاريخ. وما كان يدور بينهم وبين الرومان من مفاوضات أو حروب ضيقة النطاق، فكان أشبه بما يدور بين الرومان وأي عدو خارجي.

أما في يهودا، التي تعد المنطقة الوحيدة التي يتوافر عنها الكثير من المصادر والأدبيات على مدى قرون عدة، فقد انتشرت أعمال السلب والنهب على نطاق واسع في كل فترة من فترات الحكم الروماني. وفي تلك المقاطعة، كان معظم هذه الأعمال له بعد أيديولوجي تمثّل في أن السكان المحليين كانوا يرون في اللصوص وقطاع الطرق أبطالاً يقتلون من أجل حرية اليهود وتخليصهم من نير روما. في هذه المنطقة أيضاً، لم يكن من السهل رسم خط فاصل دقيق بين عمليات السرقة وقطع الطرق وبين نشاطات رجال حروب العصابات؛ إذ إن شبكة الكهوف الصخرية في بعض مستوطنات يهودا يمكن أن تتحول إلى مواقع يتخذها اللصوص مقرات لهم، أو إلى مخابئ يلجأ إليها المتمردون من مقاتلي حروب

العصابات، من هم على صلة بانتفاضة بار-كوخبا؛ أو ربما حدث هناك تداخل سكاني ملحوظ بين هاتين الفئتين. ومن الصعب أيضاً تحديد تواريخ معينة لظهورهما، ولعل كلاً منهما كان قد مارس نشاطه لعقود أو حتى لقرون من الزمن.[20]

وقد يكون الاختلاف بين قاطع طريق، أو زعيم قبلي، أو ملك صغير، أو قائد تمرد، خاضعاً للتفسير والتأويل؛ فهناك بحسب المصادر التاريخية العديد من الأفراد الذين ينتمون إلى أكثر من فئة من هذه الفئات. ولهذا، فقد كانت المساحات الجغرافية الواسعة داخل الإمبراطورية الرومانية مستقلة عن السلطة الرومانية، وكانت أغلبها عبارة عن مرتفعات وسكانها متنقلون بالإضافة إلى صعوبة الوصول إلى هذه المناطق لوعورتها. وكانت هناك جيوب في إمبراطورية روما لم تكن تسري فيها الأحكام والقوانين الرومانية.

وعلى أي حال، فإن التماثل بين عمليات قطاع الطرق القديمة والإرهاب في يومنا هذا قد لا يكون دقيقاً. فالعامل الأيديولوجي ربما كان – أو لم يكن - موجوداً في أعمال اللصوصية القديمة، التي طغى الطابع الاقتصادي عليها من حيث الجوهر؛ وحتى في حال كان للمقاومة طابع إثني أو أيديولوجي، فليس ثمة أدلة قوية تثبت أن الإرهاب (بمعنى استخدام العنف بصورة عشوائية وغير متوقعة بهدف زرع الخوف وزعزعة الاستقرار) كان هو التكتيك المستخدم، باستثناء نشاطات جماعة سيكاري. ومرة أخرى، وباستثناء جماعة سيكاري، فأولئك الذين أطلقت عليهم تسمية قطاع الطرق في الأزمنة القديمة كانوا ينشطون في المناطق الريفية، وغالباً ما اتخذوا من المناطق الوعرة المرتفعة قواعد لهم لا يمكن الوصول إليها، وليس في المدن المزدحمة التي تعد من الأهداف المفضلة للإرهابيين في الوقت الحاضر. ومع ذلك، فإن هناك أوجه تشابه مهمة بين الاثنين. فقطاع الطرق لم يكن ينظر إليهم على أنهم مجرمون عاديون، إذ كانوا أعداء للدولة يخوض الرومان حرباً ضدهم. ولكن هذه الحروب لم تكن، كما كان يعتقد، حروباً بالمعنى الحقيقي للكلمة ضد دولة شرعية؛ وإنما كان عامة الناس يرون الحرب ضد قطاع الطرق بوصفها حرب أدغال، أو حرب عصابات مسلحة، أو حرباً "غير نظامية" (كما نصفها اليوم)، على الرغم من أن هذه

المصطلحات لم تكن مستخدمة آنذاك. إن قطاع الطرق لم يكونوا يعملون بمفردهم، كما يمكن أن نتخيل؛ بل كانوا يتمتعون بما توفره لهم المجتمعات المحلية من ولاء وموارد، مما يساعدهم ويحرضهم على القيام بأعمالهم. كما قد يحظون بحماية ملاك الأراضي المتنفذين، الذين قد يوظفونهم لخدمة أغراضهم ورغباتهم الخاصة، وأعني بذلك، سرقة السكان في المناطق المجاورة واختطافهم، والتنمر عليهم، أو لاستخدامهم كقوات هجومية أمامية في الصراع المستمر الدائر بينهم جميعاً من أجل الأرض والسلطة. وقد تمكن بعض مالكي الأراضي من حشد ما يكفي لتشكيل جيوش "خاصة" من قطاع الطرق، وبما يفوق كل منها في تعداده ما كانت الدولة الرومانية قادرة على حشده من جيوش على المستوى المحلي.

ولعل أفضل الطرق لاعتقال قطاع الطرق، الذين يرتبطون بعلاقات وثيقة بعناصر من المجتمع المحلي أو بأحد ملاك الأراضي، هي تلك التي تتم من خلال المندسين، أو المخبرين، أو عن طريق عمل خياني. وكان يجري القبض على قطاع الطرق عن طريق "اصطيادهم"؛ إذ تتحدث المصادر عن حشود من الجنود، والقتلة المأجورين، والحراس المحليين، ممن آلوا على أنفسهم القيام بذلك.[21] وهناك من الأدلة والشواهد ما يثبت وجود خبراء محترفين (أو شبه محترفين) في القبض على قطاع الطرق، ولم يكن من السهل التمييز بين بعض هؤلاء وبين قطاع الطرق أنفسهم.[22] وكان القانون يشجع، أو يلزم، السكان المحليين والأفراد بملاحقة رجال العصابات وتسليمهم، حتى صار في وسع المواطنين أياً كانوا قتل رجال العصابات تحت مظلة الحماية القانونية.[23] واستهدف القانون أيضاً كل من يقدم المساعدة والحماية لرجال العصابات أو يتلقى بضائع مسروقة منهم، بيد أن هذا القانون لم يكن ذا جدوى كبيرة في هذا الشأن.[24] فقد كان هناك بين طبقة الموسرين وذوي النفوذ الواسع من انتفع من أعمال السرقة وقطع الطرق، بمن فيهم بعض أعضاء مجلس الشيوخ. وكان الخطاب التبسيطي الذي عارض أعمال قطع الطرق في مواجهة السلطة الشرعية يحجب حالة توافرت فيها سلطة رومانية بدائية تعمل في الظل ضمن نظام أكثر تعقيداً وتطوراً قائم على سلطة شخصية تمثلت بقطاع الطرق ومن يوفر لهم الحماية.

وقد أخذ الجيش الروماني على عاتقه مطاردة قطاع الطرق؛ فقد عمد كل من أوغسطس وتيبريوس إلى الإبقاء على كتائب عسكرية، أو "محطات" stations، في أنحاء إيطاليا كافة للسيطرة على قطاع الطرق الذين تمكنوا من تصعيد عملياتهم خلال الحروب الأهلية التي أنهت العهد الجمهوري.[25] ففي بعض المناطق، أُعلنت الطرق والشوارع مناطق عسكرية لتوفير الحماية من أعمال اللصوص وجرائمهم. وثمة مواقع عسكرية أقيمت لتكون بمنزلة أنظمة خاصة بحماية الحدود للسيطرة على عمليات قطع الطرق. وفي كيليكيا، تمكن الرومان في نهاية المطاف (في القرن الثالث والرابع) من تحصين الحدود الداخلية ضد اللصوص الإيسوريين القادمين من المرتفعات.[26]

ودأب حكام الرومان والفصائل التابعة لهم على شن حروب محدودة النطاق ضد المجموعات الكبيرة من قطاع الطرق والخارجين عن القانون. وقاد شيشرون حملات ضارية لمعاقبة عصابات النهب والسرقة خلال فترة حكمه في كيليكيا، وقام بتدمير القرى وإبادة السكان واحتجز رهائن من إحدى المستوطنات بعد حصار طويل، ولكنه لم يستطع تحقيق النجاح على المدى الطويل. ويصف تاسيتوس وقوع حملات أخرى في المنطقة بقيادة مبعوثين من حاكم سوريا في ثلاثينيات القرن الأول للميلاد، ومثلها في عام 51.[27]

وحاول الحكام والأباطرة الرومان أحياناً تحييد عصابات المسلحين هذه عن طريق استخدامهم في مهام فرض القانون، أو تجنيدهم في الجيش إما كأفراد أو على شكل مجموعات كبيرة.[28] وفي أغلب الأحيان، كان القادة الرومان يلجؤون إلى التفاوض بأسلوب دبلوماسي مع هذه العصابات. وعقد شيشرون علاقة قائمة على "حسن الضيافة" *hospitium* مع أحد القادة الإيساوريين الأقوياء (يصفه شيشرون بـ "الطاغية"). وإلى جانب أنواع أخرى من "الصداقة الشعائرية"، شكّلت هذه العلاقات وسائل اتبعها الرومان في بناء علاقاتهم المحلية والدولية في عهد الجمهورية المتأخرة، وكذلك خلال فترات التاريخ الروماني عامة. وقد تعاقب كل من شيشرون وبومبي

ومـارك أنتـوني عـلى الاعـتراف بـزعيم إيـسوري آخـر يـدعى تـاركونتيموتوس Tarkontidmotos بوصفه "صديقاً" لروما، أو لهم شخصياً.[29]

وفي مقاطعة موريتانيا تنجيتانا Mauretania Tingitana الجبلية الـصغيرة الواقعـة في أقصـى الشمال الغربي من المغرب، قام الحكام الإقليميون الرومان بالتفـاوض بـشأن إحلال السلام مع زعماء تلك المناطق الجبلية. وقد نقشت بنود الاتفاقـات "الـشعائرية" التي تم التوصل إليها معهم على الحجر، وتكاد هذه تـشكل تلـك الـدليل الوحيـد عـلى التجربة التي خاضها الرومان في تلك المنطقة. ولم ينتشـر النفوذ الثقافي الروماني بـشكل واسع خارج الأراضـي المحصنة الواقعة في المناطق المنخفضة على الرغم من أنها كانـت، ولأمد طويل، محاطة بالمقاطعات الرومانية. وبرغم عدم توافر شـواهد تؤكـد أن سـكان مرتفعات موريتانيا كانوا من قطاع الطرق، فـإن مـا يلفـت الانتبـاه كثـيراً هـذا التـشابه الواضح بينهم وبين أبناء إيساوريا.[30]

ولم تختلف الحال بالنسبة إلى أعمال قطع الطرق عن حـال حركـات التمـرد؛ فالعامـل العسكري يظل مهماً جداً في هـذه المعادلـة، وإن كـان الجـيش يـؤدي دوره بـالتوازي مـع مجموعة أوسع من العلاقات الاجتماعية، أو حتى في إطارها، إلى حد ما. فالجيش الرومـاني كان جيش احتلال، بالإضافة إلى تنفيذه عمليات عدوانية خارجية، وأخرى محض دفاعية. وقد انطبق هذا بشكل خاص على أقـاليم إسـبانيا وبريطانيـا وموريتانيـا (المغـرب حاليـاً) وسوريا وفلسطين (بعد التمرد اليهودي عام 66) ومصـر. وفي هذه الأقاليم، جرت العادة أن تتركز مواقع الجيش داخل مراكـز حـضـرية أو تنتـشـر خلالهـا، بـدلاً مـن التمركـز في المناطق الحدودية (لم تكـن هنـاك منطقـة حدوديـة في إقلـيم إسـبانيا، فـيما كانـت الحـدود البريطانية قصيرة جداً).[31] وكانـت بعـض المنـاطق في داخـل الإمبراطوريـة واقعـة تحـت الاحتلال، وفي مقدمها منطقتي يهودا الصغيرة التي ضمت نحو عشـرين ألـف جنـدي في بداية القرن الثاني الميلادي؛ وموريتانيا تنجيتانا التي تحولت بـشكل أساسـي إلى معـسكر

للجيش يشغله قرابة عشرة آلاف جندي. وليس ثمة أدلة كثيرة تنبئ باتساع رقعة النفوذ الروماني خارج هذه المنطقة العسكرية.[32] وفي كلتا الحالتين، أثبت الاحتلال الشامل والمكثف عدم جدواه؛ فقد فشلت حامية يهودا في منع اندلاع ثورة بار-كوخبا، أو في قمع عمليات عصابات السلب والنهب التي استوطنت هذه المقاطعة على نطاق واسع، فضلاً عن الانسحاب من موريتانيا تنجيتانا والتخلي عنها في القرن الثالث.

ومن العوامل التي زادت في تعقيد الأوضاع، عدم انتشار الجيش من المركز إلى الأطراف، ليمثل شعباً يسعى إلى الهيمنة على شعوب أخرى، ومع ذلك كان الإمبراطور يدعي بأنه يتحكم بكل تشكيلات الجيش وإداراته بشكل مطلق. وخلال القرن الأول الميلادي، تغيرت تركيبة الجيش الروماني سريعاً من قوة مكونة من "المواطنين/ الجنود" الإيطاليين إلى جيش من المجندين الذين جيء بهم من جميع أنحاء الإمبراطورية، وليس من إيطاليا في المقام الأول. فجرى تشكيل الفيالق التي تتكون بصورة رئيسية من المواطنين المقيمين في الأقاليم، أي من مستعمرات المحاربين القدامى. ولكن هذه المستعمرات لم تكن مجتمعات معزولة ذات أصول إثنية متميزة؛ فسكانها ربما كانوا مستوطنين من المحاربين القدامى، أو ممن أعتق من العبيد، أو من الذين ينحدرون منهم من نسب بعيد، وقد اختلطوا بالسكان المحليين لأجيال عدة. ومن المرجح أن المنحدرين من الجنود الاحتياط المتقاعدين كانوا يشكلون أيضاً مصدراً آخر من مصادر المجندين الذين يتم إلحاقهم بالفيالق. وكان الجيش الاحتياطي، الذي يتكون بكليته من غير المواطنين، أكبر بكثير من جيش الفيالق العسكرية نفسه. وبعد خدمتهم عقوداً من الزمن، حصل هؤلاء الجنود على الجنسية الرومانية بعد تقاعدهم، واستقروا في المناطق التي كانوا مرابطين فيها أثناء الخدمة. وهكذا كان الجيش الروماني يتكون من رعايا الإمبراطورية أنفسهم.[33]

وليتأمل القارئ في وضعية يهودا قبل تفجر الثورة في عام 66: عندما كان هيرود الكبير Herod the Great يفرض سلطته بدعم من الرومان (حتى وفاته في عام 4 قبل

الميلاد) كان يقود جيشاً هيلينياً أنموذجياً يضم قوات من أبناء المستوطنات العسكرية المحلية؛[34] ويتألف في معظمه من السرمتيين Sarmatians، واليدوميين Idumaeans، ورماة الأقواس من اليهود البابليين، و"اليهود من الفلسطينيين"، برغم أن فريق حماة هيرود الشخصيين كان يضم عدداً من الألمان التراقيين Thracian والغاليين. وواصلت المستوطنات الأصلية تزويد الجيش بالمقاتلين دعماً لكل الذين خلفوا هيرود في الحكم، فضلاً عن إنشاء حامية في يهودا بعد عام 6 بعد الميلاد. وظل جزء كبير من هذا الجيش موالياً للرومان وحارب إلى جانبهم لقمع التمرد في عام 66، تحت قيادة الملك أجريبا الثاني Agrippa II، ابن حفيد هيرود. وفي المقابل، فإن هيرود ربما قام بتأسيس هذا الجيش على غرار الجيش الروماني، ووظف فيه ضباطاً من أصول إثنية رومانية؛ بل من المحتمل أنه جند العديد من اليهود في الجيش الروماني، أو الجيش الاحتياطي، خلال فترة حكمه وما بعدها. غير أن الصورة التي يقدمها ميل جيبسون في فيلم **آلام المسيح** *The Passion* لجنود يتحدثون اللاتينية ليست دقيقة. فأولئك الذين تمركزوا في الثكنة "الرومانية" في يهودا كانوا، في الواقع، يتحدثون اللغة الآرامية.

وكان الجيش الذي أرسله الرومان لمواجهة المتمردين في عام 66 في البداية بقيادة سيستيوس جالوس Cestius Gallus، حاكم سوريا، قد ضم جنوداً من فيالق الجيش الروماني (أي من المواطنين الرومان) وجنود احتياط (من غير المواطنين)، وأفواجاً من جيشي ملكين محليين حليفين يُطلق عليهما اسم "العملاء"، ومن الميليشيات السورية المحلية. وفي الوقت نفسه، تحركت القوات الملكية اليهودية، الموالية للملك أجريبا الثاني، ضد المتمردين في ثلاثة مواقع منفصلة. وفي وقت لاحق، توسع الجيش الروماني الأكبر تحت قيادة فيسبازيان ليصل عديده إلى ما يتراوح بين 55 و60 ألف جندي من الجيش الروماني والاحتياط، بالإضافة إلى 15 ألف جندي من قوات الحلفاء. وقد ضم أيضاً ضابطاً يهودياً واحداً على الأقل اسمه تيبريوس يوليوس ألكساندر Tiberius Julus Alexander من مصر.

وكما في هذا المثال، وغيره من الأمثلة الأخرى المستقاة من مختلف أنحاء الإمبراطورية، لم يكن من السهل التمييز بين الرومان والرعايا التابعين لهم. بل إن ما زاد الأمر تعقيداً هو اتخاذ مواطنين بعد عتقهم أسماء رومانية، كما لم يكن بالإمكان تمييز العديد منهم في السجلات التاريخية عن الإثنية الإيطالية. وعلى سبيل المثال، ففي الوقت الذي كان فيه العديد من ضباط جيش هيرود يحملون أسماء رومانية، فإننا لا نعلم يقيناً إن كان هؤلاء من اليهود المعتقين، أو من الجنود الذين جيء بهم (أو تمت استعارتهم) من فيالق الجيوش الرومانية. فهل بوسعنا أن نعد كل المواطنين الرومان من "الرومان الأصليين"؛ بمن فيهم الملك هيرود وخلفاؤه، وجوزيفوس نفسه، وكل جنود الاحتياط المتقاعدين، وعتقائهم، وذرية عتقاءهم؟ وهل يمكن اعتبار بول Paul حاكم طرسوس، الذي اكتسبت عائلته الجنسية الرومانية على يد أحد الرعاة الضامنين patron غير المعروفين، مواطناً رومانياً، شأنه في ذلك شأن بقية العتقاء في عائلته؟ أم هل يجب علينا، بدلاً من ذلك، أن نقتصر في هذا فقط على الموظفين الذين أرسلوا من إيطاليا، وعلى الحاكم وحاشيته؟ أم هل نعتبر أن جنود الفيالق فقط هم مواطنون رومانيون؟ وهنا لابد من الإشارة إلى أن يهودا لم تشهد نشر فيالق رومانية فيها قبل ثورة عام 66. وعند الحديث عن أبناء بلاد الغال، يصف أحد المؤرخين لقب "الروماني" بوصفه منزلة اجتماعية، وليس انتماء إثنياً. وهكذا فالمسألة تبدو عائمة ومتقلبة؛ إذ يمكن لأي شخص أن يكون رومانياً "تقريباً"، أو متداخلاً "تقريباً" في شبكة الثقافة والهيمنة الرومانيتين، حيث لم يكن هناك خط دقيق فاصل بين الحاكم والتابع.[35]

إن ما يشير إليه معظم المؤرخين بطريقة تبسيطية بأنه فتح ليهودا على يد بومبي في عام 66 قبل الميلاد، وإخضاعها لسلطة روما من خلال تنصيب سلسلة من الملوك العملاء، يصفه جوزيفوس بعملية معقدة على نحو محير تشمل عناصر عدة؛ مثل مؤامرة السلالة اليهودية، والحرب الأهلية الرومانية، والعلاقات والنزاعات الدولية بين الرومان والبارثيين من جهة، والرومان واليهود في جهة أخرى، وبين اليهود والبارثيين من جهة

ثالثة، بالإضافة إلى كونها - أي العملية - قد شكلت إطاراً اتسم بطابع محلي طاغ من العلاقات الخاصة، كتلك التي جمعت بين مملكة يهودا وجزيرة العرب. وفي أعقاب أي انسحاب تقوم به القوات الرومانية من المنطقة، تندلع انتفاضة جديدة تحت إمرة أحد المرشحين للإمساك بزمام القيادة، فيما يجري إعادة تثبيت قواعد السلطة المحلية، حتى جاء اليوم الذي حلت فيه أخيراً فترة من الاستقرار النسبي بعد هزيمة أريستوبولوس Aristobulus على يد هيرود في العام 37 قبل الميلاد. ويمكن وصف ضم روما لمنطقة شرقي اليونان، أو فتح قيصر لبلاد الغال، بطريقة مشابهة؛ إذ لا يمكن تفسير التدخل الروماني ووصف نتائجه بطريقة مناسبة إلا من خلال تسليط الانتباه على التوترات والصراعات التي خيمت على المنطقة.[36] وفي هذا الخصوص، قد لا يمكن اختزال قصة "الإمبريالية" الرومانية بقصة جيش لا يقهر انطلق من مركز الإمبراطورية ليتصدى لجماعات سكانية بائسة أقل رقياً تحيط به وتضم أولئك الذين سيكونون مستقبلاً من رعايا الإمبراطورية؛ أو أنه - أي الجيش - قد حكم هذه الإمبراطورية بوصفه طبقة حاكمة تمت "عسكرتها" لتبسط هيمنتها على فئات إثنية وثقافية مختلفة.

ومن الأخطاء التي ترتكبها الدراسات الحديثة عند بحثها لأي جانب من جوانب الإمبراطورية الرومانية أنها تقلل من أهمية دور القوة الفردية مقارنة بقوة الدولة. ويلاحظ أحد المؤرخين أن جوزيفوس في تاريخه المفصل ليهودا، إبّان خضوعها للحكم الروماني، نادراً ما يتناول بالبحث مسألة الدولة الرومانية، فيبدو وكأنه على غير دراية بمفهوم قوة الدولة.[37] ومع أن الجيش كان قد اعتُبِر المؤسسة الأكبر في الدولة الرومانية، فإن العامل الرئيسي في ربط أجزاء الإمبراطورية بعضها ببعض كان يكمن في العلاقات الاجتماعية وليس في القوة العسكرية. وكان الشطر الأكبر من عملية إدارة الحكم "الروماني" يتم في الواقع على أيدي عدد من الأرستقراطيات المحلية، وصغار الملوك والقادة، والشخصيات المتنفذة، وكبار الإقطاعيين، الذين كانوا ينفذون أجنداتهم الخاصة، ولا يطلبون تدخل الجيش أو الحكومة الرومانية إلا إذا كان هذا التدخل يصب في صالحهم. وثمة وكلاء

محليون هم من يقوم بجباية الضرائب؛ فيما يواصل العديد من المؤسسات الحكومية المحلية أداء وظائفها وواجباتها المعتادة. واعتادت الأطراف والجماعات المتنازعة اللجوء إلى الحكام الرومان لفض نزاعاتها، وهو ما جسد جوهر كل من القانون الروماني وأنظمة الحكم المحلية الرومانية، وليس الأوامر الإدارية الرسمية أو إملاءات الاحتلال ومتطلباته. فالكثير من سكان تلك المناطق لم يلحظ وجود مندوب رسمي عن روما، سوى الحضور العرضي لقلة من الجنود هنا وهناك؛ بل إن حضوراً كهذا كان نادراً ما يحدث في بعض المقاطعات. ويصح هذا الكلام حتى في المناطق التي تغيرت فيها وضعية المؤسسات المحلية بسبب ارتباطها بالإمبراطورية الرومانية. وكان مبدأ المشاركة في المكاسب والخسائر يشكل أحد الأسس التي تقوم عليها إدارة العلاقات الاجتماعية الرومانية، وكذلك إدارة الحكم في الإمبراطورية بشكل عام.

ويمكن الذهاب إلى أبعد من ذلك والقول بأن وصف مقاطعات روما بأقاليم متميزة ينطوي على تبسيط مبالغ فيه. فعلى الرغم من أن القانون والسياسة الرومانيين كانا يعترفان بالإقليم بوصفه وحدة إدارية يحكمها حاكم من مرتبة الشيوخ، فإن مناطق مثل صقلية وبلاد الغال أو يهودا لم تكن لها علاقة نظامية موحدة مع روما. وعوضاً عن ذلك، فكل منها بدت وكأنها شبكة من المجتمعات والشخصيات التي تربطها علاقات مميزة مع الدولة الرومانية، المتمثلة بمجلس الشيوخ والإمبراطور (أو بمجلس الشيوخ وشعب روما في العهد الجمهوري)، بالإضافة إلى أفراد من الطبقة الارستقراطية الرومانية. ويصح هذا أيضاً حتى عندما كانت روما تحكم الأقاليم حكماً مباشراً. ولكننا نسمع دوماً عن ظهور سلسلة مربكة من صغار الملوك والقادة المحليين المتحالفين مع روما، التي تعتبرهم جزءاً من إمبراطوريتها. وهذه نقاط تبدو معقدة، وسأحاول توضيحها من خلال مثالين اثنين.

إذا قلنا بأن الرومان في يهودا كانوا يدعمون ملكاً صديقاً مثل هيرود الكبير لعقود عدة حتى وفاته في العام الرابع قبل الميلاد، فإن ذلك قد يثير استغراب بعض مؤرخي

التاريخ الروماني. ولكن الأكثر دقة القول إن يوليوس قيصر أولاً، ومن بعده "قاتل المستبد" كاسيوس، ومن ثم مارك أنتوني، وأخيراً الإمبراطور أوكتافيان، كانوا قد دعموا هيرود، وبأن هيرود قد دعم في المقابل كل واحد من هؤلاء.[38] وفي أثناء القلاقل والاضطرابات التي أعقبت اغتيال يوليوس قيصر في عام 44 قبل الميلاد، وافق هيرود على قبول المساعدة العسكرية من كاسيوس مقابل تحالف مفترض معه، على الرغم من أن الفضل في اكتساب والد هيرود الجنسية الرومانية وتعيينه ملكاً كان يعود إلى يوليوس قيصر. وبعد هزيمة كاسيوس على يد مارك أنتوني، حوّل هيرود ولاءه وعرض تقديم دعمه إلى أنتوني. وعندما غزا البارثيون سوريا ويهودا، وخلعوا الكاهن الأعلى ونصّبوا مرشحهم، وقف أنتوني إلى جانب هيرود في محاولته طردهم، وجعل مجلس الشيوخ يعين هيرود رسمياً ملكاً على يهودا. وتعاون هيرود وجيشه مع أنتوني في حملاته الفاشلة التي شنها في تلك الأثناء ضد بارثيا. وأخيراً، عندما تمكن أوكتافيان من إلحاق الهزيمة بأنتوني في أكتيوم Actium في عام 31 قبل الميلاد، ذهب هيرود في رحلة حج شهيرة إلى أوكتافيان لتغيير ولائه مرة أخرى. وبعد أن أقنع الإمبراطور بأنه سوف يكون مخلصاً له إخلاصه لأنتوني، قبل أوكتافيان بصداقته، وأقر له بملكية بعض مدن فلسطين التي كان الرومان في ذلك الوقت يعدونها جزءاً تابعاً لهم، أو لملكة مصر الراحلة.

ودأب هيرود على مد أصدقائه من الرومان بالجنود متى ما طلبوا منه ذلك، وعلى تأمين مصالحهم وحمايتها بطرق أخرى. وفي المقابل، كان هيرود يتلقى المساعدة التي يحتاجها لتمكينه من هزيمة منافسي سلالته الحاكمة، وتوسيع حدود مملكته. وفي وقائع تاريخ هذا الملك، يبدو واضحاً التشابك المعقد ما بين ثوابت السياسات اليهودية والحرب الأهلية الرومانية مع السياسات الإقليمية والدولية. وبذلك تمكنت الإمبراطورية الرومانية، عبر هذه العلاقات المعقدة، من معالجة التهديدات الداخلية والخارجية، التي لا يسهل غالباً، في سياق نظام كهذا، الفصل ما بينها. وهكذا، فقد أدى هذا النظام دوراً أفضل إلى الحد الذي انتفعت منه الأطراف جميعها.

وبعد وفاة هيرود، وزعت مملكته بين أولاده الأربعة حتى العام السادس للميلاد.[39] ففي ذلك الوقت، وفي خضم اضطرابات أهلية، خلع الرومان أرخيلاوس Archelaus، وأسسوا ولاية يهودا على ذلك الجزء من مملكة هيرود الذي كان يضم القدس أيضاً، فيما واصل أبناء هذا الأخير بسط سلطتهم على الأجزاء الأخرى. وفي عام 41 ميلادية، أوكل الإمبراطور كلاوديوس لأجريبا الأول Agrippa I، حفيد هيرود، السيادة على كامل المملكة التي كان يحكمها هيرود فيما مضى. وبعد وفاة أجريبا الأول في عام 44 ميلادية، أخضع كلاوديوس الجزء الأكبر من تلك المنطقة إلى الحاكم الروماني الذي كان يحمل رتبة فارس. غير أن أجريبا الثاني، نجل أجريبا الأول، استمر في حكم جزء من الجليل. هذا هو واقع الحال في تلك المنطقة التي نعرف القسط الأكبر من تاريخها؛ ولكن من غير المعلوم إن كان تاريخها أكثر تعقيداً من تاريخ سائر المناطق. ومن الواضح أن تعريف الإمبراطورية، التي غالباً ما كانت تعتمد على الحكم العسكري أو الإداري المباشر، لا يعبر عن روح الموقف السائد. أما التعريف الذي يستطيع أن يعبر عن جوهر الواقع حقاً فهو ذلك الذي يأخذ في الاعتبار العلاقات الدينامية بين روما كدولة، والنخب المحلية، والرومان كأفراد.

والمنفذ الوحيد الذي يمكن من خلاله الوقوف على الأحداث في تلك المقاطعة التي خضعت للحكم الروماني المباشر فترة طويلة (أي لسيطرة الحاكم الروماني) يتمثل في الخطابات التي دونت اتهامات شيشرون للحاكم الفاسد كايوس فيريس Gaius Verres وملاحقته القضائية له في عام 70 قبل الميلاد. يومذاك، كانت صقلية، ومنذ قرنين من الزمن تقريباً، جزءاً من الإمبراطورية الرومانية. وتكشف خطابات شيشرون تلك، التي حملت عنوان "ضد فيريس" *Against Verres*، مدى تعقيد كل من العلاقات الرومانية مع صقلية، والعلاقات الاجتماعية التي كانت تربط الطبقة الحاكمة الرومانية بالنخبة الحاكمة المحلية اليونانية.

وقد تعين على أغلبية المقاطعة دفع عُشر ناتجها من محاصيل الحبوب كضريبة. ووفقاً للعقود السائدة آنذاك، فقد كان هذا العشر الذي يجمع كضريبة يباع في صقلية إلى المؤسسات المحلية. وبدا هذا النظام مشابهاً للذي اتبع في عهد هيرو الثاني Hiero II، آخر ملوك سرقوسة، والذي تزامنت فترة حكمه مع الحربين البونيتين الأولى والثانية. ويشير شيشرون في خطاباته المطولة إلى "قانون هيرو" بتقدير عالٍ بوصفه نظاماً قانونياً يرقى خرقه إلى مستوى المخالفة الجسيمة. وبالإضافة إلى ذلك، أعفيت خمس مدن من دفع الضرائب، بينما حرصت مدينتان على دفع الضرائب من تلقاء نفسيهما دون عقود تلزمهما بذلك. وكان ما يجمع في بعض مدن صقلية بموجب العقود الخاصة بجباية الضرائب يباع في روما، وهو ما لم يكن ذا فائدة كبيرة بالنسبة إلى تلك المدن.[40] وعكست الشروط التي تحكم علاقة كل شريحة اجتماعية مع روما، طبيعة الظروف التي أحاطت بمشاركتها سواء في الحرب البونية الأولى أو في الصراعات التي تلتها، أو علاقتها بالجهات الرومانية الراعية لها. وكان كلاودي مارتشيلي Claudii Marcelli وشيشرون يعتبر كل واحد منهما نفسه رئيساً لمقاطعة صقلية كلها؛ بل إن شيشرون كان يصف الصقليين بأنهم «حلفاء وأصدقاء للشعب الروماني وأصدقاء مقربون لي». وثمة مدن مثل سجستا Segesta وسرقوسة وميسانا Messana كانت قد ارتبطت بالفعل بعلاقات مع عائلات أرستقراطية محددة.[41] وأقام عدد من أفراد النخبة اليونانية في صقلية علاقات طيبة مع عدد من أعضاء مجلس الشيوخ الرومان؛ وهي العلاقات القائمة على "حسن الضيافة" التي ظل حضورها واضحاً خلال سير محاكمة فيريس؛ فقد كان من بين الشواهد التجريمية استخلاص أدلة إدانة ضد فيريس باستجواب أحد أولئك الذين استضافهم يوماً وهو هيوس حاكم ميسانا Heius of Messana، أو ترؤس جلسة الإدانة الظالمة من قبل شخص آخر ممن استضافهم كذلك ويدعى ستينيوس حاكم ثيرما Sthenius of Thermae.[42]

لم يكن هناك جيش روماني في صقلية. وعندما احتاج فيريس إلى ما يعرف بـ "قوات الصدمة" لتنفيذ مخططاته الابتزازية، فقد استدعى العبيد الذين يتولون حراسة معبد

أفروديات في إريكس Eryx والذين تتلخص مهمتهم الاعتيادية في حماية خزانـة المعبـد.[43] وكان يتلقى حـصة شخـصية لنفـسه مـن مؤسـسات الـضـرائب المحليـة، وكـذلك مـن الارستقراطيين الذين كانوا يقاضون خصومهم أمام محكمته.[44] وفي أثنـاء ذلـك، وضـمن مساعيهم الرامية لتحقيق الإصلاح، توجه عدد من أبناء صقلية إلى روما، وأرسلت المـدن بعثـات حملـت قـضاياها إلى رعاتهـا ومعارفهـا في مجلـس الـشيوخ، حيـث تمـت محاكمتـه أمامهم.[45] ومع أن حكم فيريس تميز بالفساد والجشع، فإن علاقاته داخل صقلية وخارجها هي التي سمحت له بالاستمرار دون أن يخشـى مساءلة من أي كان. ولا يشير شيـشـرون إلى وجود أي تمرد خلال هذه الفترة؛ وهو بعبارات توحي بالتعالي يصف الـصقليين بـأنهم شعب خنوع سهل الانقياد كالأطفال.[46] ولعل التفسير الأكثر جدارة بالتصديق لانحـسار مد حركات التمرد في صقلية في عهد شيشـرون - بافتراض صحة ذلك - هو اتساع نطاق الروابط القائمة بـين الطبقـة المحليـة الحاكمـة والارسـتقراطيين الرومـان، كـما توضـحها خطابات شيشـرون بكل جلاء.

فما هو التمرد إذاً؟ وماذا نعني بمكافحة التمرد؟ إن من بين وسائل تـدارس ظـواهر التمرد والمقاومة وأعمال اللصوصية وقطع الطرق النظر إليها عـلى أنهـا مواضـع هـشة، أو لنقل ثغرات، في نسيج العلاقات الاجتماعية التي حفظت لأركـان الإمبراطوريـة تماسـك بعضها ببعض، وعززت ارتباطهـا بالنخبـة الأرسـتقراطية مـن أعـضاء مجلـس الـشيوخ، وبالإمبراطور نفسه. وفي حالات أخرى، فإن إحدى "عقد" هذا النسيج قد تتمثل في أحد صغار الملوك، أو ارستقراطي روماني، أو قائد عسكري في أحد جيـوش الاحتيـاط، يقـوم بفـرض نفـوذه وسـلطته في اتجـاه آخـر، فيـسهم بـذلك في تفعيـل مجموعـة جديـدة مـن الارتباطات التي تتنـاقض مـع العلاقـات والمـصالح الـسائدة. وقـد تفاعلـت العلاقـات الدولية، والسياسة المحلية، والمنافسات داخل الطبقة الرومانية الحاكمة بشكل لا ينفـصم، أو عملت ضد بعضها بعضاً.

واعتاد الرومان خوض مفاوضات دبلوماسية الطابع مع صغار الملوك، والزعماء القبليين، والبدو الرحل، وحتى مع السراق وقطاع الطرق.[47] ولم يترددوا في دفع الإعانات لهم وإبرام المعاهدات معهم، بل وحتى منحهم الجنسية الرومانية والألقاب الفخرية، والدعم العسكري. وأقاموا مجموعة لا حدود لها من العلاقات الفردية التي ربطت الطبقة الحاكمة الرومانية مع الأرستقراطيين المحليين والمتنفذين. وفي حال فشلت هذه الشبكة من العلاقات الاجتماعية، كما كان يحدث غالباً، فقد كانوا يتجهون إلى ممارسة الحكم عن طريق القوة العسكرية؛ فيحتلون الأراضي، وعلى نطاق واسع أحياناً، ويشنون حروباً كبرى ضد المتمردين، ليتباهوا بقدرتهم على تحقيق النصر عليهم نتيجة قوة تماسك صفوفهم وتفوقهم في مجالي الانضباط والهندسة العسكرية. ولم تفتهم محاربة العصابات الإجرامية باستخدام الدوريات والتشكيلات الصغيرة، وأحياناً بتوجيه حملات عسكرية ضدهم، وببث الرعب في نفوس المتمردين بتنفيذ عمليات انتقامية ضدهم وإيقاع عقوبات قاسية بهم. وعلى أي حال، فمن الصعب تقرير نجاح هذه التدابير أو فشلها؛ فمع أن الإمبراطورية الرومانية كانت قد حافظت على بقائها فترة طويلة، فإن أي عهد من عهودها لم يكن ليخلو من حركات المقاومة والتمرد. غير أن بحثي هذا لا يدور حول مدى فاعلية الجيش الروماني من عدمها؛ لأن الجانب العسكري للتمرد ومكافحته، بل حتى للإمبراطورية ذاتها، ليس إلا قمة جبل الجليد العائم. لقد تمكن الرومان من بسط حكمهم بفضل امتداد شبكة علاقاتهم الاجتماعية لتغطي كل مكان تقريباً، أو لنقل إنها، على أقل تقدير، قد طالت أماكن بعيدة. وربما كان بإمكان أيٍّ كان التلاعب بهذه العلاقات واستغلالها. إن التسليم بوجود شبكة من العلاقات تتسم بالتوتر والدينامية التي يسعى جميع اللاعبين فيها بقوة إلى تحقيق ما يعتقدون أنه يمثل مصالحهم الخاصة، قد يكون أفضل طريقة لتصور وضع الإمبراطورية، حتى لو كانت هذه الشبكة تعاني بعض الثغرات والثقوب، ووجود شبكات بديلة داخلها ترتبط ارتباطاً ضعيفاً بالشبكة الرئيسية، ولكنها - مع ذلك - تعتبر فاعلة ومؤثرة.

على صعيد سياستها الخارجية، تواجه الولايات المتحدة الأمريكية اليوم مشكلات مشابهة للمشكلات التي واجهتها كل الإمبراطوريات، قديمها وحديثها. وبالتحديد، فإن احتلال أراضٍ خارجية يظل دائماً مهمة مكلفة وشاقة، فالسلطة "الحاكمة" تمارس حكمها كأقلية صغيرة دائماً أيضاً. لقد شاعت كثيراً إبّان العقد الأخير ظاهرة التأمل في تاريخ الإمبراطورية الرومانية لاستنباط دروس قابلة للتطبيق في يومنا هذا.[48] وتصبح مهمة استخلاص الدروس صعبة للغاية في ضوء الفوارق والاختلافات الاقتصادية والتكنولوجية (وليتخيل القارئ امتلاك الرومان أسلحة نووية!) والديمغرافية والاجتماعية بين العصر الحديث وما قبله. كما لا يتفق الجميع على مدى ملاءمة هذه المقارنة أو تمتعها بالشروط الأكاديمية المطلوبة. وكنت قد عبرت شخصياً عن شكوكي بهذا الشأن.[49] ولكن عندما يطلب مني أن أعلق على الدروس العملية المستقاة من التاريخ الروماني، فسوف يتركز جوابي على الدور المركزي الحاسم الذي لعبته المؤسسات الاجتماعية في الحفاظ على وحدة الإمبراطورية الرومانية وترابط مكوناتها، ولكن مع التنبيه إلى وجود هذه المحاذير. لقد تمكن الرومان (بصفة جماعية "كدولة" أو كأفراد) من الاستمرار في الحكم؛ لأن شبكة علاقات الطبقة الحاكمة التي تتضمن البلدان التابعة والخدمات المستحقة والخدمات التي يجري التفاوض بشأنها، امتدت إلى كل مكان. وفي الأماكن الأخرى التي لم تغطها شبكة العلاقات الاجتماعية الرومانية هذه، أو عندما تختار فئة من الطبقة الحاكمة أن تقيم شبكة علاقات خاصة بها تتعارض مع مصالح أطراف أخرى، فإن وضعاً كهذا لابدّ وأن يضعنا في مواجهة مشكلات عدة. لقد نجحت الإمبراطورية الرومانية لأنها اعتمدت على شيوع ثقافة اجتماعية مشتركة بينها وبين نخب المقاطعات التابعة لها، أو لأنها أسهمت ببناء مثل هذه الثقافة، أولاً؛ ولأن عناصر قوية وفاعلة من السكان الخاضعين لها وجدوا أن من مصلحتهم الاعتراف بسلطة روما، ثانياً. وربما يمكن العثور على أقرب مثال معاصر شبيه بذلك الوضع في "القرية العالمية" التي

خلقتها تكنولوجيا الاتصالات، والمؤسسات المالية، والتجارة الحرة، والدور الذي تقوم به أذواق المستهلكين ومصالحهم في بناء وشائج متينة تربط المجتمعات الدولية بعضها ببعض في الوقت الراهن. إن التركيز على المصالح الاقتصادية والثقافية المشتركة، وليس على النظريات والمذاهب الفكرية الجامدة، يمثل أحد المسارات الواعدة التي يمكن للسياسات الخارجية أن تسلكها في المستقبل.

الفصل الثامن

حروب العبيد في اليونان وروما

باري شتراوس

مجازر تقام للمدنيين، وزعماء دينيون كاريزميون يجاهرون بولادة عهود الإرهاب، ومتمردون يحققون انتصارات باهرة على جنود نظاميين، وأفراد الفيالق يطاردون عبيداً فارين في التلال، وصفوف من الصلبان منصوبة على الطرقات علقت عليها جثث من أُسر من المتمردين، وأضرحة تقام لاحقاً تخليداً لشهداء حركة تمرد نبيلة، صور بعضها مألوف، وبعضها ليس كذلك، بعضها اكتسب شعبية واسعة بفضل هوليوود، وبعضها الآخر بدا وكأنه "انتزع من العناوين الرئيسية"، بحسب التعابير المستخدمة في صحف الإثارة (التابلويد)، وما هي إلا صور حقيقية لثورات العبيد القديمة. ولكننا إن استثنينا فترة الأعوام السبعين من تاريخ الإمبراطورية الرومانية المتأخرة بين عامي 140و70 قبل الميلاد، فإن ثورات العبيد تصبح أحداثاً نادرة الوقوع في العالم القديم.

وقد يبدو هذا غريباً؛ لأن العبودية أدت دوراً محورياً في اقتصادات كل من اليونان وروما. فقد عاش الملايين من البشر، رجالاً ونساء، وماتوا، في المناطق القديمة المحيطة بالبحر الأبيض المتوسط، وهم مكبلون بأغلالهم. وتكيف معظمهم صاغرين مع واقع الاستعباد الذي بات أمراً مألوفاً في نظرهم؛ ووجد بعضهم طريق الخلاص في الانعتاق الذي كان أكثر شيوعاً في مجتمعات العبودية القديمة مقارنة بالحديثة منها. ولجأ آخرون إلى أعمال المقاومة والاحتجاج اليومية لمواجهة ما كانوا يتعرضون له يومياً من سوء معاملة وإذلال. وأساء بعض العبيد التصرف، وتلاعب آخرون منهم بأسيادهم، أو لاذوا

بالفرار، فيما لم يكن لبعضهم خيار سوى الرضوخ والتكيف مع هذا الواقع. ومع ذلك، ظل التمرد، بمعنى تفجر انتفاضات مسلحة جماعية طلباً للحرية، حدثاً استثنائياً.

وكان سبارتاكوس، المصارع المجالد الذي قلبت ثورته إيطاليا رأساً على عقب بين عامي 73 و71 قبل الميلاد، إنساناً غير عادي بقدر ما اكتسب من شهرة. وكما سنرى، فإن ثمة ظروفاً استثنائية كانت قد جعلت عهد الإمبراطورية الرومانية المتأخرة عصراً ذهبياً لحروب العبيد القديمة. أما بالنسبة إلى سائر العصور القديمة، فإن قلة قليلة من العبيد بدت مستعدة للمخاطرة بفقدان ذلك النزر اليسير الذي حصلت عليه من المكاسب في حرب تخوضها ضد الفيالق الرومانية أو الكتائب اليونانية. ولعل عدداً أقل من العبيد كان قد امتلك الدراية، أو الفرصة، للقتال في صفوف جيش من المتمردين، فما بالك بتنظيم جيش كهذا. ولكن أسيادهم كانوا - برغم ذلك - يشعرون بالقلق؛ وما الندرة النسبية لثورات العبيد إلا انعكاس لتزايد الاهتمام الذي كرسه هؤلاء الأسياد لقضية الأمن. وقد اجتمعت آراء النخب اليونانية والرومانية على دعوة الأحرار إلى اليقظة المستمرة ضد أعمال العنف التي قد يقدم عليها العبيد، فيما بات لجوؤهم إلى اتخاذ مجموعة كاملة من الإجراءات الاحترازية بديهياً؛ مثل الامتناع عن شراء عبيد من ذوي العزيمة والإرادة القوية، وإبقاء العبيد الذين ينتمون إلى جنسية واحدة منفصلين بعضهم عن بعض، حتى لا يشعروا بوجود قضية مشتركة بينهم.

ومع ذلك، فقد اندلعت الثورات حتى في حقب أخرى غير حقب الجمهورية الرومانية المتأخرة. وقبل الخوض في وصف هذه الحركات، فنحن بحاجة إلى الخروج بتعريف للمصطلحات المستخدمة؛ لأن العبودية القديمة لم تكن تشكل مؤسسة ذات مكونات متجانسة فيما بينها. فقد كان العالم القديم قد خبر أصنافاً مختلفة من العمل غير الحر، يأتي في مقدمها صنفي العبودية التملكية chattel slavery والاسترقاق المجتمعي communal servitude.[1] أما العبودية التملكية؛ فهي تجسيد للفكرة المنطقية المعبّرة عن

الرق [العبد المملوك]، وهي مألوفة حديثاً لانتشارها في أماكن مثل أمريكا الجنوبية أو منطقة البحر الكاريبي أو البرازيل، حيث كان يجرى استيراد البشر من الخارج، ويتم بيعهم وشراؤهم مثل أي "أشياء" أخرى. أما الاسترقاق المجتمعي؛ فهو ينطوي على عبودية جماعية لشرائح بأسرها، سواء في إطار مجتمع واحد بعينه، أو عبر منظومات مجتمعية كاملة. وتوخياً للوضوح، يشير العديد من الكتاب إلى العبيد المجتمعيين بوصفهم أقناناً [غالباً عبيد الأرض]، ولكن ظروف الاسترقاق المجتمعي كانت أشد قسوة من عبودية الأقنان إبان العصور الوسطى. فعلى سبيل المثال، لم يكن بالإمكان قتل الأقنان من دون سبب، وإن كان هذا ممكناً بالنسبة إلى ضحايا الاسترقاق المجتمعي. ومع ذلك، فقد كان القدماء يميلون إلى التعامل مع العبيد المملوكين بازدراء أكبر من الأقنان. وبناء عليه، فإن التفريق بين الأقنان والعبيد على هذا الأساس بدا منطقياً بعض الشيء.

وقد اتسع نطاق العبودية التملكية، سواء في اليونان الكلاسيكية والهيلينية، أو في روما في عهديها الجمهوري والإمبراطوري. وقد شكّلت أثينا، ودويلات غيرها مثل إيجينا Aegina وخيوس، إلى جانب مناطق مختلفة في الأناضول، مراكز للاسترقاق اليوناني؛ في حين عُدت إيطاليا وصقلية والمناجم الإسبانية بؤراً للرق الروماني. وقبل أن تدمرها روما في عام 146 قبل الميلاد، قامت قرطاج بدور واضح في تعزيز العبودية على نطاق واسع في شمال إفريقيا. وأما الاستعباد المجتمعي فكان ظاهرة يونانية في المقام الأول، وظهرت في أماكن مثل ثيساليا وكريت وأرغوس؛ ولكن الأنموذج الأكثر شهرة لهذا النوع من الاستعباد هو ذلك الذي يمثله مجتمع من عرفوا باسم الـ "الهيلوت" *helots* في إسبارطة، والذي تألف من مجموعتين بشريتين إقليميتين تقيمان في منطقتين كانت إسبارطة قد غزتهما وأخضعتهما لهيمنتها، وهما: هيلوت لاكونيا في الأجزاء الجنوبية الشرقية من إقليم بيلوبونيز، وهيلوت ميسينيا في جنوب غربي الإقليم [وسوف يستخدم مصطلح الهيلوت الدال على هؤلاء العبيد في هذا الفصل حيثما أورده المؤلف].

ولابدّ هنا من كلمة تمهيدية حول المصادر والمراجع التاريخية؛ فمع أن الحروب القديمة موثقة توثيقاً سليماً وجيداً نسبياً، ولكن هذا لا يصح بالنسبة إلى ثورات العبيد القديمة. والوثائق والسجلات الموجودة حتى الآن قليلة العدد نسبياً. ويعود هذا في بعض أسبابه إلى سوء الحظ، وإن كان يعكس أيضاً عزوف النخب القديمة عن الاهتمام بهذا الموضوع. فحروب العبيد لم تكن تنطوي على الكثير من الأمجاد، ولا توفر فرصاً جيدة للحصول على الغنائم؛ بل لعلها كانت تتسبب في خلق الكثير من المواقف المحرجة. والعبيد قد كتب عليهم الاحتقار والازدراء، ولم يكن الانتصار عليهم يمثل فخراً وشرفاً، وهذه حقيقة لم يكن أمام الرومان إلا الإقرار بها، وذلك بامتناعهم عن إسباغ صفة المنتصر على القائد الذي يكسب حرباً ضد عبيد، فضلاً عن انعدام فرص كثيرة للحصول على الغنائم؛ لأن القادة العسكريين لم يكونوا يتساهلون حيال أعمال النهب والسلب التي تقع في أراضٍ صديقة [فالعبيد يعملون فحسب، فلا يملكون تلك الأراضي حتى تنهب]. وآخر الأسباب يكمن في التناقض الذي تنطوي عليه الحروب التي تشن ضد العبيد؛ إذ إن قتل "العدو" [أي العبيد] في حروب كهذه كان يفضي إلى نتائج عكسية، لأنه يعني تدمير ممتلكات تعود لمواطنين من أبناء البلد نفسه [بوصف العبيد ممتلكات]. أما خسارة حرب أمام العبيد، فهي أمر لا يطاق بطبيعة الحال.

والمسألة الأخرى التي ارتبطت بالمصادر والمراجع القديمة هي أنها جميعاً تمثل وجهة نظر الأسياد من الناحية العملية. ولا يمكننا فعل الكثير سوى القيام بتخمينات حول خطط المتمردين أو دوافعهم. والشيء نفسه ينطبق على دراسة العبودية حتى في الحقب التاريخية الأكثر حداثة.

إن التحول إلى دراسة حروب العبيد وتقصيها يعني مواجهة ظاهرتين مختلفتين هما: ثورات العبيد المملوكين، وثورات مجتمعات الأقنان. فهذه الأخيرة تتسم بمزيّة القومية المشتركة فيما بين أفرادها، وبعمق جذورهم المحلية التي تعود إلى أجيال بكاملها؛ فضلاً

عن أنهم يحظون بفرص أكبر من فرص العبيـد المملـوكين، تتيـح لهـم الخدمـة في جيـوش أسيادهم أو قواتهم البحرية. وعلى الرغم من أنهم غالباً ما كانوا يستخدمون بصفة خدم أو مجدِّفين للقوارب، فإنهم أحياناً يخدمون كجنود نظاميين أيـضاً.[2] ونظـراً إلى أن الأقنـان قـد شكّلوا قوة قتالية مهمة إلى جانب أسيادهم، فقد أتيحت لهم في الوقت نفسه فرصة للفـوز بدعم أعداء أسيادهم الخارجيين لهم. وأما العبيد المملوكين فكانوا عند تمردهم يعانون كل ما يقابل الميزات السابقة للأقنان لتنقلب إلى مـساوئ مثـل عـدم التجـانس، والاغـتراب، والنقص النسبي في الخبرة العسكرية، وغياب فرص الاستفادة من العون الخـارجي. غـير أن الميزة الكبيرة الوحيدة التي يتميزون بها على مجتمعات الأقنان هي عنصـر المباغتة؛ إذ إن ندرة وقوع ثورات العبيد المملوكين لطالمـا أغـرت أسـيادهم بخفـض مـستويات اليقظـة والاستعداد الواجب اتخاذها لمواجهة مثل هذه الثورات. وربما كان حلول العبيد المملوكين في أدنى المراتب اجتماعياً عوناً لهم، فهو يضعف حماس أسـيادهم وانـدفاعهم للـدخول في حرب ضد عدو "غير جدير" وضعيف ظاهرياً كهذا.

لم تكن ثورات مجتمعات الأقنان حـدثاً غـير مـألوف في اليونـان القديمـة؛ فبحـسب أرسطو، غالباً ما كانت طبقتـا البينـستاي *Penestai* في ثيـساليا، والهيلـوت في إسـبارطة، تلجآن إلى العصيان التمرد.[3] وإذا كنا لا نعرف إلا القليل عن ثيساليا، فـإن مـا نعرفـه عـن إسبارطة أكثر بكثير. فالعديد من الكتاب القدامى يسهب في الحديث عن التـدابير الأمنيـة التي اتخذتها إسبارطة ضد تمرد الهيلوت، والتي تراوحـت بـين احتجـازهم خلـف أبـواب مقفلة (وخلع أحزمة دروع الجنود المقاتلين مـنهم أثنـاء الحمـلات العـسكرية) إلى إعـلان الحرب عليهم سنوياً، بل حتى إطـلاق العنـان للعـسكريين الإسـبارطيين، الـذين تـراوح أعمارهم بين ثماني عشـرة وعشـرين سنة في مواطن إقامة الهيلـوت. وعـلى أي حـال، فـإن هيلوت ميسينيا، وليس لاكونيا، هم من كان يمثل التهديد الأكبر. فقد أعلنوا، في وقت مـا من عام 670 قبل الميلاد، العصيان في حركة تمرد غامـضة عرفـت باسـم الحـرب الميسينية الثانية (انـدلعت الأولى في عـام 735 قبـل الميلاد تقريبـاً، وهـي تمثـل الفـتح الإسـبارطي

لميسينيا)، وكذلك في انتفاضة أخرى موثقة على نحو أفضل قليلاً وعرفت باسم الحرب الميسينية الثالثة في الفترة بين عامي 464 و455 قبل الميلاد.[4]

انتهت الحرب الميسينية الثالثة قرابة عام 455، عندما منحت إسبارطة المتمردين ممراً آمناً لمغادرة معاقلهم؛ فبادرت أثينا، خصم إسبارطة اللدود، إلى توفير موطن لهم في مدينة ناوباكتوس Naupactus على الشاطئ الشمالي لخليج كورينث، والتي تعد قاعدة بحرية استراتيجية. وفي عام 425، أقامت أثينا حصناً في بيلوس Pylos، على ساحل ميسينيا، واستخدمت الميسينيين المقيمين في ناوباكتوس للإغارة على تلك المنطقة وتقديم الدعم للهيلوت الهاربين. وفي عامي 424 و413، أقامت أثينا قواعد أخرى في أراضٍ أخرى تابعة لإسبارطة لتشجيع الهيلوت على الفرار. ولم تتحقق الحرية كاملة لهيلوت ميسينيا إلا بعد قيام جيش بؤوتيا بغزو أراضـي إقليم بيلوبونيز عام 369، حيث تم تحرير ميسينيا وحصول عاصمتها ميسين على استقلالها بوصفها إحدى دويلات المدن بعد نحو 350 عاماً من سيطرة إسبارطة عليها.

وبالمقارنة مع ثورات مجتمعات الأقنان، فإن ثورات العبيد المملوكين تبدو نادرة الحدوث. والتاريخ اليوناني يقدم ثلاثة أمثلة فقط عن هذه الثورات: الأولى في جزيرة خيوس بقيادة من عرف باسم دريماكوس Drimacus، وربما كان ذلك في القرن الثالث قبل الميلاد، والثانية في أثينا وديلوس وفي غيرهما نحو عام 135–134 قبل الميلاد، والثالثة في أثينا في الفترة 104–100 قبل الميلاد. ولعل الأكثر شيوعاً في التاريخ اليوناني هي ظاهرة الدول أو الحركات الثورية التي تعتق رقاب العبيد المملوكين مقابل الحصول على دعمهم، مثلما فعلت أثينا عندما منحت الحرية لهيلوت إسبارطة خلال الحرب البيلوبونيزية. وعلى سبيل المثال، ففي السنوات الأخيرة من هذه الحرب (431–404 قبل الميلاد)، هرب أكثر من عشرين ألف من عبيد أثينا إلى حصن ديكيليا Decelea عند التلال الواقعة على الحدود الشمالية لأثينا.[5] وفي واقع الأمر، فقد كان الإسبارطيون، الذين أنشؤوا هذا الحصن

ينتقمون بذلك من أثينا بسبب المساعدة التي قدمتها لحركة العصيان التي قادها الهيلوت الميسينيين في إسبارطة. وهنا تجدر الإشارة إلى أن بعض الهاربين من العبيد إلى أثينا كانوا كالمستجير من الرمضاء بالنار، فقد بيعوا على ما يبدو "بثمن بخس" إلى أهل طيبة عبر الحدود من أثينا.[6]

ومن الأمثلة الأخرى على تلكم الحركات أو الدول التي تعِد بتحرير العبيد، هي المحاولة الانقلابية التي قام بها سوسيتراتوس Sosistratus في مدينة سرقوسة خلال الفترة 415–413 قبل الميلاد؛ وكذلك عروض منح الحرية للعبيد التي قدِّمت أثناء الحروب التي شنت ضد الرومان من قبل كل من هذه المدينة نفسها في عام 214؛ والعصبة الأكيائية Achaean League في عام 146؛ فضلاً عن حرب شنها ميثراداتس يوباتور السادس Mithridates VI Eupator ملك بونتوس في عامي 86 و 65 قبل الميلاد، وحركة التمرد القومية الطابع التي تزعمها أندريسكوس Andriscus في مقدونيا في عام 149–148 قبل الميلاد، والتي يبدو أنها حظيت ببعض الدعم من جانب العبيد، وانتفاضة مماثلة في بلاد الأناضول قادها أريستونيكوس Aristonicus من برجاموم Pergamum في الفترة 133–129 قبل الميلاد.

وبالرجوع إلى التاريخ الروماني، نجد أن مصادر ثورات العبيد المملوكين كانت أفضل نوعاً ما، وإن كانت أبعد من أن تكون ثرية في محتوياتها. نحن نسمع عن انتفاضات حدثت منذ الأيام الأولى للجمهورية، ولكن أول تقرير موثوق يعود إلى ثورة العبيد التي حدثت في وسط إيطاليا في عام 198 قبل الميلاد، وهي عبارة عن تمرد قام به أسرى الحرب القرطاجيون المستعبدون الذين ألقي القبض عليهم خلال الحرب البونية الثانية التي كانت قد انتهت للتو (218–201 قبل الميلاد). وقد سُجلت حالات عديدة أخرى عن عصيان العبيد في جنوب إيطاليا (وحالة واحدة فقط في وسطها) في ثمانينيات القرن الثاني قبل الميلاد، وفي عام 104 قبل الميلاد أيضاً. ومن المحتمل أن تكون الطقوس الدينية، الممزوجة

بحالات من التصوف الديني في بعض الحالات، ووراء عدد من الثورات التي قام بها الرعاة. وقد شارك في بعض هذه الانتفاضات الآلاف من المتمردين، ولكن ما تلا ذلك أدى إلى تحجيمهم.

وثمة انتفاضات ضخمة، شارك في كل منها عشرات الآلاف من العبيد المتمردين، كانت قد اندلعت أولاً في صقلية، ومن ثم في إيطاليا بين عامي 140 و70 قبل الميلاد؛ وهي التي صارت تعرف بحربي العبيد الصقليتين الأولى والثانية (135–132 و104–100 قبل الميلاد، على التوالي)، إضافة لحركة التمرد التي قادها سبارتاكوس (73–71 قبل الميلاد). وتعد هذه الحروب الأكبر بين الرقيق في العالم القديم، بل إنها تدخل في عداد ثورات العبيد الكبرى في التاريخ. وقد نشبت هذه الحروب في إطار حقبة زمنية لا تتعدى سبعين عاماً، وضمن مساحة جغرافية صغيرة نسبياً، بل حتى أصغر مما نتخيل، إذا ما أخذنا في الاعتبار أن سبارتاكوس حاول توسيع نطاق ثورته من جنوب إيطاليا إلى جزيرة صقلية. وتمثل هذه الحروب، التي تفصل بين الواحدة والأخرى منها فترات زمنية تتراوح بين عشرين وثلاثين سنة، ما يقرب من ثلاثة أجيال من حركات التمرد.[7]

وعلى الرغم من المبالغة التي يضفيها الكتاب الماركسيون على حروب العبيد الرومانية الكبرى، وما تعرضت له تلك الحروب من محاولات التقليل من شأنها عبر الروايات "البورجوازية" لأحداث تاريخ الجمهورية المتأخرة، تظل هذه الحروب مهمة حقاً. فقد أسهم فشل روما في قمع التمرد الصقلي الأول في شيوع الإحساس بالأزمة العسكرية التي حفزت تيبريوس جراكوس Tiberius Gracchus على القيام بإصلاحاته، والتي بدورها أدت إلى انطلاق الثورة الرومانية.[8] وجاء إخفاق روما في وقف تحركات سبارتاكوس ليفسح المجال أمام القادة العسكريين المحترفين، الذين كانوا يمثلون أكبر تهديد للجمهورية، للتقدم على السلم المهني للترقيات. ومن خلال جعل المناطق الريفية مناطق غير آمنة، أسهم العبيد المتمردون في إشاعة إحساس بانعدام الأمن، ما شجع الرومان على تسليم مقاليد إدارة الدولة إلى القياصرة.

ولم يكـن توقيـت حـروب العبيـد الكـبرى، ولا المواقـع التـي نـشبت فيهـا، وليـد المصادفات. فقد ظهر ما بين عامي 300 و100 قبل الميلاد اقتصاد جديد في إيطاليا وصقلية الرومانيتين قائم على الرق. فقد تمكنت روما من ملء إيطاليـا بـالعمال الأرقّـاء، تغـذيها في ذلك الفتوحات العسكرية التي حققتها في المناطق المطلة على البحر الأبيض المتوسـط. وفي غضون القرن الأول قبل الميلاد، كان هناك ما يراوح بين مليون ومليون ونصف من العبيد في شبه الجزيرة الإيطالية، أي ما يقرب من 20 في المئة من إجمـالي سـكان إيطاليـا. وقـد تـم جلب نسبة كبيرة من هؤلاء العبيد من بقاع كانوا يعيشون فيها أحـراراً. واشـتملت قائمـة المصادر التي تورد الرقيق على عدد من القادة الرومان، ورجال أعمال محليين، وتجار رقيـق، إضافة إلى القراصنة. وقد انتشـر هؤلاء القراصنة في منطقة شـرقي البحـر المتوسـط نحـو عام 100 قبل الميلاد، وكان لهم حضور واسع في مجال المتاجرة بالعبيد، حيث دأبوا على نقل البشـر الذين يجري اختطافهم وبيعهم كعبيد، تماماً مـثلما تفعـل العـصابات الإجراميـة في الوقت الحاضـر وتنقل المخدرات عبر الحدود الدولية.

وعلى الرغم من أن بعض العبيد في روما شاركوا في نشاطات حـضـرية، فقـد جـرى تسخير الأغلبية منهم للعمل في ميدان الزراعة، حيث يقام الكثـير مـن المشروعات التـي تتميز بضخامة إنتاجها، وبخاصة في الوحدتين الرئيسيتين للإنتاج الزراعي، وهما الحقـول والمزارع. وتحولت صقلية ومناطق في جنوب إيطاليـا، وبخاصـة كامبانيـا Campania، إلى مراكز رئيسية للزراعة ترتكز أساساً على الأيـدي العاملـة المستعبدة، فـيما كانـت المنـاطق الريفية في هذه المناطق تعج هي الأخرى بأعداد كبيرة منهم.

هيأت روما الأرضية لتمرد العبيد عن غير قصد، وذلك بخرقها لكل القواعد، حـين جمعت بين الاستغلال الجماعي، وقلة الاهتمام بالجوانب الأمنية. وعلى الرغم من أن العديد من الكتاب القدماء، مثل أفلاطون، وأرسطو، وفارو Varro، وكولوميلا Columella، قد حذروا من مغبة تركيز العبيد من جنسية واحدة في مكان واحد بعينه، فقد حـشد الرومـان

أعداداً هائلة من العبيد من شرق البحر الأبيض المتوسط معاً. وعلى الرغم من أنهم ينتمون إلى أقطار مختلفة، فإن معظمهم كان يتحدث لغة واحدة هي اليونانية. كما سمح الرومان بوجود تجمعات كبيرة من التراقيين والسلت Celt – على سبيل المثال – في ثكنات المصارعين، حيث حيكت خيوط ثورة سبارتاكوس. وسبارتاكوس ينحدر من منطقة تراقيا، في حين كان رفيقاه كريكسوس Crixus وأونيماوس Oenomaus، اللذان تناوبا معه على قيادة الانتفاضة، من السلت.

وعلى المنوال نفسه، لم تكن إجراءات حراسة العبيد ومراقبتهم كافية. وكانت قوات الشرطة العامة بدائية أو غير موجودة. وكان العبيد في المزارع يواجهون نظاماً أمنياً صارماً نسبياً من السلاسل والثكنات، ولكن الأمور كانت مختلفة في الحقول. وكان رعاة الماشية من الأبقار والأغنام والخنازير والماعز أحراراً في قيادة قطعانهم من مرعى إلى آخر؛ فينتقلون من المرتفعات في فصل الصيف إلى السهول في فصل الشتاء. وقد جعلتهم معرفتهم بخفايا المناطق الريفية خبراء في الاختباء من السلطات. وبسبب الأخطار التي يشكلها اللصوص والدببة والخنازير البرية، فقد سمح للعبيد الرعاة بحمل الأسلحة، التي كان معظمهم يجيد استخدامها، نظراً إلى أن العديد منهم كانوا من أسرى الحرب الذين تلقوا تدريبهم في صفوف الجيوش الأجنبية. وعلى سبيل المثال، فقد خدم سبارتاكوس كمساعد في الجيش الروماني (وهذا يعني أنه مقاتل في وحدة متحالفة، ربما بصفة خيال) قبل أن يرتكب مخالفة قانونية وينتهي به المطاف ليصبح عبداً. ولا شك في أن العبيد الآخرين أيضاً قد اكتسبوا بعض الخبرات كمتحدثين ومنظِّمين من خلال تجاربهم في حياتهم العامة عندما كانوا أحراراً. كما أن وكلاء المزارع، الذين ينتمون إلى طبقة العبيد أيضاً، كانوا يتمتعون ببعض المهارات التنظيمية، بل إن بعضهم انضم إلى صفوف المتمردين، ومنهم، مثلاً، أثينيون Athenion، أحد قادة الثورة الصقلية الثانية، الذي كان وكيلاً سابقاً لإحدى المزارع.

وعندما تُرك الرعاة العبيد الصقليون ليكسبوا قوتهم بأنفسهم، لم يتوانوا عن تشكيل عصابات إجرامية لممارسة السلب والنهب وقطع الطرق. وبذلك، فإن روما لعبت بالنار عندما لجأت إلى تركيز العبيد من ذوي الجنسية أو اللغة نفسها في مكان واحد، ومنحهم حرية نسبية، وحتى تزويدهم بالسلاح، فضلاً عن تمكنهم من الوصول إلى المخابئ الجبلية، ولاسيما أن أعداداً كبيرة منهم كانوا جنوداً سابقين.

ومن الجائز أن القارئ يتوقع وجود أيديولوجية معارضة للعبودية هي التي تؤجج ثورات الرقيق القديمة. ولعل ما يولد اعتقاداً كهذا هو الحركات الحديثة المنادية بتحرير العبيد، وما سبقها من جهود نضالية، من أجل إلغاء تجارة الرقيق، فضلاً عن الحرب الأهلية الأمريكية، وقبل هذا وذاك الأهمية الكبيرة التي أضفتها الماركسية على سبارتاكوس بوصفه رمزاً للثورة البروليتارية. وكما أشار العديد من الكتاب، فلم يكن هناك وجود لمثل تلك الأيديولوجية في ثورات العبيد القديمة كلها تقريباً. ونحن نسمع عن عدد قليل جداً من الناس ممن عارضوا الرق من منطلق مبدئي. ومن بين هؤلاء الفلاسفة الإغريق، تشير المصادر إلى واحد منهم فقط لا يعرف عنه إلا القليل يدعى ألخيداماس Alcidamas، إضافة إلى واحد على الأقل من قساوسة الكنيسة المسيحية اسمه جريجوري وينتمي إلى منطقة نيسا Nyssa، وبعض الجماعات المسيحية المهرطقة. وبخلاف ذلك، فلم يتناه إلينا شيء عن وجود نزعة فكرية أو عقيدة تدعو إلى تحرير العبيد، سواء بين المواطنين الأحرار أو العبيد.[9]

وبطبيعة الحال، فقد سعى العبيد المتمردون إلى نيل حريتهم، واحتج العبيد الذين ثاروا في الحرب الصقلية الأولى على المعاملة القاسية والمهينة التي كانوا يلقونها. وكان داموفيلوس Damophilus، وزوجته ميتاليس Metallis (أو ميجاليس Megallis)، من كبار ملاّك العبيد المعروفين في إينا Enna، قد جسدا قديماً شخصيتي لويس السادس عشر وماري أنطوانيت بالنسبة إلى ثورة العبيد؛ فقد أدت المعاملة القاسية التي عاملا بها العبيد إلى إشعال فتيل تمردهم. وداموفيلوس هذا كان يمتلك مزارع واسعة للماشية، وأُشتهر بولعه باستعراض ثروته بطريقة مبتذلة؛ وأما ميتاليس فقد عرفت باستغلالها لخادماتها

والتعامل معهن بوحشية. وعندما اقترب من داموفيلوس ذات مرة عدد من العبيد العرايا طالبين منه إعطاءهم بعض الملابس، أوعز إليهم بأن يسرقوا الملابس من المسافرين، على غرار مقولة ماري أنطوانيت: "دعهم يأكلون الكعك"، في حال إن كان هناك شيء من هذا في الماضي أصلاً.[10] وعندما اندلعت الثورة، اعتقل الزوج والزوجة وجرى سحلهما مقيدين بالسلاسل من المنطقة الريفية إلى إينا، حيث تم عرضهما أمام حشد من الناس على المسرح. ويقتل داموفيلوس هناك دون محاكمة، فيما قامت نسوة من العبيد بتعذيب ميتاليس وإلقائها من فوق الصخور إلى الهاوية. وأما ابنتهما المراهقة فلم تتعرض إلى الأذى بفضل حرصها دوماً على معاملة العبيد معاملة إنسانية.

وإذا كانت رحى الحرب الأولى قد دارت بسبب العقاب المفرط الذي أنزل بالعبيد، فإن الحرب الصقلية الثانية قد اندلعت بسبب الآمال والوعود الكاذبة التي أطلقها الرومان الذين كانوا قد قرروا منح العبيد المختطفين الحرية استجابة لشكوى من أحد حلفائهم المهمين في منطقة الأناضول. وفي أولى جلسات الاستماع لهذا الغرض، قضى حاكم صقلية بتحرير عدة مئات من العبيد، غير أن ملّاك العبيد الأثرياء في صقلية استخدموا نفوذهم لوقف هذه العملية، فأشعلوا بذلك من غير قصد ثورة كبرى أخرى للعبيد.

وهناك مثال آخر وقع عندما انطلق سبارتاكوس وأتباعه في عام 73 قبل الميلاد من ثكنات المصارعين التي كان يتم احتجازهم فيها عبيداً. وبحسب أحد الباحثين، فهم لم يفعلوا ذلك إلا بعد أن قرروا «ركوب المخاطرة من أجل الحصول على الحرية بدلاً من أن يجري استعراضهم أمام المتفرجين».[11] فقد كان دافعهم الحصول على الحرية والتمتع بالكرامة، وفقاً لهذا الباحث، ولكننا لم نسمع عن رغبة أكثر شمولاً وعمومية لتحرير العبيد قاطبة، ولا عن محاولات بذلت من جانبهم للغرض نفسه. وعلى سبيل المثال، فقد قام سبارتاكوس ورجاله بتحرير العبيد والمصارعين أساساً في المناطق الريفية، ولم يكن بينهم إلا عدد قليل من عبيد المناطق الحضرية والأكثر رقياً ويسراً.

وتبرز أحياناً مؤشـرات على ما يمكن أن يشكل أيديولوجية أكثر وضوحاً وشـمولاً. وفي هذا السياق، بشكل خاص تبدو ثورة أريستونيكوس في الأناضـول (133–129 قبـل الميلاد) لافتة للانتباه؛ لأنه تمكن من تعبئـة الفقـراء وغـير اليونـانيين والعبيـد الـذين قـام بتحريرهم، وأطلق عليهم جميعاً اسـم "مـواطني الـشمس" Heliopolitae.[12] وقـد كتـب الفيلسوف اليوناني إمبولوس Iambulus (ربما في القرن الثالـث قبـل المـيلاد) عـن مدينـة فاضلة أسماها "هليوبوليس" Heliopolis أي "مدينة الشمس"، وتمثل مجتمعاً طبقياً خالياً من الرق. والأجزاء القليلة التي بقيت من هذا العمل لا تقدم توضيحاً أكبر عـن ذلـك.[13] وربما كان أريستونيكوس نفسه يفكر بمدينة مثالية، أو لعله كان يحاول حشد حملـة دعائيـة أملاً في الحصول على الدعم والمؤازرة، ليس إلا.

والجدير بالذكر أيضاً أن سبارتاكوس كان يصـر على تقاسـم الغنـائم بالتـساوي بـين أتباعه بدلاً من الاستحواذ على حصة الأسد لنفسه. وربـما كـان تـصـرفه هـذا نابعـاً مـن سياسة ذكية، أكثر منه تجسيداً لفكر شـيوعي وليـد. ولم تكـن نزعـة المـساواة موجـودة في ثورات العبيد في صقلية التي أعلن قادتها أنفسهم ملوكاً، يتمتعون بكل مظاهر الملكية مـن تيجان وأردية أرجوانية. ولم يتخذ سبارتاكوس صفة الملوكية لنفسه، ولكنه سـمح بوجـود بعض الرموز التي تخص الوظائف الراقية في الجمهورية الرومانية، مثل الفـأس الرومانيـة التي تعد رمزاً لسلطة القيادة، بما في ذلك الأمر بتنفيذ عقوبة الإعدام.

ويجب ألا نستبعد كلياً وجود شعور عام بالعداء تجاه العبودية من جانـب المتمـردين. وعلى الرغم من أنه ليس هناك مصادر ومراجع تاريخية تثبت ذلك، فإن هذه المـصادر فيهـا فجوات كثيرة ومكتوبة على النحو الذي يعبّر عن وجهة نظـر الأسـياد عمومـاً.[14] غـير أن احتمالات وجود أيديولوجية كهذه تبدو ضعيفة؛ لأن العالم اليوناني والروماني إبّان حقبة ما قبل المسيحية كانت تنقصه أيـديولوجيات تـدعو إلى التحـرر العـام. كـما لم يـتم الجمـع في العصور القديمة ما بين رؤية علمانية طوباوية وأيديولوجية عالمية، كما فعلـت الماركـسية في وقت لاحق. فالثورات كانت تميل أكثر إلى اتخاذ طابع محلي وعلى أضيق نطاق.

وعلى النحو نفسه، كانت هذه الثورات تشتمل على عناصر قوية من فكرة "الخلاص" المسيحانية.[15] فقد أدى الدين دوماً دوراً مهماً في السياسة القديمة، بدءاً من استخدام ثيميستوكليس التنبؤ بالغيب لتعبئة الأثينيين في سلاميس، وصولاً إلى تأليه الرومان أباطرتهم. وقد ذهب قادة ثورات العبيد إلى أبعد من ذلك، فجعلوا من أنفسهم ممثلين للآلهة على الأرض، إن لم يكن آلهة حقيقيين. وكان للقيادة الكاريزمية حضور طاغ دوماً في ثورات العبيد القديمة.

وكان دريماكوس أحد متمردي الرقيق قد ادعى، في القرن الثالث قبل الميلاد على الأرجح، أن الآلهة تقف إلى جانبه. إذ أعلن أمام أبناء خيوس أن انتفاضة العبيد ليست مجرد حدث دنيوي بل هي نتاج وحي إلهي. وقد اتفقوا معه في الرأي، على الأقل بعد وفاته. ولم تجلب استجابة دريماكوس الطوعية لمطلبهم بإعدامه سوى المزيد من الإحباط للأسياد؛ لأنها أدت إلى تصاعد هجمات المتمردين على ممتلكاتهم وتكاثرها. ومن هنا، فقد قاموا ببناء ضريح لدريماكوس يليق بالأبطال، وكرسوه "للبطل الكريم". وحتى في القرن الثاني الميلادي، أي بعد مرور أربعمئة سنة على ذلك التاريخ، كان العبيد الهاربون لازالوا يكرسون له نصيباً من أي شيء يسرقونه. وفي الوقت نفسه، كان يقال إن دريماكوس كان يظهر للأحرار من أهل خيوس في منامهم، محذراً إياهم من تمرد وشيك يقدم عليه العبيد، فصاروا يقومون بدورهم بعد ذلك في تقديم المزيد من الهدايا لضريحه المقدس.[16]

ولم يفت أياً من قادة حربي الرقيق الأولى والثانية في صقلية أن يزعم وجود قناة مباشرة بينه وبين الآلهة. ففي الحرب الأولى (135–132 قبل الميلاد)، في مدينة إينا التابعة لصقلية، عمد عبدٌ يجيد اليونانية، اسمه يونوس Eunus، إلى حث العبيد الساخطين على الثورة والتمرد. ويزعم يونوس هذا، الذي ينحدر أصلاً من مدينة أفاميا السورية، بأنه تأتيه في أحلامه رؤى إلهية، ويتلو من بينها رسائل النبوة التي تهبط عليه. وتجسدت ذروة ادعاءاته في دخوله بحالة شبيهة بالغيبوبة، ينفث من خلالها النيران من فمه (باستخدام

حيلة معينة تقوم على وجود صدَفة جوفاء وجمرات)، ويطلق المزيد من النبوءات. وعندما اختاره المتمردون ملكاً عليهم، اتخذ لنفسه اسماً ملكياً هو أنطيوخس Antiochus، تشبهاً بأحد ملوك سلوقيا، وأمر بسك النقود المعدنية باسمه هذا. وتظهر هذه النقود المعدنية صورة إلهة، قد تكون صورة الإلهة اليونانية ديمتر Demeter، أو صورة إلهة الشرق الأم التي تحظى بشعبية هائلة، أو كلتيهما.

واختار المتمردون في حرب الرقيق الصقلية الثانية (104–100 قبل الميلاد) شخصاً يدعى سالفيوس Salvius ملكاً لهم – وقد عرف بقدرته على عزف موسيقى مثيرة على الفلوت في المهرجانات الدينية النسائية – وكذلك نبياً. واتخذ لنفسه لقباً ملكياً وهو تريفون Tryphon، وهو الذي يذكرنا بذلك المغامر من أبناء كيليكيا الذي طالب بعرش سوريا في عام 140 قبل الميلاد تقريباً، وهو ما راق للعديد من العبيد المنحدرين من هذه المنطقة والمقيمين في الجزيرة. أما أثينيون، الزعيم الآخر لتلك الثورة، فقد عرف عنه مهارته في قراءة الأبراج.

ويلوح اسم ديونيسوس كثيراً في أفق ثورات الرقيق. فبالإضافة إلى كونه إله الخمر والمسرح، فهو أيضاً إله التحرير. ولم يكن مرحباً به لدى الرومان. ففي عام 186 قبل الميلاد ادعى مجلس الشيوخ الروماني أن أنصار ديونيزوس الذين ينتشرون على نطاق واسع في إيطاليا يدبرون مؤامرة في الخفاء. وفي أجواء محمومة، قرر مجلس الشيوخ حظر عبادة هذا الإله على الرومان، وسمح للنساء والأجانب والعبيد فقط بعبادته. وهكذا تُرك ديونيزوس للضعفاء من أبناء إيطاليا ليلتفوا حوله. وفي عام 185–184، أعلن الثورة الرعاة العبيد في أبوليا Apulia، وهي المنطقة التي تمثل كعب "الجزمة" الإيطالية. وتلمح المراجع التاريخية إلى أنهم زعموا أن ديونيزوس هو نصيرهم. وقيل أيضاً إن ديونيزوس هو القوة المحركة لثورتي العبيد في صقلية.[17] وقد أطلق ميثراداتس يوباتور السادس ملك بونتوس، الذي ثار ضد روما في الفترة 88–63 قبل الميلاد، على نفسه اسم "ديونيزوس

الجديد"، وسك عملة معدنية تظهر ديونيزوس وعنباً [بوصفه إله حصاد العنب والخمر] على أحد الوجهين، وغطاء الرأس الذي كان يرتديه العبد المحرر على الوجه الآخر.

وقد أضفت ثورة سبارتاكوس (73-71 قبل الميلاد) على أسطورة ديونيزوس و"نبوءته" لمسة من قوة النجومية. فسبارتاكوس هو أحد المصارعين، وقد تمكن من رسم صورة مهيبة وجديرة بالاحترام لنفسه؛ وكان رجلاً يتمتع «بقوة هائلة وروح عظيمة»، ربما أكثر من مجرد الوصف المتداول له. ومن المعروف أنه كان يتم اختيار المصارعين لحجمهم وقوتهم، وكان سبارتاكوس من طبقة "المورميلو" *murmillo*، أي مصارع من ذوي الوزن الثقيل.[18] وهو إضافة إلى ذلك من أبناء تراقيا، الذين اشتهروا بضخامة الحجم.

كما كان التراقيون معروفين بحماستهم الدينية، ولم يكن سبارتاكوس ليخيب آمالهم في هذا المجال. فقد كانت بين نسائه "امرأة" تراقية الأصل (إما زوجته أو صديقته) تدخل في حالات غيبوبة مستوحاة من رواية ديونيزوس.[19] وبدا أن ديونيزوس إله يتمتع بالمرونة؛ وبحسب أحد المظاهر التي اتخذها لنفسه، فقد كان أيضاً إلهاً وطنياً لتراقيا. ولا شك في أن ذلك قد أضفى المصداقية على النبوءات التي تنطق بها امرأة سبارتاكوس. وعندما بيع هذا الأخير أول مرة عبداً في روما، التفّ ثعبان حول وجهه في أثناء نومه، أو هكذا قيل. ونظراً إلى أن الأفاعي لا تلتف حول وجه الرجل النائم، فلابد أن ذلك كان إما حلماً أو معجزة. ومهما يكن، فقد أعلنت تلك المرأة أن الحادثة تشكل «دليلاً على قوة عظيمة ومخيفة»؛ وتوقعت لسبارتاكوس نهاية سعيدة (أو غير سعيدة، كما في ورد في بعض المخطوطات).[20] وربما كان لما ادعته هذه المرأة التراقية صدى في مقولة لأحد الشعراء الرومان المتأخرين يقول فيها إن سبارتاكوس «صال في كل جزء من أجزاء إيطاليا بالسيف والنار، مثله مثل أحد عبدة ديونيزوس».[21]

ومن خيوس إلى صقلية إلى إيطاليا، لم تكن سوى الكاريزما ما ألهم أتباع زعيم المتمردين؛ وهم قطعاً كانوا بحاجة إلى الإلهام؛ لأن ثورات العبيد القديمة طالما مثلت

انتصار الأمل على الواقعية. ونظراً إلى أن موارد الدولة وقدراتها كانت تحت تصرف "العدو"، فإن فرص نجاح المتمردين لابدّ أن تتضاءل على المدى الطويل في مواجهة عدو عقد العزم على دحرهم. ومع ذلك، فقد تمكنوا باستخدام تكتيكات غير تقليدية ومفاجئة من تحقيق الانتصارات على المدى القصير، بدا بعضها مذهلاً أحياناً. فقد استطاع سبارتاكوس ورجاله، على سبيل المثال، التسلل خارج معسكرهم الواقع فوق جبل فيزوف والنزول منه بواسطة حبال صنعوها من أشجار العنب البرية، ثم اقتحموا معسكراً للجيش الروماني لم تتخذ فيه تدابير حراسة مشددة واستولوا عليه.

وكان من الطبيعي أن يتجه المتمردون نحو الأهداف "الناعمة"، وأعني بها المدنيين. ولأن الانتقام يشكل الدافع القوي في هذا الخصوص، فلابد أن يؤدي إلى ارتكاب اعتداءات جنسية، وإلى التعذيب، وتشويه الجثث، وقتل الأسياد الذين أساؤوا معاملة العبيد. والجشع دافع آخر أدى إلى أعمال سلب ونهب، وتدمير الممتلكات على نطاق واسع للغاية.

وكان المتمردون يفتقرون عادة إلى الأسلحة والطعام والإمدادات الأخرى. فعلى سبيل المثال، قام يونوس (الذي تقدم ذكره)، بتسليح الرقيق بأدوات تستخدم في الزراعة كالفؤوس والمناجل، وبدأ أتباع سبارتاكوس ثورتهم بسكاكين المطبخ والأسياخ. ومضى أفراد المجموعتين في صنع الأسلحة منزلياً مثل الدروع المصنوعة من خشب أشجار الكروم، والرماح التي تتم تقويتها بحرارة النار. وقاموا لاحقاً بنهب أسلحة السجناء والجنود الرومان، وعمدوا إلى إذابة سلاسلهم وقيودهم وتحويلها بواسطة المطارق إلى أسلحة ودروع. واشترى رجال سبارتاكوس الحديد والبرونز لصنع أسلحة.

وعلى الرغم من أن عدداً لا بأس به من العبيد قد امتلك شيئاً من الخبرة العسكرية عندما كانوا أسرى حرب سابقين، فقد افتقرت جيوش المتمردين إلى التماسك الذي لا يتحقق إلا من خلال التدريبات المشتركة. وكان ذلك يتمثل في كثير من الأحيان في

انعدام التجانس لغوياً أو عرقياً، مما أعاق التواصل بينهم، فضلاً عن التضامن. كما أنهم واجهوا مشكلة إقامة معسكرات في منطقة معادية من دون وجود قاعدة مسورة في المناطق الحضرية.

ونظراً إلى أن العدو كان يحشد عادة مقاتلين على مستوى عال من التسليح والتدريب، واعتادوا القتال جنباً إلى جنب، وأعدوا عدتهم لخوض معارك كبيرة ضارية، فهم بذلك يشكلون قوة لا يمكن للمتمردين أن يأملوا في إلحاق الهزيمة بهم في معركة نظامية. وبمعنى أكثر دقة، لم يكن لديهم حتى بصيص أمل بدحر قوة مثل هذه على المدى الطويل. ومع أن جيوش المتمردين كانت في الواقع قد حققت بعض الانتصارات في معارك من هذا النوع في البداية، فإن هذا لم يكن ليحدث إلا في حالات تفوقهم عددياً على الجيش الروماني، أو متى ما واجهوا قوات لم يجر تدريبها كما ينبغي. ففي صقلية، مثلاً، كان الفيلقان التابعان للحاكم الروماني يتكونان من رجال شرطة وليس من قوات قتالية. وقد تطلبت مواجهة المتمردين طلب تعزيزات من المركز بقيادة أحد القناصل. وفي إيطاليا، واجه سبارتاكوس ورجاله قوات من جنود مسرحين في البداية، بل تمكنوا حتى من التغلب على جيوش القناصلة. ومن دون التقليل من شأن المهارات التكتيكية لسبارتاكوس، فإن وراء هذه الانتصارات يقف أيضاً غياب القوات الرومانية المحنكة المتمرسة التي كانت تخوض معارك خارجية في إسبانيا والبلقان والأناضول.

وبناء عليه، فإن التكتيك الأفضل بالنسبة إلى المتمردين يتمثل غالباً في الغارات والهجمات المباغتة. وهكذا فقد تحولت حروب العصابات والأساليب غير التقليدية إلى وسائل أساسية لحركات تمرد الرقيق؛ الأمر الذي خلق في أغلب الأحيان مشكلة عسكرية بالنسبة إلى الأسياد، زادها تعقيداً نشوء مآزق ومعضلات سياسية واقتصادية. فقد كانت قوات المشاة الثقيلة التسليح، التي تعمل بإمرتهم، غير مؤهلة للتغلب على المهاجمين الذين يطبقون عادة تكتيكات الكر والفر. ووجدت القوات التابعة للأسياد صعوبة في مواجهة

ما كان يتمتع به المتمردون من معرفة محيطهم من التلال والجبال التي مثلت ميداناً مألوفاً لثورة العبيد.

وأما بالنسبة إلى الأسياد، فإن إعادة تجهيز أنفسهم على نحو يجعلهم مؤهلين لمكافحة حركات التمرد بدت مهمة محبطة، وتستغرق الكثير من الوقت؛ فضلاً عن أنهم نادراً ما أرادوا القيام بها أصلاً. ولم يكن هناك إلا القليل من المجد ليفتخر به المرء في قمع تمرد للرقيق، والقليل من الافتخار بخوض ما كانوا يرونه أنماطاً قتالية لا تستحق غير الازدراء. وبحسب أحد الرومان، فإن حرب الرقيق تعد «تسمية وضيعة وغير جديرة بالتقدير».[22] ومن هنا، فالحل المثالي هو إجبار معظم المتمردين على الاستسلام، وحبذا بعد قتل قادتهم؛ لاستئصال جذور أي تمرد قد يحدث في المستقبل. وكان من بين التكتيكات المفضلة فرض الحصار على معاقل المتمردين. ففي حرب الرقيق الأولى في صقلية، مثلاً، فرض القنصل الروماني بوبليوس روبيليوس Publius Rupilius، في عام 132 قبل الميلاد، الحصار بنجاح على معقلين رئيسيين للمتمردين في تاورمينيوم Tauromenium وإينا.

ونظراً إلى دراية قادة التمرد الحكماء وعلمهم بهذه الحقائق، فقد كان أمامهم ثلاثة أهداف استراتيجية ممكنة التحقيق، وهي: (1) إنهاك العدو إلى الحد الذي يسمح للمتمردين بإقامة مستوطنة خارجة عن سيطرته في التلال، وهو ما أطلقت عليه في أوقات لاحقة تسمية جماعات "المارون" (اقتباساً من اللغة الإسبانية وتعني: الذين يعيشون على قمم الجبال)، أو (2) اختراق خطوط العدو والفرار إلى الخارج، أو (3) إيجاد حلفاء لهم من بين السكان الأحرار، سواء من الخارج أو من جماعات ساخطة في الداخل.

وقد طبق دريماكوس، زعيم العبيد المتمردين في خيوس، استراتيجية المارون بنجاح، ومن المرجح أن ذلك حدث في القرن الثالث قبل الميلاد. فبعد أن تمكن من الفرار إلى التلال وأصبح زعيماً للعبيد الهاربين، هاجم دريماكوس مزارع خيوس وصد هجماتها المسلحة الرامية لإلحاق الهزيمة به، وعرض عقد هدنة وعد من خلالها بالحد من عمليات

النهب في المستقبل وإعادة العبيد الهاربين الذين لم يتمكنوا من إثبات تعرضهم إلى سوء المعاملة على أيدي أسيادهم. وقد قبل أهل خيوس بهذه الشروط التي بدت واقعية بشكل ملحوظ، والتي يفترض أن تؤدي بالفعل إلى تراجع أعداد الهاربين. ولكن خيوس وجدت أن الوضع لا يمكن تحمله في نهاية المطاف، فوضعت مكافأة مقابل رأس دريماكوس. وثمة رواية تذهب إلى القول إن هذا الأخير لما بلغ سن الشيخوخة جعل حبيبته تقتله وتقطع رأسه بقصد الحصول على المكافأة، وإنه لم يصل إلى مرتبة الألوهية في نظر أهل خيوس إلا بعد هذه الواقعة.

ولكن ما بدا أقل واقعية دون شك هو الادعاء بأن زعماء الرقيق في صقلية أقاموا ممالك خاصة بهم، تشتمل على متطلبات المملكة كافة؛ كالملوك والمجالس والجمعيات العامة. وبعد أن تمكنت روما من طرد القرطاجيين من صقلية، لم تكن لتسمح لمجموعة من العبيد بأن تستولي عليها. ومن المحتمل أن المتمردين تلقوا تشجيعاً لا مبرر له من مساندة بعض سكان صقلية من الأحرار الفقراء لهم. وهنا تصبح مصادر ثورات العبيد في صقلية غير كافية وغير واضحة إلى الحد الذي دفع بأحد الكتاب إلى التلميح بأنها لم تكن ثورات عبيد إطلاقاً، وإنما مجرد انتفاضات قومية الطابع.[23] ومع ما اتسمت به هذه الفرضية من ذكاء، فإنها لم تكن مقنعة في ما تزعم. ولكن الصحيح هو أن العبيد وجدوا حلفاء لهم بين الأحرار الفقراء. فعندما اندلع التمرد الصقلي الأول، «... ابتهجت جموع المواطنين بعد أن كانت تشعر بالغيرة جراء انعدام المساواة في الثروة، والفوارق في أنماط العيش». وبدلاً من إبداء المساعدة على قمع التمرد، «توجهت الجماهير الحرة، مدفوعة بالإحساس بالغيرة، إلى الريف بحجة مهاجمة الهاربين، كي تقوم بنهب الممتلكات هناك، وحتى حرق المزارع».[24] وبحسب أحد المصادر، ففي الحرب الثانية «سادت الفوضى في صقلية كلها وحلت المصائب بكل أنواعها. ولم يكن العبيد وحدهم يتحملون وزر أعمال النهب والفوضى، بل شاركهم في ذلك الأحرار الفقراء أيضاً».[25]

وحاول سبارتاكوس، الذي تميزت تحركاته بالمرونة دوماً، اللجوء إلى استخدام استراتيجيتين اثنتين: الفرار إلى الخارج والمكوث هناك، والبحث في الوقت نفسه عن حلفاء يقفون إلى جانبه. وارتكزت خطته الأولية أساساً على التقدم باتجاه الشمال الإيطالي حالما تندلع الثورة، وتقسيم رجاله من ثم إلى مجموعات صغيرة كي يتمكنوا من عبور جبال الألب ليمكنهم من هناك الذهاب إلى بلدانهم الأصلية. ولكن الخطة فشلت بسبب انقسام رجاله في الرأي على أنفسهم. وعلى أي حال، لم يكن سبارتاكوس قادراً قط على فرض سلطته على مجموعة غير متجانسة عرقياً من المتمردين الذين قاتلوا معه. فهذه المجموعة مؤلفة من أعداد كبيرة من السلتيين والجرمان، بالإضافة إلى التراقيين وجماعات أخرى غيرهم، وقد رفض معظمهم الامتثال لأوامره. وإلى جانب ذلك، فقد أفسدهم ما حققوه من نجاحات، وشجعتهم انتصاراتهم العديدة على البقاء في إيطاليا. وكان سبارتاكوس، بوصفه جندياً محنكاً، يعلم يقيناً أن روما ستعد جيشاً مؤهلاً وذا خبرة عالية، ولن يكون أبداً في وسع شرذمة من المتمردين أن تقف بوجهه وتهزمه، مهما يطلْ أمد التدريبات التي سيتلقاها هؤلاء المتمردون.

وهذا ما حدث فعلاً. فقد تولى ماركوس ليسينيوس كراسوس Marcus Licinius Crassus القيادة بصلاحيات خاصة، وأفلح في تشكيل جيش ضخم جديد. ويرجح أن القسم الأعظم من أفراده كانوا من المحاربين القدامى الذين ربما حاربوا تحت إمرة سولا Sulla في حرب روما الأهلية قبل نحو عشر سنوات. بينما كفلت قواعد الانضباط الصارمة، التي فرضها كراسوس، جلب الآخرين وضمهم إلى الجيش. ولضمان حسن التدبير، استدعى الرومان فيالقهم من إسبانيا، التي كان بومبي (خايوس بومبيوس ماجنوس Caius Pompeius Magnus) قد هزم المتمردين فيها تواً. ونظراً إلى أن سبارتاكوس كان قادراً على قراءة ما تخبئه الأيام، فقد أقنع رجاله بالتراجع شمالاً ومحاولة عبور مضيق ميسينيا وصولاً إلى صقلية. وكان يأمل في أن يجدد حظوظه هناك، إما عن طريق شن حرب رقيق ثالثة أو ربما باستخدام الجزيرة منطلقاً للهروب عبر البحر. ولكن كان عليه أن يعبر المضيق أولاً.

ونظراً إلى أن سبارتاكوس لم تكن بحوزته زوارق يستخدمها لهذا الغرض، فقد حاول أن يستأجر بعض القراصنة الذين كانوا في تلك الأيام يتخذون من صقلية قاعدة لهجماتهم وغاراتهم. ولم تكن تلك تجربته الأولى في التحالف مع الأحرار من الرجال؛ فهذا المصارع التراقي كان، في الأيام الأولى من تمرده، قد حظي بدعم «العديد من العبيد الفارين، ومن بعض الرجال الأحرار في الحقول الزراعية».[26] بل إنه ربما حصل على شيء من المساندة حتى من بعض النخب في جنوبي إيطاليا، إما بسبب عداوتهم المستدامة لحكم الرومان، أو لأن سبارتاكوس كان قد اشترى ذممهم.

وبالعودة إلى القراصنة، فهؤلاء ينحدرون أصلاً من مناطق في جنوب الأناضول أو كريت، ووضعوا أنفسهم في عداد أعداء روما، وكان لهم سجل طويل من التحالفات مع ميثراداتس [ملك بونتوس]، العدو الرئيسي لروما في الشرق. ومن ثم، فإنهم مثلوا بالنسبة إلى سبارتاكوس حليفاً متعاوناً واعداً. ولكن القراصنة، وبعد أن أخذوا المال منه، تركوه ورجاله على الشاطئ الإيطالي. وربما شكل هذا مجرد حالة معتادة من حالات انعدام الأمانة نتيجة لخوف القراصنة من كايوس فيريس، الحاكم الروماني لصقلية. وفيريس هذا، الذي أحيا شيشرون ذكره جراء فساده، كان قد اتخذ تدابير حازمة من أجل تحصين ساحل صقلية، واعتقال مثيري الشغب من الرقيق في جميع أنحاء الجزيرة. ويمكن القول إنه تفاوض أيضاً مع القراصنة بنفسه، وربما ببساطة عرض عليهم صفقة أفضل من تلك التي أبرمها سبارتاكوس معهم. وبعد ذلك، حاول هذا الأخير عبور المضيق بطريقة أخرى، أي من خلال إجبار رجاله على صنع القوارب؛ ولكن محاولتهم تعثرت بفعل موجات الشتاء القارص. ومن الجائز أيضاً أن سبارتاكوس ربما أجرى اتصالاً مع ميثراداتس Mithridates، كما فعل المتمرد الروماني سيرتوريوس Sertorius في إسبانيا قبل بضع سنوات. فقد استخدم ميثراداتس لاحقاً معرفته بتمرد سبارتاكوس كأداة خطابية بلاغية في محاولة لإثارة السلتيين ودفعهم لغزو إيطاليا (ولكن محاولته باءت بالفشل). وعلى أي حال، لم يجد سبارتاكوس لنفسه أي حلفاء جدد، وظل العبيد عالقين في إيطاليا.

إن المحصلة النهائية لكل من حربي الرقيق في صقلية وانتفاضة سبارتاكوس تختلف عن الأخرى. فقد تمكن الثوار في أولى هاتين الحربين من إلحاق الهزيمة بالعديد من الجيوش الرومانية في معارك المواجهة الضارية المفتوحة، بعد أن تفوقوا عليها كثيراً من الناحية العددية، وأن يستولوا على مدن عدة. وبعد الهزائم المهينة التي لحقت بروما، قام القنصل بوبليوس روبيليوس بمحاصرة اثنتين من مدن المتمردين الرئيسية، وفي كل مرة كان يجد خائناً يفتح له أبواب المدينة. ومن ثم، شرع في تنفيذ عمليات تمشيط في أنحاء صقلية. وبعد أن فشل عدد من الجنرالات غير الأكفاء في إخماد التمرد الثاني، جاء دور القنصل مانيوس أكويليوس Manius Aquilius ليظهر من الكفاءة ما يتناسب مع أهمية الحدث، فاستطاع قتل ملك المتمردين في معركة واحدة؛ ولو كان خصمه من الأحرار وليس من العبيد، لضمن له ذلك الانتصار الحصول على أرفع تكريم عسكري في روما.

ومع أن سبارتاكوس كان قد ألحق الهزيمة بتسعة جيوش رومانية، فقد عجز عن الوقوف بوجه قوات كراسوس التي استعادت قوتها وقدراتها الكبيرة. وحاول كراسوس في شتاء 72-71 قبل الميلاد فرض حصار على سبارتاكوس في المنطقة الجبلية عند أقاصي جزيرة صقلية (إصبع القدم في "الجزمة" الإيطالية)، التي كان الرومان قد أغلقوا منافذها بإقامة حواجز كبيرة من الجدران والخنادق حولها. ومع ذلك، فقد تمكن سبارتاكوس من أن يجد لنفسه مخرجاً، ولكن مقابل ثمن باهظ. وبعد الضغوط التي تعرض لها سبارتاكوس على أيدي أعدائه في مسيرته شمالاً، اضطر أخيراً إلى الدخول في مواجهة حربية، يُرجح أنها كانت في أعالي وادي نهر سيلاروس Silarus (سيلي Sele حالياً)، وليس بعيداً عن مدينة ساليرنو الحديثة. واستطاع الرومان إلحاق الهزيمة بجيش العدو وقتل سبارتاكوس.

وخلافاً للأسطورة الشعبية، لم يصلب سبارتاكوس، برغم أن نحواً من 6000 من رجاله قد صلبوا بالفعل، وعلقت جثثهم على صلبان نصبت على جانبي الطريق بين مدينتي روما وكابوا Capua (القريبة من نابولي، مهد انتفاضة سبارتاكوس). غير أنه لم يتم

العثور على جثة سبارتاكوس قط. وبعد معركة سيلاروس، اختفى جيش سبارتاكوس عن الوجود بوصفه وحدة قتالية، إذ تفرق إلى مجموعات متعددة، وظل الرومان يطاردونها بشكل متقطع، ولم يتمكنوا من القضاء على آخر ما تبقى من مجتمعاتها "المارونية"، التي أقيمت فوق تلال جنوبي إيطاليا، إلا في عام 60 قبل الميلاد.

ويشير فشل سبارتاكوس إلى نهاية حقبة رئيسية من ثورات العبيد القديمة. وتواصلت بعد ذلك الانتفاضات، وإن بصور متفرقة، مثل ثورة سيلوروس Selouros في صقلية خلال فترة حياة الكاتب سترابو Strabo (توفي سنة 21 بعد الميلاد)، والثورة الفتية التي اندلعت في جنوبي إيطاليا في عام 24 بعد الميلاد، إضافة إلى ما يمكن اعتباره تمرداً للعبيد تحت قيادة بولا فليكس Bulla Felix في إيطاليا في 206–207 بعد الميلاد.[27] وأما الانتفاضات الكبيرة فقد ولى زمنها.

وثمة عوامل تقف وراء تحول كهذا، فقد تصدى الرومان لهذه الحركات والانتفاضات لقمعها بصورة فعالة وحاسمة. وأول هذه العوامل مظاهر العقاب الشديد التي تتلو أي حركة تمرد فاشلة. ثانياً، وكما توضح إجراءات فيريس في صقلية عندما كان بانتظار تقدم سبارتاكوس، أن الرومان قد أدركوا أخيراً أنه يجب عليهم عدم الاستهانة بخطر التمرد أو الاستخفاف به. وتمثل العامل الثالث في سلسلة الحروب الأهلية التي وقعت في الفترة 49–30 قبل الميلاد، والتي وفرت فرص عمل للعبيد الساخطين. وعلى سبيل المثال، لم يكن العبيد في حاجة إلى تشكيل جيش خاص بهم، حين بدا ممكناً انضمام 30 ألفاً من العبيد الهاربين إلى أسطول المتمرد سكستوس بومبي Sextus Pompey (ابن بومبيوس ماجنوس Pompeius Magnus) الذي هيمن على مياه صقلية للفترة 43 – 36 قبل الميلاد.[28]

ولعل العامل الأكثر أهمية هو ما صار يعرف باسم "السلام الروماني" Pax Romana. فقد وضع اعتلاء أوغسطس العرش بوصفه أول إمبراطور لروما (للفترة

من عام 30 قبل الميلاد حتى عام 14 ميلادية) حداً لعصر التوسع الروماني، والذي تزامن مع تراجع لا مفر منه في عدد أسرى الحرب الذين كانوا يجبرون على أن يصبحوا عبيداً. وفي وقت سابق، في عقد الستينيات قبل الميلاد، نجح بومبي في طرد أغلبية القراصنة من مياه البحر الأبيض المتوسط، منهياً بذلك مصدراً آخر من مصادر توفير العبيد. وفي حين استمرت تجارة الرقيق الرومانية، لم تعد مصادر الرق وفيرة ورخيصة جداً. ونتيجة لذلك، فإن نسبة أكبر من العبيد الرومان أصبحوا عبيداً منزليين. ولم يبق هناك مصدر ثابت من الجنود السابقين والسياسيين السابقين ليغذي صفوف العبيد المتمردين المحتملين.

ومن المرجح أن أعداداً متزايدة من العبيد قد حملت نفسها على التكيف مع أوضاعها في منازلها الجديدة في إيطاليا وصقلية، وصارت تتطلع إلى الانعتاق، وليس العصيان، سبيلاً إلى الحرية. وفي واقع الحال، فإن شروط العتق التي عرضتها أنظمة العبودية اليونانية والرومانية تبدو دوماً أكثر سخاءً من تلك التي تعرضها مجتمعات العبودية الحديثة. ولا يقلل هذا الكلام من وحشية أنظمة العبودية القديمة، ولكنه ربما يسهم في تفسير السبب الذي جعل رجالاً مثل سبارتاكوس يتحولون في نهاية المطاف إلى وحوش لتخويف الأطفال، بدلاً من أن يصبحوا رموزاً بارزة في المجتمع الروماني.

وعلى أي حال، فقد تعاظمت شهرة سبارتاكوس ومكانته بشكل عام كثيراً في الأزمنة المعاصرة. وباستثناء آرثر كوستلر Arthur Koestler، الشيوعي السابق الخائب الظن الذي يرى أن سبارتاكوس يشبه لينين بعد الثورة وقد أفسدته السلطة، فإن معظم الكتاب المعاصرين يشيد بسبارتاكوس، ويرون فيه محرراً، أو اشتراكياً سبق زمانه؛ بينما اعتبره مفكرو القرن التاسع عشر بطلاً قومياً لا يقل شأناً عن جاريبالدي Garibaldi.

ولكن، لو أننا نظمنا حلقة دراسية في كلية أركان عسكرية لتسليط الضوء بشكل رصين وواقعي على كل من سبارتاكوس أو دريماكوس أو سالفيوس أو يونوس، لبرزت أمامنا صورة مختلفة. فهم من الناحية العسكرية، يثبتون انعدام قدرة حركات التمرد على

إلحاق الهزيمة بجيوش نظامية؛ إذ لم يكن بإمكان شراذم العبيد المتمردين في اليونان وروما الوقوف نداً لدولة عريقة تتمتع بالكثير من المزايا اللوجستية والمؤسسية. وقد يكون بوسع قادة المتمردين تنظيم مسيرات استعراضية لرجالهم بشكل جحافل، أو دحر الميليشيات المحلية المرتعبة منهم، أو حتى جس نبض حلفاء محتملين في الخارج، ولكن متى ما ألقت هذه الدولة بكل ثقلها وقوتها لمواجهتهم، فلن يكون مصيرهم غير التدمير.

كما لم يكن ممكناً للعبيد الفوز بالكثير من الدعم الطوعي من مجموعات السكان المحليين الأحرار، الذين ربما وضعوا في حسابهم أن معظم المتمردين سينتهي بهم المطاف إما أسرى مكبّلين بالسلاسل، وإما جثثاً تتدلى على الصلبان. وبعد أن يتمكن العبيد المتمردون من تحقيق بعض النجاحات في بداية الأمر، ومن شن ما يكفي من الغارات لكسب الغنائم والأخذ بالثأر، فكثيراً ما كان يُشار عليهم بالفرار إلى التلال أو إلى الخارج.

وهنا يكمن الدرس الذي يصلح لهذا اليوم؛ فقد يتمكن الثوار والعصاة من أن يقتحموا المشهد بطريقة مثيرة ومدوية، كما فعل سبارتاكوس وأتباعه من المصارعين المتمردين، وقد يمكنهم حشد التأييد الديني وترويع السكان المحليين، وربما أمكنهم أيضاً استقطاب أناس آخرين من الساخطين وضمهم إلى صفوفهم في البداية، بل حتى الخروج من التلال، وبسط سلطتهم على مدينة هنا أو إقليم هناك؛ ولكن عندما تردُّ عليهم الدولة بكل ما أوتيت من قوة عسكرية، فلن يكون بانتظارهم غير الهزيمة مصيراً.

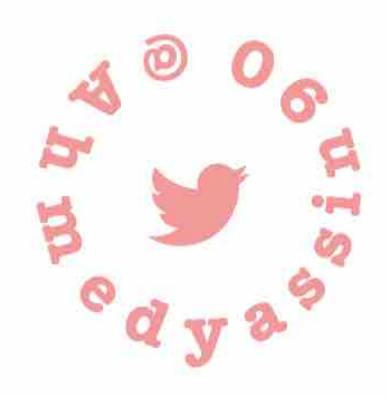
والمصير عينه سيكون عادة بانتظار حركات التمرد المعاصرة. فعندما توافرت لدول التحالف الإرادة السياسية والتكتيكات العسكرية لاستخدام القوة استخداماً فعالاً في العراق، مثلاً، فقد تمكنت من قصم ظهر التمرد (2003–2009). ومع ذلك، فإن النجاح ليس بعيداً قطعاً عن متناول المتمردين المسلحين. فبإمكانهم قلب المعادلة من خلال واحدة من وسائل عدة، ربما بدت كلها بعيدة المنال أول وهلة، ولكنها ليست مستحيلة. إذ يمكنهم، على سبيل المثال لا الحصر، شراء الوقت والمساحة لتحويل أنفسهم من مجرد

قوة لشن الغارات والهجمات المباغتة إلى جيش نظامي؛ فقد يساعدهم كثيراً على تحقيق ذلك وجودهم في مكان معزول بعيداً عن مركز السلطة. ولعل المثال الأبرز على ما نقول هو تجربة الجيش الأحمر الشيوعي الصيني بعد "المسيرة الطويلة" عام 1934. والاحتمال الثاني هو الحصول على حليف لهم في دولة ما؛ فقد تمكن المجاهدون الأفغان من كسب الدعم والعون من دول مختلفة، كالصين وإيران وباكستان والولايات المتحدة الأمريكية، وتوظيفهما وترجمتهما إلى انتصار على الجيش الأحمر السوفيتي في ثمانينيات القرن العشرين.

وأخيراً، فإن متمردي اليوم يمتلكون مزيّة لم يكن يتمتع بها متمردو الأزمنة القديمة؛ وتلك هي قدرتهم على استهداف الرأي العام المحلي في دولة العدو. ففي حرب الاستقلال الجزائرية (1954-1962)، مثلاً، خسر الثوار المعركة العسكرية، ولكنهم كسبوا الحرب من خلال تغيير اتجاه الرأي العام الفرنسي.

وليس غير الثورة الهايتية (1791-1804) مثالاً وحيداً في التاريخ على نجاح ثورة العبيد، وكانت تتمتع بالمزايا المختلفة الآتية: فقد خاض المتمردون صراعاً طويلاً، بعيداً عن المناطق الحضرية للدولة الفرنسية، وساندهم الأسطول البريطاني الداعم للثوار من خلال فرض الحصار، وقبل هذا وذاك، فإن الثورة الفرنسية نفسها قدمت للثوار الأرضية الأخلاقية القوية التي يمكنهم الاستناد إليها. وبعد سنوات من القتال المرير، والمعاناة من الأمراض الفتاكة، أذعن الفرنسيون في النهاية.

ومع ذلك، فإن حركات التمرد الناجحة تبقى هي الاستثناء؛ وتظل ثورات الرقيق القديمة تذكرنا بأن الدول هي التي تمسك عادة بكل الأوراق متى ما آلت الأمور إلى حد الذهاب إلى الحرب.


@Ahmedyassin90

الفصل التاسع

يوليوس قيصر القائد والدولة

أدريان جولدزورثي

في الساعات الأولى من اليوم الحادي عشر من يناير 49 قبل الميلاد، قاد يوليوس قيصر الفيلق الثالث عشر عبر نهر روبيكون Rubicon ليدخل بذلك في عداد "المتمردين". فهذا النهر ، وهو جدول صغير قد يستحيل تحديد موقعه في الوقت الحاضر، كان يمثل الحدود الطبيعية بين مقاطعة الغال سيزالبين Cisalpine Gaul الذي ينتمي إليه وبين إيطاليا نفسها. كان يوليوس قيصر مخولاً بقيادة القوات في المنطقة الواقعة شمال هذا الخط الفاصل، أما إلى الجنوب منه فلم يكن يحق له ذلك. وبعد مرور تسعة عشر شهراً، وفي أثناء تفحصه جثث أعدائه في فارسالوس Pharsalus، قال قيصر: «هم أرادوا ذلك؛ وحتى بعد كل الإنجازات العظيمة التي حققتها، فأنا، غيوس قيصر Gaius Caesar، كنت سأُدان لو لم أطلب المساندة من جيشي».[1]

وهكذا، فقد حقق قيصر نجاحاً أكبر من أي نجاح حققه أي قائد روماني آخر؛ فهو قد خاض «خمسين معركة شرسة كبرى، ليصبح القائد الوحيد الذي يتفوق على ماركوس مارسيلوس Marcus Marcellus الذي قاد تسعاً وثلاثين معركة من هذا النوع».[2] ومع ذلك، فقد شاب سمعته جانب مظلم تمثل في أن الكثير من معاركه هذه قد خاضها ضد مواطنيه الرومان. وقبل أن يعبر نهر روبيكون بنحو عام، كان يوليوس قيصر يتبع سياسة "حافة الهاوية" مع خصومه في مجلس الشيوخ، عندما يعمد كل منهم إلى رفع مستوى المخاطرة. ولعل كل طرف كان يأمل في تراجع الطرف الآخر، في غياب أي فكر أيديولوجي عميق يقف وراء ذلك. لقد عقد خصوم يوليوس قيصر العزم على وضع

نهاية لحكمه، بقدر ما كان هو نفسه مصمماً على المحافظة عليه. ومن هنا فلم يكن الثمن إلا حرباً اتسع نطاقها ليشمل منطقة البحر الأبيض المتوسط، مخلفة عشرات الآلاف من القتلى. ومهما أظهر خصومه من افتقار للعقل والمنطق، فقد كان قيصر هو من عبر نهر روبيكون وأشعل فتيل الحرب الأهلية خلال الفترة 49-45 قبل الميلاد. ويرى شيشرون أن خوض هذه الحرب كان أمراً طائشاً وغير ضروري، ولكنه - مع ذلك - لم يخف ازدراءه التصرف الذي أقدم عليه قيصر: «هو يزعم أنه يفعل هذا كله حفاظاً على كرامته. ولكن أي كرامة يمكن أن تتحقق في غياب الصدق؟».[3]

وانتصر القائد "المتمرد" في هذه الحرب، وتحوّل إلى دكتاتور مدى الحياة، وأمسك بأرفع مقاليد السلطة العليا في الجمهورية، وفرض سيطرته بشكل فاعل على الجيش الروماني برمته. ومع ذلك، فلم يكن حكمه ديكتاتورياً على نحو خاص، فقد كان يشمل خصومه بعفوه، بل يقوم بترقيتهم أيضاً، وبدت تشريعاته معقولة ومنطقية عموماً. ومع هذا، فإن النظام الجمهوري، كما يفترض، يحول دون امتلاك فرد مثل هذا القدر من السلطة بصورة دائمة. ولهذا السبب، ولأسباب أخرى غيره، أقدمت مجموعة من أعضاء مجلس الشيوخ في الخامس عشر من مارس 45 قبل الميلاد على توجيه الطعنات ليوليوس قيصر وأردته قتيلاً. وبعد عقد من ذلك التاريخ، ألحق أوغسطس، ابن قيصر بالتبني، الهزيمة بآخر منافسيه، ليصبح أول إمبراطور لروما، ويقيم نظاماً دام قروناً، وبدا الحكم فيه ملكياً في كل شيء إلا في الاسم. وتحول اسم "قيصر"، الذي لم يكن إلا لقباً عائلياً، ليكون لقباً مرادفاً للسلطة العليا. وهكذا، فقد حكم القياصرة روما أكثر من 500 عام، وكذلك الإمبراطورية الشرقية (أو البيزنطية) ما يزيد على ألف عام. وقد وصل الاسم نفسه إلى القرن العشرين بصيغة "كايزر" Kaiser و"تزار" Tsar.

احتل قيصر بلاد الغال، واجتاز الراين باتجاه ألمانيا، ومن بعده عبر القنال الإنجليزي وصولاً إلى بريطانيا. وطبقاً للمعايير الرومانية، فهذه الحروب كلها مبررة ابتغاء حماية

المصالح العامة للدولة. ولم يكن مستغرباً أن يستفيد القادة المنتصرون من انتصاراتهم، وقد فعل قيصر، القائد العسكري العبقري، ذلك على نطاق واسع يتناسب مع حجم حملاته، ولم يفته استخدام جيشه ضد أعدائه داخل الجمهورية نفسها، بل نصّب نفسه ديكتاتوراً بفضل هذه القوة العسكرية. بدأ قيصر حياته المهنية رجلاً متعدد المواهب وخادماً للدولة، ولكنه أخضعها فيما بعد لسلطته ليكون سيداً عليها.

في الديمقراطيات الحديثة، يفترض أن تظل القوات المسلحة دوماً تحت السيطرة التامة للسلطة المدنية. وقد اكتسبت هذه الفرضية أهمية خاصة في بريطانيا على نحو خاص بعد الحروب الأهلية التي أدت إلى تولي كروموبل Cromwell و كبار الجنرالات الحكم فيها. وفي أمريكا، تركت ذكريات هذا الحكم نفسه بقيادة الجيش آثارها على الآباء المؤسسين الأوائل لأمريكا؛ والتقدير الذي حظي به جورج واشنطن، بسبب رفضه تولي الرئاسة لفترة ثالثة، لا يقل عن التقدير الذي ناله بعد انتصاره في الحرب ضد بريطانيا. وقد قدّر للولايات المتحدة الأمريكية أن تصبح نسخة أفضل من الجمهوريات القديمة، بعد أن تجنبت الانزلاق إلى الديكتاتورية العسكرية والحكم الإمبراطوري. وعلى العكس من ذلك، مهدت الثورة الفرنسية الطريق أمام صعود "قيصرها" ممثلاً في نابليون. ونابليون هو من وضع التاج بنفسه على رأسه خلال حفل تتويجه إمبراطوراً في عام 1804، ليؤكد أنه قد انتزع السلطة انتزاعاً، بدلاً من أن تعطى له.

وما برح الحكام الدكتاتوريون يستولون على السلطة عن طريق الانقلابات العسكرية في العديد من الدول، على الرغم من أن هذه المشكلة، منذ الحرب العالمية الثانية وحتى الوقت الحاضر، قد اقتصرت على بلدان العالم الثالث، فيما بدا ذلك احتمالاً بعيداً في الغرب. ومن المهم أن نتذكر أن قيصر لم يظهر من العدم، ولم يقم بتدمير الجمهورية بمفرده، ولم يقوض نظاماً ديمقراطياً مستقراً يؤدي مهماته على الوجه الأفضل. ولم يكن الصراع الذي نشب بين عامي 49 و45 قبل الميلاد هو الحرب الأهلية الوحيدة، كما أن

الآخرين لم يكونوا أقل رغبة منه في اللجوء إلى العنف. فقد شق سولا Sulla طريقه للوصول إلى الديكتاتورية في عام 82 قبل الميلاد، وأصدر أوامره بإعدام أعدائه بلا رحمة. ويقال إنه طلب أن تنقش على قبره عبارة من باب المباهاة تقول: ما من أحد يمكن وصفه بأفضل الأصدقاء أو بأسوأ الأعداء.[4]

وفي عهد قيصر اتسمت الحياة العامة في روما بالخطورة الشديدة؛ إذ فقد معظم الرجال المهمون العديد من أقاربهم أو أصدقائهم بسبب الصراع الذي دار بين سولا Sulla وماريوس Marius. ويومذاك، أدرك أعضاء مجلس الشيوخ تماماً أن النزاعات السياسية قد تتحول بسهولة إلى عمليات ترهيب، أو عنف، أو حتى إلى حروب. وبوجه عام، فإن الأوضاع كانت أقل استقراراً مما كانت عليه في القرون السابقة، ما يعني توافر فرص أكبر لارتقاء سلم التقدم سريعاً. وبهذا الاتجاه، خرق بومبي العظيم كل القوانين والقواعد النافذة على طريق اندفاعه للفوز بلقب جنرال روما الأعظم، ليكون إحدى الشخصيات المهيمنة في الدولة. والمفارقة هنا هي موته دفاعاً عن الجمهورية ضد قيصر "المتمرد".

كانت الجمهورية الرومانية تمر أصلاً بمرحلة من الفوضى والتخبط حتى قبل أن يبدأ قيصر مهامه، فضلاً عن الفترة التي عبر خلالها نهر روبيكون. ولا يعني ذلك أن احتمال سقوط روما بدا أمراً محتوماً، ولكنها جعلت منه احتمالاً حقيقياً جراء هذا الوضع. ولا تنشأ الديكتاتوريات العسكرية - عادة - إلا بعد أن تمر الدولة بمرحلة طويلة من الفوضى. فلم يكن نابليون ليظهر إلى الوجود في غياب الفوضى التي خلّفها نشوب الثورة وظهور عهد الإرهاب. ومهما بلغت شعبيته كقائد عسكري عظيم ناجح، فلابد من توافر الظروف الملائمة بالنسبة إليه كي يتمكن من أن يدير ظهره للدولة التي عينته. ولم تكن دكتاتورية قيصر مجرد أنموذج لجيش يفرض هيمنته على الدولة؛ فقد كان قادة الجمهورية السياسيون يمسكون أيضاً بزمام قيادة الجيش، حتى إنهم في عام 49 قبل الميلاد قرروا اللجوء إلى استخدام الفيالق العسكرية لتسوية خلافاتهم السياسية.

وثمة درس آخر نتعلمه من حكم قيصر. فعلى الرغم من كل نجاحاته العسكرية، فقد أخفق في إيجاد حل سياسي وقُتل على إثر ذلك. هناك بالطبع حدود لما يمكن للقوة أن تحققه بمفردها. ولعل قيصر كان سيتمكن من المحافظة على حياته وعلى سلطته لو أنه اتخذ قدراً أكبر من الحيطة والحذر لحماية نفسه، وحافظ على حكمه بممارسة مزيد من القسوة. وأما أوغسطس فقد حرص على القيام بهذين الأمرين معاً، بعد أن تعلم الدرس القاسي من فشل والده بالتبني.

السياسة والحرب

ثمة رجال بعينهم هم من تولى قيادة روما، سواء وقت السلم أو الحرب. وقد دخل هؤلاء الحياة العامة بعد أن اتبعوا منهجاً مهنياً مفصلاً عُرف بنظام "الوظائف العامة"؛ وهو الذي أتاح لهم شغل مزيج من المراتب والمواقع المدنية والعسكرية. ومن هنا، فقد أمكن لحكام الأقاليم أن يجمعوا في أيديهم سلطات عسكرية ومدنية وقضائية مطلقة في أقاليمهم. وأما القضاة فيتم انتخابهم لشغل وظائفهم مدة سنة واحدة؛ فيما يتولى مجلس الشيوخ عادة تعيين الحكام في مناصبهم من دون تثبيت مدة محددة لحكمهم، بل غالباً ما يحتفظون بمناصبهم هذه حتى تعيين بدلاء منهم. ومع ذلك، فنادراً ما يظل الحاكم في منصبه أكثر من بضعة أعوام.

وفي تلك الأثناء، أصبحت قيادة الجيش وتحقيق الانتصار في معركة ناجحة مصدر مجد وثراء لقائده، وكلاهما سيوفر له أيضاً فرصاً سياسية كبيرة تساعده هو (أو أحد أفراد ذريته) تبوؤ منصب كبير مستقبلاً. وباتت الانتخابات التي تجرى كل سنة تعني تكرار المنافسة من أجل الحصول على تأييد الناخبين وموافقتهم. ونظراً إلى أن فترات الحكم التي تمنح لحكام المقاطعات قصيرة نسبياً، فقد بات لزاماً على معظمهم التوجه بقوة لخوض حرب ما، وتحقيق الانتصار فيها كي يتفادى استبداله. وكان لابد لمثل هذا النظام من أن يؤدي إلى نشوب حروب عدوانية، وحملات للتوسع طوال فترة الحكم الجمهوري، الأمر

الذي أحبط المساعي الرامية إلى وضع خطط بعيدة المدى أو تحقيق تجانس في العلاقات مع الشعوب المجاورة.

ينحدر قيصر من عائلة أرستقراطية بقيت قليلة الشأن لوقت طويل. وبرغم ما أحاط حياته المهنية من بريق، فإنها بدت تقليدية في نواح عدة. وكانت أول مشاركة عسكرية له كضابط صغير في آسيا الصغرى في أواخر سني مراهقته، حيث حصل على وسام كورونا سيفيكا corona civica الذي يعد أرفع أوسمة البسالة والشجاعة، ولا يمنح إلا للشخص الذي ينقذ حياة مواطن روماني. وحين كان مواطناً عادياً [لم يشغل بعد أي منصب رسمي أو عام] قام بحشد قوة من الرجال المسلحين لاعتقال مجموعة من القراصنة. وتمكن في واقعة أخرى، من التصدي لهجوم على مقاطعة آسيا Asia [أو آسيانا Asiana، أو فريجيا Phrygia] الرومانية قادته عناصر من جيش ميثراداتس ملك بونتوس. وخدم قيصر بعد ذلك (وعلى الأرجح خلال الحرب ضد سبارتاكوس) بصفة قاضٍ عسكري. وليس ثمة دليل يؤكد قيامه بأي نشاط عسكري خلال عمله موظفاً في الدولة الرومانية. وفي عام 61 قبل الميلاد، اتجه إلى إسبانيا ليتولى منصبه حاكماً هناك، ولقيادة حملة عسكرية ضد القبائل اللوسيتانية Lusitanian؛ ولم يكن جيشه آنذاك يضم سوى ثلاثة فيالق فقط.[5]

وعند بلوغه الأربعين عاماً، كان قيصر قد أمضى في الخدمة العسكرية نحو سبع سنوات إجمالاً. وفترة كهذه تقل عن المعدل المعتاد بالنسبة لأي سياسي روماني. وعلى الرغم من سجله الحافل بالإنجازات الكبيرة، فإن هناك الكثير من القادة الآخرين ممن يمكنهم التباهي بتحقيق إنجازات مماثلة. ولم يتسن لقيصر ارتقاء سلم مناصب نظام "الوظائف العامة" إلا بفضل أعماله البطولية، فضلاً عن عوامل أخرى لا تقل أهمية. فقد كرس قيصر جهوده لنصرة القضايا الشعبية، ونال شهرته خطيباً ومحامياً، وكان ينفق ما يقترض من أموال بشكل يبعث على الدهشة لأغراض الدعاية لنفسه وكسب الشعبية.

وبحسب وصف سالوست Sallust له، فإن «قيصر قد اعتاد على بذل الكثير من الجهد، ونيل القليل من الراحة، وإيلاء جلّ اهتمامه لضمان مصالح أصدقائه على حساب مصالحه الشخصية، ولم يتردد في القيام بكل ما يرى أنه يستحق القيام به خدمة لغيره. وكان يتطلع بقوة لإمبراطورية عظيمة، وتأسيس جيش عظيم، وخوض الحروب من أجل إثبات مواهبه وقدراته».[6]

ويبدو التناقض بين السيرة المهنية لكل من بومبي وقيصر واضحاً في أقصى حدوده. فقد استطاع بومبي، الذي يكبره بستة أعوام فقط، تشكيل ثلاثة فيالق من سكان المقاطعات التابعة له وعلى نفقته الخاصة؛ واختار مساندة قضية سولا إبّان فترة الحرب الأهلية. ولم يكن يمتلك السلطة الشرعية للقيام بذلك، ولكن حجم جيشه كان كافياً لكي يجعل من الدعم الذي يستطيع تقديمه جديراً بالحصول عليه. وحقق انتصاراته الأولى كلها على أعداء الرومان، حيث تمكن من القضاء على أعداء سولا في إيطاليا وإفريقيا، ونال من بعد لقب "السفاح الصغير" لما أبداه من اندفاع وحماس عندما قام بإعدام عدد من أعضاء مجلس الشيوخ. وفي عام 78 قبل الميلاد، فوضه مجلس الشيوخ بمواجهة المحاولة الانقلابية التي قادها الحاكم ليبيدوس Lepidus. وبعد ذلك أرسل إلى إسبانيا للقضاء على ما تبقى من فلول أنصار ماريوس. ومع أن مجلس الشيوخ أسبغ عليه سلطات الحاكم، فإنه لم يتقلد منصب قاض، بل حتى لم يصبح عضواً في مجلس الشيوخ (سيناتور). وبعد عودته إلى روما عام 71 قبل الميلاد، طالب بمنحه سلطة قضائية، وقد حصل عليها بالفعل؛ وأخيراً أصبح عضواً في مجلس الشيوخ. وفي عامي 67 و66 قبل الميلاد، منحت له سلطات إقليمية واسعة على نحو استثنائي، وحقق للمرة الأولى انتصارات على أعداء أجانب. وعندما عاد إلى روما في نهاية العقد، كان قد جنى ثروة ضخمة، وسجلاً عسكرياً حافلاً بانتصارات تفوق بها على ما حققه أي عضو آخر من أعضاء المجلس.

ويومئذٍ، كان قيصر تواقاً لخوض حرب، أي حرب، بقصد تحقيق أمجادٍ على غرار ما حققه كراسوس، ولوكولوس Lucullus، وحتى بومبي نفسه؛ ولكي يتمكن أيضاً من تسديد ديونه الضخمة. وفي أواخر عام 60 قبل الميلاد، عقد تحالفاً سرياً مع بومبي وكراسوس، اللذين أصيبا بالإحباط جراء فشلهما في الحصول على موافقة المجلس على عدد من المشروعات القانونية. وأصبح قيصر قنصلاً في العام 59 قبل الميلاد، وتمكن بفضل دعمهما له من تمرير التشريع الذي كانا في حاجة إليه، بالإضافة إلى تشريعات أخرى كان يريدها لنفسه. وأمّن لنفسه قيادة عسكرية عليا جمعت منطقتي الغال سيزالبين وإليريا Illyria، مكنته من حشد ثلاثة فيالق. ولم يكن مجلس الشيوخ قد أجاز له ذلك، بل هي الجمعية الشعبية العامة التي فعلت ذلك، إضافة إلى فترة حكم أمدها خمس سنوات. وبالطريقة نفسها حصل بومبي على قسم من صلاحياته وسلطاته فقد قام مجلس الشيوخ بالفعل بتوسيع مقاطعة قيصر بإضافة مقاطعة الغال ترانس ألبين Transalpine Gaul إليها في أعقاب وفاة حاكمها بشكل مفاجئ، والتي كانت - أي المقاطعة - تضم فيلقاً عسكرياً آخر أضافه قيصر إلى جيشه ليزيد عدده.

تحديد معالم الحرب

كان قيصر، مثله مثل أي رجل دولة ناجح آخر، انتهازياً لا يتردد في اقتناص الفرص متى ما سنحت. وعندما ذهب إلى مقاطعته في عام 58 قبل الميلاد، لتسيير شؤون الحكم فيها، كان في حاجة إلى الدخول في حرب، أياً كانت، طالما أنها ستكون حرباً واسعة النطاق. وقد انطوت خططه الأولية على تصور تمثل في توجيه حملة على منطقة الدانوب، تستهدف على الأرجح بوربيستا Burebista ملك داتشيا Dacia (رومانيا حالياً) الثري والقوي. وبعد إضافة فيلق مقاطعة الغال ترانس ألبين إلى جيش قيصر على نحو غير متوقع، وردت مباشرة أنباء عن هجرة أبناء قبيلة هيلفيتي Helvetii من المناطق التي تعرف في الوقت الحاضر باسم سويسرا. ولأن هؤلاء المهاجرين أرادوا اجتياز المقاطعة

الرومانية، فقد اعتبرتهم القبائل الموالية لروما خطراً يتهددها. ولعل قيصر كان سيتعرض للانتقاد إذا ما غض الطرف عن هذه المشكلة. وعلى أي حال، فقد أدرك قيصر في الحال أن عليه انتهاز هذه الفرصة؛ فقام باتخاذ إجراء سريع. فسارع إلى تعبئة جيشه ونشره لمواجهة هذا التهديد والتصدي لقبائل الهيلفيتي. ومن ثم، خرج من مقاطعته لملاحقتهم، وفي نهاية المطاف قضى عليهم تماماً في المعركة التي دارت بينه وبينهم.

وإذ بلغت هذه الحملة نهايتها، فقد كان الوقت في تلك السنة قد فات للتفكير بشن عملية عسكرية في البلقان خلالها. وبدلاً من إضاعة الوقت، قرر قيصر مهاجمة القائد الجرماني أريوفيستوس Ariovistus. وكان هذا الأخير قد تلقى دعوة من قبيلة سيكواني Sequani للتوجه إلى بلاد الغال، ولكنه قام بالسيطرة على أراضي القبيلة والمناطق المتاخمة لها. وحتى تلك اللحظة، بدا الوضع مقبولاً بالنسبة إلى الرومان. وفي عام 59 قبل الميلاد، مدَّ قيصر بنفسه يد العون لأريوفيستوس وسماه رسمياً "صديق الشعب الروماني وحليفه". ولكنه صار بعد ذلك يزعم أن القائد الجرماني كان يشكل تهديداً خطيراً للقبائل المتحالفة مع روما، كقبيلة إيدوي Aedui، مثلاً. فشن هجوماً على أريوفيستوس وهزمه. وهيأ له الانخراط في شؤون بلاد الغال فرصة جديدة للتدخل حربياً. ففي عام 57 قبل الميلاد، ادعى قيصر مرة أخرى أن الحاجة تدعو إلى شن هجوم كبير من أجل حماية حلفاء روما ومصالحها؛ فوجه حملته العسكرية ضد قبائل البلجيك Belgic هذه المرة.

حرص يوليوس قيصر على تدوين إنجازاته الشهيرة بعناية كبيرة في كتابه الشهير **التعليقات** *Comentaries*، الذي اعتاد - فيما يبدو - نشره في أجزاء منفصلة خلال أشهر الشتاء التي تعقب إحدى حملاته.[7] وترسم هذه الأجزاء صورة لقائد يعمل طوال الوقت على ما فيه مصلحة الجمهورية. ومع أن هذه الكتب لم تشر بشيء إلى العوامل الشخصية التي حددت معالم حروب قيصر، فإنها، بدلاً من ذلك، تقدم وصفاً للتقدم التي تحقق في هذه الحملات، الواحدة تلو الأخرى، على نحو لا غبار عليه وبطريقة بدت

منطقية. يصور الكتاب قبائل الغال على أنها تفتقر إلى التوازن وتميل إلى استثارة النزاعات الداخلية، وإن هو اعتبرها مستقرة أساساً. وعلى عكس هذه القبائل، يصف قيصر القبائل الجرمانية بأنها قبائل رعاة شبه رحل، وأنها تفضل الهجرة غرباً حيث أراضي بلاد الغال الأكثر جودة من أراضيها. وهو بذلك استحضر الذكريات التي ارتبطت بقبيلة كيمبري Cimbri وقبائل أخرى غيرها، وما شكلته من مخاطر تهددت إيطاليا في نهاية القرن الثاني قبل الميلاد. ويعرض قيصر نهر الراين على أنه الخط الواضح الذي يفصل بين مقاطعتي الغال وقبائل الجرمانيين، على الرغم من أن قيصر يقر شخصياً في شرحه للموقف بمدى تعقيد الأوضاع. وقد حدد له ذلك بجلاء طبيعة الأراضي التي يجب عليه احتلالها، ومنحه سبباً واضحاً لتدمير أي من الجماعات الجرمانية التي يمكن أن تحل ببلاد الغال. ومع ذلك، فقد كان عمر الحملات التي انطلقت عبر نهر الراين قصيراً، إذ لم يكن الغرض منها الاحتلال الدائم على الإطلاق. ولكنها أظهرت أن الرومان قادرون على عبور النهر متى شاؤوا، وأنهم قد يفعلون ذلك. وعندما فعلوا ذلك حقاً، بإقامة جسر لهذا الغرض- وهو عمل يتخطى قدرات القبائل- تعززت وجهة النظر القائلة بالهيمنة الرومانية المطلقة.[8]

وفي عام 56 قبل الميلاد، كانت العمليات القتالية تجري على نطاق ضيق، ويتولى القيام بالجزء الأكبر منها أفراد من أبناء القبائل الخاضعة لقيصر، والذين تولوا قيادة كتائب الجيش. ويرجع هذا في أحد أسبابه إلى أن الأعداء أو الأهداف الواضحة الكبيرة تم التعامل معها في وقت سابق. أما السبب الرئيسي فقد تمثل في المخاوف السياسية التي أجبرت قيصر على البقاء في الغال سيزالبين، ما يجعله أقرب ما يكون إلى إيطاليا. وكاد التوتر الذي نشب بين بومبي وكراسوس أن يؤدي إلى انهيار التحالف بينهما. وقد توجه الرجلان للقاء قيصر في مقاطعته، في إطار ما عرف باسم مؤتمر لوكا Luca. وهناك أبرمت معاهدة جديدة كان من نتائجها تمديد فترة قيادة قيصر لخمس سنوات أخرى.

وجاء هذا ليمنح يوليوس قيصر مجالاً أوسع لصوغ خططه ومشروعاته. ومن المرجح أنه كان يفكر بالفعل في شن حملة عسكرية ضد بريطانيا. وفي عام 56 قبل الميلاد، تمكن من إنزال الهزيمة بفنيتي Veneti، وهي القبيلة كانت تمتلك أسطولاً وربما كانت ستقف عائقاً أمام هذه الحملة. وفي عام 55 قبل الميلاد، تسببت الحملة التي وجهت للقبائل الجرمانية المهاجرة في تأخير الهجوم على بريطانيا؛ ولذلك اكتفى قيصر بتنفيذ عملية عسكرية ضيقة النطاق عبرت القنال الإنجليزي في نهاية العام نفسه. وكادت الحملة أن تنتهي بكارثة عندما تحطم جزء من الأسطول جراء عاصفة شديدة. وأعاد قيصر الكرة في السنة التالية بقوة أعظم، ولم يحقق إلا انتصاراً متواضعاً؛ إذ أخطأ - للمرة الثانية – في تقدير خطورة عبور القنال الإنجليزي، حتى كادت أن تتقطع به السبل فوق الجزيرة. وفي المجمل، فإن الحملات التي استهدفت بريطانيا لم تحقق، من الناحية العسكرية، إلا القليل جداً من الإنجازات، مع جسامة المخاطرة التي انطوت عليها. أما على الصعيد السياسي فقد حققت هذه الحملات نجاحاً كبيراً، إذ صوت مجلس الشيوخ لصالح تخصيص عشرين يوماً لإقامة احتفالات عامة لتقديم الشكر بمناسبة الانتصار الذي حققه قيصر، وهذه فترة أطول من أي فترة مماثلة أخرى خصصت من قبل لمثل هذا الغرض.[9]

تميزت الحملات التي قادها قيصر بالعدوانية والانتهازية؛ غير أنها - مع ذلك - لم تختلف عن النمط العام لأي من الحملات الرومانية الأخرى من حيث التخطيط والتنفيذ، سواء في تلك الفترة أو في الفترات التي سبقتها. وعلى خلاف غيره من القادة، فقد توافرت لقيصر قوات ضخمة تحت تصرفه، فضلاً عن أن قيادته لها دامت لفترات أطول. وبحسب المعايير الرومانية فقد كانت حملاته مبررة؛ ولعل الانتقاد الوحيد الذي وجه إليه كان قد جاء من كاتو الأصغر Cato the Younger في عام 55 قبل الميلاد. وذلك عندما أقام قيصر مذبحة بحق القبائل الجرمانية المهاجرة. ولم ينصبَّ انتقاد كاتو أساساً على ارتكاب المذبحة نفسها، وإنما بسبب توقيت وقوعها خلال فترة هدنة، فعدت بذلك خرقاً لنزاهة روما وحسن نيتها اللتين طالما تفاخرت بهما. وقد دأب معارضو قيصر، حتى في

أثناء التطورات التي أدت إلى قيام الحرب الأهلية، على انتقاد تصرفاته خلال فترة توليه منصب القنصل في عام 59 قبل الميلاد، وتحديداً تطلعاته وطموحاته للمستقبل بحسب ادعائهم. ولكنهم على ما يبدو لم تكن لديهم الرغبة في محاسبته على تصرفاته في بلاد الغال.[10]

سياسات متباينة

حقق قيصر الانتصار في كل المعارك التي خاضها تقريباً، ولم يخسر مطلقاً في أي من الحملات التي قادها. غير أنه ومنذ بداية حملاته في بلاد الغال، كان قد أدرك أن الانتصار على أرض المعركة وحدها ليس كافياً. فروما كانت قد دخلت في تحالفات مع عدد كبير من القبائل، ولاسيما تلك التي تقيم في المناطق المجاورة لمقاطعة الغال ترانس ألبين. ومن هنا، فقد تحول الدفاع عن هؤلاء الحلفاء إلى ذريعة رئيسية يعتمدها قيصر لتبرير تدخلاته عسكرياً، وكذلك الحملات التي تلتها. وكلما توغل أكثر في بلاد الغال، ازداد عدد حلفائه الجدد. وأظهر قيصر دوماً وحشية في التعامل مع أعدائه خارج بلاد الغال، أشد من تلك المعاملة مع القبائل التي نشأت أصلاً هناك. وتميز تعامله مع كل من أريوفيستوس، وقبيلة هيلفيتي، والقبائل الجرمانية المهاجرة، بمنتهى القسوة وتمكن من طرد الجميع خارجاً. ولكنه عموماً أبدى قدراً أكبر من الكرم والتسامح في تعامله مع قبائل الغال التي حاربته. وكانت القبائل المتحالفة معه تمده بالجنود وتتقاسم معه غنائم الانتصار. وقد حظيت قبيلة إيدوي، الحليف القوي لروما، بكثير من الامتيازات والدعم، وتعاظم نفوذها وتأثيرها، حين أصبح واضحاً أنه حتى أتباع هذه القبيلة من المتحالفين معها كانوا سيتمتعون بحماية الرومان لهم.

تحققت لعدد من الزعماء والقادة منافع شخصية كبيرة بفضل صداقتهم لقيصر. فقد كان يحرص على دعوتهم إلى الاجتماع به مرة كل سنة، أو أكثر غالباً. واعتاد أيضاً أن يلتقي بهم فرادى للتحاور معهم وطلباً لمشورتهم. فبعضهم كان قد خدم في الجيش الروماني

لفترات طويلة. وقد لعب كوميوس Commius، الذي ينحدر من منطقة أتريباتس Atrebates، دوراً بارزاً على نحو خاص في الحملات التي قادها قيصر ضد بريطانيا؛ فكوفئ مقابل خدماته هذه وغيرها بأن نُصِّب ملكاً على شعبه، ومنح سلطات مطلقة لتزعم قبيلة منابي Menapii. وأثبت ديفيسياكوس Diviciacus (أحد أبناء قبيلة إيدوي) أنه حليف مخلص حين تمكن من كسب العديد من الأتباع من قبائل أخرى، بعد أن عرف عنه أن قيصر كثيراً ما يغدق عليه المنح والهبات.

وظل قيصر يراقب عن كثب تطور الأوضاع السياسية داخل أوساط القبائل ويمنح دعمه لأولئك القادة الذين يرجح لهم أن يكونوا موالين له أكثر من غيرهم. وتحول وصول الجيش الروماني إلى فرصة ثمينة بالنسبة إلى مثل هؤلاء الرجال لتقوية ركائز مواقعهم؛ وهو ما أمسى واقعاً لا سبيل إلى تجاهله. ويصح الشيء نفسه بالنسبة إلى أريوفيستوس الذي دعته قبيلة سيكواني إلى زيارتها، ولكنه استخدم فيها بعد جيشه لا لإخضاعها هي فحسب، بل والقبائل المجاورة لها أيضاً. وحرص قيصر على إزاحة أي قوة منافسة من أمامه كي تظل سلطته هي الوحيدة التي تفرض نفسها من الخارج على السياسات الخاصة بهذه القبائل.

لم ينتج عن فتح قيصر لبلاد الغال زيادة في عدد المستعمرات الرومانية في المنطقة. فالمقاطعة التي أسسها - كما هي الحال عملياً مع كل المقاطعات الرومانية الأخرى تقريباً - جرى توطينها بسكان كانوا يعيشون هناك أصلاً. ومن أجل إنجاح هذا، كان يجب أولاً إقناع السكان بأن مصلحتهم تقتضي تقبل الحكم الروماني لهم والاعتراف به. ومع أن قوة الجيش الروماني قد شكّلت رادعاً لأي اعتراض أو مقاومة، فإن القوة العسكرية وحدها لم تكن كافية. وعلى الرغم من أن قيصر ضاعف عديد جيشه من أربعة فيالق إلى اثني عشر فيلقاً خلال فترة الحملات على بلاد الغال، فإن هذا الجيش، وحتى بعد هذه الزيادة، لم يكن بإمكانه أن يكون حاضراً في كل مكان بالوقت نفسه. ولم يكن عملياً، ولا محبذاً أيضاً،

إخضاع إقليم ما بالقوة العسكرية فقط دون غيرها. فقد تتساوى نفقات إبقاء جيش بهذا الحجم مع العوائد التي يمكن الحصول عليها من المقاطعة، إن لم تكن النفقات أكبر. كما أن الحاجة إلى إنشاء حامية عسكرية قد يوحي أيضاً بأن الفوز في الحرب لم يتحقق فعلاً بعد، ما يمكن أن ينتقص من قيمة المجد الذي يقترن عادة بالانتصار الذي تحقق.

ولهذا، ومنذ عام 58 قبل الميلاد فصاعداً، قرر قيصر تكريس وقت وجهد كبيرين للجهود الدبلوماسية، أملاً في الظفر بود رؤساء القبائل ومؤازرتهم له. وبينما هو يجهد نفسه لتقوية القدامى من حلفائه، حرص في الوقت نفسه على التعامل مع الأعداء المهزومين برفق ولين عسى أن يجعل منهم حلفاء جدداً. وهذه المقاربة معتادة في روما، فهي الأسلوب الذي اتبعته غالبية القوى الإمبراطورية الناجحة. وقد ساعده في ذلك امتلاكه للقوة العسكرية والمدنية، ما يعني أن قيصر يعمل، في كل حملة عسكرية يشنها، على تحوير استراتيجيته وتكييفها لتتناسب مع الهدف السياسي للحملة. وقد يكون تحقيق شيء كهذا أكثر صعوبة في العالم المعاصر، حيث الأوضاع أكثر اضطراباً، وبسبب تعدد السلطات صاحبة القرار التي تأخذ على عاتقها إنجاز مهمات مثل هذه. وفي أثناء إعداد هذا الكتاب، كانت الولايات المتحدة الأمريكية تخوض حرباً في العراق وأفغانستان، حيث لا يمكن للقوة العسكرية وحدها تحقيق النصر من دون تحقيق الاستقرار السياسي. ومن الجدير بالذكر هنا أن قيصر لم يكن يعتزم إنشاء ديمقراطية قابلة للحياة، ثم ينسحب بعد ذلك؛ إذ إن مشروعه كان يقوم على الفتوحات المتواصلة، وكان يمكن أن يكون أشد قسوة في تصرفاته. ولم يكن الرومان يأبهون كثيراً بالرأي العام العالمي وبمواقفه.[11]

ولكن تبقى هناك بعض العوامل المشتركة. ففي مقابل كل زعيم قبيلة عاد عليه مجيء قيصر بالنفع والفائدة، هناك آخرون غيره لم يجنوا شيئاً. والتنافس السياسي داخل كل قبيلة، أو فيما بينها جميعاً، كان على قدر من الضراوة مماثل لذلك الذي يحتدم عادة في الجمهورية الرومانية بعامة. وفي حال أدرك زعيم هذه القبيلة أو تلك أن منافسه يحظى

بمحاباة أكبر مما يحظى به، فلن يكون لديه حافز قوي لدعم روما ومؤازرتها. ولعل من بين البدائل التي قد تتاح لهذا الزعيم طلب المساندة من قوة خارجية، كإحدى القبائل الجرمانية، على سبيل المثال؛ والقبول بسيطرتها عليه ثمناً لدعمها له. أو أن يمكن لرئيس القبيلة هذا أو ذاك أن يهاجم منافسه بصورة مباشرة ويدحره. وفي الظروف المثالية، يجب القيام بذلك بسرعة كبيرة وبشكل نهائي وحاسم بحيث يكون قيصر نفسه مستعداً لقبول التغيير، على الرغم من أنه بصورة عامة يرفض مثل هذا التغيير، وينزل عقابه بمن يقف وراءه.[12] وبعكس ذلك، فقد يتطلب الأمر طرد الرومان أيضاً من أراضيهم. ويعد من قبيل تبسيط الأمور التفكير بوجود فصائل موالين كلياً لروما، أو معادين كلياً لها، في كل قبيلة. وبالطريقة نفسها سيكون من الخطأ الحديث عن خلاف بسيط بين الجماعات الموالية للغرب وتلك المناوئة لها في الصراعات الحديثة.

إن رجالاً مثل كوميوس وديفيسياكوس لهم أجندات وطموحات خاصة بهم؛ فلابد أنهم شعروا بأنهم يستغلون قيصر بقدر استغلاله لهم، فتتعزز بذلك قدراتهم ونفوذهم من خلال دعم الرومان لهم. وأما بالنسبة إلى دومنوريكس Dumnorix شقيق ديفيسياكوس، فقد اتجه صوب مصادر أخرى لكسب التأييد والدعم اللذين يحتاجهما للسيطرة على أبناء قبيلة إيدوي. ومع تعاظم نفوذ شقيقه وقوته، بدأ دومنوريكس بالتمرد على روما سراً. وقام بعد ذلك، وعلى الأرجح بعد وفاة ديفيسياكوس، ببث إشاعة تفيد بأن قيصر يخطط لتعيينه ملكاً على القبيلة. ولكنه قتل بأمر من قيصر نفسه بسبب محاولته التملص من الاشتراك في الحملة الأولى ضد بريطانيا.

وتغير الولاءات ليس أمراً مستبعداً؛ والمصالح الشخصية هي التي تملي أكثر من أي شيء آخر على القادة الوقوف إلى جانب روما، أو التمرد على قيصر. وتغير المصالح هو الآخر ليس أمراً مستبعداً. ففي شتاء 53–52 قبل الميلاد، خلص العديد من قادة بلاد الغال إلى أن الوجود الروماني بات عائقاً أمام حريتهم في التصرف. وخلال حركة التمرد

الواسعة التي تلت ذلك، التحق القادة، الذين كانوا قد استفادوا من وجود قيصر، بمعسكر أولئك القادة الذين دأبوا بشكل مستمر على التمرد والمطالبة بطرد الرومان من على أراضيهم. وقد أصبح فيرسنجتوريكس Vercingetorix، وهو أحد المقربين من قيصر، قائداً رئيسياً للثوار، ولكن هذا لم يرد ذكره في كتاب **التعليقات**.[13] ولعل المثال الأكثر وضوحاً على حالات الردة هو انشقاق كوميوس.

وكادت الهزيمة تحل بقيصر في عام 52 قبل الميلاد؛ فقد تكبد انتكاسة خطيرة في هجومه الذي شنه على جيرجوفيا Gergovia. ولكنه مع ذلك لم يستسلم، وتمكن من أخذ زمام المبادرة ومحاصرة فيرسنجتوريكس في أليسيا Alesia، بعد أن حقق نجاحاً محدوداً في إحدى المعارك؛ وأُجبر فيرسنجتوريكس على الاستسلام بعد حصار قاس للغاية. ولكن الحرب لم تنتهِ باستسلامه، إذ واصل قيصر وأتباعه، لعام كامل، شن هجمات تأديبية ضد أي قبيلة لم تكن قد ألقت سلاحها بعد، فيما استمرت مطاردة قادة من أمثال كوميوس، وإن كان هذا بالذات قد تمكن من الفرار إلى بريطانيا. وعندما تمت السيطرة على مدينة أوكسيلدونوم Uxellodunum المسورة، أمر قيصر بقطع أيدي المحاربين الذين تم أسرهم كتحذير مرعب لهم.

ولكن، وكما هي الحال دوماً، فإلى جانب الانتقام والترهيب واستخدام القوة والتهديد باستخدامها، هناك أيضاً الجهود الدبلوماسية المنسقة. وبحسب وصف أحد ضباطه، فقد «كان لدى قيصر هدف أساسي واحد هو الحفاظ على علاقات جيدة مع زعماء القبائل، وعدم إعطائهم فرصة أو سبباً للدخول في حرب... وهكذا، ومن خلال طريقة التعامل باحترام معهم، وإغداق المغانم الكبيرة عليهم، وعدم فرض الأعباء عليهم، تمكن من جعل الخضوع لسلطته حالة مقبولة لدى هذه القبائل، وسهّل عليه الحفاظ على السلام في منطقة الغال التي أنهكتها الهزائم العسكرية الكثيرة التي توالت عليها».[14] واستغرقت هذه العملية أكثر من عامين؛ وكما يحدث دوماً، فإن الشطر الأكبر من الجهود

الدبلوماسية اتخذ طابعاً شخصياً. وفي عام 49 قبل الميلاد، وجه قيصر جيشه بالكامل تقريباً ليكون طرفاً في الحرب الأهلية. ولم تعلن بلاد الغال العصيان بعد رحيل القوات الرومانية، وعندما كان قيصر منشغلاً في أماكن أخرى.

غير أن ما تحقق من نجاحات كان له ثمنه. فقد أخطأ يوليوس قيصر في تقييم أوضاعه في شتاء 53–52 قبل الميلاد، وفوجئ باندلاع التمرد عليه. وعلى الرغم من أنه أعاد الأوضاع إلى نصابها وكسب المعركة، فإن إحلال السلام من جديد تطلب وقتاً طويلاً والكثير من الجهد. وفي روما سرت شائعات عن وقوع هزائم كبيرة في الغال، ما شجع معارضي قيصر على الاعتقاد أنه لم يعد ذلك القائد الذي لا يقهر. ومهما يكن، فلم يكن لدى قيصر ما يكفي من الوقت لتهيئة نفسه للعودة إلى روما. ولو كان بإمكانه قضاء سنة أخرى في مقاطعة الغال سيزالبين القريبة من إيطاليا، ولو كان هناك من سبيل يسهّل عليه تلقي الرسائل والزيارات من شخصيات مهمة ومؤثرة، لربما كان ممكناً تفادي وقوع الحرب الأهلية، وأقول "من الممكن"، ولا أقول "من المؤكد". وفي النهاية، فإن هذا الأمر في معظمه كان مرهوناً بالموقف الذي سيتخذه بومبي. فقد كان تغييره لولائه، لصالح أعداء قيصر، قد وفّر لهم القدرات العسكرية التي مكّنتهم من إشعال فتيل الحرب الأهلية.[15]

الجيوش "الخاصة"

لم يكن ممكناً خوض الحروب الأهلية لولا توافر الرغبة لدى الجنود الرومان في قتل بعضهم بعضاً. وبحلول القرن الأول قبل الميلاد، كان الجيش عبارة عن قوة محترفة فعلياً، تتألف صفوفها على الأغلب من جنود ينتمون إلى أفقر طبقات المجتمع. وبالنسبة إلى مثل هؤلاء الأفراد، فإن الجيش كان يمدهم برواتب ثابتة، إن لم تكن سخية، فضلاً عن تزويدهم بالمأكل والملبس. وعلى خلاف جيوش الخدمة الإلزامية التقليدية التي تُشكّل من مجنّدين معظمهم من أصحاب الأملاك، لم يكن لدى هؤلاء أي مصدر آخر للعيش في حال تركوا الخدمة العسكرية. وبدا مجلس الشيوخ وقتئذٍ متردداً في إيجاد حل لهذه المشكلة. وفي

الغالب، لم يكن بإمكان أي قائد عسكري أن يضمن الحصول على أراضٍ زراعية يمنحها لأفراد جيشه بعد تسريحهم إلا بعد بذل جهد كبير. وقد عزز ذلك الصلة بين الجنود وقادتهم بشكل أقوى من الصلة بين الفيالق والدولة نفسها. وبناء عليه، فقد كان أحد أهم دوافع التحالف مع كراسوس وقيصر هو تأمين قطع أراضٍ للجنود القدامى. وقد تمكن قيصر من تمرير التشريع اللازم لذلك في عام 59 قبل الميلاد.[16]

ولم تكن "التبعية" الاقتصادية لتمثل الصلة الوحيدة التي تجمع بين الجندي والقائد. فقد كانت الانتصارات المشتركة تساعد على بناء ثقة متبادلة بين الطرفين، وإن هي - أي الانتصارات - لم تكن كافية بحد ذاتها. فالقائد لوكولوس، الذي عد أحد أبرز القادة وأقدرهم على وضع الخطط التكتيكية في تلك الفترة، لم يكن محبوباً بين جنوده، الذين اعتبروه بخيلاً عندما يتعلق الأمر بتوزيع المكافآت وغنائم الحرب عليهم. أما القادة الآخرون من أمثال بومبي فقد كانوا أكثر كرماً بكثير عند توزيع غنائم الحرب ومشاركتها مع الجنود بعد الانتصار.

أما يوليوس قيصر فقد حظي بشعبية هائلة بين جنوده، حتى إن ولاءهم له في أثناء الحرب الأهلية كان قد بلغ حد الجنون والتعصب، وعلى نحو لم يسجل التاريخ حالة مماثلة له، باستثناء بضعة قادة فقط كان نابليون واحداً منهم. وعلى أي حال، فلم تكن الصلة بين قيصر وجنوده وليدة اللحظة، كما أنها لم تولد من العدم. ففي عام 58 قبل الميلاد، تولى قيصر قيادة أربعة فيالق كان شخص آخر قد قام بتشكيلها، وتمكن في الحال من تجنيد فيلقين إضافيين، ثم اثنين آخرين في شتاء العام الذي تلاه. وفي عام واحد، تضاعف حجم جيشه. ولم يمض سوى وقت قصير حتى ازداد إلى ثلاثة أضعاف حجمه الأصلي.

لم يكن الجنود في بادئ الأمر يعرفون شيئاً عن قيصر، ولم يكونوا يثقون به بشكل خاص. فقد ارتكب قيصر أخطاء عدة في أثناء الحملة التي خاضها ضد قبيلة هيلفيتي، أبرزها ما حدث في إحدى الليالي عندما شُن هجوم على معسكرهم انتهى بمحاصرة

قوة من جيشه، فيما هو وباقي جنده لم يحركوا ساكناً. وربما لم ينتبه أعداؤه إلى الفرصة التي توافرت لهم، أو لعلهم لم يرغبوا في استغلالها. وفي وقت لاحق من صيف 58 قبل الميلاد حدث تمرد في فيسونيتو Vesontio، عندما رفض جيش قيصر التقدم نحو أريفوستوس؛ فما كان منه إلا مداهنة جنوده والتملق إليهم ليحثهم على التقدم، وهو ما حصل بالفعل حيث تمكنوا من دحر العدو سريعاً. وقد أتبع الانتصارات التي تحققت في تلك السنة بالنجاح الذي تحقق في معركة سامبر Sambre في عام 57 قبل الميلاد، وإن بشق الأنفس؛ فخلال هذه المعركة، ذهب قيصر بنفسه ليحث إحدى قطعات الجيش التي كانت تتعرض إلى الضغط في منطقة الحدود ليبين لهم بأنه لا يتخلى عن رجاله وقت الضيق. وبمرور الوقت، شعر أفراد الجيش أن بإمكانهم الاعتماد على قائدهم في مساندته لهم حتى تحقيق الانتصار. وهكذا، فإن إيمانهم القوي بأن الانتصار سيكون حليفهم في النهاية قد أسهم في تحويل جيش قيصر إلى أحد تلك الجيوش التي يصعب جداً إلحاق الهزيمة بها.

وبالإضافة إلى شعورهم بالثقة من تحقيق النصر، فقد كان جنود قيصر واثقين أيضاً من تقسيم المكافآت والغنائم فيما بينهم، وهي عادة جديرة بالاعتبار. وبحسب أحد المصادر، فقد بيع نحو مليون شخص كعبيد خلال الحملات التي شنت على بلاد الغال. ويذكر مصدر آخر عن حدوث أعمال نهب للمزارات والأضرحة المحلية، والاستيلاء على الكنوز الثمينة المخبأة فيها. ومع أن قيصر كان يتوقع التزاماً صارماً بالانضباط في حملاته، وفرض سيطرة قوية على عمليات التدريب، فقد خفف من حدة هذا الالتزام من خلال منح الجنود حرية واسعة في أوقات أخرى. وحرص في الوقت نفسه على مكافأة ذوي الإنجازات البطولية، إما بمبالغ مالية، وإما بترقيتهم، بالإضافة إلى ذكر هذه الإنجازات في كتابه **التعليقات**. وكثيراً ما ترد في كتابه هذا، وفي مصادر أخرى غيره، الإشارة إلى أن الجنود الرومان يحاربون بشكل أفضل عادة متى ما شعروا أن قائدهم يراقبهم، ولاسيما أنه هو الذي يمتلك صلاحية العقاب والثواب.[17]

وهكذا، فقد أصبح العديد من كبار ضباط جيش قيصر من كبار الأغنياء أيضاً خلال هذه الحملات، وهو ما كان موضع سخرية الشاعر كتالوس Catullus؛ إذ إن منصب قيادة الجيش كان يتيح لهذا الحاكم الروماني أو ذاك الحصول على قدر كبير من المنافع والامتيازات، ما يسمح له بتعيين المندوبين والقضاة وغيرهم في سلم واسع من المناصب، فضلاً عن منح عقود عمل لرجال أعمال من اختياره. كما كان لغنائم الحرب ومكاسبها أهمية عظيمة في كسب الأصدقاء في روما. فقد منح قيصر قرضاً لشيشرون، ودفع العمولة المستحقة لأحد المندوبين إلى أخيه كوينتوس Quintus، الذي يرسم له قيصر صورة مشرفة جداً في **التعليقات**. وبُثت في الوقت نفسه شائعات عن إنفاق مبالغ طائلة لشراء دعم أميليوس باولوس Aemilius Paullus وكيوريو Curio، وكان الأول يشغل وظيفة قنصل، فيما كان الثاني نائباً في الجمعية الشعبية العامة، وذلك في عام 50 قبل الميلاد.[18]

لم يحصل قيصر في البدء على الموافقات الرسمية اللازمة على التوسيع الكبير الذي أدخله على جيشه. فقد شرع بتلك المهمة من تلقاء نفسه، وباستخدام سلطته الخاصة، وإيرادات مقاطعته لتمويل هذه العملية. وكان يعامل سكان مقاطعة الغال سيزالبين كما لو كانوا من المواطنين، بل سمح لهم بالانضمام إلى فيالقه. وفعل الشيء نفسه لاحقاً في مقاطعة الغال ترانس ألبين، حتى تمكن في النهاية من تشكيل فيلق كامل من هذا المصدر عرف باسم الفيلق الخامس الأودي Legio V Alaudae.[19] وفي عام 55 قبل الميلاد، دبر كل من بومبي وكراسوس ليس فقط توسيع سلطات قيادة قيصر، وإنما أيضاً المصادقة بأثر رجعي على توسيع جيشه، وضمان تغطية تمويلاته من قبل مجلس الشيوخ. ومن المرجح أن قيصر نفسه لم يكن قادراً على ضمان المصادقة على منح الجنسية الرومانية لأبناء بلاد الغال الذين ألحقهم بجيشه إلا بعد قيام النظام الديكتاتوري.

لم يزد قيام قيصر بتوسيع جيشه من حجم قواته بدرجة كبيرة فحسب، بل أصبح هو أيضاً يتمتع بصلاحيات أكبر. فكل فيلق جديد يتم استحداثه كان يعني إيجاد مناصب لستين

ضابطاً لقيادة تشكيلاته، بالإضافة إلى نحو ستة مناصب للضباط الذين سيتناوبون على رئاسة هذه الوحدات مدة سنة لكلٍ منهم. ويذكر قيصر في كتاب **التعليقات** أنه قام بترقية هؤلاء الضباط لمراتب أعلى بحسب بسالتهم في الحرب؛ حيث كان ينقل الضباط من الفيالق القديمة إلى التشكيلات الجديدة في الجيش عادة. وعندما انتهت الحملات الموجهة لبلاد الغال، كان كل ضباط الجيش يشعرون بأنهم مدينون لقيصر بفضل حصولهم على مناصبهم الأصلية، أو ببعض الخطوات التي أدت إلى ترقيته. وبحلول عام 48 قبل الميلاد، كانت فيالق قيصر وصلت إلى نصف قوتها الأصلية. وعندما وصلت هذه الفيالق إلى الإسكندرية، كان عديد الفيلق السادس العريق يقل عن ألف جندي، أي ما يعادل 20 بالمئة فقط من حجمه الكلي. وليس معروفاً عدد المجندين الجدد الذين كانوا ينضمون غالباً إلى هذه الفيالق، ولكن يمكن القول إن أولوية كانت تعطى دوماً لإنشاء تشكيلات جديدة، وإيجاد مزيد من الفرص لتعيين ضباط جدد، وليتم عن طريقها مكافأة الأتباع المخلصين.[20]

يمتدح قيصر في **التعليقات** الجنود العاديين الذين كان يطلق عليهم اسم *nostril*، أي "رجالنا"، لبسالتهم وشجاعتهم، وإن هو لم يذكر أحداً منهم بالاسم مطلقاً. وحتى حامل النسر الشهير في الفيلق العاشر، الذي اشتهر بإقدامه على القفز فوق إحدى السفن وقيادة الهجوم على الشاطئ في أثناء الإنزال في بريطانيا في عام 55 قبل الميلاد، لا أحد يعرف اسمه وهويته. وأما الضباط الأمراء فقد جرى تحديد هوياتهم والإشارة إليهم في مواضع كثيرة. وعندما حشد قيصر الجيش استعداداً لمعركة سامبر، لم يفته تشجيع جنوده، برغم الإشارة إليهم كمجموعات، في حين كان يذكر كبار الضباط بأسمائهم (كان هناك ما يقرب من 480 ضابطاً في جيشه في ذلك الوقت، وليس مستحيلاً على شخص واحد أن يتذكر أسماؤهم جميعاً. وفي يومنا هذا، لنا أن نتوقع من قائد كتيبة أن يتعرف إلى أسماء الجنود الذين تحت قيادته، ولكن من غير الممكن لقائد لواء، أو أي تشكيل أكبر، أن يفعل الشيء نفسه).[21]

وعلى الرغم من تواتر الأسطورة التي تتحدث عن ترقية الضباط الرومان من بين صفوف التشكيلات الأدنى، لم يذكر قيصر ذلك حتى مرة واحدة في كتابه. ويبدو أن العديد من هؤلاء، إن لم يكن جميعهم، قد تم تعيينهم بصورة مباشرة، ومن المحتمل أنهم كانوا من أبناء الطبقات الغنية والأرستقراطية المحلية في إيطاليا. وقد سمح قيصر لأعداد كبيرة من هؤلاء الضباط بالذهاب في إجازات إلى روما ليكونوا عوناً له في الانتخابات المصيرية التي جرت هناك. ويقف الترهيب جزئياً وراء هذا الإجراء، ولكن نظراً إلى أن نظام التصويت في روما كان يمنح ثقلاً أكبر للطبقة الغنية، فإنه يوحي بأن العديد من هؤلاء الضباط كانوا يتمتعون بمنزلة اجتماعية رفيعة. وقد كافأ قيصر بعضهم بمنحهم ما يكفي من الأموال ليصبحوا من الفرسان، ومن هؤلاء، مثلاً، سكيفا Scaeva، الذي تمكن في عام 48 قبل الميلاد من الصمود أمام الكثير من الصعاب والمشاق في موقع عسكري في ديراخيوم Dyrrachium. وتشير الأهمية التي تعطى لدور الضباط في كتاب **التعليقات** إلى أنهم ينحدرون من طبقة مهمة سياسياً، بدا قيصر تواقاً لرعايتها وتطويرها.[22]

نهر روبيكون وما بعده

اعتبر اجتياز نهر روبيكون دليلاً على الفشل السياسي لقيصر. لقد شكّل فعله هذا مقامرة، ومن هنا جاءت مقولته الشهيرة «لقد سبق السيف العذل» the die is cast. وكان من الأفضل بالنسبة إليه أن يعود بسلام، وأن يستمر في الحكم لولاية ثانية كقنصل على نحو سلس، ليتولى من ثم القيادة على المستوى الإقليمي؛ وهما كانتا ستعفيانه من الملاحقة القضائية. ولكن الانتصار، لو تحقق، لكان مقنعاً بدرجة أكبر؛ إذ هو سيجبر منافسيه على الاعتراف بمكانته كقائد والتي بدا جديراً بها. ولكن يجب ألا يدفعنا انتصاره الذي تحقق في نهاية المطاف إلى التغاضي عن حقيقة مفادها أن الظروف لم تكن في صالحه في نواحٍ كثيرة. ومهما يكن، فإن بومبي وحلفاءه لم يكونوا قد هيؤوا أنفسهم للدفاع عن إيطاليا، ليس فقط لأن ما من أحد كان يتوقع للحرب أن تنشب في شهر يناير، أي قبل وقت طويل من بدء

موسم الحملات الاعتيادية، بل لأنهم كانوا يتوقعون دوماً أن يوليوس قيصر سوف يتراجع أيضاً. ومع ذلك، فقد أمكن لهم الانسحاب إلى اليونان ومعهم أعداد ضخمة من قواتهم. وما إن وصلوا إلى هناك، حتى أصبح بإمكان بومبي أن يبعث في طلب العون والموارد من الأقاليم الشرقية كي يتمكن من حشد جيش كبير ويدربه.

ولا يضيع قيصر الوقت، فيجتاح إيطاليا في وقت قصير؛ ولكنه لم يكن يمتلك السفن التي يحتاجها لملاحقة بومبي. وكان بقاؤه مكتوف الأيدي سيتيح للعدو تعزيز قدراته. لذا، فقد توجه قيصر بجيشه إلى إسبانيا، حيث كان بومبي قد بسط هيمنته على الأقاليم الإسبانية منذ فترة حكمه الثانية في عام 55 قبل الميلاد، ونصّبَ نوابه حكاماً عليها ليبقى هو شخصياً قريباً من روما. لجأ قيصر إلى المناورة وتضليل قادة جيش بومبي وتمكن من تحقيق انتصار سريع آخر؛ إذ لم يكن بوسعه تحمل خسارة فادحة. ونظراً إلى أنه خاض الحرب من أجل حماية منصبه ومركزه، فإن أي تقهقر ربما كان سيشوه سمعته كقائد تماماً. بيد أن أعداءه كانوا أكثر استعداداً لتحمل مثل هذه الخسائر والضربات التي توجه إلى هيبتهم ومكانتهم الرفيعة. وكان على قيصر أن يواصل شن الهجمات وتحقيق الانتصارات، وإن كان أعداؤه قد توافرت لهم موارد أعظم حتى بعد هذه الانتصارات الأولية التي أنجزها.

ويمكث بومبي في أثينا بانتظار هجوم يشنه عليه قيصر في اليونان؛ وهي الاستراتيجية نفسها التي اتبعها كل من بروتوس وكاسيوس في عام 42 قبل الميلاد، ومن بعدهما مارك أنتوني في العام 31 قبل الميلاد. ولعل هناك الكثير من الأسباب التي تشجع على اتباع مثل هذه الاستراتيجية؛ فكل من هؤلاء كان يمتلك أسطولاً أضخم من ذلك الذي يمتلكه عدوه. بيد أن الاندحار كان نصيبهم في كل مرة، والنصر حليف المهاجم الذي يركب موجة المخاطرة. ولم يكن خافياً أن استراتيجية الأخذ بزمام المبادرة في الهجوم كانت لها أهميتها، سواء في الحروب الأهلية أو الخارجية. وكانت حملة عام 48 قبل الميلاد

وشيكة، ولربما كانت ستنتهي بكارثة بالنسبة إلى قيصر. وعلى الرغم من قدرة التحمل الهائلة التي كان يتمتع بها جنود قيصر، فقد أخفق في ديراخيوم، وأُجبر على الانسحاب، ما حمل بومبي على الاعتقاد أن جيش قيصر أصبح ضعيفاً بما فيه الكفاية لإلحاق الهزيمة به؛ فكان أن خاطر بخوض معركة في فارالوس Pharalus. وليس لنا وصف هذا الفعل باللاعقلاني؛ لأن بومبي لم يكن ليقدم على هذه المخاطرة إلا بتأثير الضغوط الشديدة التي كان يمارسها عليه كبار أعضاء مجلس الشيوخ، فضلاً عن اتهامات جيشه له بأنه يقف وراء إطالة أمد الحرب دون جدوى. وكان فشل قيصر في اجتذاب مؤيدين بارزين إلى جانبه سبباً في عدم تعرض حكمه للتحدي من قبل أتباعه. غير أن من الصعب جداً في الحروب الأهلية تطبيق استراتيجية الانتظار والامتناع عن مهاجمة العدو حتى يضطر إلى الاستسلام. ويقبل قيصر التحدي الذي تمثل في دخول الحرب ليثبت أنه قائد تكتيكي أفضل من عدوه عندما حقق انتصاراً ساحقاً عليه.

ولكن الحرب الأهلية لم تضع أوزارها؛ فقد هرب بومبي إلى مصر وقتل هناك. وقد لاحقه قيصر إلى هناك ليتورط في الحرب الأهلية في تلك المملكة. وقام بتنصيب كليوباترا ملكة على مصر، التي بقي فيها بعض الوقت؛ لأسباب شخصية وسياسية متداخلة. وبمرور الوقت، تمكن أتباع بومبي من جمع صفوفهم في شمال إفريقيا، ولكنهم هزموا أخيراً في عام 46 قبل الميلاد. وكان لابد من مواجهة جيش آخر بقيادة ابن بومبي في إسبانيا في عام 45 قبل الميلاد. لم يكن قيصر ينوي الاستحواذ على السلطة المطلقة باستخدام القوة، ولكن متى ما تم له ذلك، كان عليه أن يقاتل من أجل الحفاظ على هذه السلطة، كما كان عليه أن يحدد سبل استخدام هذه القوة. ويجب أن نتذكر هنا قصر الوقت الذي قضاه قيصر في روما ديكتاتوراً. وبعد موته بفترة وجيزة، اندلعت موجة أخرى من الحروب الأهلية بين مناصريه وقتلته. وقام كل من الطرفين بإطلاق موجات دعائية كبيرة حول ما كان قيصر يخطط القيام به. وفي يومنا هذا، يبدو من المستحيل الوقوف على الحقيقة بأي قدر من اليقين والدقة.

كانت خطط قيصر الأولية تنطوي على خوض معارك كبرى ضد الداتشيين Dacians أولاً، ومن ثم البارثيين Parthians. وكان من شأن ذلك أن يضفي عليه مجداً "نظيفاً" لأنه سيلحق الهزيمة بأعداء الجمهورية الخارجيين، بدلاً من محاربة مواطنيه الرومان. وكان قيصر قد عين قضاة لثلاث سنوات قادمة مما يعني أنه كان ينوي أن يكون خارج البلاد خلال تلك الفترة على الأقل. والبارثيون كانوا يشكلون قوة جبارة؛ فقد سبق لهم أن هزموا كراسوس وتمكنوا من قتله في عام 53 قبل الميلاد، واستطاعوا من ثم سحق قوات أنتوني الغازية. ومن الصعب القول إن كان الوضع سيغدو مختلفاً بالنسبة إلى قيصر، أو أنه كان يمكن أن يحقق نتيجة أفضل. كما لا يمكن أن نقرر يقيناً أنه كان يخطط للقيام بعمليات غزو واحتلال، أو أن ما قام به كان مجرد حملات ضخمة تستهدف معاقبة الأعداء والثأر لمقتل كراسوس نزولاً عند رغبة الجماهير.

وبصفته ديكتاتوراً، فقد أصبح قيصر رئيساً للجمهورية. وبما أنه وصل إلى الحكم عن طريق القوة، فكان من المهم أن يحكم قبضته على الجيش أيضاً. وفي مرحلة من المراحل، وربما قبل الحرب الأهلية مباشرة أو في أثنائها، ضاعف قيصر الراتب الأساسي لكل جندي من جنود الفيالق. ومما لاشك فيه أن أصحاب الرتب الأعلى أيضاً قد حصلوا على زيادات تتناسب ورتبهم. وكان المحاربون القدامى يحالون إلى التقاعد، ويمنح كل منهم أرضاً زراعية، مع مراعاة أن يتم هذا كله دون خلق صعوبات للمجتمعات المقيمة في تلك المناطق قدر الإمكان. وفي الوقت الذي كان فيه يوليوس قيصر يحتفل بانتصاراته، كان هناك بين الجنود من جاهر باستيائه واحتجاجاته؛ فجرى التعامل معهم بقسوة مفرطة، بل وأُعدم بعضهم. وبوصفه ديكتاتوراً، حافظ قيصر على سخائه، ولكنه ظل حازماً في تعامله مع جنوده. وحرص في الوقت نفسه على منح مكافآت كبيرة للضباط بكل رتبهم. واستطاع أيضاً أن يُدخل إلى مجلس الشيوخ عدداً كبيراً من الأعضاء الجدد، بمن فيهم ضباط من سلاح الفرسان، ومجموعة من أبناء بلاد الغال، وبعض الضباط الرومان السابقين.[23]

وهكذا، فقد عاد نظام حكم قيصر الديكتاتوري بفائدة كبيرة على عدد كبير من أفراد الجيش. وأما الجيش نفسه، فلم يحظ بأي امتيازات خاصة أو سلطات مباشرة في أي ناحية من نواحي الحياة. ومع أن قيصر كان قد استحوذ على السلطة عبر الحرب الأهلية، فإنه كان يتوق إلى إقامة نظام حكم قابل للبقاء - كما حدث في بلاد الغال - من خلال موافقة الأطراف جميعاً عليه، وكذلك باستخدام القوة، في آن معاً. وفي الأشهر الأخيرة من حياته، طرد قيصر حارسه الشخصي الإسباني. ولنا أن نفترض أنه شعر بأن نظام حكمه إذا أراد له البقاء والصمود ثلاث سنوات، في أثناء انشغاله بقيادة حملاته العسكرية، فإن ذلك يدعوه إلى إظهار الثقة خلال فترة وجوده في روما. وعندما تخلى سولا عن الحكم الديكتاتوري الذي أقامه بعد أن استولى على السلطة بالقوة، وصف قيصر تصرفه هذا بـ "الأمية السياسية".[24] ولقد آمن قيصر بأن عليه التشبث بالسلطة، ولكنه بهذا أساء فهم معنى تمسك الآخرين بالتقاليد، فكان مصيره الاغتيال.

حدود استخدام القوة

كان قيصر قائداً عبقرياً. وكما كانت حال الإسكندر الأكبر ونابليون، فهو لم يكن مصلحاً عسكرياً عظيماً، بل تولى قيادة قوات قتالية كان أشخاص آخرون قد عملوا على تعزيزها وتطويرها. وهؤلاء كانوا قد شحذوا همم جنودهم وقادوهم بأسلوب ذكي ومبدع يستنهض عزيمتهم؛ ما مكّنهم من تحقيق نجاحات باهرة. لقد استثمر قيصر نجاحاته العسكرية للاستيلاء على السلطة المطلقة في الدولة، مثلما فعل نابليون أيضاً. ولكن قيصر، وخلافاً للإمبراطور الفرنسي، لم يجعل من نفسه المحور الوحيد الذي يدور حوله نظام حكم الدولة التي أقامها. وعلى الرغم من أن قيصر فرض سيطرته بشكل فاعل على الانتخابات، وجسّد شخصياً السلطة العليا التي تعلو فوق سلطة القضاة المختارين، فقد واصل كل من مجلس الشيوخ والمجالس الشعبية عقد الجلسات والتصويت على القرارات المتخذة، ولم تتوقف المحاكم عن أداء وظائفها، كما كانت تفعل

قبل إقامة النظام الدكتاتوري. غير أن من حاكوا مؤامرة الاغتيال، كانوا قد خلصوا إلى أن الشيء الوحيد الذي كان سيضمن للجمهورية ممارسة مهامها بصورة طبيعية هو إزاحة قيصر نفسه عن سدة الحكم.

وعلى العكس من نابليون، فقد أولى الديكتاتور جلَّ اهتمامه لأعدائه الداخليين، وليس الخارجيين منهم. فالنجاح العسكري لم يكن كافياً لتمكين قيصر من إنشاء حكومة مستقرة؛ وكان يمكن لهذه المهمة أن تترك لأوغسطس، الذي كان هو الآخر سيحكم سيطرته على السلطة عن طريق القوة العسكرية. ومهما يكن، فقد استغرقت عملية تأسيس نظام حكمه الجديد عقدين من الزمن، أمكن خلالهما تحويل عضو الحكومة الثلاثية، الذي لا يعرف الرحمة، إلى "أبي الدولة" المحبوب، بعد أن شق طريقه إلى أعلى المناصب عن طريق العنف. ويحرص أوغسطس على أن يبقي ولاء الجيش لنفسه فقط. وعلى مدى قرنين من الزمن، ظل التقليد الذي ساد في العهد الجمهوري، والمتمثل في احتفاظ مجلس الشيوخ بالسلطات المدنية والعسكرية نافذاً. وكان عدد قليل من أعضاء المجلس فقط هو من يملك القدرة في أي وقت على خلع الإمبراطور من منصبه. ومع أن حروباً أهلية كانت قد دارت رحاها خلال الفترتين 68-69 و197-193 بعد الميلاد، ولكن الاستقرار كان سائداً فيما عدا ذلك على نحو أفضل مما كان عليه في آخر عقدين من عقود حقبة الحكم الجمهوري. وإذا كان أوغسطس وخلفاؤه قادةً عسكريين ديكتاتورين، فإنهم قد تمكنوا من إشاعة الاستقرار داخل العالم الروماني، وإن كان ذلك على حساب الاستقلال السياسي. ومع أن أعضاء مجلس الشيوخ كانوا، حتى ذلك الوقت، ينعمون بوظائفهم المرموقة وبما يحيط بهم من هالات التمجيد والافتخار، فإن ذلك ما كان ليتحقق لهم إلا بوصفهم ممثلين للإمبراطور. ولكن كل هذا، فضلاً عن أمور أخرى كثيرة، طاله التغيير في القرن الثالث.

وما كان بإمكان قيصر أن يصبح ديكتاتوراً إلا باستخدام القوة العسكرية. وقد حولت فترة قيادته الاستثنائية والطويلة والناجحة في بلاد الغال الجيش إلى قوة محاربة

شـرسة، وأقامت صلات قوية بين القائد وجنوده، ولولاها لما تمكـن مـن الاسـتيلاء عـلى السلطة والمحافظة عليها. ومع ذلك، فإن انتصاره في الحرب الأهلية لم يكن مضموناً؛ فثمة قوات ضخمة كانت تحت تصـرف بومبي، الذي اشـتهر بأنـه الجنـرال الأعظـم في رومـا. وتَظهر حالات تقلب الشهرة لـدى الرومـان – أو مـا يعـرف بالنـسبة إلـيهم بــ "المنزلـة السامية" – في مدى السهولة التي صارت بها إنجازات قيصـر تنـافس (ومـن ثـم تتفـوق على) نجاحات بومبي السابقة في الذاكرة الشعبية الجمعية للمعتقدات التقليدية. ولعل قلة قليلة من السياسيين من يمكـنهم التـشكيك في أهميـة الحاجـة إلى بقـائهم تحـت الأضـواء وضمن العناوين الرئيسية، أو بأن التقدير الذي يكنه الناس لإنجازاتهم يمكن أن يتلاشـى سـريعاً، أو أنها – أي الإنجازات – ستنحى جانباً حال ظهور إنجازات أعظم. ومهما تكن الحال، فإن الوتيرة التي يتحرك بها العالم المعاصـر، وسـرعة وسـائل الإعـلام الحديثـة قـد عجّلت هذه العملية. (ويبدو هذا أمراً جيداً في نظر البعض، لأن أخطاءه وفضائحه أيـضاً يمكن نسيانها بشكل أسـرع).

وهناك الكثير جداً مما طاله التغيير منذ ذلك الحين، ولـيس هنـاك مـن يمكنـه مجـاراة إنجازات قيصـر على أرض المعركة سوى القليل جداً من القادة المعاصـرين، وعلى الأقـل في الغرب. وهذا لا يعني أن الأمجاد العسكرية لا يمكن تحويلهـا إلى امتيـازات سياسـية في مجتمعاتنا (حتى لو كنا لا نستخدم كلمة "الأمجاد" فعلاً). ومع ذلك، فهذا الأمـر لا يقـوم دائماً على أسس وطيدة. فالإخفاقات العسكرية، حقيقية كانت أم متخيلة، لابـد أن تلحـق الضـرر بأصحابها. إن قادة من أمثال نابليون وقيصـر، ممن صعد نجمهم بفـضل أمجـادهم العسكرية، بحاجة دوماً إلى إعادة الروح لهذه الأمجاد عبر تحقيق المزيد من الانتصارات، إذا ما أرادوا الاحتفاظ بشعبيتهم، وبهيمنتهم على السلطة. كان قيـصـر ديكتـاتوراً عـسكرياً، ولكنه آثر الاعتدال في تصـرفاته. ولعـل أكثـر مـا يوقـع الكآبـة في الـنفس مـن الـدروس المستخلصة من تلك الفترة التاريخية يتلخص في أن شخصاً أشد قسوة بكثير مـن قيـصـر، وأعني به أوغسطس، هو من استطاع الإمساك بمقاليد الحكـم لأكثـر مـن أربعـين عامـاً، وكانت نهايته أن مات وهو مسجى على فراشه.

الفصل العاشر

مواجهة الصعاب

حماية الحدود والإمبراطورية الرومانية المتأخرة

بيتر هيذر

وفقاً لتحليل عرضه أول مرة إدوارد لوتواك Edward Luttwak في منتصف سبعينيات القرن العشرين، فقد انتقلت الإمبراطورية الرومانية بطريقة مقصودة من انتهاج ما يمكن تسميته بـ "سياسة حدود" تتخذ من التوسع أساساً لها، إلى سياسة ترتكز على مبدأ الدفاع في العمق، وذلك منذ تدشين العهد السيفيري Severan era في بداية القرن الثالث الميلادي. وبدءاً من هذا التاريخ، وجهت الإمبراطورية جهودها العسكرية نحو أحزمة من التحصينات المصممة استراتيجياً لامتصاص التهديدات الصغيرة، تدعمها جيوش ميدانية متنقلة يتم الاحتفاظ بها بشكل قوات احتياطية إقليمياً، ومعدَّة بشكل دقيق للتعامل مع عمليات الغزو والتوغل الواسعة النطاق.[1] وفي صيف عام 370، على سبيل المثال، استخدم بعض الغزاة السكسون Saxons السفن لتجنب الدفاعات الحدودية المتمركزة في المناطق الشمالية من الراين، وقاموا بإنزال قواتهم في شمال فرنسا. وتبعت ذلك مداهمات كبيرة، إلى أن تمكن القائد الروماني المحلي من حشد وحدات ثقيلة من الفرسان والمشاة تكفي لنصب الكمائن للسكسون والقضاء عليهم، بعد أن ركنوا إلى شعور زائف بالأمن إثر التوصل إلى هدنة سُمح لهم ظاهرياً بموجبها بالانسحاب دون أن يمسهم سوء.[2] ويعد هذا مثالاً نموذجياً يُدّرس في المناهج المدرسية لاستراتيجية الحدود التي حددها لوتواك؛ ولكن عند النظر إليه عن كثب، يبدو تحليله خطأً إلى حد كبير، على الرغم من أن عمله مازال مهماً بدليل إعادة طبعه مراراً على مدى أكثر من ثلاثين عاماً.

ففي الوقت الذي يمكن فيه من خلال السجلات المتعلقة بالآثار الكشف عن مراحل متعاقبة من النشاطات الاستراتيجية على امتداد الحدود، والتي تركت آثارها على آلاف الكيلومترات التي تفصل مصب نهر الراين عن مصب نهر الدانوب، فقد يمكن أيضاً العثور على أدلة تثبت أن الحملات العسكرية وعمليات بناء الحصون كانت مرتبطة أحياناً بالأجندات السياسية الداخلية أكثر من ارتباطها بالتخطيط العسكري العقلاني. وكان إبعاد البرابرة، ومنعهم من الاقتراب من الحدود، هو المبرر الأساسي لفرض ضرائب باهظة على الإنتاج الزراعي، وعلى النحو الذي منح الإمبراطورية القدرة على الصمود والبقاء. ولذلك، فليس غريباً أن يبدي الأباطرة رغبتهم في أن يثبتوا لملاك الأراضي أنهم كانوا أشداء على البرابرة، وأشداء في التعامل مع ما يرتبط بظاهرة البربرية من قضايا وأحداث، ولاسيما أن ملاك الأراضي هؤلاء كانوا هم الذين يدفعون ويفرضون هذه المبالغ الكبيرة من الأموال التي كانت تشكل ثروة متجددة سنوياً. وفي عقد الستينيات من القرن الرابع الميلادي، على سبيل المثال، انهمك الإمبراطوران الشقيقان فالنتينيان الأول Valentinian وفالنس Valens بقوة في بناء القلاع على حدود الإمبراطورية عند منطقتي الراين والدانوب، كي يثبتا أنهما يتخذان من الإجراءات المناسبة ما يؤكد حرصهما على حماية الإمبراطورية والدفاع عنها، على الرغم من أن هذه السياسة اقتضت خرق بعض الاتفاقات المبرمة مع الجماعات المقيمة في المناطق الحدودية، التي كانت تتبنى مواقف مسالمة في حينها.[3] وعمد فالنتينيان أيضاً من جانب واحد إلى خفض الإعانات السنوية التي تدفع لبعض قادة الألمان في منطقة أعالي الراين ليتمكن من الزعم بأنه لم يشتر السلام من البرابرة.[4] وعلى الرغم من أن أياً من هاتين السياستين لم تكن عقلانية للغاية من حيث الحفاظ على أمن الحدود، بسبب ما أثارته كل منهما من اضطرابات وقلاقل، فإن الأجندات السياسية للأباطرة كانت تأتي في المرتبة الأولى دوماً.[5]

كما أن رحى الحروب الهجومية كانت ماتزال دائرة حتى أواخر القرن الثالث تقريباً، لأن أي قرار تم التخطيط له بحذر، وقائم على معطيات استراتيجية، كان لابد من أن

يستند إلى التحليل العقلاني لقدرة الإمبراطورية اقتصادياً على إنشاء قوات كافية تكفل حماية مصالحها القائمة فعلاً. وبدلاً من ذلك، تراجعت ببطء الفتوحات الأخرى المصممة خصيصاً لهذا الغرض على جميع حدود روما، عندما أصبح واضحاً تماماً أن ثمار الغزو لم تعد تستحق ما يبذل من أجلها من جهد وعناء، ولاسيما أن تلك الثمار كانت تقاس عادة وفقاً لما يتحقق للحكام بصورة شخصية من أمجاد، بدلاً من قياسها بموجب أي معادلة عقلانية قائمة على أفكار استراتيجية وحسابات العوائد التي يمكن أن تتحقق مقارنة بتكاليف تلك الحملات.[6]

من المعروف أن النزعات الأنانية للسياسيين، والأجندات السياسية الداخلية، طالما تتداخل مع التخطيط العسكري العقلاني، ولا يبدو مستغرباً أن يصح الشيء نفسه في العالم القديم أيضاً. لقد شخص لوتواك بدقة وعمق قدرات روما الحدودية التي اشتملت على مزيج من التحصينات والقوات القتالية. ولكن يمكن القول إن الخلل الأهم في تحليل لوتواك يكمن في افتقاره إلى التركيز على سبل استخدام هذه المصالح عملياً خلال العهد الروماني المتأخر في القرنين الثالث والرابع. إن القوات الرومانية، منذ البداية وحتى نهاية القرن الرابع الميلادي، لم تكتف بالمكوث في مواقعها خلف أحزمة التحصينات الحدودية الجبارة انتظاراً لقدوم البرابرة، مثلما فعل الفرنسيون الذين واجهوا مصيراً مشابهاً في وقت لاحق [في الحرب العالمية الثانية] عندما ظلوا ينتظرون خلف خط ماجينو. وقد جرت مثل هذه السلسلة من الأحداث على الحدود من حين لآخر، وكما حدث مع قبائل السكسون، على سبيل المثال، في عام 370، ولكنها لم تتكرر كثيراً بحيث يمكن عدها استراتيجية رئيسية كان الرومان يطبقونها لضمان أمن حدودهم. فمثل هذه الاستراتيجية لم تكن لتثبت فاعليتها بشكل كبير بأي حال من الأحوال. فقد كان يتم الاحتفاظ بالعديد من وحدات الجيوش المتنقلة عند أدنى مستويات التأهب بهدف الاقتصاد في الأجور والمعدات والتجهيزات، ما لم تكن الاستعدادات جارية فعلاً لشن حملة ما. وكان التحرك اللازم لمثل هذه الاستجابة بطيئاً جداً؛ إذ يظل خطر عودة البرابرة، لشن هجمات كبيرة عبر الحدود،

قائماً قبل انطلاق أي هجمة مضادة. وباستثناء الرسائل، لم يكن هناك شيء يمكن أن يتحرك بسرعة تزيد عن 40 كيلومتراً في اليوم. ومن أجل التخفيف من مشكلة تجهيز القوات وتزويدها، فحتى القوات المتنقلة لم يتم إيواؤها في مجموعات مزدحمة جداً. وكان حشد قوة كافية معدة إعداداً لائقاً لصد أي هجوم، ومن ثم تمكين القوات من التدخل فعلياً في القتال، يتطلب - عادة - أسابيع وليس أياماً. ولذلك، فإن اعتماد استراتيجية قائمة على الاستجابة فحسب كان سيتيح للمهاجمين وقتاً كافياً للقيام بأعمال السلب والنهب ومن ثم الانسحاب.[7] وأنا أعتقد أن القائد الروماني المحلي لم يدخل على نحو مذل في تفاصيل التوصل إلى ما يشبه الاتفاقية مع الغزاة السكسون في عام 370، إلا لكسب الوقت الذي يحتاج إليه من أجل تعبئة أعداد كافية من القوات المقاتلة.

وعندما تضاف مصادر السرد التاريخي إلى الأدلة المكتشفة من خلال التنقيبات عن الآثار العسكرية والعمليات المعروفة لنشر القوات هناك، فسوف تتكشف صورة مختلفة تماماً للاستراتيجية الرومانية الشاملة المتبعة. ولم تكن الحصون والجيوش إلا مجرد عنصرين فقط من عناصر الخطة المرسومة لإدارة الحدود، والتي تعتمد اعتماداً كبيراً للغاية على الاختراقات الدبلوماسية القائمة على التلاعب والمناورة، بدعم من تحركات تستهدف نشر القوة الرئيسية بصورة دورية. والنمط التقليدي، الذي يبرز واضحاً في المراجع التاريخية لأواخر القرنين الثالث والرابع، هو أنه كلما كان الوضع السياسي والعسكري، على طول منطقة حدودية معينة، يهدد بالخروج عن نطاق السيطرة، كان يتم اللجوء إلى شن حملة كبرى خارج حدود الإمبراطورية يقودها في الغالب الإمبراطور بنفسه شخصياً. وقد شن أباطرة حقبة الحكم الرباعي Tetrarchic في أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع سلسلة من حملات كهذه على جميع القطاعات الرئيسية الثلاثة للحدود الأوروبية لروما، وهي: الراين، والدانوب الأوسط (غربي البوابات الحديدية Iron Gates)، والدانوب الأسفل (في الشرق). فقد جهز قسطنطين الأول حملة على الراين في العقد الأول من القرن الرابع، وعلى منطقتي الدانوب الأوسط والدانوب الأسفل في

ثلاثينيات القرن نفسه. وقاد ابنه قسطنطين الثاني (بالاشتراك مع ابن عمه والقيصر جوليان Julian) الجيوش إلى الشرق من نهر الراين وإلى شمالي الدانوب الأوسط في العقد الخامس من القرن الرابع أيضاً؛ بينما قاد فالنتينيان وفالنس مرة أخرى جيشاً جراراً في العقد التالي عبر الحدود في كل من منطقتي نهر الراين والدانوب الأسفل.[8]

وكما تذكر المصادر التي كتب لها البقاء، فقد كانت هذه الحملات تميل إلى اتباع نمط واحد بعينه. ففي البداية، يجري إخضاع كل قائد بربري اكتسب من القوة أكثر مما ينبغي، ومن ثم تعمل الجيوش الرومانية، لفترة من الزمن، على إحراق أي مستوطنة يتم العثور عليها.[9] ولكن الغرض الأبعد من هذا النوع من العمل العسكري لم يكن التدمير بحد ذاته، مع أن الحملة كانت لها بالتأكيد غايات عقابية متعمدة، فضلاً عن نفعها في رفع المعنويات العسكرية لأفراد الجيش لأنها كانت تسمح لهم بأن ينهبوا ما يشاؤون وكما يشاؤون. ومن حين إلى آخر، تبدو أيضاً ماثلة للعيان آثار عمليات النهب الرومانية المنتظمة للمناطق الحدودية من خلال بعض الحفريات الأثرية.[10] ولذلك لم تكن الحملات الرومانية الفعلية سوى مقدمة لتحقيق هدف رئيسي، وهو إخضاع جميع مستويات القيادة البربرية العليا والمتوسطة في المناطق المتأثرة للسلطة الإمبراطورية رسمياً. وبمجرد توافر مظاهر كافية تثبت حدوث عدوان، يقوم الإمبراطور تقليدياً بإقامة معسكره، فيأتي قادة البرابرة المحليون لتقديم فروض الولاء واحداً تلو الآخر. وهذه العملية يرد وصفها بوضوح في عدد من المناسبات المنفصلة في روما، بدءاً من الإمبراطور مكسيميان Maximian (أحد أباطرة نظام الحكم الرباعي) في العقد التاسع من القرن الثالث، إلى قسطنطين الثاني وجوليان في العقد الخامس من القرن الرابع.[11] وليس من الواضح إلى أي مدى كان يراد لهذه الحملات التوغل في عمق مواطن البرابرة، ولكن من المؤكد أنه كان يمكن أن تستمر أسابيع عدة. وأحسب أن نتائجها "الدبلوماسية" كان يمكن الإحساس بها من مسافة 100 كيلومتر وراء حدود الإمبراطورية، والتي تأخذ شكل الاستحواذ على أراضٍ تعود إلى جميع الملوك والأمراء القادمين لتقديم فروض الولاء.[12]

وعند ذاك يقوم الإمبراطور ومستشاروه بتحويل الحكم العسكري القصير الأمد إلى ترتيبات أمنية طويلة المدى، كما يصور هذا بشكل فعلي ما قام به الإمبراطور قسطنطين الثاني عندما قام بمناورات في منطقة الدانوب الأوسط في خمسينيات القرن الرابع. فقد كان أول بنود جدول أعماله القيام بمسح للوضع الراهن للكونفدرالية السياسية للبرابرة في المناطق المتأثرة، فإن وجد أن أي إقليم منها أكبر مما ينبغي، ويمكن أن يشكل تهديداً لأمن الحدود، تتم تجزئته، ويعاد منح قادة المناطق الفرعية الاستقلال ثانية، وتحريرهم من سلطة الملك القوي الذي كانوا يدينون له بالولاء في ذلك الوقت. وعلى سبيل المثال، ففي العقد الخامس من القرن الرابع، شعر قسطنطين بالقلق حقاً حيال ما يتمتع به شخص يدعى آراهاريوس Araharius من قوة فائقة في منطقة الدانوب الأوسط، فقام بتحرير عدد من العملاء السرمتيين، بقيادة أوسافر Usafer، من سيطرة ذلك الشخص. كما قام بترقية أمير جماعة أخرى من السرمتيين واسمه زيزايس Zizais ومنحه لقباً ملكياً، وأعاد إلى أتباعه استقلالهم السياسي، معززاً بضمانات تكفل لهم الحصول على الدعم العسكري الروماني، وبإعانات "دبلوماسية" سنوية محددة تستهدف تقوية موقف القادة الذين كانوا يتمتعون بالحظوة لديهم. وثمة من يجادل بأن هذه الإعانات كانت بمنزلة "جزية"، وعلامة من علامات ضعف الإمبراطورية في عهودها المتأخرة؛ غير أنها كانت تستخدم كأداة دبلوماسية بصورة مستمرة منذ القرنين الأول والثاني، عندما كانت السلطة الرومانية مطلقة في الغالب؛ حتى إنها في القرن الرابع كانت تمنح إلى القادة البرابرة الذين يعلنون خضوعهم للإمبراطورية. ولذلك، يجب أن ينظر إليها بحسب المفاهيم الحديثة على أنها تمثل مساعدات هادفة، صممت لتقوية سلطة من يتم انتقاؤهم بعناية من شركاء روما على المستوى الدبلوماسي.[13]

وبالتزامن مع كل هذه المناورات الدبلوماسية المستمرة، كان يجرى إطلاق سراح كل الأسرى الرومان المحتجزين في المنطقة، فيما يتم تجنيد قوات عاملة من البرابرة الخاضعين كمجندين إلزاميين للعمل بأسلوب السخرة في الجيش الروماني.[14] وفي غضون ذلك، فإن

هذه الحملات العسكرية الدورية، التي يتولى الإمبراطور نفسه قيادتها، كانت تعد في الغالب للتعامل مع ما كانت تشهده المناطق الحدودية من متاعب واضطرابات بشكل فورات يعتقد أنها قد تدوم طويلاً. ونظراً إلى أن إدامة حملة بهذا الحجم تمثل مهمة باهظة الكلفة، فلابد من وقوع سلسلة واسعة من الاضطرابات كي تكون دافعاً محركاً لشن مثل هذه الحملات. ولذلك، وحتى إن استبعدنا مسألة عمليات النهب التي كانت تقوم بها القوات الرومانية، فقد كان أمراً شائعاً جداً أن تتضمن الاتفاقيات التي يتم تجديدها شروطاً تأديبية، فيما تتم معاقبة تلك الأطراف التي تثبت إدانتها بطرق شتى. وقد يصل هذا، في بعض الأحيان، إلى حد إعدام ملك من ملوك البرابرة. وعلى سبيل المثال، ففي عام 309، لم يتردد قسطنطين الأول في إعدام ملكين من ملوك الفرنجة Franks على مسرح في مدينة ترير Trier.[15] غير أن الأسلوب المعتاد غالباً لإشباع رغبة الانتقام كان يتجسد في فرض عقوبات مالية مختلفة، تتخذ في معظم الحالات شكل ابتزاز الأيدي العاملة والمواد الخام اللازمة لمشروعات إعادة البناء، بالإضافة إلى الاستيلاء على كميات كبيرة من المواد الغذائية.[16]

وقد يلجأ الأباطرة، بين وقت وآخر، إلى توظيف قدراتهم العسكرية الأكثر تفوقاً لفرض تدابير وإجراءات أكثر تطرفاً. فإلى جانب تفتيت الكيانات السياسية الخطيرة على الجانب الآخر من الحدود، كان الأباطرة مهتمين أيضاً بضمان عدم تحول أي منطقة حدودية إلى منطقة مكتظة أكثر مما يجب بالسكان؛ إذ إن وضعاً كهذا كان من شأنه أن يؤدي(وقد أدى بالفعل) إلى امتداد آثار الصراعات الداخلية بين مختلف القادة البرابرة إلى داخل الأراضي الرومانية. وقد تمثل أحد الأساليب، التي كان يتم اللجوء إليها للتعامل مع مثل هذه الحالة، في إجبار بعض المناطق المجاورة للإمبراطورية - تحت سطوة السيوف إذا لزم الأمر - على التخلي فوراً عن مناطقهم التي أقاموها هناك والابتعاد عن المنطقة الحدودية. وفي منطقة الدانوب الأوسط، على سبيل المثال، قرر قسطنطين الثاني في العقد الخامس من القرن الرابع أن يطرد جماعة فرعية من السرمتيين تضم قبائل الليمجانتس Limigantes، وكان سعيداً تماماً بلجوئه إلى القوة لحملهم على الرحيل. وثمة أسلوب آخر

تجسد في السماح باستقبال جماعات بربرية معينة في داخل الأراضي الرومانية، ولكن وفقاً لشروط صارمة. وكان مجلس الحكم الرباعي على وجه الخصوص يلجأ إلى عمليات إعادة التوطين في جميع المناطق الحدودية الأوروبية الرئيسية الخاضعة للسيطرة، وتم ذلك خلال العقدين اللذين أعقبا عام 290 للميلاد. ومع أن هذا الأسلوب يعود لعصور ما قبل التاريخ، فقد استمر العمل به لاحقاً.[17]

ولا نريد بهذا القول إن روما كانت تستخدم دوماً كل ما في جعبتها من أساليب التلاعب الدبلوماسي ضمن سياسة متماسكة أو عقلانية كلياً للدفاع عن الحدود في إطار ما يمكن تسميته "الاستراتيجية الكبرى"، مع التشديد بقوة على كلمة "الكبرى". وكما رأينا، فإن الأجندات السياسية الداخلية كانت تجبر الأباطرة في بعض الأحيان على الدخول في معارك كانوا في غنى عنها، لا لشيء إلا لمجرد استعراض قوتهم أمام دافعي الضرائب. وفي واقع الحال أيضاً، فقد تميزت جميع الحملات الرئيسية، التي عبرت الحدود في أواخر العهد الإمبراطوري، بأنها كانت ردود أفعال، تأتي بعد انهيار النظام داخل منطقة حدودية معينة، وليس لأن معلومات سياسية وعسكرية استخبارية كانت تشير إلى أن ركائز الأمن والنظام هناك توشك على الانهيار. ولذلك، وعند تقييم فاعلية السياسة الرومانية بصورة عامة وشاملة في ما يخص الدفاع عن الحدود، فمن الضروري إدخال عامل مهم في المعادلة، وهو أن وقوع خسائر اقتصادية جراء الغزوات الخارجية يجب أن يكون جزءاً من الصورة العامة أيضاً؛ إذ إن مثل هذه الخسائر كانت تتطلب قدراً كبيراً من الهجمات حتى تصل إلى حد الرد بتدابير وأفعال مضادة. وقد أمكن التعرف على حجم تلك الهجمات من خلال إحدى اللقى الأثرية المثيرة للاهتمام التي عُثر عليها في أثناء عمليات رفع الأوحال من مجرى نهر الراين بالقرب من بلدة سبيير Speyer الحدودية القديمة. وفي أواخر القرن الثالث، وعندما كان بعض المهاجمين الألمان يحاولون نقل ما حصلوا عليه من غنائم إلى موطنهم عبر نهر الراين، سقطت قواربهم في كمين، وتمكنت سفن الدوريات النهرية الرومانية من إغراقها. واشتملت هذه الغنائم على 700 كيلوغرام

من السلع غير العادية التي حمّلت على ثلاث عربات أو أربع، وربما كانت تمثل مجموع ما نهب من أحد البيوت الرومانية الفخمة. وبدا أن المغيرين كانوا مهتمين بكل قطعة من الأدوات المعدنية التي أمكنهم العثور عليها. ولم يُفقد من هذه الغنائم إلا ما غلا ثمنه من الأدوات الفضية الصلبة والمجوهرات الشخصية. ومن المحتمل أن مالك البيت وسيدته كانا قد هربا قبل وقوع الهجوم، أو أن الغنائم الثمينة المسروقة قد نقلت بشكل مستقل. غير أنه كانت هناك في العربات كومة كبيرة من الأواني الفضية التي نهبت من غرفة الطعام، ومعدات مطبخ بأكمله (51 آنية وقدر طبخ، و25 طبقاً، و20 مغرفة حديدية)، وأدوات زراعية تكفي لتشغيل مزرعة كبيرة، وتماثيل وحاجات خاصة بالنذور من المعبد الملحق بالقصر، و39 قطعة من العملات المعدنية الفضية من نوعية جيدة.[18] وإذا كانت هذه الغنائم تمثل حصيلة غارة محلية واحدة فقط، فينبغي، إذاً، عدم الاستهانة بحجم الاضطرابات الأطول أمداً، والتي تندلع على النحو الذي يمكن أن يؤدي إلى تجهيز حملة "إمبراطورية" للقضاء عليها. ومع ذلك، فإن الصورة العامة للأدلة والشواهد واضحة ولا تقبل الخطأ. والأباطرة الرومان المتأخرون لم يعتادوا ترك قواتهم خلف الحدود في حالة انتظار "سلبي" حتى حدوث المتاعب فعلياً. فقد كانت الجيوش الميدانية تندفع من حين إلى آخر بقوة لبسط الهيمنة العسكرية المباشرة بشكل ساحق وكاسح، ومن ثم استخدامها لإملاء تسوية دبلوماسية شاملة للمنطقة وفقاً للأولويات الإمبراطورية، بقصد تحقيق أقصى قدر من التناسب بين القيمة والتكلفة الأصلية للحملة.

وبالإضافة إلى ذلك، يجري بعد ذلك استخدام مزيد من الأساليب التدخلية دعماً لكل تسوية دبلوماسية يتم التوصل إليها، ولزيادة فاعلية عمرها الزمني. وباتت المنح والإعانات السنوية المقررة سلفاً، التي يقصد بها إبقاء الملوك الأصدقاء في السلطة، أمراً شائعاً. وثمة مجموعات ذات حظوة على نحو خاص كانت تتلقى أيضاً امتيازات تجارية خاصة. وفي الأحوال الاعتيادية، صار يسمح بقيام التعاملات التجارية في عدد من النقاط المحددة فقط في قاطع معين من قواطع الحدود، وإن كان الإمبراطور أحياناً يسمح بفتح

الحدود في منطقة ما بغية إدخال شيء من التسهيلات في التعاملات. وبعد أن هزم الإمبراطور قسطنطين الأول قبائل الترفينجي Tervingi القوطية في منطقة الدانوب الأسفل في أوائل ثلاثينيات القرن الرابع، فتح كامل الجزء الخاص بهم في هذه منطقة أمام نشاطاتهم التجارية. وقد اتخذ هذه الخطوة من موقع قوة، بوصفه إجراء تمّ تصميمه لكي يعطي للقوطيين، أو لقادتهم الذين سوف يستفيدون من الرسوم التجارية، سبباً حقيقياً يدفعهم للمحافظة على السلام.[19] وبات مألوفاً أيضاً أخذ رهائن من ذوي المراكز العالية، وهم عادة من أبناء الملوك والأمراء، كدعامة أخرى لأي اتفاق سلام. ومتى ما سارت الأمور على غير ما يرام، يصبح ممكناً تنفيذ حكم الإعدام بهؤلاء الرهائن، ولكن لا يعرف سوى مثال واحد على حدوث حالة كهذه وقعت في القرن الرابع. وعموماً، يكون هؤلاء الرهائن في الغالب من صغار السن. وكان أحد أهداف جلبهم إلى البلاط الإمبراطوري يكمن في خلق انطباع مؤثر لدى هؤلاء (الذين سيصبحون يوماً ما حكاماً للمناطق الحدودية المتاخمة لروما) عن عظمة قوة الإمبراطورية وهيبتها، ما يمكن أن يشكل رادعاً لأي سلوك سيئ يقدمون عليه في المستقبل، في حال وصولهم إلى السلطة عندما يبلغون أشدهم.[20]

وكان اتخاذ تدابير أخرى متاحاً أيضاً، وإن هي أقل إيجابية. ففي حال شكّلت طموحات أحد زعماء البرابرة خطراً يهدد بتدمير ترتيبات السلام أو تشويهها، عندئذ تصدر الأوامر إلى القادة العسكريين التابعين للإمبراطورية لانتهاج أعمال الخطف والاغتيال. وقد تم اللجوء إلى هذه الأساليب خمس مرات على الأقل في مناسبات منفصلة، وذلك على مدى أربعة وعشرين عاماً (354–378) وهي الفترة التي غطت مخطوطات المؤرخ الروماني أميانوس مارسيلينوس Ammianus Marcellinus تفاصيل أحداثها بشكل مركز.[21] ومن المشكوك فيه إن كانت هذه التكتيكات قد ارتقت إلى حد اعتبارها "استراتيجية كبرى"؛ ولكن وجودها فعلياً يثبت أن الإمبراطورية المتأخرة كانت تمارس دورها على أرضية ليست محض دفاعية. وبدلاً من ذلك، فإن ما يبرز بوضوح هو أن هذه

الإمبراطورية قد أحالت جيرانها المتاخمين لها إلى عملاء صغار في منظومة العالم الروماني وأجزاء منها، ومارست عليهم قوتها العسكرية لترتيب شؤونهم بالطريقة التي تنسجم مع مصالحها. وتوحي تلك المخطوطات بأن كل تدخل عسكري واسع كان يتمخض عن تسويات دبلوماسية يطول أمدها من عشرين إلى خمسة وعشرين سنة، أي ما يعادل عمر جيل سياسي كامل. وعلى سبيل المثال، فقد شن أباطرة مجلس الحكم الرباعي حملة كبرى في منطقة الراين في تسعينيات القرن الثالث؛ وقاد قسطنطين هجوماً آخر في العقد الأول من القرن الرابع. ويبدو أن دعائم الاستقرار قد توطدت بعد ذلك إلى حد كبير استمر حتى خمسينيات القرن الرابع. واستأنف أباطرة المجلس الرباعي نشاطهم ثانية في منطقة الدانوب الأوسط بعد عام 300 ميلادية؛ فجهز قسطنطين حملة رئيسية في أوائل ثلاثينيات القرن الرابع، ليسود السلام مرة أخرى حتى أواخر الخمسينيات من القرن نفسه. وتكرر النمط نفسه في منطقة الدانوب الأسفل، حين شن أباطرة المجلس الرباعي والإمبراطور قسطنطين حملات عسكرية في أول عقود القرن الرابع ومطلع ثلاثينياته، ولكن اتفاق السلام استمر في هذه المرة حتى أواسط ستينيات القرن الرابع، لأسباب مختلفة، قد يكون من بينها الامتيازات والأفضليات التجارية الخاصة التي أغدقت على قبائل الترفينجي القوطية.[22] ومع أن شيئاً كهذا لا يمكن أن يعد سجلاً لأمن الحدود لا تشوبه شائبة، ولاسيما بالنسبة إلى دولة في مرحلة ما قبل الحداثة تؤدي وظائفها ببطء على مثل تلك المساحات الشاسعة، فإن ضمان عشرين أو خمسة وعشرين سنة من الأمن، كواحدة من ثمار موجات الحملات الرئيسية، يمثل "عائداً" مجزياً على "استثماراتها" العسكرية، ولا يمكن أن يعد سجلاً سيئاً لقدرتها على الحفاظ على ممتلكاتها بشكل آمن.

وبغية تحقيق فهم تام للعلاقات البربرية-الرومانية، واستيعاب طبيعة العلاقة بين "سياسات الحدود" الرومانية والعمليات التي أدت في نهاية المطاف إلى انهيار الإمبراطورية، يغدو لزاماً استكشاف بعد آخر من أبعاد المقاربة التي تبنتها الإمبراطورية في إدارة أمن الحدود عن طريق الوكلاء. وعلى المدى القصير، فإن أي جولة من جولات

الحملات المتبوعة بجهود دبلوماسية كانت توجه نحو إحلال أعلى مستوى ممكن من الاستقرار في قطاع معين من الحدود. وإذا نظرنا إلى هذه الأساليب، التي اقترنت بالإدارة الرومانية للحدود على المدى الطويل، فإنها بحلول القرن الرابع تكون قد طبقت بالفعل في منطقتي الراين والدانوب لما يقرب من أربعمئة سنة، وخلّفت تداعيات قوية أسهمت في تغيير مواقف جارات الإمبراطورية عبر الحدود. وكانت الإعانات "الدبلوماسية" والامتيازات التجارية المعززة بتدخلات دبلوماسية من جانب الإمبراطورية (كتوفير الدعم السياسي والعسكري للحكام البرابرة من ذوي الحظوة) تهدف إلى وضع المال والسلطة في متناول ملوك معينين. أما التأثير البعيد المدى لهذه المقاربة، بعد أن ظلت مطبقة نحواً من أربعمئة سنة، فقد تمثل في تركيز السلطة بصورة أشمل في أيدي صنف جديد كلياً من الملوك. وفي القرن الأول الميلادي، بدا العالم الجرماني مسكوناً بوحدات اجتماعية-سياسية صغيرة الحجم. وترد في كتاب تاسيتوس الموسوم **جرمانيا** *Germania* الإشارة إلى أكثر من خمسين منها أقامت في أوروبا الوسطى، وغطى معظمها المنطقة ما بين نهر الراين وفيستولا Vistula. وبحلول القرن الرابع، أفسحت هذه المجموعة من الوحدات الصغيرة المجال أمام عدد أصغر بكثير من وحدات أكبر حجماً، ربما لم يزد تعدادها عن اثنتي عشرة وحدة. ومن المؤكد أنها كانت عبارة عن مجموعة من أنظمة حكم ملكية مطلقة اتخذت طابعاً كونفدرالياً، كي يمكن إبقاء التوقعات الخاصة بمستوى الثورة السياسية - التي يفترض أنها ستكون مصدراً لها - ضمن حدود معقولة. ولكن، وفي حين اختفت كونفدراليات أكبر حجماً خلال الحقبة الرومانية بعد اندحار قادتها، فهذه الكونفدراليات المشابهة، التي ظهرت في القرن الرابع، كان يمكن أن تظل صامدة حتى بعد تعرضها إلى هزيمة ساحقة. وقد شكّل الحكام الألمان في منطقة حدود الراين العليا مجموعة من ملوك كانتونات وأمرائها. غير أن هؤلاء كانوا يجمعون صفوفهم ويتوحدون بشكل دوري تحت قيادة ملك أعلى مكانة وذي سلطات استثنائية (ملك ملوك)؛ ولاسيما وقت التأهب والاستعداد لخوض حرب (ضد روما أو جار آخر). وقد حافظت

الكونفدرالية على تماسكها حتى بعد الهزائم العسكرية الكبيرة، التي أطاحت "ملك الملوك" الألماني كنودماريوس Chnodomarius في ستراسبورج عام 357؛ بل وتمكنت أن تستعيد عافيتها سريعاً تحت قيادة سلسلة جديدة من الملوك، من الذين تعين على روما التصدي لمجموعة منهم طوال القرن الرابع. وأما الكيانات السياسية المتينة والأكبر حجماً التي ظهرت للوجود في القرن الرابع، فلا يمكن اعتبارها ضمن الكونفدراليات السابقة.[23]

ومن الظواهر المهمة بالقدر نفسه أن طبيعة السلطة السياسية قد تغيرت على نحو جذري. فقد أصبح عنصر الحكم الوراثي هو الأقوى في قمة الهرم السياسي. ولم يكن يراد لنظام حكم "ملك الملوك" الألماني أن يكون وراثياً، لأسباب مختلفة ليس أقلها أن السياسة الرومانية كانت تستهدف القضاء على سلسلة من أولئك الحكام الذين تعاقبوا على حمل هذا اللقب. أما ملوك الكانتونات فقد اتبعوا على ما يبدو النظام الوراثي في الحكم فعلاً، في حين أن الصفة الملكية للملوك الجرمان الأوائل كانت تعود إلى صاحبها شخصياً (ولم يعترف بهم جميعاً على أنهم ملوك على الإطلاق)، ولا يمكن توريثها بسهولة إلى شخص آخر. وأما في إطار قبائل الترفينجي القوطية، التي تقيم في مناطق أبعد شرقاً، فحتى منصب زعيم الكونفدرالية كان وراثياً؛ إذ إن ثلاثة أجيال من أسرة واحدة نفسها قد تعاقبت على الحكم.[24] وبالتناغم التام مع هذا التطور، فإن ثمة أيديولوجية ملكية جديدة باتت لها السيادة في العالم الجرماني بين الفترات الرومانية المبكرة والمتأخرة. وبحلول القرن الرابع، أصبحت جميع المصطلحات المرادفة لكلمة "ملك" مجرد امتدادات لكلمات تعني "القائد العسكري". وعلى نقيض ذلك، فإن القيادة العسكرية في الفترة الرومانية المبكرة منفصلة في الغالب عن المنصب الملكي.[25]

وأصبح هذا الدور العسكري الذي تعزز كثيراً يكمن في صلب السلطات الوراثية للملوك الجدد، كما توضحه مجموعة من الأدلة التي تشير إلى مدى أهمية المواكب العسكرية المرافقة للملك في العصور الرومانية المتأخرة. وبحلول القرن الرابع، كان الملوك يجدون

الدعم العسكري الشخصي الذي يحتاجونه على شكل أتباع محترفين. ويذكر أميانوس مارسيلينوس أن كنودماريوس كان يحتفظ بقوة خاصة مكونة من نحو مائتي رجل، وثمة أدلة أثرية تم استخراجها من إيسبول موس Ejsbøl Mose (حيث جرى دفن أسلحة المجموعة المهزومة وفق طقوس شعائرية) تؤكد القضاء على قوة محاربة تقدر بمائتي رجل أيضاً. إن مثل هذه القوات العسكرية المحترفة قد اعتبرت ظاهرة جديدة بالنسبة إلى العالم الجرماني بدءاً من القرن الثالث فصاعداً، وقد استخدم الملوك مثل هذه القوات، ليس فقط لخوض الحروب، وإنما أيضاً كقوة لفرض سياساتهم وضمان تطبيقها.[26]

ليس هناك شك في أن هذا التحول الجوهري للسلطة السياسية يعكس في أحد جوانبه التأثير الطويل الأجل الذي خلفته الثروات التي طالما أغدقتها الإمبراطورية على أمراء وملوك لكيانات متاخمة لها طوال قرون من تاريخ وجود الإمبراطورية. ولم تكن مثل هذه الثروات ظاهرة جديدة بالنسبة إلى العالم الجرماني فحسب، بل إن وصولها إلى هناك كانت له انعكاسات سلبية أيضاً. فقد أثار استخدامها صراعات على السلطة بين النخب السياسية الجرمانية، وكان من نتائجها حدوث اضطرابات سياسية داخلية في العالم الجرماني بدءاً من القرن الثالث، كما تشير إلى ذلك مجموعة من الأدلة. وفي هذه الفترة، أصبح تخزين الأسلحة وفق طقوس شعائرية، على غرار تلك التي عثر عليها في إيسبول موس، شائعاً ومعقولاً. وبدأت الجماعات الجرمانية الخارجية توسيع فضاءات هيمنتها باتجاه الحدود الرومانية، وتحديداً بقصد الاستيلاء على جانب من الثروات المكدسة هناك.[27]

وبطبيعة الحال، فقد أدت تحولات أخرى دوراً مهماً أيضاً ضمن هذه الثورة الأوسع نطاقاً. فقد شهدت القرون الأولى بعد الميلاد إدخال أنظمة زراعية جديدة في مناطق من أوروبا الوسطى تخضع لسيطرة الجرمان عليها؛ ما أدى إلى تحقيق زيادات كبيرة في إنتاج الغذاء، ومن ثم في عدد السكان. وبهذا زادت بشكل واضح القوة الكلية للعالم الجرماني - ديمغرافياً على الأقل - في سياق علاقته مع الجار الروماني الإمبراطوري، ويُفترض أن

الملوك الجدد استخدموا جزءاً من فائض الغذاء لدعم حاشيتهم. ومرة أخرى، يبدو أن متطلبات الاقتصاد الروماني، وعمليات نقل الخبرات الفنية الرومانية، قد أدتا دوراً مهماً، سواء في هذه الثورة الزراعية، أو في ما رافقها من توسع اقتصادي في بعض مجالات الصناعة والتجارة.[28] كما أنني أيضاً أشك بقوة في أن الطبيعة العدوانية عموماً، إن لم نقل المهينة، لتعامل الرومان مع عملائهم من الملوك المفضلين لديهم، قد أدت دوراً رئيسياً في قدرة الطبقة الجديدة من الملوك العسكريين الوراثيين على تعزيز سلطاتهم؛ حيث كان البروتوكول المفضل بصورة عامة لدى الملوك البرابرة طلباً لفضل أو إحسان في حضرة الإمبراطور، هو التذلل مصحوباً بذرف الدموع، وذلك على غرار الأسلوب الذي أداه ببراعة الأمير السرمتي زيزايس Zizais في العام 358 في حضرة الإمبراطور قسطنطين الثاني.[29] وإذا كان هذا السيناريو يبدو بعيد المنال، فالمرء ليس بحاجة إلا ليتذكر أن "سياسة الحدود" التي اتبعتها الإمبراطورية كانت تقوم في جزء منها على إحراق قرى جيرانها مرة في كل جيل، وبأن العديد من الأمراء الذين أخذوا كرهائن قد عادوا دون أن يبدو عليهم أنهم قد فتنوا بنمط الحياة الرومانية.[30] وفي الواقع، فإن أحد المكاسب، التي قد يتم الحصول عليها مقابل تحمّل نفقات الحاشية العسكرية الجديدة للملك، كان يتمثل في عقد الآمال على أن الانتماء إلى اتحاد قوي من نوع جديد، يمكن أن يساعد في درء أسوأ عواقب الحملات الرومانية الإمبريالية. وبكلمة موجزة، فإن جميع أنواع العلاقات - الإيجابية والسلبية، والسياسية والاقتصادية، والدبلوماسية والعسكرية - التي تطورت بصورة طبيعية بين الإمبراطورية وجيرانها الأقل تقدماً منها بكثير، اجتمعت كلها معاً لتسرع من العمليات التي حولت أعداداً كبيرة من الوحدات الاجتماعية-السياسية الصغيرة التي كانت تحتل المناطق النائية من الإمبراطورية في القرن الأول الميلادي، إلى عدد أصغر ولكن أكثر قوة مطلع القرن الرابع. وما منح تلك العلاقات القوة الكبيرة اللازمة للتحول هو الاستجابة القوية في المجتمع الجرماني. ولكن التحول الذي طرأ على المجتمع الجرماني لم يكن وليد الأعمال التي قامت بها الإمبراطورية الرومانية وحدها فحسب - على الرغم من

أنها كانت تعمل جاهدة لتحقيق ذلك- ولكن أيضاً لأن بعض العناصر داخل المجتمع الجرماني انتهزت الفرص الجديدة، التي أفرزتها العلاقات الجديدة المتنوعة مع الإمبراطورية لإيجاد بنى سياسية دينامية جديدة.

وبحلول أواسط القرن الرابع لم يكن المدى الكلي لهذه التحولات قد بلغ حداً يشكل خطراً واضحاً على الإمبراطورية. ولم تشكل أي من هذه البنى الجديدة تهديداً للسلامة الإقليمية للإمبراطورية الرومانية. وكان الحد الأقصى للتهديد يتمثل باستيلاء أحد ملوك البرابرة الطموحين على أجزاء محدودة من الإمبراطورية، أو - وكان هذا هو النمط الشائع - في الحد من تدخل الرومان ومطالبهم الاقتصادية أو الدبلوماسية. وخلال خمسينيات القرن الرابع، كان كنودماريوس يفعل كل ما بوسعه لضم شريط من الأرض يتبع للسلطة الرومانية بعرض نحو 50 كيلومتراً ويقع على جزء من الراين إلى إقليمه. بينما كان ملوك قبائل التيرفنجي يحاولون الحد من قدرة الأباطرة الرومان على طلب تجنيد مقاتلين من هذه القبائل للمشاركة في حروبهم، أو لمقاومة وإسكات الأصوات المطالبة بمنح الجماعات التبشيرية المسيحية (التي أصبحت الآن تابعة للإمبراطورية بعد تحولها إلى الديانة المسيحية) حرية الانتشار والعمل. ولكن هذا في كل جوانبه لم يخلق تهديداً للوجود الإمبراطوري.[31] وبالفعل، فإن التعامل مع عدد صغير من الشركاء الدبلوماسيين قد أسهم في تسهيل تنفيذ مهمة إدارة الحدود الرومانية؛ إذ أدى إلى تقليص عدد المطالب السياسية المتناقضة في الجانب الآخر من الحدود، والتي كان يجب تحقيق التوازن بينها. ولكن النظام الجديد، الذي ابتدعته الإمبراطورية الرومانية عن غير قصد على حدودها الأوروبية، لم يتحول إلى مشكلة إلا عندما أقدمت قوة خارجية على فرض وحدة قسرية على عدد كبير جداً من هذه الوحدات الاجتماعية-السياسية الجرمانية الجديدة الأكبر حجماً.

ففي أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس، قامت مجموعة من قبائل الهون، وهي قبائل أوروبية آسيوية متنقلة، بالتوجه غرباً، ربما سعياً وراء ما يمكن الاستيلاء عليه من

ثـروات عمـلاء رومـا عنـد الحـدود. وأدى ذلـك إلى إحـداث تحـول ثـوري في الموقـف الاستراتيجي الشامل على الحدود الأوروبية لروما. وفي مـرحلتين مختلفتـين يفـصل بينـهما جيل كامل، تمكنت هـذه القبائـل أولاً مـن الـسيطرة عـلى شـمالي البحـر الأسـود خـلال سبعينيات القرن الرابع، ونقلت من ثـم مراكـز عملياتهـا إلى سـهل المجـر الكبـير Great Hungarian Plain في قلب أوروبا في عام 410. وتمثلت أولى نتائج كل موجة من موجات الهجرات الواسعة هذه في إخراج التجمعات الجرمانيـة الكبـيرة التـي ظهـرت في المنـاطق الحدودية التابعة لروما خارج الحدود ودفعهم إلى داخـل أراضـي الإمبراطوريـة. وهـذه التطورات موثقة بوضوح في سياق الحديث عن حالة انـدفاع قبائـل الهـون باتجـاه منطقـة البحر الأسود، والذي أدى إلى دفع مجموعتين كبيرتين منفصلتين مـن القـوط (التيرفنجـي والجرويتونجي Greuthungi) وعدد من مجموعات أصغر، عبر حدود رومـا عنـد منطقـة الدانوب الأسفل. وأما الموجة الثانية من تحركات قبائل الهون صوب السهل المذكور، فقـد سبقتها موجة هجرة ضخمة لعملاء روما من تلك المنطقة تحديداً. وقد اشتملت على: (1) مجموعة كبيرة أخرى من القوطيين بقيادة راداجايسوس Radagaisus توجهت إلى إيطاليا، و(2) تحالف كبير مكون من مجمـوعتين مـستقلتين مـن قبائـل الفنـدال Vandals والألان Alans والسويف Sueves، عبر أفرادها نهر الـراين، و(3) قـوة أخـرى مـن البورغنـديين Burgundians، من الذين اقتفوا أثر هذه القبائل في الاتجاه نفسه. ولم توضـح المـصادر إن كان الهون هم من تسبب بحدوث الهجرة الثانية، ولكنهم ظهروا مباشـرة في المنطقـة التـي رحل عنها المهاجرون. ولعل أفضل تفسير لهـذه التغـيرات الديمغرافيـة الكبـيرة هـو أنهـا تشكل تكراراً لما حدث في سبعينيات القرن الرابع، باستثناء أنها هذه المرة تحدث عبر حدود روما عند منطقتي الدانوب الأوسط و الراين الأعلى، مع تحرك الهون باتجاه الغـرب.[32] وفي الواقع، فرض الهون وحدة في الهدف بين عشـرات الآلاف من الغـزاة عـلى نحـو يـصعب تصور حدوثه بطريقة أخرى. ولم تتمكن الإمبراطورية الرومانية من إلحـاق الهزيمـة بهـذه التجمعات البربرية التي لا جامع يجمعها سياسياً بسبب ظهورهـا جميعـاً في وقـت واحـد؛

وهي قد حاولت إلحاق الهزيمة بهم، ولعلها كانت ستنجح في ذلك لو لم تأت هذه المجموعات بأعداد هائلة في وقت واحد.[33]

ومن وجهة نظر رومانية، فإن ما زاد من حجم الضرر الناجم عن هذه الكارثة الاستراتيجية هو نشوء مرحلة جديدة من التحالفات التي يعقدها المهاجرون فيما بينهم كلما حاولت الإمبراطورية القيام بهجمات عسكرية مضادة. وهكذا ظهرت وحدتان كبيرتان جداً من بين ست وحدات كانت قد انضمت إلى الإمبراطورية في الفترتين 376-380 و405-408. وكانت قبائل فيزيجوث Visigoths، التي استقرت في النهاية جنوبي بلاد الغال في عام 418، تتكون من قبائل الترفينجي والجرويتونجي من مهاجري المرحلة الأولى، وقد توحدت مع المجموعات القوطية التي تمكنت من النجاة من هجمات راداجايسوس Radagaisus على إيطاليا في المرحلة الثانية. كما ظهرت قبائل الفندال Vandal كقوة كبرى من خلال الاندماج الكامل فيما بينها وبين قبائل الألان Alans. وقد تمكنت هذه القوة في نهاية المطاف من الاستيلاء على الأراضي المهمة اقتصادياً في شمال إفريقيا، والتي اعتبرت السلة الغذائية للإمبراطورية الغربية في ثلاثينيات القرن الخامس (بعد فترة فاصلة طويلة في إسبانيا). وكانت قبائل الألان تفوق قبائل الفندال في البداية من حيث العدد.[34] ولعل النقطة المهمة هنا هي أن هذه الترتيبات السياسية الجديدة أدت إلى نشوء مجموعات كبيرة بما فيه الكفاية لمقاومة جيوش رومانية ميدانية هائلة. وبالتالي، فقد تمكنت هذه المجموعات من الصمود والحفاظ على بقائها فوق الأراضي الرومانية على المدى الطويل، لأسباب عدة ليس أقلها أن قبائل الهون الدخيلة استطاعت توحيد العديد من المجموعات الجرمانية الأخرى المتمركزة في المناطق الحدودية والتي تخضع لسيطرتها، وبدأت بشن الحملات المضادة، ما كان يعني عدم تمكن الرومان من نشر قواتهم الرئيسية ضد المهاجرين الأصليين بعد أن أعادوا الآن تنظيم صفوفهم.[35] وفي الوقت الذي كانت فيه الإمبراطورية الهونية مجرد ظاهرة وقتية ينقصها التماسك، فإن سقوطها لم يؤد إلا إلى زيادة المشكلات التي تواجه السلطات الإمبراطورية الرومانية؛ إذ أدى إلى قيام تحالفات

بين العديد من القبائل الجرمانية الأخرى تماثل تحالفات جماعات الفيزيجوث والفندال، فضلاً عن جماعات البورغنديين والأوستروجوث Ostrogoths، لينتهي بها الحال أن تستقر هي الأخرى أيضاً فوق الأراضي الرومانية الغربية.

لقد بات الخطر العام الذي أثارته هذه المجموعات المنفلتة من المهاجرين يتهدد الإمبراطورية الرومانية بشكل واضح. فهذه الإمبراطورية اعتادت تمويل جيوشها ونشاطاتها الأخرى تمويلاً شبه كامل من ضريبة الأرض التي كانت تُفرض على الإنتاج الزراعي. وعندما توسعت التحالفات البربرية المقامة حديثاً على الأقاليم الرومانية، وثبتت استحالة تفكيكها، بدأت هذه التحالفات بالاستيلاء على المقاطعات، وبالتالي على أموال الضرائب، سواء بموافقة الإمبراطورية أو عدم موافقتها. وإذا كانت جماعات الفيزيجوث، على سبيل المثال، قد استقرت أصلاً في مناطق محدودة تقع إلى الجنوب من بلاد الغال (كما هي الحال مع البورغنديين) وبموافقة الإمبراطورية، فإن قبائل الفندال قد استولت على أغنى مقاطعات شمالي إفريقيا بالقوة. وتوقفت المناطق التي تم ضمها عن دفع أي مبالغ إضافية لخزينة الإمبراطورية. وفي الوقت نفسه، فإن موافقة الإمبراطورية على إقامة هذه المستوطنات كانت تؤخذ دوماً بحد السيف، ما يعني أن أجزاءً مهمة من الأراضي التي ظلت تحت سيطرة الإمبراطورية قد لحق بها ضرر كبير، ولم يعد أصحابها قادرين على دفع الضرائب المعتادة المستحقة. وعادة ما كان الأباطرة يعيدون الضرائب المستوفاة إلى المناطق المتضررة بنسبة ستة أسباع. وهكذا، فسرعان ما أوقعت هذه المستوطنات البربرية السلطات المركزية في غرب الإمبراطورية في حلقة مفرغة من التدهور. وقد أدى ضياع الأراضي والموارد إلى تقويض قدرة الإمبراطورية على المحافظة على قواتها وبالتالي القدرة على مقاومة مطالب البرابرة الدخلاء، سواء من كان موجوداً أصلاً على الأراضي الرومانية أو من وفد إليها حديثاً. واستغلت قبائل الفيزيجوث، التي كانت قد تحالفت مع الإمبراطورية سابقاً، أي فرصة سانحة لتوسيع المناطق التي تسيطر عليها، ولاسيما في فترة حكم الملك يوريك Euric الذي شن حروباً توسعية بعد عام 468 كانت نتيجتها ضم

معظم مناطق إسبانيا، وتقريباً كل أجزاء بلاد الغال تحت الحكم القوطي. وبنجاح هذه العملية، أدرك كل من الرومان والبرابرة في نهاية الأمر أن السلطة المركزية الرومانية لم يعد لها أي دور مهم في السياسة في أوروبا الغربية. ولم تكن مصادفة أن آخر فصول انهيار الإمبراطورية، وتحديداً إقصاء آخر أباطرة الإمبراطورية الغربية رومولوس أوغوستولوس Romulus Augustulus، قد وقع عندما لم يعد بالإمكان دفع رواتب ما تبقى من الجيش الروماني في إيطاليا.[36]

إن أي ربط بين هذه التطورات وأحداث الوقت الحاضر لا بد أن يقودنا في الحال إلى تقصي فصول انهيار الإمبراطورية. إن دول العالم الغربي المتقدمة تميل عادة إلى التعامل مع المشكلات الاستراتيجية من زاوية سياساتها الخاصة، وفي ضوء ما فعلته، أو ما لم تفعله، أو ما قد تفعله مستقبلاً، كما لو أن الأطراف الأخرى في المعادلة ليس لها دور أو رأي في المسار النهائي للأحداث. ومثل هذه النزعة تبدو واضحة في وجهات النظر التقليدية التي تفسر سقوط الإمبراطورية الرومانية، والتي غالباً ما تتركز على تحديد ما إذا كانت استراتيجيات إدارة الحدود الرومانية حكيمة، أو كافية، لدرجة تمكينها من مواجهة التهديدات الخارجية، أم لا. وتؤكد الصورة الكلية لأنماط التنظيمات السياسية والاجتماعية والاقتصادية المتطورة في أوروبا الوسطى خلال العهد الروماني أن التركيز على ما كان يفعله البرابرة، كما يطلق عليهم، لا يقل أهمية عن التركيز على الأمور الأخرى. وفي الغالب يناقش المؤرخون – الذين يتبعون المعلقين الرومان أنفسهم – المصير النهائي للحدود من حيث إن كانت روما – خلال مراحل تاريخية مختلفة – قد وجدت أو فقدت المعادلة الاستراتيجية السحرية، عندما كان مصير الإمبراطورية قد توقف بشكل أساسي على ما كان يحدث عبر الحدود، وذلك في ضوء تطور الأوضاع عملياً على الأرض. كانت روما إمبراطورية قائمة في قلب منطقة البحر الأبيض المتوسط، وقد وظفت مواردها وإمكاناتها لبسط هيمنتها على أجزاء واسعة من المناطق الواقعة في أقاصي شمال أوروبا. إن السبب النهائي الذي يقف وراء سقوط هذه الإمبراطورية، ويفسر لماذا لم تكن أي دولة مركزها البحر المتوسط مهيمنة على تاريخ غرب

أوراسيا منذ ذلك الوقت، يكمن في حقيقة أن الألفية الأولى كانت تمثل نقطة تحول حاسمة في مسيرة تطور أوروبا بشكل عام. فقد أدت الطرق والأساليب الزراعية الجديدة إلى زيادات كبيرة في أعداد السكان الذين تم حشدهم من قبل نظم سياسية أكثر تطوراً للعمل لصالحها، فكانت النتيجة حدوث تحول جذري في ميزان القوى الاستراتيجي؛ أي إن موارد منطقة البحر المتوسط لم تعد توفر قواعد القوة الكافية لبسط الهيمنة على أوروبا. وربما كانت غزوات الهون هي التي حددت كيف ومتى ستسقط الإمبراطورية، ولكن العامل الأهم الذي حسم مصير الإمبراطورية وسقوطها، بل وضمن عدم ظهورها ثانية، هو ما تمثل في إطلاق العنان لقوى التطوير في أوروبا "البربرية".

والأهم من ذلك في رأيي، هو ما يخبرنا به تاريخ هذه الإمبراطورية؛ فقد أُطلق العنان للقوى الدينامية المحركة عندما اتصلت الكيانات الاقتصادية والبنى السياسية الأقل تطوراً مع جاراتها القوى الإمبراطورية الأكبر حجماً على مختلف المستويات. ويمكن تتبع أسباب معظم التحولات التي أسفرت عن نشوء بنى اجتماعية-اقتصادية وسياسية على أطراف الدولة الرومانية في النصف الأول من الألفية الأولى، وإرجاعها إلى نتائج الاتصالات غير المسبوقة التي جرت بين أوروبا البربرية وأوروبا "الإمبراطورية" على الصعد العسكرية والاقتصادية والسياسية، والثقافية بالطبع. ومرة أخرى، فهذه ليست قصة ما فعلته الإمبراطورية فحسب، بل هي أيضاً شرح لكيفية تفاعل البرابرة بذكاء وعزم حيال الفرص والمخاطر، التي كانت تمثلها السياسات الإمبراطورية. في الواقع، لم يكن تطور العالم الجرماني سوى مثال واحد لظاهرة عامة أكثر شمولية. وفي استجابة للفرص الإيجابية التي توفرها مثل هذه الاتصالات، وكرد فعل إزاء العوامل السلبية المتمثلة في الاستغلال العدائي الذي تمارسه الإمبراطوريات عادة على جاراتها الأضعف منها، تبدي هذه المجتمعات غالباً ميلاً واضحاً للتطور ولإعادة تنظيم صفوفها بطريقة تكفل القضاء على الفروقات الأصلية في القوة وتحقق التوازن. ويمكن أن نرى أنماطاً مشابهة جداً لهذا التطور، على سبيل المثال، في المجتمعات السلافية على أطراف إمبراطورية الفرنجة

الأوروبية في النصف الثاني من الألفية الأولى.[37] ولي أن أزعم أن هذه الأنماط بدت أيضاً صالحة للتطبيق إلى حد بعيد في سياقات أكثر حداثة؛ فالقوى الغربية المتطورة - التي يبدو تقدمها واضحاً جداً في العالم في القرن العشرين - استغلت الكيانات السياسية الجديدة التي نشأت في الخارج (أو قل البرابرة الجدد إن شئت)، ولكن هذه الكيانات استفادت بشكل كامل من المخاطر والفرص المرتبطة بهذا الاستغلال، وأعادت تنظيم صفوفها، وبدأت تنقلب على الهيمنة الغربية الاقتصادية والسياسية وحتى العسكرية. وتوحي لي هذه الأمثلة والعبر جميعاً بوجود ما يمكن وصفه بـ"قانون نيوتن الثالث" للإمبراطوريات. إن ممارسة الهيمنة السياسية الإمبريالية والاستغلال الاقتصادي سوف تثير - على المدى الطويل - سلسلة من ردات الفعل التي يمكن أن تحوِّل الدول الضعيفة المجاورة إلى مجتمعات قادرة أكثر على مقاومة أو حتى إحباط الإمبريالية العدوانية، التي كانت السبب وراء استثارة ردات الفعل تلك.

الهوامش

الفصل الأول

1. لقد دخل قورش نفسه بابل بعد أسبوعين ونصف: *Nabonidus Chronicle*, col. ii, 15.

2. Jeremiah 28.14.

3. Ezekiel 32.23.

4. Cyrus Cylinder 20. إن الألقاب التي استخدمها ملوك فارس لم تكن من اختراعهم بالأصل، بل إنها مستمدة من مجموعة متنوعة من ممالك الشرق الأدنى، ومنها بابل.

5. Aeschylus *The Persians* 104–5.

6. Cyrus Cylinder 16.

7. Herodotus 1.214.

8. Isaiah 45.1–3.

9. انظر:

Heracleitus, quoted by Diogenes Laertius, *The Lives and Doctrines of the Eminent Philosophers*, trans. R. D. Hicks, 2 vols., Loeb Classical Library no. 184 (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1925), 1.21.

10. لمقدمة موجزة عن المصادر التي تمكن من إعادة بناء أحداث عام 522، فضلاً عن المصادر نفسها، انظر الفصل:

"From Cambyses to Darius I," in Amélie Kuhrt, *The Persian Empire: A Corpus of Sources from the Achaemenid Period* (London: Routledge, 2007), vol. 1.

11. Bisitun Inscription 63.

12. هذا تاريخ محتمل وليس مؤكداً تماماً.

13. Phocylides frag. 4. على الرغم من أن الإشارة هنا آشورية، يكاد يكون من المؤكد أن القصيدة تعكس نمو القوة الفارسية.

14. Tyrtaeus 7.31–32.

15. انظر:

Quoted by Tim Blanning in *The Pursuit of Glory: Europe 1648–1815* (New York: Viking, 2007), 626.

16. Herodotus 6.116.

17. Herodotus 8.24.

18. Herodotus 9.62.

19. Lycurgus *Against Leocrates* 81.

الفصل الثاني

1. Thucydides 1.97.1.

2. Thucydides 3.10.5.

3. Thucydides 1.99.2–3.

4. انظر:

B. D. Meritt, H. T. Wade-Gery, and M. F. McGregor, *The Athenian Tribute Lists*, vol. 2 (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1949), 69.

5. Thucydides 5.105.

6. Phocylides frag. 5.

7. Pseudo-Xenophon *Respublica Atheniensium* 2.7–8.. ينسب هذا العمل على نحو خاطئ للمؤرخ زينوفون، إذ إن مؤلفه الحقيقي غير معروف. ويشار إليه عموماً بـ "الأوليغاركي القديم" لأنه يتضمن آراء ضد الديمقراطيين. ولكننا لا نعلم عمره ولا هدفه، وإن كانت الشواهد الداخلية فيه تشير إلى عشرينيات القرن الخامس قبل الميلاد.

8. Hermippus in Athenaeus 1.27e–28a.

9. Pseudo-Xenophon *Respublica Atheniensium* 1.18.

10. Diodorus Siculus 12.4.5–6.

11. Raphael Sealey, "The Entry of Pericles into History," *Hermes* 84 (1956): 247.

12. انظر:

Eduard Meyer, *Forschungen zur alten Geschichte*, vol. 2 (Halle: Max Niemeyer, 1899), 19–20.

13. Plutarch *Pericles* 17.1.

14. شكك بعض العلماء في مرسوم عقد المؤتمر Congress Decree [في أثينا]، كما يسمى. وللاطلاع على مناقشة جيدة حول ذلك، انظر:

Russel Meiggs, *The Athenian Empire* (Oxford: Oxford University Press, 1972), 151–52, 512–15.

لم يعط بلوتارك تاريخاً للمرسوم، ولكن التسلسل المعتمد هنا هو واحد من أولئك الذين يقبلون بحقيقته.

15. Pericles 12.2.

16. Pericles 12:3–4.

17. Thucydides 2.8.4.

18. Thucydides 1.75.3–5.

19. Thucydides 1.76.2.

20. Thucydides 2.63.1–2.

21. Thucydides 2.38.

22. Thucydides 2.43.1.

23. Thucydides 2.64.3–6.

24. Pseudo-Xenophon 1.2–3.

25. Pseudo-Xenophon 2.4–6, 11–13.

26. Thucydides 1.4–19.

27. Pericles 1.143.4.

28. Pericles 2.62.1–2.

29. Pericles 143.4–5.

30. Pericles 1.143.5.

31. Thucydides 6.18.2.

32. Thucydides 6.18.7.

33. Thucydides 1.70.

الفصل الثالث

1. انظر:

R.E. Wycherley, *The Stones of Athens* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1978).

يذكر ويتشرلي في ص 7: أن «تأريخ أسوار أثينا يمثل تاريخ توسع المدينة وانكماشها عبر المراحل المتعاقبة لتطورها وانحطاطها؛ في انتصاراتها، وكوارثها، واستعادتها لعافيتها. وهي التي جسدت السمة الطاغية لهذه المدينة في أعظم عصورها، والتي كانت موضعاً بذلت فيه عامة الأثينيين من الجهد والموارد الشيء الكثير جداً كرمز لقوة أثينا، وأنموذجاً بارزاً لبنية النظام العسكري الإغريقي. ومع تكرر عمليات الصيانة وإعادة البناء، فقد ظلت شاخصة بطبيعة الحال لما يربو على ستة عشر قرناً من الزمن، على اختلاف ما آلت إليه من مصائر؛ فتعود بعد دمار شنيع لتنهض عالياً من جديد مرة إثر مرة».

وفي سياق "غير أثيني" – وربما في مناسبة ذات صلة بالوصف الذي جاء على لسان هيرودوت (Herodotus 1.168) – كتب أناكريون «الآن قد قضي على إكليل المدينة»، وذلك في:

(frag. 100 [Bruno Gentili, Anacreon (Rome: Edizioni dell'Ateneo, 1958); Bergk 72; Diehl 67, p. 391])

ويوضح شولياست Scholiast تلك الإشارة الضمنية باقتباسه هذا البيت من قصيدة أناكريون، بقوله إن «أسوار المدينة أشبه بالإكليل»، وذلك في: Pindar, *Olympian* 8.42c.

ويصف موغنز هيرمان هانسن الهدف العام من أي سور للمدينة الإغريقية بقوله: «وبالمقارنة (ويعني مع العصور الوسطى)، فإن الأسوار في المدينة الإغريقية القديمة لا تصلح إلا للأغراض العسكرية، وما من ضرائب تفرض عند بوابات المدينة. ولكن الأسوار والبوابات تخضع للحراسة في زمن الحرب؛ أما في وقت السلم فيمكن لأيٍّ كان المرور عبر بواباتها نهاراً. وقد تغلق البوابات ليلاً، ولكن لا حراسة عليها؛ ويظل بإمكان الناس دخول المدينة ومغادرتها. ولم تكن الأسوار لتعد حاجزاً يفصل المدينة عن ريفها، وإنما هي بالأحرى معلم بارز يفتخر به أبناء المدينة». وجاء ذلك في:

Mogens Herman Hansen in *Polis: An Introduction to the Ancient Greek City-State* (Oxford: Oxford University Press, 2006).

2. قبل الغزو الفارسي، كان أكروبول أثينا قد تمت حمايته بواسطة السور البلاسجي Pelasgic Wall [نسبة إلى قبائل البلاسجيين التي سكنت اليونان قبل الإغريق القدامى]. وإضافة إلى ذلك، يفترض بعض الباحثين أن المدينة قد جرى تحصينها بسور آخر يحيط بها. ويلفت ويتشرلي، الانتباه إلى الخلاف المتعلق بوجود سور قبل الغزو الفارسي بسبب غموض الدلائل والمخطوطات ذات الصلة به وانعدام أي شواهد أثرية لمساره (Wycherley, *The Stones of Athens*, 9)، وانظر الهامش 4. غير أن فاندربول يرى إمكانية وجود سور كهذا في أثينا ربما يعود تاريخه إلى عام 566 قبل الميلاد، انظر:

E. Vanderpool, "The Date of the Pre-Persian City-Wall of Athens," in *Φόρος: Tribute to Benjamin Dean Meritt*, ed. D. W. Bradeen and M. F. McGregor, 156–60 [Locust Valley, NY: J. J. Augustin, 1974].

3. انظر:

Fornara 55, *GHI 23*. The translation is from Charles W. Fornara, *Archaic Times to the End of the Peloponnesian War, vol. 1 of Translated Documents of Greece and Rome*, 2nd ed. (Cambridge: Cambridge University Press, 1983), 53–55.

تعود النقوش التي تسجل هذا المرسوم إلى تاريخ لاحق، ما يجعل صحتها محل شك. ويقدم فورنارا (ص 54) مراجع تؤيد موثوقيتها وأخرى تطعن فيها. انظر أيضاً:

Herodotus 8.41 and Demosthenes 19.303.

4. Herodotus 8.50.

5. انظر:

Herodotus 8.51. Translations of Herodotus are by Andrea L. Purvis, *The Landmark Herodotus: The Histories*, ed. Robert B. Strassler (New York: Pantheon Books, 2007).

6. انظر: Herodotus 7.141.3.

7. للمزيد حول تحضيرات ثيميستوكليس للغزو الفارسـي ثم ما تبع ذلك من إخـلاء الأثينيـين لأتيكـا، انظر:

Barry Strauss, *The Battle of Salamis: The Naval Encounter That Saved Greece—and Western Civilization* (New York: Simon & Schuster, 2004), 61–72.

8. .Herodotus 8.53

9. .Herodotus 9.3. The quotation is from 9.13.2

10. انظر:

John M. Camp, *The Archaeology of Athens* (New Haven, CT: Yale University Press, 2001), 56–58.

11. .Thucydides 1.89.3

12. لعل من المهم في هذا السياق عقد مقارنة بين بناء أسوار أثينا وتشييد "برج الحرية" في نيويورك. وقـد علّق الناقد المعماري أوروسوف على ذلك: «بعد أربع سنوات على الغزو الأمريكي للعراق، فإن حالة الحصار هذه باتت تبدو واقعاً دائماً أكثر فأكثر، وكما يتضح هذا في طراز معماري ربما جـاز لنـا تـشبيهه بتكريس لأنماط القرون الوسطى في قرننا الحادي والعشـرين هذا. ومثلما كان نظراؤهم في الفـترة مـا بين القرنين الثالث عشـر والخامس عشـر، صار المعماريون المعاصـرون يُجنـدون لـيس فقـط لإقامـة معالم مدنية مهمة، بل وخطوط للدفاع المدني، بقسمات مبهجة من الناحيـة الجماليـة، كـالحواجز التـي صـممت بـشكل أنيـق لتحـيط بالميـادين العامـة، أو الكـساء الزخـرفي لجـدران الحمايـة الإسـمنتية الضخمة... ولعل أكثر نماذج هذا الاستحضار الجديد لفنون القرون الوسطى إثـارة للقـشعريرة هـو مبنى برج الحرية في مدينة نيويورك، الذي وصف مرة برمز مـن رمـوز التنـوير. فهـذا المعلـم، الـذي صممه ديفيد تشايلدز David Childs، المهندس المعماري في شـركة سـكيدمور، أوينغـز أنـد ميريـل Skidmore, Owings & Merrill، ينتصب على قاعدة إسمنتية محصّنة تتألف مـن عـشـرين طابقـاً لا نوافذ لها، زينت بألواح من الزجاج المنشوري في محاولة غريبة لإخفاء ظاهرة الارتياب التـي هيمنـت عليه. كما أن الهيكل العبوس الأشبه بالمسلة في أعلاه يـصلح رمـزاً معـبراً عـن العنجهيـة الأمريكيـة، وليس عن الحرية». انظر:

Nicolai Ouroussoff, "A Tower That Sends a Message of Anxiety, Not Ambition," *The New York Times*, February 19, 2007, and "Medieval Modern Design Strikes Defensive Posture," *The New York Times,* March 4, 2007

13. .Diodorus 11.29.3

14. أعد الترجمة C. H. Oldfather في Loeb Classical Library. وانظر أيضاً:

Tod, GHI 2.204, 21–51, Lycurgus *Against Leocrates* 80–81. Contra: Theopompus, *FGrHist* 115 F153. Russell Meiggs, *The Athenian Empire* (Oxford: Oxford University Press, 1972), 504–7,

والمرجع الأخير يقبل بصحة "قسم بلاتيا" Oath of Plataea، في حين أن P. J. Rhodes, *CAH* 5^2.34، يشكك في وجود بند يقضي بعدم إعادة بناء المعابد.

15. انظر:

Jeffrey M. Hurwit, *The Athenian Acropolis: History, Mythology, and Archaeology from the Neolithic Era to the Present* (Cambridge: Cambridge University Press, 1999), 135–42.

الأدلة الأثرية على اجتياح الفرس لأثينا، ولأجورا على وجه الخصوص، مشار إليها في:

T. Leslie Shear Jr., "The Persian Destruction of Athens," *Hesperia* 62 (1993): 383–482. See also Homer A. Thompson, "Athens Faces Adversity," *Hesperia* 50 (1981): 343–55.

وورد في المرجع الأخير (ص346) ما يلي: «جملة القول، ما من شك في أن انتصارات الأثينيين في الحروب الفارسية حفّزت بعض أرقى إنجازاتهم في الفن والأدب والشؤون الدولية، بيد أن الأدلة المستمدة من الحفريات تذكرنا أن اجتياح عام 480–479 قبل الميلاد تسبب في انقطاع طويل ومزرٍ للحياة المدنية والدينية للمدينة».

16. وبشأن أهمية الأسوار في أعمال ثوكيديدس، انظر:

Simon Hornblower (A Commentary on Thucydides, I [Oxford: Clarendon Press, 1991], s.v. 1.89.3–1.93.2, 135) cites R. A. McNeal ("Historical Methods and Thucydides 1.103.1," *Historia* 19 [1970]: 306–25).

يقول مكنيل في ص312: «بحسب "نظرية القوة" التي صاغها ثوكيديدس بدقة عالية، فإن الأسطول يخلق فرص التجارة، والتجارة تجلب العوائد، والعوائد تحقق الثروة، والثروة تعني الاستقرار والأسوار، والأسوار تتيح للدويلات الضعيفة بسط هيمنتها السياسية. وهكذا، فالأسوار في نظر ثوكيديدس هي الرمز المطلق للقوة».

وانظر أيضاً تعليق Hornblower في 1.2.2، حيث يقتبس من:

Yvon Garlan ("Fortifications et histoire Greque," in *Problèmes de la guerre en Grèce ancienne*, ed. Jean-Pierre Vernant, 245–60 [Paris: Mouton, 1968].

وورد اقتباس في 255 يفيد أن «مفهوم الفضاء الحضري لا ينفصل عن مفهوم المدينة».

وينسب أرسطو الفضل لكل من ثوكيديدس وأرستيدس في بناء الأسوار الدائرية، وترد النقاط التالية من كتابه، انظر:

(23.3–4, trans. P. J. Rhodes [Aristotle, *The Athenian Constitution* (London: Penguin Books, 1984)]):

«(3) المدافعون عن الشعب في هذا الوقت كانوا أرستيدس نجل ليسيماكوس Lysimachus، وتميستوكليس نجل نيوكليس Neocles. فقد برع تميستوكليس في فنون الحرب، فيما كان أرستيدس ضليعاً في فنون السياسة، واشتهر بين معاصريه باستقامته ونزاهته؛ لذا فقد استفاد الأثينيون من الأول جنرالاً، ومن الثاني مستشاراً. (4) وبرغم ما كان ناشباً بينهما من خلاف على المستوى الشخصي، فقد أخذ الرجلان على عاتقهما مهمة بناء الأسوار. وقد كان أرستيدس من أدرك ما أحاط بالإسبارطيين من صيت سيئ بسبب بوسانياس، فصار يحث الأيونيين على فض ارتباطهم بحلف إسبارطة».

ولمزيد من البحث في هذه النقاط، انظر:

P. J. Rhodes, *A Commentary on the Aristotelian Athenaion Politeia* (Oxford: Oxford University Press, 1981), 292–95. See Diodorus 11.39–40 (incorrectly dated 478–477 BC).

ويؤكد بلوتارك أيضاً الأسلوب الذكي الذي اتبعه الأثينيون في التعبير عن مسعاهم الطموح لتأسيس إمبراطوريتهم في (Themistocles 19): «ما إن وضع هذه الإنجازات العظيمة وراء ظهره حتى توجه في الحال للنهوض بمهمة إعادة بناء أثينا وتحصينها. وبحسب رواية ثيوبومبوس Theopompus، فهو قد قدم رشى لقضاة إسبارطة كي لا يعترضوا على خططه؛ بيد أن الأغلبية العظمى من الكتّاب تتفق في الرأي على أنه فاقهم حيلة ودهاءً. فقد استطاع ترتيب زيارة يقوم بها لإسبارطة، ناسباً لنفسه لقب سفير؛ وهناك اشتكى له الإسبارطيون من أن الأثينيين قد شرعوا بتحصين مدينتهم، بينما جرى في الوقت نفسه إرسال بولياركوس Polyarchus على وجه السرعة لمواجهته بهذه التهمة. ولكن تميستوكليس ينكرها، طالباً منهم إيفاد مبعوثين إلى أثينا ليتحققوا من ذلك بأنفسهم، وفي اعتقاده أن هذا التأخير سيمنحه الوقت اللازم لبناء التحصينات الدفاعية، فضلاً عن أنه كان يتمنى أن يأخذ الأثينيون هؤلاء المبعوثين رهائن ضماناً لسلامته. وكان هذا هو ما آل إليه الأمر تماماً. وعندما تبينت الحقيقة للإسبارطيين، لم يلجؤوا إلى الانتقام منه، بل أخفوا استياءهم واكتفوا بطرده».

17. Thucydides 1.90.1–3.

18. Thucydides 1.93.1–2.

19. انظر:

John M. Camp, *The Archaeology of Athens* (New Haven, CT: Yale University Press, 2001), 59–60; Gomme, *HCT*, s.v. 1.93.2, 260–61; Hornblower, *A Commentary on Thucydides*, I, s.v. 1.93.2, 137–38.

20. للاطلاع على وصف هذه الأسوار، انظر: Wycherley, *The Stones of Athens*, 13. وضع الأثينيون حجارة ليست صلبة عند أعلى قاعدة الجدار، والتي «تألفت من عدة صفوف من قطع الآجر الضخمة التي أعدت على أحسن وجه ووضعت على الجانبين قطع الحجارة الرئيسية الأشد صلابة. وكان حجر البوروس أو حجر الكلس الصلب هو المادة المستخدمة، مع استعمال الكتل الصخرية المكونة من مختلف أنواع الحجارة بشكل متزايد في المراحل الأخيرة».

21. Gomme, *HCT*, s.v. 1.92, 260.

22. انظر: T. 1.1.1: «بلغت استعدادات كلا الطرفين المتحاربين آخر مراحل الكمال في كل المجالات؛ وكان بإمكانه [ثوكيديدس] أن يرى سائر أبناء العنصر الإغريقي وهم يختارون الجانب الذي يلتحقون به في هذا الصراع، ومن لم يفعل ذلك في الحال كان ما يزال غارقاً في التفكير» (1.18.3): «ولبعض الوقت، تمكن الاتحاد [الهيليني الذي أنشئ عام 481] من الحفاظ على تماسكه، حتى ساعة تخاصم الإسبارطيين والأثينيين، وأعلن كل منهما الحرب على الآخر؛ وهي الحرب التي سيجر إليها جراً الهيلينيين جميعاً، إن عاجلاً أو آجلاً، برغم أن قسماً منهم ربما التزم الحياد. وهكذا، فقد قضت كل قوة منهما كامل تلك الحقبة، بدءاً بالحروب الميدية وانتهاءً بهذه الحرب، باستثناء بعض فترات السلم، في حالة صراع، إما مع غريمتها، أو مع مَنْ تمرد عليها من حلفائها ذاتهم؛ فأتاح لهم ذلك التدرب بشكل مستمر على الشؤون العسكرية، وامتلاك الخبرة التي لا يتم تعلمها إلا في مدرسة الخطر».

23. Hansen,*Polis,* (95–96). يقول هانسن: «منذ العصر الآركي Archaic السحيق، كانت الأسوار تشكل بالفعل ركناً مهماً من أركان المفهوم الإغريقي لطبيعة المدينة. ولعل إلقاء نظرة عامة على ما قدر له البقاء منها لابد أن يعزز هذا الرأي... وفي المراجع والمصادر المكتوبة، وصفت المدن التي أشير إليها جميعاً (222 مدينة)، التي ظهرت في العصرين الآركي والإغريقي القديم، بأنها مدن مسورة؛ إلا في 19 حالة ذُكر فيها صراحة أنها كانت بلا أسوار. وليس هناك سوى أربع مدن نعلم علم اليقين أنها خلت من الأسوار بنهاية العصر القديم، ونعني بها: دلفي، وديلوس، وغورتين، وإسبارطة».

24. Plato *Laws* 778d–779b (trans. A. E. Taylor): «أما بالنسبة إلى الأسوار، يا ميجيلوس Megillus، فأنا أشاطر مدينتك إسبارطة الرأي نفسه. ولعلي سأتركهم يغطون في نوم عميق بسلام وطمأنينة فلا أوقظهم، وها هي أسبابي؛ فطبقاً للصياغة التي حملها بيت الشعر الذي غالباً ما يستشهد

به بابتهاج، فإن أسوار المدينة يجب أن تبنى بمادتي البرونز والحديد، وليس بالحجر. ولابد أننا بالذات سنجلب على أنفسنا من السخرية ما نستحقه تماماً إذا كنا سنحبس أنفسنا خلف جدار بعد أن ندفع بالشبان من أبنائنا في مسيرة سنوية إلى المناطق الريفية المفتوحة لقطع الطريق على العدو بواسطة الخنادق والمتاريس والأبنية بشتى أنواعها، ولتسمح لي بالقول إن هذا كله يحدث بسبب رغبتنا في إبقاء العدو بعيداً خارج حدودنا. والأسوار بالدرجة الأولى لا تساعد على انتعاش حياة المدينة؛ والأكثر من ذلك أنها عادة تتسبب في إضعاف نفوس أبناء المدن إلى حد ما. وهي تشجع القاطنين في المدن على اتخاذها ملجأ لهم، فيتركون العدو دون رادع يردعه. كما أنها تغريهم بإهمال التدابير التي يحفظون بها أمنهم وسلامتهم من خلال عدم التهاون في المراقبة والرصد ليل نهار؛ وتجعلهم يتوهمون بأنهم سيجدون طريقاً إلى الأمن الحقيقي عبر احتجاز أنفسهم وراء الأسوار والمتاريس ليغطوا في النوم هناك، وكأنهم جبلوا بالفطرة على التهرب من العناء، وقد غاب عن علمهم أن الطمأنينة الحقة لا تتحقق إلا به، في حين أن التسيب والخمول المخزيين هما اللذان يولدان المصاعب والعمل الشاق؛ أم أنني على خطأ كبير».

25. انظر:

Victor Davis Hanson, *The Soul of Battle: From Ancient Times to the Present Day. How Three Great Liberators Vanquished Tyranny* (New York: Free Press, 1999), 72–104:

في ص 101-102 كتب هانسون: «أقول مرة أخرى، إن على طلبة التاريخ الإغريقي المعاصرين القيام بزيارة إلى ميسين وميجالوبوليس ومانتينيا، كي يمتلكوا فهماً وإدراكاً عميقين لرؤية معاصرة حقيقية للثقافة الإسبارطية. والاعتقاد بأن أسواراً دائرية ضخمة كهذه كان يمكن أن ترتفع عالياً سريعاً بعد اندحار إسبارطة في ليوكترا، وغزو لاكونيا لاحقاً، يمكن أن يوحي لنا بما يدور في أذهان جيران إسبارطة من أفكار بالفعل عن المجتمع الإسبارطي. وكثيراً ما تقدم الأسوار - وخير مثالين هما جدار برلين وأعمال البناء الجارية على الحدود الأمريكية المكسيكية - شواهد أكثر صدقاً من تلك التي تقدمها المراجع الأدبية والبيانات الرسمية عن الاعتقالات، والمخاوف، والأيديولوجيات السائدة في البيئتين الثقافيتين على جانبي هذا السور أو ذاك. ومثلما تسببت الأحداث التي هزت الاتحاد السوفيتي في تحطم الجدران في ألمانيا، كذلك شجعت القيود التي فرضها إيبامنونداس على إسبارطة الآلاف على التوجه حالاً نحو أرياف إقليم بيلوبونيز لقطع الأحجار وتجميعها طالما كانت الفرصة متاحة أمامهم».

26. انظر:

Aristotle *Politica* 2.8 (1267b22–30). See R. E. Wycherley, *CAH* 5^2.203–8, and M. Ostwald, *CAH* 5^2.315.

27. Thucydides 1.93.3–7.

28. انظر أيضاً تعليقات بلوتارك بالنسبة إلى تأثير هذه السياسة في الأثينيين (*Themistocles* 19): «توجه بعد ذلك لتطوير ميناء بيريوس، لأنه كان قد تنبه قبلاً لما تمتلكه موانئها من مزايا طبيعية، فضلاً عن تطلعه لمد حدود المدينة حتى البحر. وهو بذلك يناقض سياسة ملوك أتيكا القدامى الذين قيل إنهم كانوا يبتغون إبعاد مواطني المدينة عن البحر، وتعويدهم على العيش لا كعمال بحريين بل في حراثة الأرض وزراعتها. وكانوا هم من أشاع الأسطورة المتعلقة بالآلهة أثينا، وكيف أنها، خلال صراعها مع بوسيدون على ملكية البلاد، قامت بإنتاج شجرة الزيتون المقدسة (الخاصة بأكروبول المدينة) وعرضها على القضاة، وكذلك عند صدور الحكم. ومع ذلك، فإن تميستوكليس، وعلى حد تعبير الشاعر الهزلي أريستوفانس Aristophanes، لم "يدمج بيريوس بالمدينة، بل فعل العكس بأن ألحق المدينة ببيريوس"، وجعل سكانها المقيمين على البر يعتمدون على البحر لتحصيل أرزاقهم. فتعاظم، بالنتيجة، نفوذ عامة الناس على حساب طبقة النبلاء، وقويت ثقتهم بأنفسهم، طالما أن مقاليد السياسة قد انتقلت الآن إلى أيدي البحارة والملاحين ومرشدي السفن. وهذا هو أيضاً السبب الذي جعل حكومة "الطغاة الثلاثون" تغير لاحقاً تصميم منصة المجلس الأثيني العام (في بنيكس Pnyx) لتكون بمواجهة اليابسة (بعد أن كانت قد صممت أصلاً لتطل على البحر) اعتقاداً منها – أي الحكومة – أن إمبراطورية أثينا البحرية قد برهنت على أنها "أم الديمقراطية"، وأن النظام الأوليغاركي سيكون أكثر تقبلاً من قبل أناس يعملون في الحراثة والزراعة».

29. انظر الدراسة الجديدة حول "الأسوار الطويلة":

David H. Conwell, *Connecting a City to the Sea: The History of the Athenian Long Walls, Mnemosyne Supplements*, vol. 293 (Leiden:Brill, 2008).

بعد تقديمه وصفاً للخصائص المادية لهذه الأسوار، والمصطلحات التي ارتبطت بها، والمعالم الطوبوغرافية للمناطق التي أقيمت فيها، يعرض كونويل سرداً مرتباً زمنياً لعملية تشييد الأسوار وغاياتها على مدى أربع مراحل. ويختم دراسته بتحليل استراتيجي للأسوار الطويلة في التاريخ الأثيني، بدءاً من أولى مراحل بنائها حتى نهاية القرن الرابع.

30. Thucydides 1.107,108.2.. يفترض كونويل أن عملية البناء بدأت في عامي 462–461، واكتملت في الفترة 458–457. ولكن يبدو أن حججه (Connecting a City to the Sea,39-54)، التي أراد بها تأكيد مساهمة كيمون في هذا المشروع ليسند بذلك فرضية بلوتارك (Cimon 13.5–7) – بما يناقض الترتيب الزمني الذي وضعه ثوكيديدس للأحداث والذي يقر الجميع بعدم دقته (1.107) – وكذلك اقتراح موعد مبكر لبدء عملية البناء، يبدو أنها أخفقت في التعاطي مع الاندفاع نحو إشاعة

الديمقراطية الذي اقترن بهذه المبادرة. وكان تعهد الأثينيين ببناء "الأسوار الطويلة" قد عزز اتكال المدينة على الأعداد الكبيرة من مواطنيها الذين سبق لهم العمل في الأسطول البحري. ولابد أن وقوف كيمون إلى جانب هذه الشريحة العريضة من مواطني أثينا كان سيبدو مناقضاً لمواقفه وآرائه السياسية. ووقتذاك لم يكن كيمون، الذي كانت سمعته قد تلوثت جراء سياساته الموالية لإسبارطة، يحظى بما يكفي من ثقة أبناء مدينته كي يقترح مشروعاً يتطلب تنفيذه رصد الكثير جداً من موارد المدينة وثرواتها. وما كانت مشاركته في بناء هذه الأسوار (التي اشتملت على «طمر المستنقعات بكميات ضخمة من الأنقاض والأحجار الثقيلة» على نفقته الخاصة) لتزيد إلا قليلاً على محاولة يائسة من جانب سياسي «يحاول جاهداً تفادي الإقصاء سياسياً» (49). وقد جرى طرده اجتماعياً من أثينا في عام 461 قبل الميلاد.

31. Plato *Gorgas* 455d–e.. تسمح لنا مصادرنا المكتوبة فقط أن نعيد تاريخ هذا السور للفترة 452–431 قبل الميلاد Conwell (64–78). وتشير تخمينات إلى أن بناءه حصل نحو 443–442 قبل الميلاد.

32. (Conwell, *Connecting a City to the Sea*, 60)، يذكر كونويل: «في ضوء الغرض المحدد لها، فقد عدت "الأسوار الطويلة" دون تردد مشروعاً تقليدياً وثورياً في الوقت عينه. فهي، من جهة، وبرغم أبعادها وأحجامها المثيرة للذهول، قد ضمنت أمن الواجهة البحرية للمدينة فقط، وهو ما جرت عليه العادة في مدن اليونان القديمة. ومن جهة أخرى، فمع أن الكثير من التحصينات كانت محض حواجز للدفاع الكامن السلبي يراد بها حماية المناطق الحضرية من أعمال الغزو، فإن "الأسوار الطويلة" كان لها دور أكثر طموحاً. فهي إذ بنيت لحماية الطريق التي تصل أثينا بسفنها في البحر، فهي تمثل هياكل بنيت على اليابسة أصلاً لتحقيق أهداف بحرية قطعاً».

33. Donald Kagan, *The Peloponnesian War* (New York: Viking, 2003), 51. وانظر أيضاً الفصل الثاني من هذا الكتاب الذي يحدد فيه الكاتب أهداف السياسة الخارجية لأثينا. وكانت أسوار أثينا قد مهدت الطريق لتطبيق استراتيجية بحرية صممت بقصد تحقيق تلك الأهداف.

34. Kagan, *The Peloponnesian War*, 52–54. يذكر كاجان في ص52: «أن أثينا اعتبرت أن هذه الخطة مناسبة لها أكثر من الخطة التقليدية القائمة على المواجهة بين كتائب قوات المشاة، ولكنها تحمل معها عيوباً ونقائص جدية. وقد تسبب الاعتماد عليها في إخفاق استراتيجية الردع الدبلوماسي التي تبناها بيركليس... فقد كان على الأثينيين، على سبيل المثال، تحمل ما صارت تكيله لهم قوات العدو من إهانات واتهامات بالجبن بسبب أسوار مدينتهم. وأمر كهذا يعد خرقاً لمجمل ما تراكم في الثقافة الإغريقية من تقاليد وأعراق، وأهمها تقاليد البطولة التي تضع الشجاعة في الحرب على رأس قائمة الفضائل والقيم الإغريقية. أضف إلى ذلك أن الأغلبية العظمى من الأثينيين تقطن في المناطق الريفية؛

ما يعني أن عليهم مراقبة ما يحدث بشكل سلبي وهم في حماية أسوار مدينتهم، بينما يقوم العدو بتدمير محاصيلهم وأشجارهم وكرومهم، ونهب منازلهم وحرقها. وما من إغريقي، أتيحت له فرصة مقاومة العدو والتصدي له، كان سيرضيه أن يفعل ذلك. وحتى قبل عقد من الزمن، أو أكثر قليلاً، كان الأثينيون سيهبون لقتال العدو، بدلاً من السماح بحدوث دمار كهذا».

35. جرى أيضاً بناء "الأسوار الطويلة" قبل الحرب، في مواقع أهمها ميغارا Megara، وكورينث إبّان خضوعها للحكم الأوليغاركي.

36. Thucydides 5.82.1–2.

37. Xenophon 2.1.17–32; Diodorus 13.104.8–106.8. في معركة أيجوسبوتامي Aegospotami، تمكن الإسبارطيون المنتصرون، بقيادة ليساندر Lysander وأيتونيكوس Eteonikos، من تدمير أو أسر 170 سفينة حربية تعود لأثينا من أصل 180 سفينة، وإعدام ما قد يصل إلى 3500 أسير أثيني. انظر:

Barry S. Strauss, "Aegospotami Reexamined," *AJP* 104 (1983): 24–35, esp. 32–34.

ويصف دونالد كاجان محنة الأثينيين قائلاً إن «موارد أثينا قد استنزفت تماماً؛ ولم يعد بإمكان الأثينيين بناء أسطول مرة أخرى ليحل بديلاً من ذلك الذي خسروه في أيجوسبوتامي. وأثينا قد خسرت الحرب، ولم يتبق سوى سؤالين حول مدى قدرتها على الصمود قبل الاستسلام، وطبيعة الشروط التي يمكن أن تصب في صالحها». انظر:

(*The Fall of the Athenian Empire* [Ithaca, NY: Cornell University Press, 1987], 393).

38. انظر: Xenophon 2.2.3, 10. جميع الإشارات إلى زينوفون، ما لم يُذكر خلاف ذلك، مستقاة من *Hellenica*. والترجمة المستخدمة لهذه الإشارات تعود إلى:

Rex Warner, *A History of My Times* (Harmondsworth, UK: Penguin, 1966).

39. Xenophon 2.2.11.

40. Xenophon 2.2.15. ينبه زينوفون إلى أن مقترحاً إسبارطياً أولياً (ليس واضحاً منشؤه وتاريخه) كان قد عاد به السفير الأثيني أركستراتوس Archestratus يشترط على الأثينيين هدم "الأسوار الطويلة"، قد جرى رفضه بغضب حاد في المجلس الأثيني العام (المعروف باسم "إيكليسيا" Ecclesia)، فأمر هذا المجلس بإيداع السفير السجن، وأقرّ قانوناً يحظر بموجبه ذكر هذا الشرط.

41. انظر:

Xenophon 2.2.19–20; Diodorus 13.107.4, 14.3.2; Plutarch *Lysander* 14.4; Andocides 3.11–12, 39; Lysias 13.14. *Athenaion Politeia* states (34.3):

خلافاً لرواية زينوفون، يذكر أرسطو في كتابه الدستور الأثيني *Athenaion Politeia*: أن «شروط السلام قد قضت بأن يتم حكم الأثينيين وفقاً لدستور أسلافهم. وعلى هذا الأساس، فقد سعى الديمقراطيون للحفاظ على الديمقراطية، في حين أراد النبلاء (الذين ينتمون إلى "النوادي" السياسية) والمنفيون (الذين عادوا إثر إحلال السلام) نظاماً أوليغاركياً... فوقف ليساندر إلى جانب الأوليغاركيين، واستطاع فرض آرائه على عموم أبناء أثينا وإجبارهم على التصويت لصالح تسليم مقاليد السلطة لنظام أوليغاركي بناء على مقترح من دراكونتيديس [أحد أعضاء حكومة الطغاة الثلاثون] من أدفينا Aphidna». الترجمة تعود إلى:

J. M. Moore, *Aristotle and Xenophon on Democracy and Oligarchy* (Berkeley and Los Angeles: University of California Press, 1975).

والترجمة تتسق مع المرجع:

Athenaion Politeia: Diodorus 14.3.2–3 and Justine 5.8.5.

ويعترض الأثينيون على مصطلح "دستور الأسلاف"، فيما تسبب تفسيره في تحريض دعاة الديمقراطية لمواجهة الموالين للنظام الأليغاركي. وهنا يؤدي ليساندر (الذي كان الإسبارطيون قد أرسلوا في طلبه للعودة إلى أثينا من شرقي إيجة) دوراً نافعاً في حسم هذا النزاع، وإن مؤقتاً، بتعيين ثيرامينيس و"الطغاة" [الثلاثون].

للاطلاع على دراسة ممتازة بشأن سياسات ليساندر Lysander، انظر:

Charles D. Hamilton, "Spartan Politics and Policy, 405–401 BC," *AJP* 91 (1970): 294–314.

42. Xenophon 2.2.23.

43. انظر:

J.K. Davies, (*Democracy and Classical Greece*, 2nd ed. [Cambridge, MA: Harvard University Press, 1993], 129).

يعترض ديفز على الرأي القائل بأن نهاية الحرب البيلوبونيزية تمثل لحظة محورية حاسمة على صعيد استقرار السياسات البينية التي اتبعتها الدويلات الإغريقية: «تشكل المرحلتان الأولى والثانية (وأعني بهما الفترتان 431–421، و421–413) حقبة واحدة؛ ولكن هناك فترة توقف حقيقي خلال الأعوام 413–411، انحسر خلالها مد التفوق الأثيني، ودخل الفرس الحرب، وتحولت إسبارطة إلى قوة بحرية. وقد حافظت التركيبة الجديدة للسياسات الدولية بعد ذلك على استقرارها لجيل كامل حتى سبعينيات القرن الرابع. وبالمقارنة، فإن نهاية الحرب فعلياً في عامي 404 و386 لا تبقى لها أهمية

تذكر». انظر أيضاً ص 147 حيث يذكر ديفز: «احتفظت السياسات الإغريقية بعد عام 413 بتركيبتها كما هي جيلاً بكامله». وفي تقديري أن التأويل الذي خرج به ديفز قد تخلف عن الإقرار بأن الفترة الممتدة بين نهاية الحرب البيلوبونيزية حتى إبرام اتفاقية "سلام الملك" (والمعاهدات التي وضعت نهاية لهذه الصراعات) تمثل تحول بنية العلاقات البينية عن نظام أحادي القطب لتبني آخر متعدد الأقطاب. وأجد، إضافة لذلك، أن من الصعب نكران أهمية المعاهدة التي أنهت الحرب في عام 404 (وأنهت معها الإمبراطورية الأثينية رسمياً)، أو المعاهدة التي أقرت في الفترة 387-386، إيذاناً بارتقاء هيمنة إسبارطة إلى أقصى مستوياتها. ويقول كاجان: «على الرغم من حصيلتها التي بدت حاسمة في ظاهرها، فإن الحرب لم تؤسس ميزاناً ثابتاً للقوى يحل بديلاً من ذلك الميزان المضطرب الذي نشأ بعد أن وضعت الحرب الفارسية أوزارها. وهذه الحرب البيلوبونيزية الكبرى لم تكن برغم كل تكلفتها من ذلك النوع من الحروب الذي يقيم نظاماً جديداً يتيح إحلال سلام شامل يدوم أجيالاً من الزمن، أو أكثر. وكانت معاهدة السلام لعام 404 قد عكست تعاظم نفوذ إسبارطة بشكل مؤقت وعلى نحو يتخطى كثيراً حدود قوتها الطبيعية». انظر: Kagan, *The Fall of the Athenian Empire*, 416.

44. مع أن تاريخ بقايا التحصينات على امتداد حدود أتيكا يعود أساساً إلى النصف الأول من القرن الرابع قبل الميلاد، فمن المرجح أن بعض الهياكل الدفاعية كان قد بُني مبكراً خلال القرن الذي سبقه.

45. انظر أطروحتي المقدمة إلى جامعة يال عام 2001، بعنوان:

"The Struggle for Hegemony: Greek Interstate Politics and Foreign Policy, 404–371 BC," and Arthur Eckstein, *Mediterranean Anarchy, Interstate War, and the Rise of Rome* (Berkeley and Los Angeles: University of California Press, 2007), chap. 2.

46. الافتراض السائد تقليدياً هو أن أثينا كان مصيرها الدمار التام بعد الحرب. انظر، على سبيل المثال:

(H. Bengston, Griechische Geschichte [Munich: Beck, 1960], 259, Claude Mossé, *Athens in Decline: 404–86 B.C.,* trans. Jean Stewart [London: Routledge and Kegan Paul, 1973], 12–17).

وثمة دراسة أحدث عهداً تدعم وجهة النظر القائلة بأن استعادة أثينا لعافيتها، اقتصادياً وسياسياً على حد سواء، تمت في وقت أسرع مما كان يعتقد سابقاً. انظر، مثلاً:

(G.E.M. de Ste. Croix, *The Class Struggle in the Ancient World from the Archaic Age to the Arab Conquests* [London: Duckworth, 1981], 291–92).

ويقدم باري شتراوس Barry S. Strauss تحليلاً تفصيلياً للأوضاع الاجتماعية والاقتصادية التي نشأت في أعقاب الحرب البيلوبونيزية. ومع ذلك، فإن أثينا، في عام 395، كانت في وضع أضعف بكثير من ذلك الذي واجهته إمبراطوريتها خلال القرن الخامس.

47. للوقوف على مجموعة الدلائل والشواهد المتعلقة بنشاطات كونون (للفترة 397–396 و394–393)، انظر: Harding 12, 22–26. في النصف الثاني من القرن الرابع، اعتبر الأثينيون أن الانتصارات العسكرية التي حققها كونون على إسبارطة انتصارات يونانية، على الرغم من أنه مواطن أثيني انخرط في خدمة بلاد فارس. انظر، على سبيل المثال:

Dinarchus, 1.14 [dated 323], trans. Ian Worthington, *A Historical Commentary on Dinarchus: Rhetoric and Conspiracy in Later Fourth-Century Athens* (Ann Arbor: University of Michigan Press, 1992), 87:

«أنتم، أيها الأثينيون، لم تأخذوا في الاعتبار نشاطات تيموثيوس Timotheus الذي أبحر نحو البيلوبونيز وهزم الإسبارطيين في معركة بحرية قبالة كورسيرا. وهو نجل كونون الذي حرر الإغريق، واستولى على ساموس Samos، وميثوني Methone، وبيدنا Pydna، وبوتيديا Potidaea، وعشرين مدينة أخرى أيضاً. ولم تضعوا في حسبانكم أعماله هذه، سواء عند محاكمته، أو حيال اليمين الذي ردده كل منكم تأكيداً للأصوات التي أدليتم بها؛ ولكنكم غرمتموه مئة طالين لا لشيء سوى لأن أرستيفون Aristophon قال إنه أخذ أموالاً من خيوس ورودس». انظر أيضاً: Dinarchus, 3.17.

48. Xenophon 4.8.7–11; Diodorus 14.84.4ff.

49. Xenophon 4.8.9–10.

50. انظر:

Isocrates 4.154, 5.63–64, 7.12, 65, 9.52f; Demosthenes 20.68; Dinarchus 1.14, 75, 3.17; Diodorus 14.39.3; Nepos *Conon* 2.1, 5.1f; Justin 6.3.4.

للاطلاع على معالجة جيدة لمسألة الإمبريالية الأثينية خلال الحرب الكورينثية، انظر:

Robin Seager's "Thrasybulus, Conon and Athenian Imperialism, 396–386 B.C.," *JHS* 87 (1967): 95–115.

يوجز سيجر نتائج البحث التي توصل إليها كما يأتي (ص 115): «وهكذا، يبدو أن العامل الحاسم في السياسة الأثينية ما بين استعادة الديمقراطية ومعاهدة أنتلسداس Antalcidas للسلام، هو رفض أغلبية الأثينيين تقبل أن الإمبراطورية قد ضاعت عليهم، ورغبتهم في العمل على إعادة بنائها من جديد حالما يحين الوقت المناسب، بل وحتى قبل ذلك... ولقد كان هذا التوق الشديد من جانب الشعب هو العامل الذي حدد تحركات أثينا وتصرفاتها طوال تلك الفترة، وليست هي الأفكار ووجهات النظر المتباينة التي تبناها الساسة المتمرسون فرادى، أو أعضاء الجماعات السياسية ذات الصلة، والذين لم تزد جهودهم عن محاولات تستهدف إما كبح تطلعات الجماهير، أو تشجيعها، طبقاً لما تمليه عليهم إملاءات الحس الوطني، أو المنافع الشخصية».

وكان سيجر على صواب حين قلل إلى الحد الأدنى من جدوى التأثيرات والضغوط التي مارسها السياسيون أثناء النقاشات التي دارت بشأن سياسة دويلة أثينا الخارجية. وخلال هذه السنوات، مثلت مسألة الإمبراطورية هاجساً عاماً شغل بال الأثينيين قاطبة، في وقت كانت فيه القدرة على الارتقاء بأثينا من جديد إلى مكانة أعظم تكمن إلى حد كبير في أيدي لاعبين خارجيين يمارسون نفوذهم في ميدان العلاقات "البينية" القائمة بين المدن والدويلات الإغريقية.

51. كان الأثينيون، مع ذلك، ما يزالون يحاذرون الدخول في حرب مع إسبارطة. وفي وصفٍ لما عرف بـ "قضية دامانيتوس Damainetos" عام 396، يقال إن الخوف من إسبارطة كان وراء توحيد صفوف شرائح المجتمع الأثيني التي تشيع الفرقة بينها عادة متى ما تعلق الأمر بمواضيع السياسة الخارجية، انظر:

John Wickersham and Gerald Verbrugghe, *Greek Historical Documents: The Fourth Century B.C.: Hellenic Oxyrhynchia* [Toronto: Hakkert, 1973], §6:

«استقل دامانيتوس باخرة أبحر بها بعيداً عن الأرصفة متوجهاً نحو كونون. فساد إثر ذلك هرج ومرج، وثارت حفيظة السياسيين البارزين من أفراد الطبقة العليا، متهمين المجلس بدفع المدينة دفعاً إلى حرب مع إسبارطة. ولشعورهم بالخوف، فقد دعا أعضاء المجلس إلى عقد اجتماع للمجلس الأثيني العام... ومع أن وجهاء أثينا وأثرياءها فضلوا ألا يزيدوا الوضع سوءاً كيفما تكن الحال، فإن السواد الأعظم من أبناء المدينة كانوا في ذلك الوقت أشد خوفاً من أن يتبعوا هذه الدعوة. فطلبوا إلى ميلون Milon، حاكم أيجينا Aigina، إنزال العقاب بدامانيتوس، نظراً إلى أنه كان يتصرف دون سلطة أو تخويل. وكانت عامة الناس فيما سبق تمضي وقتها كله في إثارة المتاعب واعتراض سبيل الإسبارطيين ومضايقتهم بشتى السبل».

52. انظر: IG II2 1656–64. وانظر كذلك التعليق على نقوش مختارة من ميناء بيريوس Piraeus تعود إلى هذه الفترة، الذي أبداه:

Franz Georg Maier, *Griechische Mauerbauinschriften*, vol. 1 (Heidelberg: Quelle and Meyer, 1959), 15–36. Xenophon 4.8.10. Conwell (*Connecting a City to the Sea*, 109–22, 130–31).

ويشير كونويل Conwell في المرجع الأخير إلى أن فترة التشييد هذه تعود إلى السنوات 390–395 قبل الميلاد.

53. للاطلاع على تعريف وشرح للقوة الناعمة، انظر:

Joseph S. Nye Jr., *The Paradox of American Power: Why the World's Only Superpower Can't Go It Alone* (Oxford: Oxford University Press, 2002), and idem, *Soft Power: The Means to Success in World Politics* (New York: Perseus, 2005).

54. انظر:

Andocides, 3.37, trans. Douglas M. MacDowell, *Antiphon and Andocides* (Austin: University of Texas Press, 1998), 157:

«كنا، أيها الأثينيون، في وقت من الأوقات دون أسوار أو سفن، وما بدأت نجاحاتنا تتحقق إلا عندما صارتا بحوزتنا. لذا، فإن أردتم بلوغ النجاح مجدداً الآن، فهما ما ينبغي عليكم امتلاكه. واستناداً إلى هذا الأساس، تمكن آباؤنا من الارتقاء بأثينا إلى منزلة قوية لم تحظ بها أي مدينة أخرى على الإطلاق».
انظر أيضاً:

R. Seager, "Thrasybulus, Conon and Athenian Imperialism 396–386 B.C.," *JHS* 87 (1967): 95–115.

55. قبل التصديق على معاهدة "سلام الملك"، كانت أثينا قد كرّمت سكان جزيرة كلازوميناي لما أبدوه من حسن نية تجاهها.

IG II[2] 28 (Tod 114; Harding 26, 40–41).

56. انظر:

R. J. Seager and C. J. Tuplin ("The Freedom of the Greeks in Asia: On the Origins of a Concept and the Creation of a Slogan," *JHS* 100 [1980]: 145f.).

ويرى المؤلفان أن هذا البند في معاهدة "سلام الملك" ينطوي على أهمية كبرى بالنسبة إلى تكريس مفهوم اليونانيين في آسيا الصغرى كمجتمع واحد، وقيمة لاحقة كشعار دعائي.

57. انظر:

Alfonso Moreno, *Feeding the Democracy: The Athenian Grain Supply in the Fifth and Fourth Centuries BC* (Oxford: Oxford University Press, 2007).

58. (Simon Hornblower, *OCD*[3], s.v. "autonomy" (224):

في مجال الشؤون الداخلية، فإن مفهوم "الاستقلال الذاتي" autonomy يقصد به تلك الوضعية التي يكون فيها المجتمع المعني مسؤولاً عن قوانينه هو؛ وهو بهذا المعنى مناقض للطغيان والاستبداد (Hdt. 1.96.1). وهو يعني أيضاً حق تقرير المصير، في حين أن الحرية (*eleutheria*) تعني غياب القيود الخارجية. غير أن مصطلح *autonomia* يستخدم أيضاً بشكل منتظم في سياق العلاقات البينية، للدلالة على استقلال محدود تمنحه قوة كبرى لأخرى أضعف منها.

59. التسمية الدقيقة لاتفاقية "سلام الملك" لما تزل غير معروفة، انظر:

For an admittedly speculative reconstruction, see: G. L. Cawkwell, "The King's Peace," *CQ* 31 (1981): 69–83. See also: Robert K. Sinclair, "The King's Peace and the Employment of Military and Naval Forces 387–378," *Chiron* 8 (1978): 29–37.

واختصاراً، يقول سنكلير (ص 37): «مع أن اتفاق "سلام الملك" يمكن أن ينتقد بسبب غموضه وقصور صياغته، فإن هذا الغموض والقصور يرجعان، وإن جزئياً، إلى حداثة لغة المعاهدات وغرابتها. بيد أنها يمكن أن ترتبط تحديداً بأهداف الفرس والإسبارطيين الذين كان بإمكانهم استغلال تسوية كهذه لم يمكن صياغتها بشكل دقيق للغاية. أما سائر الدويلات الإغريقية، فقد كانت مدركة لحقائق الأوضاع وطبيعتها، ومن بينها بشكل خاص قدرة إسبارطة على بسط هيمنتها؛ فصار يمكن من ثمّ تفسير ردات أفعالها خلال العقد اللاحق من حيث إدراكها هذا، ومن دون الرجوع إلى أحكام وشروط محددة في هذه الاتفاق».

60. Xenophon 5.1.36.

61. انظر:

Robin Seager, "The King's Peace and the Balance of Power in Greece, 386–362 B.C.," *Athenaeum* 52 (1974): 36–63, esp. 38–39:

لم يوكل الأمر الملكي لإسبارطة، أو لأي مدينة أخرى غيرها، الاضطلاع بدور "راعية" السلام [n. 9, Xenophon *Hellenica* 5.1.31].. وبدا أن الملك نفسه كان هو الضامن الوحيد له، وهو من نصّب نفسه بنفسه قائداً لأولئك الذين يمكن أن يقاتلوا من أجل إحلاله. [n. 10, the emphasis is clearly on the period before the peace was actually made; see Hampl, *Staatsverträge*, 11].. ومع ذلك، فقد أبدت فارس رغبتها في تولي إسبارطة مهمة رعاية المعاهدة، نظراً إلى أن متطلبات للسلام تلك، التي برزت إلى الواجهة في الحال واقتضت وجود "ضامن" يشرف على تطبيقها، كانت فائقة الأهمية بالنسبة إلى إسبارطة، وإن هي لم تكن بشكل مباشر تعني شيئاً بالنسبة للملك، الذي لم يعد هناك – من ثم – سبب يدعوه للتدخل في هذه المسألة. [see S. Accame, *La lega ateniese del secolo IV* a.C., 6]. وكانت إسبارطة قد حققت نجاحاً كبيراً في استغلال شروط السلام وأحكامه حتى قبل إبرام الاتفاق فعلياً؛ وإن كانت استخداماتها له قد ارتبطت كلياً بأحداث الماضي. فكان هدفها وضع نهاية لعملية إعادة الحياة للنزعة الإمبراطورية الأثينية، وللهيمنة التي فرضتها كل من طيبة وأرغوس على بؤوتيا وكورينث (على التوالي)؛ وهو الذي لم تكن قادرة على فعل أي شيء حياله حتى خلال الحرب الكورينثية نفسها. وبهذا المعنى، يصح يقيناً، وكما جاء على لسان زينوفون، القول إن إسبارطة حتى إن كانت قد أشعلت فتيل الحرب، فهي من فاز بالسلام. [n. 16, Xenophon *Hellenica* 5.1.36]

62. انظر:

Ryder, *Koine Eirene: General Peace and Local Independence in Ancient Greece* (Oxford: Oxford University Press for the University of Hull, 1965).

63. لعل الاستثناء الأشد وضوحاً الذي جاء به اتفاق "سلام الملك" هو ذلك المتعلق بمسألة الحكم الذاتي. انظر: (J.A.O. Larsen's review of Koine Eirene (*Gnomon* 38 [1966]: 256–60

«على الرغم من أن رايدر قد أشار إلى مصير المدن الإغريقية في آسيا، وكذلك ليمنوس وإمبروس وسكايروس، فإنه - مع ذلك - يقول "إنها المرة الأولى التي يتم فيها الاعتراف بالحكم الذاتي لجميع المدن في إطار معاهدة أقرتها الدويلات الرئيسية والملك نفسه" (41). والواقع هو أن الاعتراف شمل جميع الدويلات **باستثناء تلك التي أرادت قوى كبرى معينة إبقاءها تحت التبعية**» [الخط العريض من الكاتب]. ويذكر لارسين لاحقاً أن «كل من يسعى لإضفاء المثالية على الحركة، ينبغي أن يحذر من أن المعاهدات تشتمل في بعض الأحيان على فقرة تحد من تطبيق مبدأ الحرية الذي تبشر به هذه المعاهدة أو تلك. ويتجلى هذا بأوضح صوره في اتفاق "سلام الملك" الذي فرض الاستثناءات حتى قبل الإعلان عن منح الحكم الذاتي لمدن أخرى» (Xen. Hell. 5, 1, 31).

64. انظر نقد رايدر Ryder في:

W. G. Forrest's review of *Koine Eirene*, *CR* 19/83 (1969): 211–12:

65. الأعمال الأساسية التي تناولت الاتحاد الأثيني الثاني، هي:

F. W. Marshall, *The Second Athenian Confederacy* (Cambridge: Cambridge University Press, 1905); S. Accame, *La lege atheniese del secolo IV a.C.* (Rome: Signorelli, 1940); and Jack Cargill, *The Second Athenian League: Empire or Free Alliance?* (Berkeley and Los Angeles: University of California Press, 1981).

يوجد جدل كثير بشأن التسلسل الزمني النسبي لتأسيس الاتحاد الأثيني الثاني، والغارة التي شنها سفودرياس. والانطباع العام – وهو نفسه المعتمد في هذا الكتاب – يقوم على أن أثينا تصدت لغارة سفودرياس من خلال تكوين الاتحاد الأثيني الثاني، وهذا الرأي تتبناه أيضاً المصادر الآتية:

Ryder, Koine *Eirene*, 53–55; D. G. Rice, "Xenophon, Diodorus and the Year 379–378 B.C.," YCS 24 (1975): 112–27; Robert K. Sinclair, "The King's Peace and the Employment of Military and Naval Forces 387–378," *Chiron* 8 (1978): 52–54; John Buckler, *The Theban Hegemony, 371–362 B.C.* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1980), 17; Charles D. Hamilton, *Agesilaus and the Failure of Spartan Hegemony* (Ithaca, NY: Cornell University Press, 1991), 167–74, esp. 173; Ernst Badian, "The Ghost of Empire," 89–90, nn. 33–34. Contra: G. L. Cawkwell, "The Foundation of the Second Athenian Confederacy," *CQ* 23 (1973): 47–60; Raphael Sealey, *A History of the Greek City-States, ca. 700–338 B.C.* (Berkeley and Los Angeles: University of California Press, 1976), 410–412; Cargill, *Second Athenian Empire*; Robert Morstein Kalet-Marx, "Athens, Thebes, and the Foundation of the Second Athenian League," *CA* 4 (1985): 127–51; Robin Seager, *CAH*[2] 6.166f.

66. انظر:

Diodorus 15.28.2; see Plutarch *Pelopidas* 14.1. See *IG* II[2] 43 (Tod 123, 59–70; Harding 35, 48–52; SV 2.257, 207–211).

وفي المصدر الأخير أعيد بيان سبب تكوين الاتحاد الأثيني الثاني (ll. 7–12): «لقد حاجج أرسطو: من أجل مصلحة الأثينيين وحلفائهم كيما يسمح اللاسيديميون للهيلينيين بالعيش بحرية واستقلال في سلام وأمن على أرضهم».

67. اقترح كاليستراتوس من أفيدنا إحلال مصطلح "العطية" محل "الجزية"، انظر:

Harpokration, *Lexicon*, s.v. "syntaxis" (Theopompus, *FGrHist* 115F98).

68. فرض هذا على مدينة طيبة الانضمام إلى تحالف تختلف مصالحه الاستراتيجية كثيراً عن مصالحها هي. ويرى بوكلير Buckler أن حاجتها لتقوية قدراتها أمام إسبارطة كانت لها الأولوية على سواها من جميع مخاوف طيبة الأخرى. وكان يكفي لأثينا وطيبة أن يكون لهما عدو مشترك واحد. وكتب قائلاً: «ومع ذلك، فقد كان الدعم العسكري الذي قدمته أثينا حيوياً بالنسبة إلى طيبة إلى حد أن انخراطها في نشاطات التحالف قد اعتبر ثمناً ضئيلاً تدفعه في مقابل هذا الدعم... وعلى أي حال، فما إن تحصل أي من المدينتين على قدر معين من الأمن، فإن أهدافهما ومشاغلهما المتضاربة يمكن أن تتسبب في إحداث الفرقة بينهما». انظر:

(*The Theban Hegemony, 371–362 B.C.* [Cambridge, MA: Harvard University Press, 1980], 17–18).

69. للاطلاع على بحث تفصيلي لتحصينات منطقة أتيكا الحدودية، انظر:

J.R. McCredie, *Fortified Military Camps in Attica, Hesperia*, Suppl. 11 (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1966), Josiah Ober, *Fortress Attica: Defense of the Athenian Land Frontier, 404–322 B.C.* (Leiden: Brill, 1982), and Mark H. Munn, *The Defense of Attica: The Dema Wall and the Boiotian War of 378–375 B.C.* (Berkeley and Los Angeles: University of California Press, 1993).

ومن المرجح أن الموارد التي وظفتها أثينا في هذه التحصينات قد تجاوزت الحسابات الاقتصادية. وفي استعراض فيكتور هانسون (رسالة إلكترونية موجهة للكاتب قبل النشر) لكتاب فان تويل المعنون:

Jurgen Brauer and Hubert Van Tuyll, *Castles, Battles, and Bombs: How Economics Explains Military History* (Chicago: University of Chicago Press, 2008).

يتساءل هانسون: «هل استثمر الأثينيون مواردهم في بناء الحصون على حدود أتيكا في القرن الرابع قبل الميلاد لأنها كانت الوسيلة المنطقية الأفضل من الناحية الاقتصادية لحماية أراضي أثينا من استخدام قوات المشاة من حملة الرماح، أو سلاح الفرسان، أو المناوشات بالأسلحة الخفيفة، أو

القوات البحرية؟ أم هل كانوا، كطرف مندحر في الحرب البيلوبونيزية، التي طال أمدها 27 عاماً، قد صدموا بالغزو البري إلى الحد الذي بدت عنده التحصينات الدفاعية الوسيلة الأفضل التي تطمئنهم إلى إمكانية صد أي جيوش أخرى تتقدم صوبهم انطلاقاً من إقليمي بؤوتيا وبيلوبونيز؟».

70. من أجل معالجة المشكلات المتعلقة بتواريخ الأسوار عموماً، انظر العمل المفصل الآتي:

Robert Lorentz Scranton, *Greek Walls* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1941).

71. محاولة مون Munn لتقدير تاريخ دقيق فيما يخص سور ديما Dema Wall، وهو ربيع عام 378 قبل الميلاد، الذي بناه الجنرال الأثيني كابرياس، هي حالة استثنائية. وللاطلاع على مراجعة لمحاولة مون، انظر:

Josiah Ober in *AJA* 98 (1994): 374–75 and by Victor Davis Hanson in *AHR* 99 (1994): 1662–63.

72. انظر:

Josiah Ober, *Fortress Attica: Defense of the Athenian Land Frontier, 404–322 B.C.* (Leiden: Brill, 1982), 64–65:

«تمثلت المكونات الأساسية للعقيدة الدفاعية، التي شاعت على نحو متزايد في أثينا القرن الرابع، في: رفض استراتيجية بيركليس للدفاع عن المدينة، والخوف من عمليات الغزو، والتصميم على حماية أتيكا، والامتناع عن إرسال قوات يتم تشكيلها من مواطني المدينة إلى ميادين حرب نائية. وكانت هذه العقلية هي التي حددت في المقام الأول مسار السياسة الدفاعية التي تبنتها أثينا في الفترة ما بين الحرب البيلوبونيزية وما عرف بالحروب اللومية Lamian Wars». انظر أيضاً الفصل الرابع للكاتب نفسه بعنوان: "The Theory of Defense," 69–86.؛ وانظر كذلك:

P. Harding, "Athenian Defensive Strategy in the Fourth Century," *Phoenix* 42 (1988): 61– 71; Ober's response, *Phoenix* 43 (1989): 294–301; and Harding's response to Ober, *Phoenix* 44 (1990): 377–80.

ويعترض أم. مون M. Munn أيضاً على أوبر، قائلاً (ص 25): «في ضوء الشكوك التي أحاطت بالنظام الافتراضي النظري وصعوبة تصديقه، والتي اقترنت بالصمت من جانب الخطباء، وزينوفون، وأفلاطون، وجميع المراجع والمصادر الأخرى، فلابد من أن نخلص إلى أن أوبر ومن سبقه قد استنبطوا نظاماً رائعاً ليس له حجج مضادة تفنده. إن "النظام الدفاعي الوقائي المناعي" الذي ابتدعه أوبر لا وجود له إلا بشكل وهم مختلق عصري الطابع». انظر أيضاً مراجعته لكتاب أوبر أعلاه: في: *AJA* 90 (1986): 363-65.. ومن جانبه، يذكر هانسون (ص 25):

«إن كتاب أوبر *Fortress Attica* يمثل دليلاً مفهرساً لمنظومة الحصون والأبراج التي أقيمت على حدود أتيكا في القرن الرابع، كجزء من استراتيجية أكثر مرونة للرد والتصدي تحل بديلاً من سياسة الاعتماد قصراً على قوات المشاة من حملة الرماح. ومع أن مون في كتابه *The Defense of Attica* يشكك في بعض التفسيرات التي خرج بها أوبر لهذه الحصون، فإن كتابه الفرعي المفيد يمكن حقاً اعتباره عملاً متمماً أكثر مما هو تنقيحي، ويؤكد بالطريقة نفسها على تركيز الإغريق جل اهتمامهم على الوسائل الدفاعية الحدودية خلال القرن الرابع قبل الميلاد، والتي غالباً ما يفضلون فيها أسلوب معارك المشاة حملة الرماح المفتوحة». انظر:

Victor Davis Hanson, "The Status of Ancient Military History: Traditional Work, Recent Research, and On-going Controversies," *The Journal of Military History* 63 (1999).

73. انظر إيفون جارلان Y. Garlan ‏(*CAH*^{2} 6.678–92) التي تنوه بتزايد استخدام الجنود المرتزقة، وبحرفية العمليات العسكرية (ص 679): «على الرغم من أن المحصلة النهائية كانت في أغلب الأحيان ما تزال تحدد عن طريق المعارك الضارية في المناطق الريفية المفتوحة، فإنها منذ الآن فصاعداً باتت تشكل عنصراً واحداً فقط بين عناصر استراتيجية متميزة ومتطورة وأكثر مرونة مما كانت عليه في الماضي، وتستهدف فرض السيطرة لا على أراضٍ نافعة حسب، بل أيضاً على المدن المسوّرة والمناطق الحدودية المحصّنة تحصيناً جيداً. وبناء عليه، فقد نشأت تكتيكات أكثر تعقيداً وتنوعاً، تتطلب استخداماً مزدوجاً للقوات المحاربة (التي يتم توحيدها وفقاً لنموذج "الكتلة البشرية")، تأسيساً على المفهوم المهني للزعامة والقوة العسكرية».

74. انظر:

Aristotle, *Politics*, 1330b–1331, trans. and ed. Ernest Barker, in *The Politics of Aristotle* (Oxford: Clarendon Press, 1946).

75. انظر:

David Whitehead, *Aineias the Tactician: How to Survive Under Siege. A Historical Commentary, with Translation and Introduction*, 2nd ed. (London: Bristol Classical Press, 2001). See his remarks in the Introduction, 25–33.

76. انظر:

E. W. Marsden, *Greek and Roman Artillery: Historical Development* (Oxford Clarendon Press, 1969); A. W. McNicoll, *Hellenistic Fortifications from the Aegean to the Euphrates* (Oxford: Clarendon Press, 1997).

77. انظر:

Edward Wong and David S. Cloud, "U.S. Erects Baghdad Wall to Keep Sect Apart," *New York Times*, April 21, 2007.

78. انظر:

Alissa J. Rubin, Stephen Farrell, and Erica Goode, "As Fears Ease, Baghdad Sees Walls Tumble," *New York Times*, October 9, 2008.

79. ينبغي التذكير هنا بأن صدّام حسين كان في حرب الخليج الأولى قد وفر الحماية لقواته في الميدان من خلال المخابئ الرملية الهائلة؛ واستخدم في حرب العراق الثانية (2003) قنوات ملئت بالنفط المحترق بهدف تغطية بغداد بالدخان. وفي حرب عام 1973، استخدمت قوات الكوماندوز المصرية خراطيم المياه لإسقاط التحصينات الرملية الشاهقة [المسماة جدار بارليف] التي أقامها الإسرائيليون لمنع أي هجوم يشن عبر قناة السويس. ومؤخراً، أعقب الغزو الروسي الأخير لجورجيا واحتلالها تشييد أسوار تحيط بالأراضي التي جرى ضمها في أوسيتيا.

الفصل الرابع

1. انظر:

Alfredo Bonadeo, "Montaigne on War," *Journal of the History of Ideas* 46, no. 3 (July–September 1985): 421–22. Cicero *Tusculanae Disputationes* 1.2.4; Ephorus (in Diodorus 15.88.2–4).

لا بد من الإشارة هنا إلى أن الجنرال جورج باتون George Patton كان أيام الدراسة قد أبدى إعجابه بإيبامنونداس كأنموذج للتميز العسكري والأخلاقي: «لا ريب في أن إيبامنونداس كان الأفضل، وأحد أعظم الإغريقيين الذين ظهروا للوجود، وعلى قدر عظيم من العبقرية، والاستقامة، والوطنية. وبالنسبة للعصر الذي عاش فيه يكاد يكون إنساناً مثالياً». انظر فيكتور ديفز هانسون:

Victor Davis Hanson, *The Soul of Battle* (New York: Anchor Paperbacks, 2001), 283.

2. لا تتوافر حتى الآن أي سيرة لحياة إيبامنونداس باللغة الإنجليزية؛ وهو أمر مفهوم في ضوء ضياع كتاب بلوتارك المعنون *Epaminondas*، وإهمال إقليم بؤوتيا في مصادرنا، واعتمادنا في ما يتعلق بالتاريخ الإغريقي في القرن الرابع على كتابي زينوفون: *Hellenica* و*Agesilaus*، اللذين لا يرد ذكر إيبامنونداس فيهما إلا نادراً. وللوقوف على البيانات التي وثقت بشكل سليم، والتي تتفحص تقريباً جميع المعطيات القديمة المتناثرة المتعلقة بحياة إيبامنونداس، انظر:

M. Fortina, *Epaminonda* (Turin: Società Editrice Internazional, 1958); and H. Swoboda, s.v. "Epameinondas," in *Paulys Realencyclopädie der classischen Altertumswissenschaft: Neue Bearbeitung*, ed. A. Pauly, G. Wissowa, W. Kroll, K. Witte, K. Mittelhaus, and K. Ziegler, vol. 10 (Stuttgart: J. B. Metzler, 1894–1980), 2674–707.

3. للتعرف على جوهر مفهوم المساواة الذي شهدته مناطق بؤوتيا القديمة الريفية، والذي سبق تأسيس النظم الديمقراطية الأكثر تطرفاً خلال القرن الرابع على أيدي إيبامنونداس وبيلوبيداس Pelopidas، انظر:

Victor Hanson, *The Other Greeks* (Berkeley and Los Angeles: University of California Press, 1998), 207–10.

4. ثمة مؤلفات عدة تتناول مسألة تعاظم هيمنة مدينة طيبة في أعقاب انفصال بؤوتيا عن إسبارطة إثر تحالفهما الناجح ضد أثينا في الحرب البيلوبونيزية. انظر:

J. Buckler, *The Theban Hegemony* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1980), especially his summation at 220–27. See also D. M. Lewis, J. Boardman, S. Hornblower, and M. Ostwald, *The Cambridge Ancient History: The Fourth Century B.C.*, vol. 4 (Cambridge: Cambridge University Press, 1994), 187–208 (J. Roy).

ولا يجب أن يغيب عن الذهن أن طيبة كانت أثناء الحرب الفارسية قد تعهدت بالولاء لملك فارس العظيم، فقاتلت ضد الإغريق في معركة بلاتيا. وكانت الروايات الميثولوجية المروعة التي تعرض على المسرح الأثيني تقرن تقليدياً بمدينة طيبة، كما تشهد بذلك مشاهد نكاح المحارم، وتشويه الذات، وقتل الأخ أو الأخت، والانتحار، وتدنيس المقدسات، التي تنسب للموتى في "ثلاثية أوديب" Oedipus cycle.

5. حول أحداث الفترة ذاتها، انظر:

J. T. Hooker, *The Ancient Spartans* (London: Dent, 1980), 22–211.

مع أن طيبة كانت قد طالبت إسبارطة بمنح الحكم الذاتي لحليفاتها في إقليم بيلوبونيز، فإنها – أي طيبة – لم تعامل بالمثل مطالبة إسبارطة بالسماح لمدن إقليم بؤوتيا أن تستقل عن طيبة بناء على تبرير واهٍ مفاده أن هذه المدن باتت مدناً ديمقراطية، وهي من ثمّ مدن حرة، وأنها بحاجة إلى تضامن جماعي مع شقيقاتها من مدن الإقليم لتتمكن من الوقوف بوجه الأوليغاركيين والتحديات الخارجية الأخرى.

6. للوقوف على غزوات إسبارطة المتواصلة لإقليم بؤوتيا، ومحاولات الرد عليها، انظر:

M. Munn, *The Defense of Attica* (Berkeley and Los Angeles: University of California Press, 1993), 129–83, and especially Paul Cartledge, *Agesilaos and the Crisis of Sparta* (Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1987), 228–32.

7. للاطلاع على بحث دقيق لمعركة ليوكترا وعواقبها، انظر:

J. K. Anderson, *Military Theory and Practice in the Age of Xenophon* (Berkeley and Los Angeles: University of California Press, 1993), 193–202; C. Hamilton, *Agesilaus and the Failure of Spartan Hegemony* (Ithaca, NY: Cornell University Press, 1991), 211–14. J. Buckler, *Aegean Greece in the Fourth Century* (Leiden: Brill, 2003), 293,

n. 56; Victor Hanson, "Epameinondas, the Battle of Leuktra [371 BC], and the 'Revolution' in Greek Battle Tactics," *Classical Antiquity* 7 [1988]: 190–207).

لا يفهم باكلر أن أياً من تكتيكات الجنرال إيبامنونداس Epaminondas في معركة ليوكترا في حد ذاتها (الجمع بين الفروسية والمشاة، وتكوين قوة احتياطية مفترضة من الهوبليت hoplites، والتقدم المموه بحيث توضع أفضل الوحدات على الميسرة، أو استخدام التشكيل العميق phalanx)، لم يكن ينطوي على جديد، لا يتساوى مع وصف إيبامنونداس بأنه يفتقر إلى الدهاء العسكري من خلال قيامه باللجوء في ليوكترا إلى ابتكارات معروفة سابقاً.

8. للاطلاع على تفاصيل الغزو، انظر:

Buckler, *Theban Hegemony*, 71–90; Hanson, *Soul of Battle*, 72–94; and D. R. Shipley, *Plutarch's Life of Agesilaos: Response to Sources in the Presentation of Character* (Oxford: Clarendon Press, 1997), 336–49.

الروايات القديمة الرئيسية بشان غزو عامي 370–369 توجد في:

Xenophon *Hellenica* 6.5.25–32; *Agesilaos* 2.24; Plutarch *Agesilaos* 31–32; *Pelopidas* 24; Diodorus 15.62–65; and Pausanias 4.26–7, 9.13–15. See Hamilton, *Agesilaus and the Failure of Spartan Hegemony*, 220–31.

9. حجم قوة طيبة وطول مدة الغزو هما محل جدال. انظر المناقشات في:

Swoboda, *Epameinondas*, 2687, 40.

تراوحت التقديرات القديمة ما بين خمسين ألف وسبعين ألف جندي، يضمون مشاة خفيفي التسليح وثقيلي التسليح، ومعهم وحدات مساعدة؛ وهذا العدد يمثل أكبر جيش في تاريخ الدولة–المدينة اليونانية. وللتعرف على عدد القوات الميسينية، انظر:

T. Figueira, "The Demography of the Spartan Helots," in *Helots and Their Masters in Laconia and Messenia: Histories, Ideologies, Structures*, ed. Nino Luraghi and Susan E. Alcock (Cambridge, MA: Harvard University Press, 2003), 193–239, and in the same volume, W. Scheidel, "Helot Numbers: A Simplified Model," 240–47.

ولعل ما زاد من حدة المشكلة هو وجود الأقنان (عبيد الأرض) في كل من ميسينيا ولاكونيا، وندرة المراجع والمصادر التاريخية، والخلاف بشأن أنماط الإنتاج الزراعي. ومن الجائز أن التقديرات القديمة، التي حددت عدد العبيد بما يقرب من 250 ألف شخص في ميسينيا، ربما جاءت أعلى مما ينبغي.

10. يرى ليدل هارت (B. H. Liddell Hart, *Strategy* [New York: Praeger, 1967], 34–37) أن غزو إيبامنونداس لميسينيا يعد أحد أول الأمثلة في التاريخ على ما يمكن وصفه بـ "المقاربة غير المباشرة". وفي تقدير هارت أن الطريقة المفضلة لتنفيذ أي استراتيجية كبرى تتمثل في تفادي تكبد

خسائر جسيمة في المعارك الضارية، والمتعاقبة غالباً، من خلال التفوق عددياً على جيوش العدو ومهاجمة بناه التحتية في عمق مواقعه الخلفية.

11. للاطلاع على وصف لتحرير الهيلوت helots وتأسيس القلعة المحصنة الجديدة في ميسينيا، انظر المرجع الحديث:

Nino Luraghi, *The Ancient Messenians: Constructions of Ethnicity and Memory* (Cambridge: Cambridge University Press 2008), 209–52.

يبين المؤلف أن الميسينيين لم يكونوا ربما على هذا القدر من الاختلاف الإثني واللغوي مع الإسبارطيين، وربما تشكلت الهوية الميسينية الواضحة الاختلاف تاريخياً قبل وبعد تحريرهم مباشرة على يد إيبامنونداس Epaminondas.

12. لمزيد من الأفكار حول التخطيط والفكر النافذ الذي تضمنه قرار إيبامنونداس باستمرار الزحف نحو ميسين بعد الفشل في عبور نهر يوروتاس واستهداف أكربول إسبارطة، انظر:

H. Delbrück, *History of the Art of War* (English translation by Walter J. Renfroe of Geschichte der Kriegskunst im Rahmen der politschen Geschichte), 4 vols. (Lincoln: University of Nebraska Press, 1990), 1:165–70; G. Roloff, *Problem aus der griechischen Kriegsgeschichte* (Berlin: E. Ebering, 1903), 11–59; and Hanson, Soul of Battle, 72–94.

13. للاطلاع على تحليل جيد لغموض زينوفون بشأن عبقرية معاصره الجنرال إيبامنونداس، انظر:

H. D. Westlake, "Individuals in Xenophon's *Hellenica*," in *Essays on the Greek Historians and Greek History*, 213–16 (Manchester, UK: Manchester University Press, 1969).

14. انظر:

Thucydides 6.18.3, in *The Landmark Thucydides*, ed. R. Strassler, trans. Richard Crawley (New York: Touchstone, 1996).

تجدر الإشارة هنا إلى أن أثيناغوراس Athenagoras، القائد السرقوسي الديمقراطي، وانطلاقاً من خشيته من انتشار شائعات تتحدث عن غزو أثيني محتمل لصقلية، عمل جاهداً على تعبئة أبناء سرقوسة ودفعهم باتجاه توجيه ضربة استباقية: «من الضروري معاقبة العدو، لا بسبب ما يفعله، بل استباقاً لما يعتزم فعله، ولو أن البادئ بالتهاون في حيطته وحذره قد لا يكون أيضاً أول من يتكبد المعاناة» (6.39.5).

15. يبادر هذا الطرف أو ذاك إلى شن هجوم استباقي بسبب إدراكه أن الطرف الآخر يتهدده بهجوم وشيك. وفي هذه الحال، يحسب البادئ بالهجوم أنه سيحظى بالأفضلية حين يكون صاحب الضربة الأولى، أو أن هذا - على أقل تقدير - أفضل من التنازل عن زمام المبادرة لصالح العدو. انظر:

D. Reiter, "Exploding the Powder Keg Myth: Preemptive Wars Almost Never Happen," *International Security* 20, no. 2 (Autumn 1995): 6–7. See also J. S. Levy, "Declining Power and the Preventive Motivation for War," *World Politics* 40, no. 1 (October 1987): 90; R. Schweller, "Domestic Structure and Preventive War: Are Democracies More Pacific?," *World Politics* 44, no. 2 (January 1992): 247; and G. H. Quester, "200 Years of Preemption," *Naval War College Review* 60, no. 4 (Autumn 2007): 16. There is a good historical review of the strategies in S. van Evera, "Offense, Defense, and the Causes of War," *International Security* 22, no. 4 (Spring 1998): 9.

16. Thucydides 1.118.2, 4.92.5.

لابد من القول مجدداً إن الحروب الاستباقية تـشن بنـاء عـلى حـدس بقـرب التعـرض لهجـوم وشـيك الوقوع. أما الحروب الوقائية فتتوقف على احتمالات حدوث تراجع نسبي في مكانة الدويلة المعنية. وإلى جانب مسألة دنو التحدي المحتمل، فإن التهديدات التي تتطلب ضـربات استباقية تكمـن في القـدرات الحالية للعدو؛ في حين أن المخاطر التي تستدعي ضـربات وقائية تكمـن في مـا يمكـن أن يحـصل عليـه الخصم من إمكانات وموارد مستقبلاً. وفي الوقت الذي يكون فيه صاحب الضـربة الوقائيـة غالبـاً هـو الطرف الأقوى، فإن من يبادر لتوجيه ضـربة استباقية هو الطرف الأضعف عادة.

17. انظر:

Thucydides 2.2 (Theban attack on Plataia), 4.92.5 (Pagondas's call to strike first).

للاطلاع على التاريخ المأساوي لمدينة ثيسبيا، انظر:

Victor Hanson, "Hoplite Obliteration: The Case of the Town of Thespiai," in *Ancient Warfare: Archaeological Perspectives*, ed. John Carmen and Anthony Harding (London: Stroud, 1999), 203–18.

18. للاطلاع على الجدل الـداخلي بـشأن ضــرورة الاسـتباق مـن عدمـه، والحـوافز الماليـة التـي قـدمها البيلوبونيزيون، انظر:

Buckler, *Theban Hegemony*, 70–76, and J. Roy, "Arcadia and Boeotia in Peloponnesian Affairs, 370–362 B.C.," *Historia* 20 (1971): 569–99; and in general, Xenophon *Hellenica* 6.5.9–20, and see 4.7.11; Diodorus 62–63; Plutarch *Agesilaus* 30.1; *Pelopidas* 24. 1–2; and Pausanias 9.14.2.

19. لا علم لنا عن تلك اللحظة بالذات التي تطور فيها وصول إيبامنونداس إلى مانتينيا، في شتاء 369 لـمساعدة الأركاديين، إلى جهد استهدف تنظيم حملة لاحقة تتجه جنوباً لمهاجمة إسبارطة في عقر دارها، والتوجه، من ثم، بعد فشله في اقتحام أكروبول إسبارطة، إلى ميسينيا لتحرير العبيد فيها وتأسيس مدينـة ميـسين. وبيـنما توحي لنا مصادرنا بوجود أسلوب محدد بعينه لصناعة القرار، وانعقاد مـؤتمر رسـمي للحلفـاء في مانتينيـا

تخلص فيه الطيبيون من مخاوفهم الأولية حيال المصاعب المادية التي تحول دون دخول لاكونيا، ففي أغلب الظن أن الطيبين قد أدركوا قبل دخولهم إقليم بيلوبونيز بأن بقاءهم هناك سيكون طويلاً، وقد يتجاوز الهدف الأصلي المتمثل في ضمان أمن التحصينات التي أنشأت حديثاً في مانتينيا.

20. لا يتوافر لنا إلا النزر اليسير جداً من معلومات عن الطريق الذي سلكته الحملة، أو طبيعتها، أو عدد الحلفاء الذين واصلت قواتهم سيرها حتى ميسين. وحول تأسيس هذه المدينة في عام 369 قبل الميلاد، انظر:

Carl A. Roebuck, *A History of Messenia from 369 to 146 B.C.* (Chicago: University of Chicago Press, 1941), 32–40; Christian Habicht, *Pausanias' Guide to Ancient Greece* (Berkeley and Los Angeles: University of California Press, 1985), 36–63.

21. حول الموقف "الليبرالي" الذي اتخذه إيبامنونداس المتمثل في السماح لدويلات إقليم بيلوبونيز المتحالفة للاحتفاظ بنظمها الأوليغاركية، وتفضيله عدم إقامة مواقع وحاميات عسكرية فيها، أو إنشاء اتحاد رسمي يضم حلفاء ديمقراطيين موالين لطيبة، انظر:

John Buckler and Hans Beck, *Central Greece and the Politics of Power in the Fourth Century BC* (Cambridge: Cambridge University Press, 2008), 137–39.

22. انظر:

Tearless battle: Plutarch *Agesilaus* 33.3–5.

للاطلاع على مسار تاريخ إسبارطة وانهيارها المستمر بعد تحرير الميسينيين، والانشقاقات التي جرت في صفوف البيريويكيين *perioikoi* والهيلوت helots، انظر:

Cartledge, *Agesilaos*, 384–85, 395–431.

23. انظر: Xenophon *Hellenica* 7.5.27; Diodorus 15.88.4.

24. بينما كان تدمير الأكروبول الإسبارطي أو الجيش الإسبارطي سيعد ميزة بالنسبة إلى طيبة، فربما عمل فقط على التعجيل بعملية كانت قد بدأت بالفعل؛ فقد بدأ هذا الدمار في معركة ليوكترا، وعززه غزو لاكونيا ومانتينيا، ووصل إلى ذروته من خلال هزيمة الجيش الإسبارطي مرة أخرى في مانتينيا.

25. ثمة جدل كبير بشأن مدى انخراط طيبة في بناء مدينتي مانتينيا وميجالوبوليس (وليس ميسين)، وهو يدور حول تضارب المعلومات الواردة في مصادرنا القديمة، وفحوصات الآثار التي أجريت على بقايا هذه التحصينات، في آن معاً. انظر:

Hanson, *Soul of Battle*, 424–25, n. 3; and especially J. Roy, "Arcadia and Boeotia in Peloponnesian Affairs, 370–362 B.C.," *Historia* 20, nos. 5–6 (4th Quarter, 1971), 569–99.

26. للاطلاع على ربط معاصـر بين غزو العراق وغزو صقلية، من خلال رؤية ثوكيديدس، انظر:

Victor Hanson, *A War Like None Other: How the Athenians and Spartans Fought the Peloponnesian War* (New York: Random House, 2005), 324, n. 1.

27. يقول ثوكيديدس عن مكامن الخلل التي تسببت في وقوع كارثة صقلية: «لم تخفق هـذه الحملـة جـراء سوء تقدير لقوة أولئك الذين جرى توجيهها ضدهم، وإنما بسبب الخطأ الذي ارتكبه أولئـك الـذين بعثوا بها بعدم اتخاذ أفضل ما يمكن من التدابير والإجـراءات لاحقـاً لمـؤازرة الـذين ذهبـوا في هـذه الحملة؛ بل آثروا بدلاً من ذلك إشغال أنفسهم في نزاعات شخصية مـن أجـل تـولي زعامـة الجماهـير وقيادتها. وهم بذلك لم يتسببوا في إيقاع الشلل بالعمليات القتالية الميدانية فحسب، بـل أثـاروا أيـضاً صـراعات أهلية في الداخل» (ترجمة كـراولي Crawley). وتأنيـب بيركلـيس للأثينيـين بـسبب عـدم جدية دعمهم للحرب وضعفه: «ما زلت أنا الرجل نفسه ولم أتغير؛ بل أنتم من تغير، لأنكم في واقـع الحال اتبعتم مشورتي حين لم يصبكم ضـرر، وانتظرتم حتـى حلـت الـشدائد بكـم كـي تعربـوا عـن ندمكم» (2.61.2).

28. للاطلاع على نفوذ الفلاسفة الفيثاغوريين في طيبة، ونفوذهم على الجنرال إيبامينونداس بصفة خاصة، انظر:

Nepos *Epaminondas* 15.2.2; Diodorus 15.39.2; Plutarch *Pelopidas* 5.3; Xenophon *Agesilaus* 25. And see Nancy H. Demand, *Thebes in the Fifth Century: Heracles Resurgent* (London: Routledge, 1982), 70–76, 132–35.

كان من رأي المؤرخ إيفوروس Ephoros أن هيمنة طيبة تعود أساساً إلى أعمال إيبامينونداس وبيبلوبيداس (Diodorus 15.79.2, 15.88.4)، وأنها تلاشت بموتهما. ولمعرفة الروابط المزعومة بين المحافظين الجدد والرئيس جورج دبليو بوش، انظر عموماً:

Jacob Heilbrunn, *They Knew They Were Right: The Rise of the Neocons* (New York: Doubleday, 2008).

29. لا يجب أن تغيب عن الذهن الكلمات المنقوشة على تمثال إيبامينونـداس الـذي أقـيم في طيبـة، والتـي تنتهي بعبارة «واستقلت اليونان بأسـرها ونالت حريتها» (Pausanias 9.15.6). وثمة مجموعة كاملة من النصوص القديمة التي تثبت إنجازات إيبامينونـداس، الأخلاقيـة والعـسكرية عـلى حـد سـواء، وارتباط الهيمنة التي تحققت لطيبة بزعامته الفذة. انظر، على سبيل المثال:

Aelian *Varia Historia* 12.3; Nepos *Epaminondas* 15.10.3; Plutarch *Moralia* 194C; Strabo 9.2.2.

للاطلاع على استعراض لنتائج غزوات إيبامينونداس في بيلوبونيزيا، انظر:

Hanson, *Soul of Battle*, 105–20.

ثمة جدل بشأن الأهداف النهائية لإيبامنونداس، التي توجد أسباب قوية للاعتقاد بأنها كانت تدعم وحدة اليونان، وتتجاوز المصالح الطيبية الضيقة. انظر:

George L. Cawkwell, "Epaminondas and Thebes," *The Classical Quarterly*, n.s. 22, no. 2 (November 1972): 254–78.

30. انظر تقييم بوكلر (Buckler (*Theban Hegemony*, 227، حول الحملات العسكرية التي قادها إيبامنونداس: «استطاع إيبامنونداس وبيلوبيداس، حتى بعد معركة مانتينيا، أن يجعلا من طيبة القوة الرئيسية في اليونان، وارتقيا بمدينتهما إلى مستوى رفيع لم يسبق لها مطلقاً أن بلغته من قبل، وربما لن تبلغه أبداً بعدهما، حتى بات تاريخ هيمنة طيبة وتسيدها يمثل إلى حد بعيد تاريخ إيبامنونداس وبيلوبيداس».

الفصل الخامس

1. .Diodorus 17.17.2; Justin 11.5.10

2. حول الإصلاحات التي طبقت على جيش فيليب الثاني، انظر:

Ian Worthington, *Philip II of Macedonia* (New Haven, CT: Yale University Press, 2008), 26–32; on Alexander's army, see A. B. Bosworth, *Conquest and Empire: The Reign of Alexander the Great* (Cambridge: Cambridge University Press, 1988), 266–77.

3. .Aristobulus, *FGrH* 139 F7 (Arrian 2.3.7); Plutarch *Alexander* 18.4

4. .Cf. Plutarch *Alexander* 27.3–6

5. .Diodorus 17.70

6. .Plutarch *Alexander* 38.6–7

7. .Q. Curtius Rufus 6.2.15–16

8. ملاحظة (Arrian 3.3.2) توحي بأن الإسكندر قطع الطريق الطويل والشاق إلى واحة سيوة في مصر لمحاكاة سلفيه بيرسيوس وهرقل.

9. .Diodorus 17.77.7; Q. Curtius Rufus 6.6.9–12

10. للاطلاع على إعادة تقييم لداريوس، انظر:

Ernst Badian, "Darius III," *HSCP* 100 (2000): 241–68.

11. انظر:

Ernst Badian, "The Administration of the Empire," *G&R2* 12 (1965): 166–82, and W. E. Higgins, "Aspects of Alexander's Imperial Administration: Some Modern Methods and Views Reviewed," *Athenaeum* 58 (1980): 29–52.

12. للاطلاع على التعيينات والتدابير الإدارية التي اتخذها الإسكندر، انظر:

Bosworth, *Conquest and Empire*, 229–41, and Badian, "Administration of the Empire," 166–82.

وفيما يخص التدابير التي اتخذها في الهند، انظر:

A. B. Bosworth, "The Indian Satrapies under Alexander the Great," *Antichthon* 17 (1983): 37–46.

13. Arrian 1.23.6.

14. Arrian 6.30.2–3.

15. لمزيد من التفصيل حول الإدارة المالية للإسكندر، انظر:

Bosworth, *Conquest and Empire*, 241–45.

16. Arrian 4.22.3.

17. Diodorus 18.4.4.

18. Cf. Diodorus 17.111.6.

19. للاطلاع على المدن التي أقامها الإسكندر، انظر:

P. M. Fraser, *Cities of Alexander the Great* (Oxford: Oxford University Press, 1996).

ويرى فراسر Fraser أنه باستثناء مدينة الإسكندرية في مصر، فإن الإسكندر لم يؤسس سوى 8 مدن.

20. للمزيد انظر:

A. B. Bosworth, "Philip II and Upper Macedonia," *CQ2* 21 (1971): 93–105.

21. يقول جستن (Justin 12.5.13) إن الإسكندر أسس 12 مدينة في باكتريا وسوغديانا، لكن جستن لم يسمِّها.

22. للاطلاع على التدابير الأمنية التي اتخذها الإسكندر الأكبر في مواجهة هجمات الإسكوثيين، انظر:

Arrian 4.1.3–4.

23. كُتب الكثير عن هذا الموضوع، لكن للاطلاع على مناقشات جيدة مناوئة لـ"وحدة البشر"، انظر:

Ernst Badian, "Alexander the Great and the Unity of Mankind," *Historia* 7 (1958): 425–44, and A. B. Bosworth, "Alexander and the Iranians," *JHS* 100 (1980): 1–21, citing previous bibliography.

24. See Bosworth, *Conquest and Empire*, 271–73.

25. Plutarch *On the Fortune or the Virtue of Alexander* 338d.

26. Metz Epitome 70.

27. انظر: Plutarch *On the Fortune or the Virtue of Alexander* 329b.

للاطلاع على مقومات الهيلينية المرتبطة بالتحدث باليونانية، انظر:

Herodotus 8.1442 and Thucydides 2.68.5, with J. M. Hall, *Hellenicity: Between Ethnicity and Culture* (Chicago: University of Chicago Press, 2002), 189–98.

28. انظر:

Ernst Badian, "Alexander the Great and the Scientific Exploration of the Oriental Part of His Empire," *Ancient Society* 22 (1991): 127–38.

29. Plutarch *On the Fortune or the Virtue of Alexander* 328b.

30. على سبيل المثال بشأن زواج كامبيسيس بأخته، انظر: Herodotus 3.32.4؛ وبشأن زواج الأبناء من أمهاتهم، انظر: Strabo 15.3.20. وانظر:

A. M. Schwarts, "The Old Eastern Iranian World View According to the Avesta," in *Cambridge History of Iran*, ed. I. Gershevitch, vol. 2 (Cambridge: Cambridge University Press, 1985), 656.

31. حول التضحية بالوالدين المسنّين، انظر: Herodotus 1.12؛ وحول استخدام بقايا الجثث، انظر: Herodotus 4.64.1–65.

32. Onesicritus, *FGrH* 134 F 5 (Strabo 11.11.3)

33. انظر:

C. B. Welles, "Alexander's Historical Achievement," *G&R2* 12 (1965): 216–28; quotation at 228.

34. Cf. Arrian 7.19.6.

35. Cf. Bosworth, "Alexander and the Iranians," 6.

الفصل السادس

1. ترد قصة بلاتيا في: Thucydides 2.1–5.

2. للاطلاع على لمحة عامة عن أحدث الدراسات بشأن الحروب اليونانية، انظر:

Sabin, van Wees, and Whitby, *The Cambridge History of Greek and Roman Warfare*.

3. Herodotus 5.100–101.

4. Xenophon *Anabasis* 5.2.7–27.

5. Diodorus Siculus 11.67.5–11.68.5, 11.73, 11.76, etc.

6. للاطلاع على لمحات عامة مفيدة حول تاريخ حرب المدن، انظر:

Ashworth, *War and the City*; Dufour, *La guerre*; Antal and Gericke, *City Fights*.

7. حول التحضر ومستقبل حرب المدن، انظر:

Desch, *Soldiers in Cities*, 3–5; Glenn et al., “People Make the City,” xiii; Joes, *Urban Guerrilla Warfare*, 2–3.

8. حول عنصر المفاجأة في مداهمة المدن، انظر: Rusch, “Poliorcetic Assault,” 824–32.

9. حول المعالم الأثرية لساحة المعركة في أولينثوس، انظر: Lee, “Urban Combat at Olynthos.”

10. Lintott, Violence, *Civil Strife, and Revolution*, Gehrke, *Stasis*.

11. Thucydides 3.70–85, 4.46–48.

12. Diodorus Siculus 13.104, 15.57; *Hellenica Oxyrhynchia* 15.2.

13. Arrian 1.7.1.

14. Thucydides 3.72–76.

15. Thucydides 3.34.

16. Diodorus Siculus 11.73–76.

17. Plutarch *Agesilaus* 32.

18. انظر:

Hansen and Nielsen, *Inventory of Archaic and Classical Poleis*, 4–153.

يقدم هذا المرجع لمحة عامة ممتازة عن "الدولة-المدينة"polis، وخصائصها.

19. Thucydides 4.69; Xenophon *Hellenica* 5.3.1.

20. Hansen and Nielsen, *Inventory*, 667–8.

21. حول الأسوار اليونانية والدولة-المدينة، انظر:

Camp, "Walls and the *Polis*"; Hansen and Nielsen, *Inventory*, 135–37.

22. Thucydides 2.4.5.

23. Xenophon *Hellenica* 6.5.9.

24. انظر:

On Mounichia, see Aristotle *Athenaion Politeia* 19.2, and Garland, *Piraeus*, 35–36; the Mouseion, see Camp, *Archaeology of Athens*, 166–67, 265.

للاطلاع على المدن التي يوجد فيها أماكن قوية متعددة، انظر:

Aristotle *Politics* 1330b5.

25. Plutarch *Dion* 41.

26. Herodotus 5.72.

27. Herodotus 5.101.

28. Arrian 1.7.1, 1.7.10.

29. حول الأسوار المتقاطعة، انظر:

Lawrence, *Greek Aims*, 148–55; Sokolicek, "Zum Phänomen."

30. Diodorus Siculus 16.11.2.

31. بوصف الأجورا مفتاحاً للمدينة، انظر:

Aeneas Tacticus 2.1, 3.5, 22.2; Arrian 1.8.6–7; Polyaenus. 5.5.1.

32. Herodotus 5.100–101.

33. Arrian 1.8.7.

34. Diodorus Siculus 13.104; *Hellenica Oxyrhynchia* 15.2.

35. Xenophon *Hellenica* 3.2.27–29.

36. Aeneas Tacticus 30.1–2.

37. Xenophon *Hellenica* 3.3.7.

38. Aeneas Tacticus 29.6.

39. Thucydides 3.27.

40. Aeneas Tacticus 3.5.

41. Xenophon *Hellenica* 2.4.24, 2.4.33.

42. Xenophon *Hellenica* 5.4.8.

43. Xenophon *Hellenica* 2.4.27.

44. Thucydides 4.48.

45. Xenophon *Hellenica* 6.5.9.

46. Diodorus Siculus 16.19.4.

47. حول تخطيط المدينة اليونانية، انظر:

Martin, *L'urbanisme*; Hoepfner and Schwandner, *Haus und Stadt*.

48. انظر:

Hoepfner and Schwandner, *Haus und Stadt*, 19–20; Cahill, *Household and City Organization*,. 21–2; Gill, "Hippodamus," 7–8.

49. Aristotle *Politics* 1330b6.

50. انظر: Aristotle *Politics* 1330b7.

للاطلاع على المزيد بشأن التخطيط الشبكي Hippodamian وتوصيات أرسطو، انظر:

Cahill, *Household and City Organization*, 15–18.

51. Thucydides 2.3; Aeneas Tacticus 2.1–6.

52. Xenophon *Hellenica* 2.4.11.

53. Xenophon *Hellenica* 2.4.12–19.

54. Cahill, *Household and City Organization*, 75.

55. لنظرة عامة على الهندسة المعمارية اليونانية المحلية، انظر:

Hoepfner and Schwandner, *Haus und Stadt*; Cahill, *Household and City Organization*.

56. يقدم باري (Barry, "Roof Tiles") مناقشة مستفيضة بشأن استخدام قرميد الأسطح في القتال في المدن.

57. Xenophon *Hellenica* 7.1.19.

58. Xenophon *Anabasis* 6.5.26–27.

59. Xenophon *Hellenica* 4.4.12.

60. Lee, "Urban Combat at Olynthos," 19–20.

61. Arrian 1.8.7–8; Diodorus Siculus 17.13.

62. Diodorus Siculus 16.20.3–4.

63. Isserlin and du Plat Taylor, *Motya*, 91–92.

64. Diodorus Siculus 16.76.2–3.

65. Plato *Laws* 779B.

66. Cahill, *Household and City Organization*, 29.

67. حول تضاريس إسبارطة، انظر:

Raftopoulou, "New Finds from Sparta," 127; Shipley, "Lakedaimon," 592; Waywell, "Sparta."

للاطلاع على الهجوم الذي حدث على إسبارطة في عامي 370–369، انظر:

Xenophon *Hellenica* 6.5.27–31.

للمزيد حول منطقة وسط مدينة إسبارطة، انظر:

Aeneas Tacticus 2.2. Plutarch *Agesilaus* 31.

ويصف بلوتارك خطأً إسبارطة بوصفها يوجد فيها أسوار في القرن الرابع قبل الميلاد.

68. بشأن هذه الأبنية الإسبارطية، انظر: Pausanias 3.14.6, 3.16.2, 3.20.2.

69. Aeneas Tacticus 2.2.

70. Xenophon *Hellenica* 7.5.11.

71. حول الانضباط، انظر: van Wees, *Greek Warfare*, 108–13.

للاطلاع على وضع الجنود المشاة حملة الرماح (الهوبليت) في المدن، انظر أيضاً:

Ober, "Hoplites and Obstacles."

72. Plutarch *Cleomenes* 21.

73. Lee, "Urban Combat at Olynthos," 15–16.

74. انظر:

Xenophon 2.4.10–20. On this battle, see also Diodorus Siculus 14.33.1–4; Krentz, *Thirty at Athens*, 90–92, 99–100.

75. Xenophon *Hellenica* 2.4.10.

76. Arrian 1.8.7.

77. انظر:

Athenian cavalry action: Pausanias 1.15.1. See also Habicht, *Athens from Alexander to Antony*, 74–75.

78. Plutarch *Pyrrhus* 32.

79. Camp, "Walls and the Polis," 47.

80. انظر:

"Walls of bronze and iron": Plato *Laws* 779b. Aristotle (Politics 1330b10).

وكتب أرسطو: «الادعاء بأن المدن لا تستحق أن تحاط بأسوار يشبه خلو المنازل الخاصة من الأسوار بحجة أن ساكنيها سيصبحون جبناء».

81. Krentz, "Strategic Culture," 62–65.

82. Krentz, "Strategic Culture," 168–70; Rusch, "Poliorcetic Assault."

83. Plutarch *Agesilaus* 31.

84. Polyaenus 4.2.18.

85. Gehrke, Stasis, 243–44; Polyaenus 8.68–70.

86. Thucydides 3.74.

87. حول فكرة الانتقام، انظر: Tritle, *From Melos to My Lai*, 121–2, 131.

88. Xenophon *Hellenica* 2.4.11.

89. Xenophon *Hellenica* 7.5.11.

90. Plutarch *Dion* 45.

91. لنظرة تاريخية أوسع حول عمل إينياس، انظر: Dufour, *La guerre*, 63–64.

92. للاطلاع على ترجمة لكتاب إينياس وتعليق عليه، انظر:

Whitehead, *Aineias the Tactician: How to Survive Under Siege*.

93. Aeneas Tacticus 19.1, 22.15.

94. Aeneas Tacticus 1.9, 2.1, 3.5, 22.2–4.

95. Aeneas Tacticus 39.1–2.

96. حول مقديشو، انظر: Bowden, *Black Hawk Dow*.

97. Lintott, *Violence*, 261.

98. Thuc. 1.22.

الفصل السابع

1. حول السكان، انظر العمل الحديث:

Walter Scheidel, "Demography," in *The Cambridg Economic History of the Greco-Roman World*, ed. Walter Scheidel, Ian Morris, and Richard Saller (Cambridge: Cambridge University Press, 2007), 45–49.

وللاطلاع على موجز مناقشات حول حجم الجيش، انظر:

Susan P. Mattern, *Rome and the Enemy: Imperial Strategy in the Principate* (Berkeley and Los Angeles: University of California Press, 1999), 82–83.

وللاطلاع على موجز مناقشات حول الضـرائب كحصة من الناتج المحلي الإجمالي، انظر:

Elio Lo Cascio, "The Early Roman Empire: The State and the Economy," in Scheidel et al., *The Cambridge Economic History*, 622–25.

وفيما يخص مستويات الكفاف ودخل الفرد يرى Jongman أن دخل الفرد الإجمالي كان نسبياً مرتفعاً في القدم، وإن كان شديد التدني بالمعايير الحديثة:

Willem M. Jongman, "The Early Roman Empire Consumption," in Scheidel et al., *The Cambridge Economic History*, 592–619.

بيد أن أجور العمال غير المهرة لا تقابل "مستويات الكفاف" لأسرة ما، حتى في حال عمل النساء والأطفال:

Walter Scheidel, "Real Wages in Early Economies: Evidence for Living Standards from 2000 BCE to 1300 CE," Version 1.0, March 2008, Princeton/Stanford Working Papers in Classics.

2. ماتزال الدراسة الكلاسيكية الآتية مهمة:

Ramsay MacMullen, *Soldier and Civilian in the Later Roman Empire* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1963). See also Benjamin Isaac, *The Limits of Empire: The Roman Army in the East*, 2nd ed. (Oxford: Clarendon, 1992), chaps. 3 and 6; Richard Alston, *Soldier and Society in Roman Egypt: A Social History* (London: Routledge, 1995), chap. 5.

3. حول موضوع "اكتساب الصفة الرومانية" الشائك، انظر:

Greg Woolf, *Becoming Roman: The Origins of Provincial Civilization in Gaul* (Cambridge: Cambridge University Press, 1998); Ramsay MacMullen, *Romanization in the Time of Augustus* (New Haven, CT: Yale University Press, 2000) (for the figure 200,000, 132); and see Alston, Soldier, chap. 3.

4. حول حجم الحكومة الرومانية، انظر:

J. E. Lendon, *Empire of Honour: The Art of Government in the Roman World* (Oxford: Clarendon, 1997), 2–4.

5. انظر:

Keith Hopkins, "Taxes and Trade in the Roman Empire (200 B.C.–A.D. 400)," *Journal of Roman Studies* 70 (1980): 101–25; Woolf, *Becoming Roman; Clifford Ando, Imperial Ideology and Provincial Loyalty in the Roman Empire* (Berkeley and Los Angeles: University of California Press, 2000).

6. حول هذه النقطة الأخيرة، انظر: Mattern, *Rome*, chap. 3.

7. انظر:

Thomas Pekáry, "*Seditio*. Unruhen und Revolten im römischen Reich von Augustus bis Commodus," *Ancient Society* 18 (1987): 133–50.

8. انظر:

Brent Shaw, "Bandits in the Roman Empire," *Past and Present* 105 (1984): 3–52.

وثمة مناقشة مستفيضة لها أدناه.

9. ما تزال الدراسة الأكثر أهمية بشأن الثورة اليهودية، هي:

Martin Goodman, *The Ruling Class of Judaea: The Origins of the Jewish Revolt against Rome*, a.d. 66–70 (New York: Cambridge University Press, 1987).

10. فيما يتعلق بالثورات، انظر:

Mattern, *Rome*, 100–104 and 191–94.

ويتفق الباحثون على أن مكان معركة تيتوبورج هو كالكرايز في سكسونيا السفلى. وحول هذا الحدث الذي أعدت بشأنه الكثير من البحوث، انظر:

Adrian Murdoch, *Rome's Greatest Defeat: Massacre in the Teutoburg Forest* (Gloucestershire, UK: Sutton, 2006).

11. انظر:

Isaac, Limits, chap. 2; Stephen Dyson, "Native Revolts in the Roman Empire," *Historia* 20 (1971): 239–74; see also Woolf, *Becoming Roman*, 30–33.

حول آراء الرومان، انظر:

Greg Woolf, "Roman Peace," in *War and Society in the Roman World*, ed. J. Rich and G. Shipley, 171–94 (London: Routledge, 1993).

12. انظر:

Stephen Dyson, "Native Revolt Patterns in the Roman Empire," in *Aufstieg und Niedergang der römischen Welt*, II.3, 138–75.

13. انظر:

False Neros: see Pekáry, "*Seditio*," under the years 69, 79–81, and 88–89 CE. Trajan's edict: Pliny the Younger *Letters* 10.34, and see 10.117. Christians: Pliny the Younger *Letters* 10.96.

14. حول الإبادة، انظر: Mattern, *Rome*, 120–21, 192–94.

وحول الحروب الانتقامية التي قادها جيرمانيكوس، انظر: Mattern, *Rome*, 90, 120, 189.

15. انظر:

Mutilation: Dio Cassius 53.29 (Spain). Deportation: Dio Cassius 53.29 (Spain). The Bar-Kokhba revolt: Dio Cassius 69.14.1, and see Mattern, *Rome*, 193–94. Calgacus's

speech: Tacitus Agricola 30. Polybius on how Romans sacked cities: 10.15–17. Josephus on the invincibility of the Romans: *Jewish War*, 2.365–87.

16. حول حجم الجيش الروماني وتفاني القوات، انظر: Mattern, *Rome*, 81–109.

17. انظر:

Richard A. Horsley, "The Sicarii: Ancient Jewish 'Terrorists,'" *Journal of Religion* 59 (1979): 435–58, quotation at 440.

18. Horsley, "Sicarii," 442–44; Josephus, *Jewish War*, 7.253–55.

19. انظر:

Shaw, "Bandits," 3–52.

وقد تأثرت هذه الدراسة وغيرها من الدراسات بشأن أعمال قطع الطرق في الحقبة الرومانية، تأثراً كبيراً بالعمل الكلاسيكي الآتي، ووصفه لها بـ"اللصوصية الاجتماعية":

Eric J. Hobsbawm, *Bandits*, first published in 1969 (4th ed., New York: New Press, 2000).

20. حول أعمال قطع الطرق في يهودا، انظر:

Isaac, *Limits*, 77–89, and idem, "Bandits in Judaea and Arabia," *Harvard Studies in Classical Philology* 88 (1984): 171–203.

ويجادل إسحق بخبث، استناداً إلى أدلة دينية يهودية، أن معظم أعمال قطع الطرق في يهودا كانت تستند إلى عنصر أيديولوجي أو سياسي يتمثل في مقاومة روما. وفيما يتعلق بالكهوف، انظر:

Isaac, *Limits*, 84–85.

وحول أعمال قطع الطرق في يهودا انظر أيضاً:

Brent D. Shaw, "Tyrants, Bandits and Kings: Personal Power in Josephus," *Journal of Jewish Studies* 49 (1993): 176–204.

وحول إقليم إيساوريا Isauria، انظر:

Brent D. Shaw, "Bandit Highlands and Lowland Peace," *Journal of the Economic and Social History of the Orient* 33, no.2 (1990): 199–233, and 33, no.3 (1990): 237–70.

وحول اللصوصية في مصر، انظر: Alston, *Soldier*, 81–86.

21. Hunting: e.g., Dio Cassius 75.2.4 (Shaw, "Bandits," 43), and see next note.

22. انظر:

Fronto *To Antoninus Pius* 8 (discussed in Shaw, "Bandits," 10–12).

وبشأن واجب الحاكم للقضاء على اللصوص، انظر:

Digest 1.18.13 (discussed in Shaw, "Bandits," 14).

وحول السفاحين المأجورين، انظر: Shaw, "Bandits," 16–18 with n. 35.

23. Shaw, "Bandits," 19.

24. Shaw, "Bandits," 37–38.

25. Suetonius *Augustus* 32 and *Tiberius* 37; Shaw, "Bandits," 33–34.

26. انظر:

Limits, 102–15; Alston, *Soldier*, 81–83. Shaw, "Bandits," 12 with n. 26. Mattern, *Rome*, 113–14. Shaw, "Bandit Highlands," 237–38.

27. للاطلاع على مصادر حول الأوامر العسكرية ضد اللصوص، انظر:

Shaw, "Bandits," 12–14 and n. 26.

وللاطلاع على مصادر ومناقشات للحملات التي قادها شيشرون، والمسجلة في رسائله، انظر:

Shaw, "Bandits," 14; idem, "Bandit Highlands," 223–26. Tacitus *Annals* 6.41, 12.55; Shaw, "Bandit Highlands," 230.

28. فيما يتعلق باستخدام عصابات المسلحين، انظر: Shaw, "Tyrants," 199–200. وحول التجنيد، انظر: Shaw, "Bandits," 34–35.

29. حول تاركونتيموتوس، انظر: Shaw, "Bandit Highlands," 226.

وفيما يتعلق بعبارة "الصداقة الشعائرية"، وهي أساس الجزء الأكبر من الدبلوماسية السابقة على الحداثة، انظر:

G. Herman, *Ritualized Friendship and the Greek City* (Cambridge: Cambridge University Press, 1987).

ويوضح شاو ("Shaw, "Tyrants) كيف أن مختلف أشكال الصداقة الشعائرية، عملت على التوسط في العلاقات بين الرومان وهيرود واللصوص والزعماء المحليين المتنافرين وغيرهم من الأطراف المتنفذة في يهودا في أواخر القرن الأول قبل الميلاد.

30. حول موريتانيا، انظر:

Brent D. Shaw, "Autonomy and Tribute: Mountain and Plain in Mauretania Tingitana," in *Désert et montagne au Maghreb: Hommage à Jean Dresch (Revue de l'occident musulman et de la méditerranée* 41–42 [1986]: 66–89); idem, *At the Edge of*

the Corrupting Sea: The Twenty-Third J. L. Myres Memorial Lecture (University of Oxford, 2006).

31. حول الجيش الروماني كقوة احتلال، انظر:

Isaac, *Limits*, chap. 3; Mattern, *Rome*, 101–4. See also Alston, *Soldier*, chap. 5;

يرى ألستون أن الجيش لم يؤدِّ دوراً فاعلاً في قمع حركات التمرد والعصيان، بل وجه جهده في المقام الأول لمكافحة أعمال قطع الطرق، والتعامل مع التهديدات الضيقة النطاق الأخرى. ويوضح بشكل مقنع أن الجيش في مصر كان يشكل ثقلاً استراتيجياً مضاداً لقدرات سوريا الكبيرة، التي أرادت بها التصدي لأي حركة تمرد تندلع هناك. وعلى حد علمي، فهو أول باحث يحاول إثبات أن احتمالات نشوب مثل هذه الحركات في المقاطعات المدججة بالأسلحة الثقيلة هي التي تحدد طبيعة استعدادات الجيش الاستراتيجية في المناطق الأخرى وطرق تنظيمه، وهو ما يبدو أمراً مرجحاً تماماً.

32. حول جيش يهودا، انظر:

Isaac, *Limits*, 105–7; on Mauretania, see Shaw, "Autonomy" and "On the Edge."

33. للاطلاع على مراجع بشأن التجنيد، انظر:

Mattern, *Rome*, 85; also Yann Le Bohec, *The Imperial Roman Army* (New York: Hippocrene, and London: Batsford, 1994) (= *L'Armée romaine sous le Haut-Empire* [Paris: Picard, 1989]), 68–102;

ويؤكد ألستون *Soldier*, chap. 3 على أن أفراد المواقع والحاميات العسكرية في مصر كانوا قد جُلبوا من جميع أرجاء المقاطعات الغربية في جميع الأوقات (رغم أن الأولوية كانت قد أعطيت لتجنيد الأفراد من إفريقيا بعد القرن الأول)، وأن المصادر والمخطوطات المصرية تتناقض مع فكرة اعتبار الجيش طبقة منغلقة لا تتفاعل إلا قليلاً جداً مع السكان الأصليين. وحول حجم الجيش الاحتياطي، انظر:

P. A. Holder, *Studies in the Auxilia of the Roman Army from Augustus to Trajan, British Archaeological Reports* (Oxford, 1980); A. R. Birley, "The Economic Effects of Roman Frontier Policy," in *The Roman West in the Third Century*, ed. A. King and M. Henic, British Archaeological Reports (Oxford, 1981), 1:39–43.

34. انظر:

Jonathan Roth, "Jewish Military Forces in the Roman Service," paper delivered at the annual meeting of the Society for Biblical Literature, San Antonio, Texas, November 23, 2004 (www.josephus.yorku.ca/Roth%20Jewish%20 Forces.pdf, accessed August 15, 2008).

35. Woolf, *Becoming Roman*, 240–41.

36. الدراسة الأساسية التي تعالج موضوع شـرق اليونان تتمثل في البحث القيّم الـذي أعـده في مجلـدين الكاتب إيريك جروين تحت عنوان:

Erich S. Gruen, *The Hellenistic World and the Coming of Rome* (Berkeley and Los Angeles: University California Press, 1984).

وربما كان هذا هو البحث الوحيد حتى اليوم الذي يولي اهتماماً كاملاً للدور الذي فرضته الـسياسات والمؤسسات المحلية في تحديد طبيعة "الإمبرياليـة" الرومانيـة. اعتقـد أن آليـات مـشابهة لتلـك التـي عرضها جروين كان لها تأثيرها في الحقب المتأخرة اللاحقة.

37. Shaw, "Tyrants," 196.

38. للاطلاع على تحليل بشأن الأحداث التالية ومجريات السلطة الشخصية والصداقة الـشعائرية، انظـر: Shaw, "Tyrants". وللتعرف على آليات السلطة الشخصية التـي طبقـت، فـإن العمـل التـالي يعـد مساهمة مهمة: Lendon, *Empire*.

39. للاطلاع على تاريخ موجز لحكم الرومان لليهود، بدءاً من وفاة هيرود، انظر:

Martin Goodman, *Rome and Jerusalem: The Clash of Ancient Civilizations* (New York: Knopf, 2007), 379–423.

40. للاطلاع على تعريف تاريخي جيد لصقلية في عهد الجمهورية، انظر:

R.J.A. Wilson, *Sicily under the Roman Empire: The Archaeology of a Roman Province*, 36 b.c.–a.d. 535 (Warminster, UK: Aris and Phillips, 1990), 17–32.

حول الضـرائب في صقلية، انظر:

Cicero *Against Verres* 2.3.13–15; also see Christopher Schäfer, "Steuerpacht und Steuerpächter in Sizilien zur Zeit des Verres," *Münstersche Beiträge zur antiken Handelsgeschichte* 11 (1992): 23–38.

عادة ما يشير شيشـرون إلى جامعي أو محـصلي الـضـرائب المحليـين بالمـصطلح "*decumani*"، وقـد سُموا كذلك لأنهم يجمعون عُشـر ناتج هيرو من محاصيل الحبوب كضـريبة؛ ويطلق عليهم "الموظف العمومي". ويشير شيشـرون إلى أحد ممثلي الشـركة الإيطالية التـي كانـت تجمـع ضــريبة الرعـي في صـقلية، واسـمها *Carpinatius*، بيـد أنـه لا توجـد أدلـة عـلى وجـود جهـاز بيروقراطـي، صـدّرته المؤسسات الإيطالية عدا هذا الفرد.

41. انظر:

Claudii Marcelli and Cicero: Cicero *Againt Verres* 2.2.8, 2.1.16–17, 2.2.122. *Socii atque i amici populi Romani, mei autem necessarii*: 2.1.15. Segesta and the Scipiones: 2.4.79–80. Syracuse and the Marcelli: 2.2.36, 50–51. Messana and Verres: 2.4.17–26.

42. حول حسن الضيافة *Hospitium* بين الأرستقراط الرومان والنخبة الصقلية، انظر:

Cicero *Against Verres*, 2.2.24, 83, 96, 2.3.18, 2.4.25, 49 Koenraad Verboven, *The Economy of Friends: Economic Aspects of Amicitia and Patronage in the Late Republic*, Collection Latomus 269 (Brussels: Éditions Latomus, 2002), 51, 58.

وحول هيوس حاكم ميسانا، انظر: Cicero *Against Verres* 2.4.18–19. وحول ستينيوس حاكم ثيرما، انظر: Cicero *Against Verres* 2.2.110; and 2.2.113، حيث يبرئ بومبي، وهو ضيف سابق آخر، ساحة ستينيوس. وستينيوس هو أيضاً ضيف شيشرون (Cicero *Against Verres* 2.2.227).

43. يطلق عليهم شيشرون، ومراجع أخرى كثيرة، Venerii، انظر مثلاً: *Against Verres* 2.3.61, 62, 65.
وفيما يتعلق بالمعبد، انظر: Wilson, Sicily, 282–84.
وبينما لم يكن هناك جيش "روماني" في صقلية، كان هناك سلاح بحرية صغير مملوك لصقلية.

Cicero *Against Verres* 1.13, 2.3.186.

44. للاطلاع على الأرستقراط الذين كانوا يحاكمون أعداءهم، انظر حالات:

Sopater (Cicero *Against Verres* 2.2.68–75) and Sthenis (2.2.83–118).

45. لمعرفة المدن التي كانت ترسل وفوداً إلى مجلس الشيوخ أو إلى أحد الرعاة. انظر:

Cicero *Against Verres* 2.2.10–11, 2.2.122.

46. Cicero *Against Verres*, 2.2.8, 2.3.67.

47. حول القبائل البدوية وعلاقاتها بالإمبراطورية الرومانية، توجد أعمال بحثية كثيرة، انظر:

Isaac, *Limits*, 68–77; Brent D. Shaw, "Fear and Loathing: The Nomad Menace and Roman North Africa," in *L'Afrique romaine: Les Conférences Vanier 1980*, ed. C. M. Wells, 29–50 (Ottawa: University of Ottawa Press, 1982); D. Graf, "Rome and the Saracens: Reassessing the Nomad Menace," in *L'Arabie préislamique et son environment historique et culturel*, ed. T. Fahd, 341–400 (Strasbourg: Université des Sciences Humaines de Strasbourg, 1989).

48. انظر:

Note recently Cullen Murphy, *Are We Rome? The Fall of an Empire and the Fate of America* (New York: Houghton Mifflin, 2007); Thomas Madden, *Empires of Trust: How Rome Built—and America Is Building—a New World* (New York: Dutton, 2008).

49. في ورقة لي مقدمة إلى مؤتمر بعنوان:

"Invasion: The Use and Abuse of Comparative History," University of Michigan, Ann Arbor, November 21, 2008.

الفصل الثامن

1. حول هذه المصطلحات، انظر:

Yvon Garlan, *Slavery in Ancient Greece*, rev. ed., trans. Janet Lloy (Ithaca, NY: Cornell University Press, 1988), 24, 87.

2. حول هذا الموضوع، انظر:

Karl-WilhemWelwei, *Unfreie in antiken Kriegsdienst*, 3 vols. (Wiesbaden, Germany: Steiner, 1974–1988); Garlan, *Slavery in Ancient Greece*, 163–76; and Peter Hunt, *Slaves, Warfare, and Ideology in the Greek Historians* (Cambridge: Cambridge University Press, 1998).

3. .Aristotle *Politics* 1269a36–b6

4. للمزيد، انظر:

Paul Cartledge, *The Spartans: The World of the Warrior-Heroes of Ancient Greece, from Utopia to Crisis to Collapse* (Woodstock, NY: Overlook Press, 2003), and his more detailed *Sparta and Lakonia: A Regional History 1300–362 BC*, 2nd ed. (London: Routledge, 2001); Nino Luraghi and Susan E. Alcock, eds., *Helots and Their Masters in Laconia and Messenia: Histories, Ideologies, Structures* (Washington, DC: Center for Hellenic Studies and the Trustees for Harvard University, 2003); Nino Luraghi, *The Ancient Messenians: Constructions of Ethnicity and Memory* (Cambridge: Cambridge University Press, 2008).

5. .Thucydides 7.27.5

6. .Thucydides *Hellenica Oxyrhynchia* 17.4

7. حول لمحة عامة عن حقبة حروب العبيد بين عامي 140 و70 قبل الميلاد، انظر:

Brent D. Shaw, *Spartacus and the Slave Wars* (Boston: Bedford/St. Martins, 2001), 2–14.

وللاطلاع على رواية أكثر تفصيلاً، انظر:

K. R. Bradley, *Slavery and Rebellion in the Roman World, 140–70 B.C.* (Bloomington: Indiana University Press, 1989).

8. .Appian *Civil Wars* 1.9.36

9. انظر:

See J. Vogt, *Ancient Slavery and the Ideal of Man*, trans. T. Wiedemann (Oxford: Blackwell, 1975), 40; Bradley, *Slavery and Rebellion*, 1–15; Peter Garnsey, *Ideas of*

Slavery from Aristotle to Augustine (Cambridge: Cambridge University Press, 1996), 75–86.

10. .(Constantine, Porphyrogenitus, Excerpt 4, p. 384 (Diodorus Siculus 34.2.38

11. .Appian *Civil Wars* 1.116.539

12. انظر:

Strabo 14.1.138, 34–35.2.26. See Kyung-Hyun Kim, "On the Nature of Aristonicus's Movement," in *Forms of Control and Subordination in Antiquity*, ed. Toru Yogi and Masaoki Doi, 159–63 (Leiden: Brill, 1986).

13. .Diodorus Siculus 2.55–60

14. انظر النقاش الحديث في:

Theresa Urbainczyk, *Slave Revolts in Antiquity* (Stocksfield, UK: Acumen Publishing, 2008), 31–34, 75–80.

15. حول الجوانب المتعلقة بفكرة الخلاص لثورات العبيد الرومانية، انظر:

N. A. Mashkin, "Eschatology and Messianism in the Final Period of the Roman Republic," *Philosophy and Phenomenological Research* 10, no. 2 (1949): 206–28, and P. Masiello, "L'ideologica messianic e le Rivolte Servili," *Annali della Facolta di lettere e filosofia* 11 (1966): 179–96.

16. انظر:

Athenaeus *Deipnosophistae* 6.266d.

المصدر القديم الوحيد هو أثينيوس الذي يُشتهر بالنقل من دون تمحيص:

Athenaeus, *Deipnosophistae* 6.265d–66d.

وللاطلاع على رواية حديثة، انظر:

Alexander Fuks, "Slave Wars and Slave Troubles in Chios in the Third Century BC," *Athenaeum* 46 (1968): 102–11.

17. انظر:

Diodorus Siculus 34.2.46, 36.4.4, with Jean Christian Dumont, *Servus: Rome et l'esclavage sous la république*, Collection de l'École Française de Rome 103 (Rome: École Française de Rome, Palais Farnèse, 1987), 263–64.

18. .(Enormous strength and spirit": Sallust *Histories* frag. 3.90 (my translation"

19. .Wife or girlfriend: Plutarch *Life of Crassus* 8.4

20. Plutarch *Life of Crassus* 8.4.

21. Claudian *Gothica* 155–56.

22. Aulus Gellius, *Attic Nights*, 5.6.20, trans. Shaw, *Spartacus and the Slave Wars*, 164.

23. نعتمد بشكل واسع على الملخصات البيزنطية للقرنين التاسع والعاشر بحسب ما جاء في ديودوروس الصقلي، الذي اعتمد بدوره بشكل كبير على الفيلسوف بوسيدونيوس Posidonius، انظر:

Thomas Wiedemann, *Greek and Roman Slavery* (London: Routledge, 1981), 199–200.

وحول نظرية الانتفاضة القومية الطابع، انظر:

G. P. Verbrugghe, "Sicily 210–70 B.C.: Livy, Cicero and Diodorus," *Transactions and Proceedings of the American Philological Association* 103 (1972): 535–59, and idem, "Slave Rebellion or Sicily in Revolt?" *Kokalos* 20 (1974): 46–60.

24. انظر:

Constantine Porphyrogenitus, Excerpt 4, 384f. (Diodorus Siculus 34.2.48) (Loeb translation).

25. انظر:

Photius Bibliotheca 388 (Diodorus Siculus 36.6.1) (Loeb translation). Slave Wars of Greece and Rome 205.

26. Appian *Civil Wars* 1.116.540 (my translation).

27. حول ثورة سيلوروس في صقلية، انظر: Strabo *Geography* 6.2.7.

وحول تمرد العبيد الناشئ في جنوبي إيطاليا في عام 24 للميلاد، انظر: Tacitus *Annals* 4.27.

وحول ما اعتُبر تمرداً للعبيد تحت قيادة بولا فليكس بإيطاليا في عامي 206 و207 للميلاد، انظر:

Cassius Dio *Histories* 77.10.1–7.

28. Augustus *Res Gestae* 25.

الفصل التاسع

1. Suetonius *Caesar* 30.4.

2. Pliny *Natural History* 7.92.

3. Cicero *Letters to Atticus* 7.11.

4. Plutarch *Sulla* 38.

5. للاطلاع على مناقشة بشأن المراحل الأولى لمسيرة قيصـر العملية، انظر:

Adrian Goldsworthy, *Caesar: The Life of a Colossus* (New Haven, CT: Yale University Press, 2006), 65–66, 148–50, 185; Christian Meier, *Caesar*, trans. David McLintock (New York: Basic Books, 1996), 99–189; and Mattias Gelzer, *Caesar*, trans. Peter Needham (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1968), 21–24, 28–29, 61–63.

6. Sallust *Catiline* 54.4.

7. انظر:

Peter Wiseman, "The Publication of the De Bello Gallico," in *Julius Caesar as Artful Reporter: The War Commentaries as Political Instruments*, ed. Kathryn Welch and Anton Powell, 1–9 (London: Duckworth and the Classical Press of Wales, 1998).

8. بشأن أهمية الأنهار، انظر:

David Braund, "River Frontiers in the Environmental Psychology of the Roman World," in *The Roman Army in the East*, ed. David Kennedy, JRA Supplementary Series 18 (1996): 43–47.

9. Caesar Gallic War 4.38.

10. انظر:

Plutarch Cato the Younger 51; Suetonius *Julius Caesar* 24.3; with Gelzer, Caesar, 130–32, and Meier, *Caesar*,282–84.

11. حول دبلوماسية قيصـر، انظر المناقشة الواردة في: Goldsworthy, *Caesar*, 315–17.

12. انظر على سبيل المثال مسيرة شيخ القبيلة، وإعدامه في نهاية المطاف، انظر:

Acco, Caesar *Gallic War* 6.4, 44.

13. Dio 40.41.1, 3.

14. Caesar *Gallic War* 8.49.

15. حول الشائعات، انظر على سبيل المثـال تقريـر كـاليوس إلى شيـشـرون في: Cicero *Letters to His Friends* 8.1.4.

16. بشأن الجيش في هذه الفترة، انظر:

F. E. Adcock, *The Roman Art of War under the Republic, Martin Classical Lectures* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1940); Peter A. Brunt, *Italian Manpower*,

225 bc–ad 14 (Oxford: Oxford University Press, 1971); Peter Connolly, *Greece and Rome at War* (Englewood Cliffs, NJ: Prentice-Hall, 1981); Emilio Gabba, *The Roman Republic, the Army and the Allies*, trans. P. J. Cuff (Berkeley and Los Angeles: University of California Press, 1976); Lawrence Keppie, *The Making of the Roman Army* (London: Batsford; Totowa, NJ: Rowman and Littlefield, 1984); Jacques Harmand, *L'armée et le soldat à Rome de 107 à 50 avant nôtre ère* (Paris: A. et J. Picard, 1967); and Richard Edwin Smith, *Service in the Post-Marian Roman Army* (Manchester, UK: University of Manchester Press, 1958).

17. حول الانضباط، انظر:

Suetonius *Caesar* 65, 67; Plutarch *Caesar* 17.

حول أهمية القائد كشاهد على سلوك أفراد الجيش، انظر:

Adrian K. Goldsworthy, *The Roman Army at War, 100 BC–AD 200* (Oxford: Clarendon Press, 1996), 162–63.

18. انظر على سبيل المثال حالة عميل شيشـرون المدعو ترِيباتيوس في:

Cicero *Letters to His Friends* 7.5, letters to Trebatius, *Letters to His Friends* 7.6–19; Cicero *Letters to His Brother Quintus* 2.15a, 3 for quotation; see also Gelzer, *Caesar*, 138–39; on plunder, see Catullus 29.

19. Suetonius *Caesar* 24.

20. حول الترقيات العسكرية للضباط السنتوريين، انظر:

Gallic War 6.40; Suetonius *Caesar* 65.1.

وحول أسلوب الضباط السنتوريين في القيادة وخسائرهم الفادحة، انظر:

Goldsworthy, *The Roman Army at War, 257–58*, see Caesar *Gallic War* 7.51, *Civil War* 3.99.

وحول المنافسة لإظهار الشجاعة الواضحة ونيل الترقية، انظر:

Gallic Wars 5.44, 7.47, 50; *Civil War* 3.91.

21. حول حامل نسـر الفيلق العاشـر، انظر: Caesar *Gallic War* 4.25. وحول معركـة سـامبر، انظـر: Caesar *Gallic Wars* 2.25.

22. حول سكيفا، انظر: Suetonius *Caesar* 68.3–4; Appian *Civil War* 2.60.

ويذكر Dio شخصاً يدعى سكيفيوس خدم مع القيصـر في إسبانيا عام 61 قبل الميلاد: Dio 38.53.3.

وحول معركة سكيفا (*CIL*10.6011) والتعليقات بشأنها في: J. Spaul, *ALA*^{2} (1994): 20–21.

للاطلاع على الوضع الاجتماعي للضباط السنتوريين ومستوياتهم التعليمية، انظر:

J. N. Adams, "The Poets of Bu Njem: Language, Culture and the Centurionate," *Journal of Roman Studies* 89 (1999): 109–34.

23. انظر:

Ronald Syme, *The Roman Revolution* (Oxford: Clarendon Press, 1939), 70, 78–79.

حول إعدام الجنود المارقين، انظر: Dio 43.24.3–4.

24. Suetonius *Caesar* 77, 86.

الفصل العاشر

1. انظر:

Edward N. Luttwak, *The Grand Strategy of the Roman Empire from the First Century A.D. to the Third* (Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1976).

2. انظر:

Ammianus Marcellinus 28.5, with further comment in Peter J. Heather, *The Fall of the Roman Empire: A New History* (London: Macmillan, 2005), 67–68.

3. انظر:

Ammianus 28.2, 29.6; Themistius *Orationes* 10.

هذه اللحظات ثابتة في الدراسات الأثرية:

James Lander, *Roman Stone Fortifications from the First Century A.D. to the Fourth,* B.A.R International Series 206 (Oxford, 1984); Sandor Soproni, *Der spätrömische Limes zwischen Esztergom und Szentendre* (Budapest: Akademiai Kiado, 1978); Constantin Scorpan, *Limes Scythiae: Topographical and Stratigraphical Research on the Late Roman Fortifications on the Lower Danube*, B.A.R. International Series 88 (Oxford, 1980).

4. .Ammianus 26.5, 27.1 .4

5. انظر:

John Drinkwater, *The Alamanni and Rome 213–496* (Oxford: Oxford University Press, 2007)

يرى الكاتب أن ما كان يقف وراء جميع العمليات العسكرية الرومانية التي جرت عند حدود إقليم الراين الأعلى هو رغبة الأباطرة الرومانيين على اختلافهم في اكتساب الهيبة والرفعة وليس المتطلبات

العسكرية البحتة. ولكني أعتقد أن هذا ينطوي على شيء من المبالغة في معالجة هذه النقطة. صحيح أن الألمان لم يكونوا أنفسهم (انظر أدناه) يشكلون تهديداً لوجود الإمبراطورية بأسرها، لكنهم يتحملون مسؤولية عدد من الغارات الكبيرة (انظر الهامش 20)، بل وكانوا من حين لآخر يهددون باقتطاع أراضٍ محلية تابعة للإمبراطورية الرومانية، كما جرى في خمسينيات القرن الرابع، مثلاً، بالنسبة لشريط من الأرض بعرض 50 كيلومتراً في وادي الراين. للاطلاع على مزيد من المقالات النقدية المحدودة – الأكثر إقناعاً كما أراها – لمقاربة لوتواك "العقلانية"، انظر:

J. C. Mann, "Power, Force and the Frontiers of the Empire," *Journal of Roman Studies* 69 (1979): 175–83; C. R. Whittaker, *Frontiers of the Roman Empire: A Social and Economic Study* (Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1994).

6. انظر:

Mann, "Power, Force"; see esp. Benjamin H. Isaac, *The Limits of Empire: The Roman Army in the East*, 2nd rev. ed. (Oxford: Oxford University Press, 1993), ix.

للاطلاع على المزيد من التعليقات، انظر:

Heather, *Fall of the Roman Empire*, chap. 2.

7. انظر:

L. Michael Whitby, *Rome at War AD 293–696* (Oxford: Oxford University Press, 2002).

وهذا المرجع يقدم تعريفاً جيداً بمسائل الجاهزية والقدرة على الحركة، انظر:

John F. Matthews, *The Journey of Theophanes: Travel, Business, and Daily Life in the Roman East* (New Haven, CT: Yale University Press, 2006).

8. ينبغي إعادة ترتيب حملات أباطرة حقبة الحكم الرباعي بالاعتماد إلى حد كبير على المراجع السردية المتناثرة هنا وهناك، والشواهد التي تتحدث عن أسماء الانتصارات التي ينسبونها لأنفسهم. انظر:

Timothy D. Barnes, *The New Empire of Diocletian and Constantine* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 1982).

المصادر الرئيسية لمنتصف القرن الرابع هي الجزء الأول من هذا العمل Anonymous Valesianus، ومن ثم الرواية الكاملة والمعاصرة له عن السنوات 354–378. وبالإمكان الاطلاع على تعليق عام ومناقشة أكثر تفصيلاً للنمط في:

Peter J. Heather, "The Late Roman Art of Client Management and the Grand Strategy Debate," in *The Transformation of Frontiers from Late Antiquity to the Carolingians: Proceedings of the Second Plenary Conference, European Science Foundation Transformation of the Roman World Project*, ed. Walter Pohl, Ian N. Wood, and Helmut Reinitz, 15–68 (Leiden: Brill, 2000).

9. قارن على سبيل المثال بين حملة القيصر جوليان عند حدود نهر الراين، وحملة أغسطس قسطنطين عند الدانوب الأوسط، وكلتا الحملتين حصلت في خمسينيات القرن الرابع الميلادي.

Ammianus 17.1, 6, 10, 18.2 (Julian); 17.12–13 (Constantius).

بيد أن النمط كان نفسه بالنسبة إلى فالنتينيان Valentinian عند نهر الراين في ستينيات وسبعينيات القرن الرابع (Ammianus 27.2, 10, 29.4)، وفالنس Valens عند الدانوب الأسفل في ستينيات القرن الرابع (Ammianus 27.5).

10. انظر:

Maureen Carroll, *Romans, Celts and Germans: The German Provinces of Rome* (Stroud, UK, 2001.

يعد هذا المرجع مرجعاً ممتازاً فيما يتعلق بالتأثيرات الضارة اقتصادياً لحملات الأباطرة المستمرة على الجماعات الجرمانية في فيسر Weser في القرنين الأول والثاني. ويتضح من (Drinkwater, *Alamanni*, 9) أن ألمانيا Alamannia شهدت تنمية اقتصادية ملحوظة في القرن الخامس بعد توقف الغارات الرومانية.

11. انظر:

Maximian: *Panegyrici Latini* 2 [10].7–10. Julian: Ammianus 17.1.12–13, 17.10, 18.2.15–19. Constantius: Ammianus 17.12.9–21.

12. للاطلاع على مزيد من المناقشات، انظر: "Heather, "Client Management.

13. انظر: Ammianus 17.12.9ff. حول الإعانات، انظر أيضاً: ".Heather, "Client Management. وحول التاريخ الأبعد مدى، انظر:

Johannes Klose, *Roms Klientel-Randstaaten am Rhein und an der Donau: Beitrage zu ihrer Geschichte und rechtlichen Stellung im 1. und 2. Jhdt. N. Chr.* (Breslau: Marcus, 1934).

14. ترد بعض الأمثلة على التجنيد القسري للأفراد في:

Ammianus 17.13.3, 28.5.4, 30.6.1, 31.10.17.

15. انظر: *Panegyrici Latini* 7 [6].10.1–7. وللاطلاع على مثال آخر من عام 366 انظر: sAmmianus 27.2.9.

16. E.g., Ammianus 17.1.12–13, 10.8–9, 18.2.19.

17. انظر: Limigantes: Ammianus 17.13.

نظّم مجلس الحكم الرباعي عمليات إعادة توطين واسعة النطاق، وخصوصاً بالنسبة إلى الفرنكيين والكربيين Franks and Carpi، انظر:

Erich Zollner, *Geschichte der Franken bis zur Mitte des sechsten Jahrhunderts* (Munich: Beck, 1970), and Gh. Bichir, *The Archaeology and History of the Carpi, trans. Nubar Hampartumian*, B.A.R. Supplementary Series 16 (Oxford, 1976).

أعاد قسطنطين توطين المزيد من السرمتيين في الإمبراطورية في ثلاثينيات القرن الرابع، انظر:

Anonymous Vaesianus 6.32.

حول شروط عمليات إعادة التوطين تلك، انظر:

Peter J. Heather, *Goths and Romans* 332–489 (Oxford, 1991), 4.

وعلى الرغم من جميع الاحتياطات، كانت عملية إعادة التوطين من وقت إلى آخر تفشل فشلاً ذريعاً:

Ammianus 19.11.

18. انظر:

Detailed report: *Die Alamannenbeute aus dem Rhein bei Neupotz*, ed. Ernst Küunzl, 4 vols. (Mainz: Verlag des Römisch-Germanischen Zentralmuseums, 1993).

يرد ملخص باللغة الإنجليزية في:

K. Painter, "Booty from a Roman Villa Found in the Rhine," *Minerva* 5 (1994): 22–27.

19. انظر:

Heather, Goths and Romans, 3. E. A. Thompson, *The Early Germans* (Oxford: Oxford University Press, 1965).

ويُظهر هذا المرجع مدى ندرة مثل تلك الترتيبات بشأن الحدود المفتوحة اقتصادياً.

20. حول إعدام الرهائن، انظر مرثيات الألمان الواردة في:

Ammianus 28.2.8–9. David C. Braund, *Rome and the Friendly King: The Character of Client Kingship* (London: Macmillan, 1984).

يستكشف هذا المرجع الدبلوماسية الثقافية الرومانية من منظور أعم، والتي لم تكن تكلل في النجاح في جميع الأوقات؛ إذ يبدو أن الشخصية الملكية القوطية التي أخذها قسطنطين رهينة في عام 332 كانت ردة فعلها سلبية إزاء هذه التجربة، حيث نصح ابنه بألا يتعامل على الإطلاق مع الرومان.

Ammianus 27.5.9, with Herwig Wolfram, *History of the Goths* (Berkeley and Los Angeles: University of California Press, 1988), 62ff.

ومن ناحية أخرى، تلقى أميانوس المساعدة من رهينة سابق، أحب التعليم الكلاسيكي أثناء وجوده في مهمة جاسوسية في الجبهة الفارسية. Ammianus 18.6.17ff.

21. انظر:

Macrianus: Ammianus 29.4.2–5; Vadomarius: Ammianus 21.4.1–6 (see also 21.3.5; 26.8.2); Vithicabius: Ammianus 27.10.3–4; Gabinus: Ammianus 29.6.3–5; leadership of Gothic Tervingi: Ammianus 31.5.5–8.

22. لمزيد من التفاصيل، انظر: Heather, "Client Management".

23. انظر:

Peter J. Heather, *Empires and Barbarians: Migration, Development and the Creation of Europe* (London: Macmillan, 2009), chap. 2.

24. Wolfram, *Goths*, 62ff.

25. انظر:

D. H. Green, *Language and History in the early Germanic World* (Cambridge: Cambridge University Press, 1998).

26. انظر:

Chnodomarius: Ammianus 16.12.60.

حول الفرقة العسكرية التي أجريت حفريات بشأنها في منطقة إيسبول موس، انظر:

Mogens Ørsnes, "The Weapon Find in Ejsbøl Mose at Haderlev: Preliminary Report," *Acta Archaeologica* 34 (1963): 232–48.

للاطلاع على مثال بشأن المواكب العسكرية والتعزيزات، انظر:

Peter Heather and John Matthews, trans., *The Goths in the Fourth Century*, Translated Texts for Historians (Liverpool: Liverpool University Press, 1991), 5.

27. Heather, *Empires and Barbarians*, 3.

28. للاطلاع على مدخل جيد، انظر:

L. Hedeager, "The Evolution of Germanic Society 1–400 AD," in *First Millennium Papers: Western Europe in the First Millennium*, ed. R.F.J. Jones, J.H.F. Bloemers, S. L. Dyson, and M. Biddle, 129–44, B.A.R. International Series 401 (Oxford, 1988).

29. انظر: Ammianus 17.12.9–11.

قارن بنوبات الغضب الشهيرة التي كانت تنتاب الإمبراطور فالنتينيان الأول Valentinian I، حينما لم يكن يلقى التبجيل الكافي من الرسل البرابرة. Ammianus 30.6.8.

30. Above note 20.

31. انظر: Drinkwater, *Alamanni*.

ويحاجج المرجع السابق بأن الألمان لم يكونوا يشكلون أي تهديد على الإطلاق، بيد أن وجهة النظر المتطرفة هذه تناقض وجهة النظر السائدة والمتطرفة أيضاً. وحول مخططات قبائل التيرفنجي القوطية، انظر: Heather, *Goths and Romans*, 3.

32. إن أحداث عام 376 موثقة توثيقاً جيداً في جملة مصادر، منها: Ammianus 31.3ff.

أما أحداث الفترة 405–410 فيتعين إعادة بنائها، وفي هذه المرة أيضاً فإن البناء الأكثر منطقية هو أن الحركة الثانية للهُون باتجاه الغرب كانت هي السبب الرئيسي للخروج إلى الأراضي الرومانية. انظر:

Heather, *Fall of the Roman Empire*, 4–5, with Peter J. Heather, "Why Did the Barbarian Cross the Rhine?," *Journal of Late Antiquity* (forthcoming, 2009).

ويتضمن المرجع السابق ردوداً على حجج من يسعون إلى الخروج بتفسيرات بديلة للغزوات على الغرب الروماني في الفترة 405–408.

33. كما يتضح هذا، على سبيل المثال، في الهزيمتين اللتين لحقتا، في العامين 386 و405، باثنين من قادة اللاجئين القوطيين، وهما أودوثيوس Odotheus ورادجيسيوس Radagaisus، اللذان حاولا شق طريقهما عنوة بنفسيهما عبر الحدود الرومانية. وهذه الأمثلة، وما صاحبها من تعامل "الإمبراطورية" بشكل شرس مع حملات الغزو الجماعية الأكثر نجاحاً، تؤكد أن هذه الفترة لم تشهد تحولات جوهرية في سياسات الرومان حيال العناصر الخارجية، مثلما حاول جوفارت Goffart إثبات ذلك. انظر:

Walter Goffart, "Rome, Constantinople, and the Barbarians in Late Antiquity," *American Historical Review* 76 (1981): 275–306.

34. انظر:

Visigoths: Heather, *Goths and Romans*, 6. Vandals-Alan alliance: Heather, Fall of the Roman Empire, 5–6.

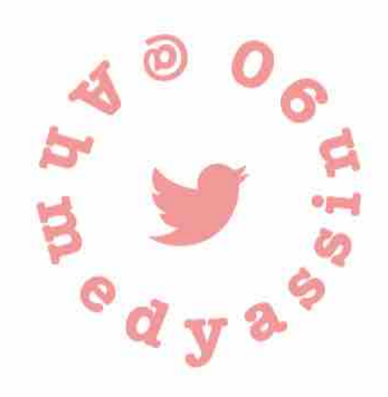
35. للمزيد حول الإمبراطورية الهونية ونشاطاتها، انظر:

Otto J. Maenchen- Helfen, *The World of the Huns*, edited by Max Knight (Berkeley and Los Angeles: University of California Press, 1973), and E. A. Thompson, *The Huns*, rev. ed., People of Europe Series (Oxford: Blackwell, 1995).

36. خضعت العملية لدراسة أكثر تفصيلاً، في:

Heather, *Fall of the Roman Empire*, chaps. 9–10.

37. Heather, *Empires and Barbarians*, esp. chaps. 2, 10, and 11.


@Ahmedyassin90

المشاركون

فيكتور ديفز هانسون؛ زميل أول مقيم في مجال الدراسات الكلاسيكية والتاريخ العسكري لدى معهد هوفر بجامعة ستانفورد، وأستاذ فخري في الدراسات الكلاسيكية بجامعة ولاية كاليفورنيا، في مدينة فريسنو Fresno. وهو أيضاً زميل متميز في التاريخ بكلية هيلسديل Hillsdale، حيث يتولى تدريس التاريخ العسكري والثقافة الكلاسيكية. قام بتأليف العديد من الكتب، ومن أبرزها:

A War Like No Other: How the Athenians and Spartans Fought the Peloponnesian War (Random House, 2005); *Carnage and Culture: Landmark Battles in the Rise of Western Power* (Doubleday, 2001); *The Soul of Battle: From Ancient Times to the Present Day, How Three Great Liberators Vanquished Tyranny* (Free Press, 1999); *Hoplites: The Classical Greek Battle Experience* (Routledge, 1993); *The Western Way of War: Infantry Battle in Classical Greece* (Knopf, 1989); *Other Greeks: The Family Farm and the Agrarian Roots of Western Civilization* (Free Press, 1995); and *Warfare and Agriculture in Classical Greece* (University of California Press, 1983).

ديفيد بيركي؛ أستاذ مساعد في قسم التاريخ بجامعة ولاية كاليفورنيا (فريسنو). وقد حصل على شهادة الدكتوراه في الدراسات الكلاسيكية والتاريخ القديم من جامعة ييل عام 2001، وعلى شهادة البكالوريوس في الدراسات الدولية من جامعة جون هوبكنز عام 1989.

أدريان جولدزورثي؛ زميل زائر بجامعة نيوكاسل. تلقى تعليمه في كلية سانت جونز كوليدج بجامعة أكسفورد. وكانت رسالته لدرجة الدكتوراه قد نشرت ضمن "سلسلة دراسات أكسفورد" بعنوان: *The Roman Army at War, 100 BC-AD 200*. كان زميل بحث مبتدئاً بجامعة كارديف، وأصبح لاحقاً أستاذاً مساعداً في "برنامج لندن" التابع لجامعة نوتردام. وهو متفرغ كلياً للكتابة والتأليف حالياً؛ ومن أحدث كتبه الكتابان الآتيان:

Caesar: The Life of a Colossus (Yale University Press, 2006); and *How Rome Fell: The Death of a Superpower* (Yale University Press, 2009).

بيتر هيذر؛ أستاذ تاريخ العصور الوسطى الأوروبية بكلية سانت كينجز كوليدج (لندن). ولد في مدينة لندنديري في أيرلندا الشمالية، وتلقى تعليمه في مدرسة ميدستون الثانوية، ونيو كوليدج في أكسفورد. وقد منحه قسم التاريخ بجامعة أكسفورد درجة ما بعد الدكتوراه؛ و يتولى منذ ذلك الوقت التدريس في الكلية الجامعة University College في لندن، وجامعة ييل، وكلية وورسستر في أكسفورد.

توم هولاند؛ مؤلف ثلاثة من كتب التاريخ التي قوبلت بثناء كبير. فقد نال أولها جائزة هاسل-تلتمان للتاريخ، ورشح لفترة قصيرة لنيل جائزة صاموئيل جونسون، وكان بعنوان: *Rubicon: The Triumph and Tragedy of the Roman Republic*. وفي عام 2006، فاز كتابه الثاني الذي يدور حول الحروب اليونانية-الفارسية، بجائزة رونسيمان التي تمنحها الرابطة الأنجلو-هيلينية، وهو بعنوان: *Persian Fire: The First World Empire and the Battle for the West*. وفي ربيع 2009، أصدر أحدث كتبه بعنوان: *The Forge of Christendom: The End of Days and the Epic Rise of the West*. وسبق أن قام بإعداد أعمال حول هوميروس، وهيرودوت، وثوكيديدس، وفيرجل، لصالح هيئة الإذاعة البريطانية (بي بي سي). ويعكف حالياً على ترجمة أحد أعمال هيرودوت بتكليف من سلسلة "كلاسيكيات دار بنجوين". ونال في عام 2007 جائزة الرابطة الكلاسيكية التي تمنح «لكل من بذل أقصى جهده لنشر وتعزيز لغة روما واليونان القديمة، وآدابها وحضارتها».

دونالد كاجان؛ أستاذ الدراسات الكلاسيكية والتاريخ في جامعة ييل. فاز بجوائز تدريسية في جامعتي كورنيل وييل، ومنح في عام 2002 وسام العلوم الإنسانية الوطني. وفي عام 2004، تم ترشيحه من قبل المؤسسة الوطنية للعلوم الإنسانية لمنصب محاضر كرسي جيفرسون. له مؤلفات منشورة منها كتاب من أربعة مجلدات عن تاريخ الحرب البيلوبونيزية، والكتابان الآتيان: *Pericles of Athens and the Birth of Democracy*

و *On the Origins of War and the Preservation of Peace*. كما شارك في تأليف الكتابين: *The Western Heritage* و *The Heritage of World Civilizations*.

جون لي؛ أستاذ التاريخ المساعد بجامعة كاليفورنيا في مدينة سانتا باربرا. حصل على درجة الدكتوراه في التاريخ من جامعة كورنيل. وهو مؤلف كتاب: *A Greek Army on the March: Soldiers and Survival in Xenophon's Anabasis* (Cambridge University Press, 2007). نشر أيضاً أعمالاً تدور حول مواضيع المرأة في الجيوش الإغريقية القديمة، والجيش الفارسي في أعمال هيرودوت، ويوميات الجنود القدامى. ويقوم في الوقت الحاضر بتأليف كتاب جديد يتقصى فيه واقع الحروب والثقافات التي شهدتها منطقتي شرقي بحر إيجة والساحل الشرقي لمنطقة الأناضول، ابتداءً من الثورة الأيونية (499–494 قبل الميلاد) حتى القرن الرابع قبل الميلاد.

سوزان ماتيرن؛ أستاذة التاريخ في جامعة جورجيا. نشرت أحدث كتبها حول الممارسات الطبية للطبيب اليوناني القديم جالينوس، استناداً إلى رواياته عن مرضاه، وجاء بعنوان: *Galen and the Rhetoric of Healing* (Johns Hopkins University Press, 2008). ولها كتاب: *Rome and the Enemy: Imperial Strategy in the Principate* (University of California Press, 1999). وشاركت في تأليف كتاب: *The Ancient Mediterranean World from the Stone Age to a.d. 600* (Oxford University Press, 2004). وتعكف حالياً على إعداد سيرة حياة الطبيب جالينوس.

باري شتراوس؛ أستاذ الدراسات الكلاسيكية والتاريخ بجامعة كورنيل، ورئيس قسم التاريخ فيها، إضافة لتوليه إدارة برنامج الحرية والمجتمعات الحرة. ألف ستة كتب، من بينها: *The Battle of Salamis* (الذي اختارته صحيفة واشنطن بوست كأحد أفضل الكتب لعام 2004)؛ و *The Trojan War: A New History*. ونشر أحدث كتبه في مارس 2009 بعنوان: *The Spartacus War*. ويقوم بتحرير سلسلة تصدرها جامعة برنستون عن تاريخ العالم القديم، وهو عضو في هيئات تحرير الدوريات التالية:

MHQ: The Quarterly Journal of Military History; Historically Speaking: The Bulletin of the Historical Society; and the *International Journal of the Classical Tradition*.

وهو حاصل على زمالة هينريش شليمان من المعهد الأمريكي للدراسات الكلاسيكية في أثينا، وزمالة المؤسسة الوطنية للعلوم الإنسانية لمدرسي الجامعات، وجائزة كلارك للتميز في التدريس من جامعة كورنيل.

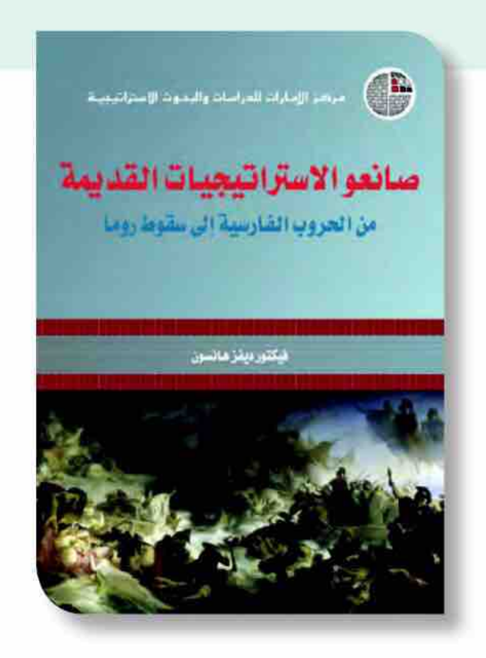
إيان وورثنجتون؛ أستاذ كرسي فريدريك ميدلبوش للتاريخ بجامعة ميسوري. وقد أمضى عشر سنوات مدرساً في قسم الدراسات الكلاسيكية بجامعتي نيو إنجلاند وتسمانيا في أستراليا. قام بتأليف (أو تحرير) أربعة عشر كتاباً وأكثر من ثمانين مقالة. واشتملت أحدث مؤلفاته على سيرة حياة الإسكندر الأكبر وفيليب الثاني، بالإضافة إلى الخطاب الإغريقي:

Alexander the Great: Man and God (Pearson, 2004); *Philip II of Macedonia (Yale Uni*versity Press, 2008); and *Blackwell Companion to Greek Rhetoric* (Oxford University Press, 2006).

ويعكف حالياً على تأليف كتاب عن ديموسثينيس Demosthenes، وتحرير كتاب: *The Blackwell Companion to Ancient Macedonia*، وتولي رئاسة تحرير دورية: *Brill's New Jacoby*. حاز في عام 2005 على "جائزة رئيس الجامعة" من جامعة ميسوري، لأبحاثه وجهوده الإبداعية البارزة في مجال العلوم الإنسانية، وعلى جائزة "الأستاذ الأكثر تأثيراً" من مجلس الطلبة الاستشاري في الجامعة في عام 2007.

صانعو الاستراتيجيات القديمة

من الحروب الفارسية إلى سقوط روما



تحرير: فيكتور ديفز هانسون*

الناشر: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية

سنة النشر: 2014 – عدد الصفحات: 364

الرقم المعياري الدولي للكتاب: 978-9948-14-947-7

....

عرض: بدر الدين دبسي**

* زميل أول مقيم في مجال الدراسات الكلاسيكية والتاريخ العسكري، معهد هوفر بجامعة ستانفورد.

** مترجم في مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية.

يركز هذا الكتاب على قادة ومخططين استراتيجيين مثل الملك الفارسي زركسيس الأول، وقائد أثينا بيركليس، وقائد طيبة إيبامنونداس، وقائد ثورة العبيد سبارتاكوس، والإسكندر المقدوني، وغيرهم. ويتناول الاستراتيجيات التي أدت إلى ازدهار الإمبراطوريات القديمة، والأسباب التي أدت أفولها أيضاً.

لقد ظهر هذا الكتاب عن صانعي الاستراتيجيات "القديمة" خلال ما يعرف بـ "الجيل الرابع للحروب" التي اعتمدت على التقنيات الحديثة. ومع ذلك، فالكتاب يرى أن دراسة التاريخ، وليس فهم الإنجازات والإبداعات التكنولوجية الحديثة، تبقى هي المرشد الأفضل لإدراك طبيعة الحرب العصرية وجوهرها. إن الطبيعة البشرية التي تثير الصراعات وتوجهها، تبقى ثابتة لا تتغير. والحرب تدار اليوم (وستدار دوماً مستقبلاً) من قبل الإنسان الذي يطغى الطابع العاطفي على أحكامه. وهذا الكتاب لا يذكّرنا فقط بأن الأشياء كلما ازدادت تغيراً، فإنها تتجه أكثر للبقاء على ما هي عليه، بل إنه يقيم الدليل على أن عالمي اليونان وروما القديمين يسهمان بشكل فريد من نوعه في مساعدتنا على فهم حروب أي عصر.

يركز توم هولاند في الفصل الأول على أول صدام حضارات كبير بين الشرق والغرب، والذي تجسّد في المحاولات التي بذلها الفرس أوائل القرن الخامس قبل الميلاد للاستيلاء على دويلات المدن اليونانية وضمها إلى إمبراطوريتهم المتنامية. ويرى هولاند أن هذه الأمور تعد ركناً أساسياً من أركان طبيعة النفس البشرية، ولا تخضع لمحددات ثقافية.

تصوير
أحمد ياسين